مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة تاريخ المغرب

تاريخ
شمال أفريقيا القديم

تأليف
اصْطيفان اڭصيل

ترجمة
محمد التازي سعود

HISTOIRE ANCIENNE
DE L'AFRIQUE DU NORD

Par Stéphane GSELL

الجزء الأول من ثمانية أجزاء

ظروف النماء التاريخي - الأزمنة البدائية
الاستعمار الفينيقي وإمبراطورية قرطاجة

الرباط، 2007

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

تاريخ
شمال أفريقيا القديم

تأليف
اصْطيفان اگْصيل

ترجمة
محمد التازي سعود

HISTOIRE ANCIENNE DE L'AFRIQUE DU NORD

Par Stéphane GSELL

الجزء الأول من ثمانية أجزاء

ظروف النماء التاريخي – الأزمنة البدائية
الاستعمار الفينيقي وإمبراطورية قرطاجة

الرباط، 2007

أكاديمية المملكة المغربية

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062

الرمز البريدي 10100

الرباط – المملكة المغربية

تليفون 75.51.46 (037) / 75.51.99 (037)

البريد الإلكتروني : **E-mail** : alacademia@iam.net.ma

فـاكْس 75.51.01 (037)

اسم الكتاب : **«تاريخ شمال أفريقيا القديم»**

أصله الفرنسي : "Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord"

تأليف : اصْطيفان اگْصيل Stéphane Gsell

ترجمه إلى العربية : محمد التازي سعود

التصفيف الضوئي : أكاديمية المملكة المغربية

السحب : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

الإيداع القانوني : 2007/1095

ردمك : 9981-46-052-4 (المجموعة)

ردمك : 9981-46-053-2 (الجزء الأول من ثمانية أجزاء)

محتويات أجزاء

كتاب "تاريخ شمال أفريقيا القديم"

لاصْطيفان اڭْصيل

تـصدير

كثيراً ما نـأسف لإفتقار اللّغة العربيّة إلى الترجمة منها وإليها، وكثيراً ما يفوتنا، بذلك، أن نطّلع على بحوث غيرنا وإبداعاتهم في مختلف حقول المعرفة. فالعارفون منّا باللّغات الأجنبيّة يقصدون آخر ما صدر بهذه اللّغات، يقرأونها أو يستعملونها مراجع في دراساتهم، أمّا غير العارفين فينتظرون الترجمة التي تصدر أو لاَ تصدر. بل إن كُتباً ظهرت بإحدى اللّغات الأجنبية منذ عشرات السنين، وشُهد لها بالتفوّق والمرجعية، لم تظهر بعدُ باللّغة العربيّة. وبقي محتواها غائباً عن قُرّاء العربية، وعن مستويات التعليم العليا كالجامعات وما شابهها. إنه فُصام معرفي يقسم المجتمع إلى شقّين ربّما لا يلتقي فيهما إلاّ من يتقن لغتين : اللغة العربيّة والأخرى.

لكل ذلك، ينبغي أن يتجه الابداع الفكري لا إلى التأليف وحده، ولكن إلى الترجمة كذلك، ترجمة ما كتب عنّا من قبل غيرنا. ولا يمكن أن نسترجع ماضينا على الخصوص، إلا بترجمة ما كتب عنه، ليتوفر لنا ما يمكننا به أن نؤلف. أجل ليس كل ما كتب من قبل الغربيين سليم من الترّهات والدسّ والخطإ ولكن علينا أن نواجه المادة المترجمة بعمليات المقارنة والنقد والترجيح وما إلى ذلك من المناهج العقلية.

ولم يفتنا كل ذلك ونحن نعقد العزم على إصدار هذا الكتاب الذي بين يدَيِ القارىء، مترجَماً من الفرنسية إلى العربيّة في ثمانيّة أجزاء، وهو من تأليف اصْطيفان اگْصيل، المشهود له بسعة العلْم بالتاريخ القديم، واستيعابه له من

خلال اللّغات القديمة التي يتقنها وتسعفه على الغوص في المصادر المتعدّدة اللغات. ولقد بذل فيه الأستاذ الدكتور محمد التازي سعود غاية جهده في ترجمته - رغم صعوبة موادّه - فجاءنا بأسلوب أنيق، مؤدٍّ للمعنى خير أداء، نستفيد منه عن قرون ما قبل الإسلام ما كان من أمر الحضارات الغابرة التي توالت على شمال أفريقيا والبحر المتوسّط.

وقد وافقت «لجنة الأعمال» التابعة للأكاديمية على طبع هذه الترجمة لكتاب: «تاريخ شمال إفريقيا القديم» الذي نحن بصدده. ونرجو أن نسدّ بهذه المبادرة الفراغ الذي يشكوه تاريخ منطقتنا فيما يتصل بالعصور القديمة، وأن يكون خير مُعين للدارسين والباحثين، واللّه وليّ التوفيق.

البروفسور عبد اللطيف بَربيش

أمين السرّ الدائم

لأكاديمية المملكة المغربية

الرباط، 5 صفر 1428

الموافق 23 فبراير 2007

مقدمة المترجم(*)

اصْطِفان اگْصيل Stéphane Gsell صاحب كتاب «تاريخ شمال إفريقيا القديم» (*Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*) ولد بباريس في 7 فبراير 1864، في أسرة بروتستانية، أصلها من مقاطعة الألزاس. وقد رُبّي الطفل في جوّ عائلي يغمره حب الأدب والفن، واشتهر عنه حدة الذكاء وقوة الفكر والمصاولة بالحجّة والبرهان. وفي سنة 1886 نال شهادة التبريز (Agrégation) في التاريخ.

(*) ترجمته بخطّ يده : محمّد بن محمّد التازي المعروف بلقب سَعود. المولود بفاس سنة 1920. تربّى فيها ودخل الكتّاب القرآني، ثم نُقل سنة 1927 إلى المدرسة الفرنسية العربية، حيث قضى سنتين قرّر بعدهما جدّه المرحوم عبد الرحمن أن يعيده إلى الكتّاب القرآني لعدم رضاه عن تلك «البلبلة» التي سمع حفيده يلغو بها وهو يحفظ أحد دروس المحادثة باللّغة الفرنسية. بعد ذلك تعدّدت للطفل مسالكه التعليمية من المدرسة الحرّة بالْمَخْفِية في فاس، ثم بالقرويّين حيث كان طالباً مستمعاً فحسب، فاختار الحضور بدروس الجلة من علماء النحو والبلاغة، وخلال كل ذلك لم يكن يهمل بداياته الأولى في اللغة الفرنسية فنمّاها بدروس خاصّة ثم انتسب إلى معهد الدروس المغربية العليا، فأقبل على الترجمة حتى نال دبلوم المعهد. واتضحت المسيرة أمامه في كلية الآداب فنال الإجازة في الأدب العربي ودبلوم الدراسات العليا والدكتوراه في التاريخ القديم.

عمل معلّماً في الابتدائي، ثم مدرّساً في الثانوي ثم أستاذاً جامعياً بكلية آداب الرباط من 1964 إلى 1973، وبفاس – ظهر المَهْراز حيث كان رئيساً لشعبة التاريخ ومديراً لشعبة تكوين المكوّنين، فزوّد الكليات الجديدة بأساتذة التاريخ.

وللأستاذ محمد التازي سعود، زيادة على عنايته بتاريخ أرض المغارب، مَلْحمة شعرية عن بعض الجوانب من حياة الجاهلية العربية إلى ظهور الإسلام بعنوان : «الملحمة العربية... قال الراوي» في نحو 15.000 بيت شعري. وهي مطبوعة. كما له مجموعات شعرية تبلغ 12 دفتراً شعرياً لم يطبع منها شيء حتى اليوم. وكذلك فإن محاضراته في التاريخ تنتظر منه أن يوليها العناية لتهذيبها وإخراجها للوجود.

فقد طغى عليه حبّه للتاريخ القديم، فاتجه إلى روما حيث انضم للمدرسة الفرنسية بها (Ecole française de Rome).

وأشهر أعماله بحثه عن "دولة دوميتيان" ثم "الأطلس الأركيولوجي للجزائر" ثم كتابه هذا عن "التاريخ القديم لشمال إفرقيا" في ثمانية أجزاء، زيادة على بحوثه المتعددة ومقالاته المتنوعة المنشورة في الصحف والمجلات.

وبالنسبة لي فعلاقتي بأصْطفان كْسيل قديمة ووثيقة. هي قديمة لأنني عرفته في كتابه واتصلتُ به فيه منذ سنة 1964، أي منذ أبت عمادة كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط إلاّ أن تسند إليّ تدريس التاريخ القديم عموماً، وتاريخ أرض المغارب على الخصوص. فوقعتُ في الضائقة الكبرى، لأن شمال إفريقيا ليس له تاريخ يمكن الرجوع إليه في اللغة العربية. وهنا اكتشفتُ اكْصيل واتصلت به اتصالا وثيقاً، حتى إنه ليصحّ أن يقال إنه كان لا يفارقني ليلاً ولا نهاراً. فكنت أبيت معه وأصحو عليه.

والكتاب ثمين جداّ، ولم يؤلّف مثله حتى الآن كتاب جامع. وقد كان مؤلّفه يريد أن يجعله الموسوعة الكاملة لتاريخ هذه الأرض حتى ظهور الإسلام. ولكن المنية عاجلته فانتهى الكتاب بنهاية الممالك الإفريقية سنة 40 م. والكتاب في حلّته الحالية يحتوي على الموضوعات التالية :

1 - الجزء الأول : ظروف النماء التاريخي – الأزمنة البدائية الاستعمار الفينيقي وإمبراطورية قرطاجة

2 - الجزء الثاني : الدولة القرطاجية

3 - الجزء الثالث : التاريخ العسكري لقرطاجة

4 - الجزء الرابع : الحضارة القرطاجية

5 - الجزء الخامس : الممالك الأهلية، نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.

6- الجزء السادس : الممالك الأهلية، حياتها المادية والفكرية والروحية.

7- الجزء السابع : الجمهورية الرومانية والملوك الأهالي.

8- الجزء الثامن والأخير : يولْيوس قيْصَر وأفريقيا، نهاية الممالك الأهلية.

وبهذا فالكتاب ثمين جداً، وبالغ الأهمية في بسط التاريخ القديم لشمال أفريقيا.

وبالطبع ليس كل ما يقوله اگْصيل مسلّماً، لأن الاكتشافات الأثرية قد طلعت إلينا بجوانب لم يعرض لها اگْصيل أو عرض لها بصفة مستعجلة، ثم إن الرجل كان ينظر لتاريخنا بمنظار أجنبي عنّا وعن أخلاقنا وعاداتنا في القديم (أنظر ما كتبتُه في "المُلحق"، ص 409)، ولهذا يصحّ أن يقال إنه في بعض الأحيان يخطئ في التقدير، أو يخطئ به فهمه للموضوع المدروس، ثم يجب أن لا ننسى أن الرجل عاش في حقبة ازدهار الاستعمار الفرنسي للشمال الإفريقي، فمن الطبيعي أن تمتلأ نفسه بكبرياء السيطرة الفرنسية. ومع ذلك – وبرغم هذه الجوانب المظلمة في الكتاب – فإنه يبقى الأساس، ويبقى المرجع الأول لكل ناظر في التاريخ القديم لشمال إفريقيا.

وقد هممتُ أن أتصدى لمناقص اگْصيل وأن أعرض لكتابه ناظرا في عمله على العموم، ومناقشا له في أخطائه، ولكنني عدلتُ في الأخير عن ذلك لسببين اثنيين، أولهما أن المهمة، وإن كانت شاقّة، ففي علمائنا الشباب اليوم من المؤرخين من سيقومون بذلك خير قيام، كما أرجو وأتمنى. والسبب الثاني هو أني فضلتُ إتمام ما توقف هو عنه قبل إتمامه بسبب وفاته. لذلك فإنني لما نفضت يدي من نقله هو إلى العربية، أوثقت نفسي إلى عربة شديدة الأسر والإصر. وهي أني أقبلت على ترجمة ما اخترتُه من الفرنسية من كتب التاريخ القديم لشمال أفريقيا لأتمم الحقب التي مات عليها اگْصيل إلى بدء ظهور الإسلام.

وهكذا قمتُ بترجمة أفريقيا الرومانية في ثلاثة بحوث عن مومْسِن الألماني، والْبِرْتيني، وشاپُو الفرنسيّين، وضممتُ البحوث الثلاثة في مجلّد واحد.

كما ترجمتُ إلى العربية "حرب يوغرطة" للكاتب اللاتاني كايوس كْريسبْوس سالوسْتيوس C.C. Sallustius. وهذا الكتاب نقلتُه عن ترجمة فرنسية لأنني لاأتقن اللاتنية، ثم كتبتُ مؤلَّفاً عن التانْجيتان أي موريطانيا الطنْجية في عهد يوبا الثاني وابنه بطليموس (25 ق.م – 40 م)، ثم نقلت إلى العربية عن الفرنسية كتاب "الونْداليون في إفريقيا" *(Les Vandales en Afrique)* بقلم كْريسْتيان كورْتوا Christian Courtois، وانتقلت إلى "إفريقيا البيزنطية"*(l'Afrique byzantine)* بقلم شارل ديهْل de Ch. Diehl فنقلته إلى العربية، ثم مددت يدي إلى جيروم كَرْكوپينو Gérôme Carcopino في كتابه "المغرب العتيق" *(Le Maroc antique)* فنقلته إلى العربية[1]. وبذلك ختمت السلسلة التي انتهت بكتابي "الإلمام في خلاصة تاريخ أرض المغارب قبل الإسلام" الذي أجملت فيه خلاصة تاريخ شمال أفريقيا إلى ظهور الإسلام. وهذا الكتاب قد تفضلت أكاديمية المملكة المغربية فطبعته مشكورة.

هذه النظرة العجلى على محتوى الأجزاء الثمانية من الكتاب، تملأ نفوسنا تقديرا لـ اكْصيل، العالم الذي استوعب فكره وقلمه موضوعه استيعابا دقيقا وعجيبا يستحق التقدير على مرّ الأيام. وسيجد القارئ كيف استطاع أن يتصدى في مؤلَّفه لجزئيات لا قبل لنا بها. ولا يسعنا إلا أن نكبر المؤلّف الذي استطاع الإلمام بكل هذه الجزئيات وتوضيحها توضيحا تاما وكاملا.

هذا، والقارئ اللبيب سيلاحظ أن الكتاب خِلْو من التعليقات والهوامش التي تصاحب الأصل الفرنسي. وإني أعترف أني، مع قيمة هذه الهوامش، لا أرى لها مجالاً لأن تترجم إلى العربية، ذلك لأن الهوامش كثيرة، وكلها مراجع وإحالات على أصول متعددة اللغات – أكثرها إغريقي أولا لاتاني – وأصبحت اليوم ضخمة العدد وكثيرة بما ظهر من البحوث في هذا المجال من عهد المؤلف إلى الآن،

(1) كل هذه الكتب ما عدا اصْطفان اكْصيل، مصفوفة في خزانتي تنتظر الفرصة للطبع والظهور والتقديم إلى القارئ.

بحيث لو صح أن نترجم ما ألحقه المؤلف بكتابه، ونضم إليها ما جد لضخم الكتاب ضخامة تستحيل على القارئ. ثم إن ترجمتنا إلى العربية قصدنا بها الأدباء والمتأدبين وحتى بعض المؤرخين مما يعسر عليهم الترجمة العربية.

وختاماً لا يفوتني أن أشكر أكاديمية المملكة المغربية التي تفضّلت بطبع هذا الأثر القيم.

فأشكر بصفة خاصة سيادة الدكتور عبد اللطيف بربيش أمين السرّ الدائم للأكاديمية، كما أشكر بصفة خاصة الصديق الجليل الدكتور أحمد رمزي الذي أشرف على هذا العمل حتى بدا في حلّته الأنيقة، وكذلك جميع العاملين الذين شاركوا فيه. فجزاهم الله خير الجزاء والسلام.

د. محمد التازي سعود

فاس، 27 محرّم سنة 1428

الموافق 15 فبراير 2007

الكتاب الأول

ظروف النماء التاريخي

الفصل الأول

المناطق الطبيعية للشمال الإفريقي

1

هذه المنطقة، التي نشرع في دراسة تاريخها القديم لغاية الفتح العربي، تمتد شمالا من مضيق جبل طارق إلى أقصى الشمال الشرقي لتونس، كما تمتد جنوبا من الأطلس الصغير إلى خليج قابس. وسنطلق عليها الاسم الاعتيادي وهو شمال إفريقيا، وإن كانت قد سُميت أيضا بأرض البربر، وإفريقيا الصغرى. وسنضيف لها - على وجه الإلحاق - ساحل سَدْرة، لأن هذه الحاشية الصحراوية كانت في عهود التاريخ القديم مرتبطة بالدولة القرطاجية ثم بإفريقيا الرومانية.

إن شمال إفريقيا عبارة عن شكل رباعي يحده البحر في غربه وشماله وشرقه، كما تحده الصحراء في جنوبه، فهو كالجزيرة المعزولة أطلق عليه العرب : اسم جزيرة المغرب. وهذه العزلة وحدها هي التي كونت وحدة البلاد، وإن كانت مع ذلك متكونة من عدة مناطق مختلفة.

2

منطقة الريف التي نجهل عنها الكثير تمتد بشمال المغرب، وتواجه البحر الأبيض المتوسط بساحل عسير المنال. وبالداخل تثنيات لا يبعد كثيرا بعضها عن بعض، وتسير بتتابع في موازاة الساحل. أما في القسم الشمالي الغربي من البلاد فإن هذه التثنيات تنعطف نحو الشمال لتكوّن مع جبال جنوب إسبانيا نصف دائرة كبيرة. كسرتها فجأة هوة المضيق التي هي حد سلسلة جبال قديمة غاصت في البحر. ثم إن وضعية التضاريس بالريف تمنع من تكوّن أنهار مهمة، ومع ذلك فالأمطار غزيرة بفضل مجاورة البحر وبسبب وجود الجبال العالية. ولهذا فالشعاب القصيرة الضيقة التي تحدد هذه المنطقة المضطربة والعسيرة المنال تصلح لغرس الأشجار وتربية الماشية وتصلح في بعض الأماكن لزراعة الحبوب. ويمكن أن تغذي عددا كبيرا من السكان يستطيعون الدفاع عن حريتهم.

وبشرق الريف يوجد مصبّ نهر مَلْوِية الذي كان مجراه الأسفل – على الأقل – ولعدة قرون حدا بين الممالك الأهلية، ثم بين الولايتين الرومانيتين.

وبجنوب الريف يوجد منخفض مستطيل الشكل، يتجه من الشرق إلى الغرب، ويساعد على وجود مواصلات سهلة بين الجزائر وساحل البحر الأطلسي. فبمسايرة أحد الروافد التي تصب في الضفة اليسرى لنهر مَلْوية يمكن الوصول عن طريق تازة إلى رافد يصب في الضفة اليمنى لنهر سبو Oued Sébou، النهر الذي ينتهي في المحيط. ومن الممكن أن تكون الحدود العسكرية الرومانية في موريطانية الطنجية قد مرت من هذه المنطقة.

أما في بقية المغرب فإن العمود الفقري هو الأطلس الأعلى. وتبتدئ هذه السلسلة عند المحيط، برأس گير Cap Guir، ثم تتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وتكوّن جدارا مرصوصا. وتصل القمم إلى4500 متر. وكذلك الممرات فإنها عالية وصعبة. ولا تأخذ هذه السلسة في التطامن والانحدار إلا بجنوب الوادي الأعلى لنهر مَلْوِية، فهناك تتجزأ وتفتح ممرات تمكن من الوصول بسهولة إلى الواحات الصحراوية بنهر زيز Oued Ziz، ونهر گير Oued Guir.

ويتصل الأطلس الأعلى – طوال قسم كبير منه – عند الشمال الشرقي بالتثنيات المتوازية التي تكوّن الأطلس المتوسط، أما عند الجنوب الغربي فإن سلسلة الأطلس الصغير تتصل بالأطلس الأعلى بواسطة السروة البُرْكان الضخم المنطفئ.

وفي الشمال والشمال الغربي للأطلسين الأعلى والمتوسط تمتد ابتداء من الساحل، منطقة ذات مظهر مائدي اقترحتْ تسميتها باسم البسائط المحاذية للمحيط Subatlantique أو باسم المِزيطا المغربية Méseta (لأن لها نفس المظهر الذي للمزيطا الإيبيرية، أي البسائط الوسطى الإسبانية). وهناك شق طويل يقسم هذه البسائط إلى سطحين يعلو أحدهما الآخر، حيث يبلغ ارتفاع الأول بمعدل 150 مترا، والثاني بمعدل 500 متر. وتخترق السطحين مجار عميقة لبعض الأنهار التي تتجه نحو المحيط والتي يبتعد بعضها عن بعض كأضلاع المروحة. ويضيق السطحان بالجنوب الغربي، ثم يتسعان بعد ذلك.

وأخيرا يختفيان بالشمال ليحل محلهما السهل الرسوبي لنهر سُبو Oued Sébou الذي تحيط به أرض من التلال والكُدى.

هذه المنطقة – طوال سواحلها، وعلى عمق بمعدل 70 كيلومترا – مروية على العموم بما يكفي من الأمطار التي تجلبها الرياح الغربية. فهنا توجد أحسن الأراضي، وخصوصا التربة السوداء التي أطلق عليها الاسم الأهلي : التيرْس Tirs، والتي لا يزال أصلها موضع نقاش كبير. وليس بهذا القسم من المغرب أشجار، لكنه على مساحات شاسعة صالح لزراعة الحبوب، كما أن به مراعي غنية للماشية الكبرى من خيول وثيران. ونظرا لأن عيون الماء بها قليلة جدا، فلابد للحصول على الماء الصالح للشرب من حفر الآبار العميقة أو تكوين خزانات للماء.

وتمتد بالخلف منطقة للبراري سبب جدبها قلة الأمطار أكثر مما سببته طبيعة الأرض، كما أن عمليات السقي بها صعبة بسبب ارتفاع الضفاف الوعرة للأنهار. وتُربّى هناك القطعان التي تضطر للرحيل أثناء الصيف.

وختاما، على ارتفاع معدله 600 متر، أي بسفوح الجبال التي تجلب الأمطار، والتي تحتفظ ثلوجها باحتياطي المياه إلى ما يقارب نهاية الربيع، يوجد العديد من عيون المياه التي يمكن استعمالها في السقي وفي نماء البساتين الجميلة، إذ هناك نطاق من الحدائق يحيط بالمدن والقرى التي قامت في هذه الناحية العالية ذات المناخ المعتدل الصحي.

ويكوّن الأطلسان الأعلى والمتوسط حاجزا يوقف السحب المحملة بالماء. فالحياة إذن خلف هذه الجبال لا تمكن إلا عند الأنهار المنبعثة منها، والتي يستعمل ماؤها في سقي المزروعات.

وعلى ساحل المحيط بين الأطلسين الأعلى والصغير يخترق نهر سوس Oued Souss – على طول نحو 200 كيلومتر – سهلاً ضيقاً وعراً جداً.

وهو سهل قاحل باستثناء نطاق من البساتين المصاحبة للنهر الذي تستعمل جميع مياهه في السقي.

أما النهران زيز Oued Ziz وگير Oued Guir وسواهما من المجاري المائية التي تنضم إليهما، فإنها تنبع من الوجه الجنوبي للسلسلة الأطلنطية، وتأخذ طريقها لتروي في قلب الصحراء سُبحة من الواحات التي تكون تَافِلَلْت أجملها. وفي جهة الغرب يوجد نهر دَرْعَة Oued Drâa الذي يسير في أول الأمر موازيا تقريبا لهذه الأنهار، ثم ينعطف فجأة إلى الغرب ويمتد مجراه إلى المحيط خلال الصحراء. وتقوم الواحات على ضفاف الأنهار الرافدة لوادي دَرْعة، وكذلك على ضفاف الأنهار التي تنبع من الأطلس الصغير محاولة الانضمام لدَرْعَة. ويحتفظ باطن الأرض ببعض النداوة حتى خلف منعطف النهر. ولذلك يمكن القيام ببعض الزراعات الهزيلة في مهاده العريض.

3

وتشتمل الجزائر بطولها كله على منطقة وسطى هي منطقة السهول الكبرى الواقعة على علو مرتفع، كما تشتمل في الجنوب والشمال على منطقتين مضطربتين جدا. ففي الجنوب توجد مجموعة الجبال المتجهة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي : المكوّنة للأطلس الصحراوي. وفي الشمال يمتد التل بسعة معدلها 100 كيلومتر. ولفظ التلّ عربي، وليس تِلّوس Tellus اللاتانية بمعنى الأرض الصالحة للزراعة.

وتكسو التل سلسلات مضطربة من الجبال التي تكونت في عهود جيولوجية مختلفة. فهي في الناحية الغربية تسير من الجنوب الغربي إلى

الشمال الشرقي، ثم تتجه من الغرب للشرق في الناحية الشرقية إلى ما يقارب عنّابة، حيث يحدث انفصال ظاهر بوجود السهل الوطئ لنهر سيبوس. ويصعب جدا ترتيب التشويش الحاصل في جبال التل.

على أن السيّديْن بِرْنار وفيشور Bernard et Ficheur قد حاولا ذلك في بحث لهما، استفدنا منه كثيرا في خط هذه العجالة عن الجزائر.

فالساحل ينتهي ببقايا مبعثرة هنا وهناك من هضبة عتيقة مكونة من النايْس Gneiss والشيستْ Schistes، قامت بجنوبها سلسلة كَلْكيرية. وهذه الهضبة التي كانت تغطي قسما من المساحة التي يحتلها اليوم البحر الأبيض المتوسط، قد غرقت تقريبا كلها تحت مياهه. أما خليج بِجايَة فهو هوة أحدثها هذا الانهيار الذي وقع في عهد البِلْيوسين وصاحَبه ظهور البراكين على جنبات الهوة.

وخلال بقايا هذه الهضبة، بجوار البحر مباشرة، توجد بعض السهول الوطيئة ذات الاتساع الكبير، ولكن القدامى لم يستطيعوا الاستفادة منها كما يجب. فالسهل الممتد جنوب وَهْران وجنوبه الغربي شوّهه وجود منخفض مسدود، وصار عقيما بسبب ملوحة الأرض، ذلك أن المياه تنتزع الملح من مراكزه بجنبات السهل وتجري به فيتجمع في البحيرة. وبعيدا إلى الشرق يجتمع نهران كبيران هما السيغ Sig والهَبْرة Habra ويكوّنان في سهل المقْطع Macta مستنقعات تغطيها الرسوبات شيئا فشيئا. وفي العهود العتيقة لم يكد أغلب هذه التربة الندية يكون صالحا للزراعة، حيث إننا لا نجد خرائب أثرية سوى على الحد الجنوبي لهذين السهلين أي على طول الطريق التي يظهر أنها كانت لمدة قرن ونصف من الزمان، حداً للإمبراطورية الرومانية. ومن وراء مدينة الجزائر فإن متيجَة التي صارت مزدهرة جدا بالاستعمار

الفرنسي، قد كانت من قبل خليجا ثم تحولت إلى بحيرة يفصلها عن البحر خط من التلال كما ملأتها شيئا فشيئا مجروفات الأنهار الآتية من الجنوب. ولا يزال جريان المياه بها غير تام. والغالب على الظن أن وسط السهل كان به مستنقعات أثناء القرون المسيحية الأولى، لأننا لا نعثر على خرائب الآثار الرومانية إلا بجنبات مَتيجَة أي بسفوح الجبال التي تحيط بها من جميع الجهات. أما في أقصى الشرق الجزائري فهناك سهل آخر كبير يمتد خلف عنّابة قريبا من البحر الأبيض المتوسط، وهو أيضا تحتل المستنقعات قسما منه.

ومن بين الأراضي الجبلية التي تحفّ الساحل، توجد الظهرة التي يحدّها جنوبا وادي شلْيف. وهي نجود عارية صالحة لزراعة الحبوب، بها عيون ثرة، وسلسلات جبلية تحيط بعدة من الشعاب التي استثمر القدامى أكثرها خصوبة. وبشرق الظهرة منطقة مَلْيانة، وتربتها من الشيسْت، وهي كثيرة الشعاب، عقيمة على العموم، مع وجود بعض المراعي الهزيلة في فجوات الغابات وبعض الأمكنة التي يمكن استعمالها في الزراعة بسفوح الجبال.

أما بلاد القبائل الكبرى فيكونها في الوسط، نجد من الأراضي القديمة من النايس والشيسْت والميكاشيست Micaschistes، كما تنتهي عند الجنوب بالسلسلة الكلكيرية لجبال الجُرْجرة Djurdjura ذات القمم المسننة التي تبلغ أعلى قمة بها 2300 متر. وهناك شعاب وعرة الأجراف تقطع النجد «وتكوّن هوات حقيقية بين القبائل التي تتوج قراها العديدة أعالي الجبال». وإذا كانت التربة قليلة الخصب، فإن المياه هنا كثيرة بسبب التكاثف المتولد عن الارتفاع العالي وبسبب الاحتياطي من الثلوج التي تحتفظ بها جبال الجرجرة إلى شهر ماي. والأرض هنا أرض

أشجار ولابد أن عدد السكان بها كان كثيرا في عهود التاريخ القديم. ولكن يظهر أن الاستعمار الروماني لم يقتحمها. ويمتد في الشمال، باتجاه الغرب للشرق، شِعب نهر سْباو Sebaou الصالح لزراعة الحبوب، وبين هذا النهر والبحر تمتد سلسلة من الحجر الرملي تقوم في سفوحها خرائب المدن على طول الساحل. وكذلك الزاوية الشرقية من بلاد القبائل فإنها من الحجر الرملي الذي يحمل غابات جميلة من أشجار السنديان.

أما ساحل البحر الأبيض المتوسط، بشرق بلاد القبائل الكبرى حتى قرب عنّابة، فإن جميعه يكاد يتكون من هضاب كثيرة الاضطراب بحيث لا تجد فيها الأنهار سبيلها إلا بصعوبة. فالحجر الرملي يغطي ساحات شاسعة تكسوها غابات جميلة من السنديان. أما الأراضي فهي من التربة الصوانية التي لا تساعد على زراعة الحبوب إلا في الشعاب، التي هي فوق ذلك ضيقة، والتي حطت فيها الرسوبات الطينية. ولكن نظرا لارتفاع هذه المنطقة ولحسن تعرضها للرياح البليلة، فإن الأمطار تنعش بها مراعي جميلة وحدائق يانعة حول عيون كثيرة من الماء. ويظهر أن هذه المنطقة كانت، في غير الغابات، آهلة بالسكان في العهود العتيقة. وهناك داخل التل والشعاب والسهول العليا، نجود تفصل أو تقتحم السلسلات الجبلية.

ومن شرق نهر ملوية إلى ما بعد مدينة مُعَسْكر تسير في تتابع عدة من السهول التي يبلغ معدل ارتفاعها 400 متر. فسهول الأنجاد التي هي جزء من المغرب جافة وقاحلة. بينما التي تمتد شمال تِلِمْسان ولا موريسْيير Lamoricière (أولاد ميمون) كان حظها أحسن. فسَهل سيدي بلعباس تكسوه تربة خفيفة قابلة للتفتت، وتحتوي جزيئات من فُسْفاط الكلْس. وهي ليست بحاجة إلى الكثير من الماء لتعطي غلات جمة.

والحق أن الأمطار الموزعة بانتظام لا تكاد تبلغ ارتفاع 40 سنتمترا في سيدي بلعباس. أما سهل أكريس Egris الذي توجد مدينة معسكر بشماله فحظه من الأمطار أقل، وتكون تربته كذلك أقل جودة، الأمر الذي جعل قيمتها الزراعية ضئيلة.

وتنتهي هذه السهول عند الجنوب بسلسلة من المصطبات الكبيرة المكونة من الحجر الرملي والدولومي Delomies والكلكيري كما تنبع من هذه المنطقة الوعرة أنهار مهمة إلى حد ما، فتخترقها وتتجه نحو الشمال مارة بخوانق وشعاب ضيقة. ثم تظهر فجأة بالأراضي المنبسطة ولبعضها شلالات. أما عيون الماء الكثيرة الموجودة بحاشية السهول فتمكن من إنشاء الحدائق الجميلة. وتلمسان التي أحسنت الوقوع على ارتفاع يتعدى 800 متر، واتجهت للبحر تستقبل نسماته المنعشة، واحتمت بالمرتفع الذي أسندت ظهرها إليه من رياح الجنوب الحارة، كانت تسمى في العهد الروماني باسم بوماريا Pomaria (أي الحدائق). ولعل هذا الاسم له ما يبرره حتى اليوم. وتغطي المصطبات غابات عريضة وإن كانت غير متصلة، ثم هناك بعض النواحي ذات التربة السجيلية Marneuses الصالحة للزراعة. وقد كان خط الحدود الذي أنشأه الرومانيون حول بداية القرن الثالث يساير الأطراف الشمالية لهذه الأراضي العالية، يمر بمَغْنِية وتلِمْسان وأولاد ميمون Lamoriciére وسيدي علي بن أيوب Chanzy ثم يسير عندها فيمرّ بسيدي عمار Franchetti وتَغَرْمارت وفرندة، ويخترق في قسم من مسيره بعض الأراضي الخصبة. ومن وراء هذا الخط نفسه كانت جموع كثيرة من السكان – أثناء العهود العتيقة أو التي تلتها – قد استقرت فوق الأراضي الصالحة للزراعة، وخصوصا حول مدينة سعيدة.

ونهر شليف النابع من الأطلس الصحراوي، يخترق السهول العليا بموسطة الجزائر، وبعدما يتصل بأحد أنهار البحر الأبيض المتوسط يدخل منطقة التل عند البخاري، ثم لا يلبث أن ينعطف نحو الغرب ويحافظ على هذا الاتجاه حتى البحر. ويكون الشعب الذي يجري فيه النهر منخفضا طويلا بين مرتفعات ملْيانة والظهْرة بالشمال وسلسلة الونْشَريس بالجنوب. وبهذا المنخفض كانت تمر طريق عسكرية رومانية، لاشك أنها أحدثت بعد الاستيلاء مباشرة على موريطانية، وأنها وسعت حركة الاستعمار. على أن هذا الشعب ليس ممرا واسع الانفتاح : فهناك خوانق تكونها التلال وتقسم الشعب إلى ثلاثة أقسام : سهل الجندل - سهل عطّاف وسهل الأصنام وواد غيو Inkermann والأراضي هنا ذات تربة غرينية، كثيفة وعميقة وكثيرة الخصوبة إذا رُويت. غير أن حاجز الظهرة يوقف الأمطار التي غالبا ما تقل كمياتها عن أن تضمن المحاصيل الوافرة من الحبوب، والتي تنفذ بكثرة في تربة صعبة الاختراق. ولهذا فإن شعب نهر شليف لا يمكن أن يجد النماء إلا بعملية مدروسة للري أو باختيار مزروعات أخرى.

وسلسلة الوَنْشَريس تتكون من التجاعيد التي ازدحمت دون ترتيب حول ذروة كلكيرية، والتي تقطعها روافد نهر شليف. وبالونشريس غابات جميلة. لكن باستثناء بعض الشعاب التي توجد بها خرائب أثرية عتيقة، فإن الأراضي - وهي من الشيست أو من الحجر الرملي - لا تساعد مطلقا على تربية الماشية.

هذه السلسلة يحدّها من جهة الغرب نهر المينا La Mina الذي ينحدر بممر ينفتح على نجد تِيارْت جنوب الونشريس، ثم يتصل بنهر شليف في سهل عريض يمكن سقيه بكل سهولة. والمنطقة الواقعة جنوب

تيارت وجنوبها الشرقي، لها ارتفاع يتراوح بين 1000 و1200 متر، وتمتاز بخصوبتها عن السهول العليا التي بموسطة الجزائر والتي تتممها في غير انقطاع. وبفضل الأمطار التي تصل لهذه المنطقة من ناحية الشمال الغربي عن طريق شعب الميناء، فإن التربة الغرينية التي تكسوها - وهي غنية بفُسْفاط الكلس - يمكن أن تؤتي حصائد وافرة. ونظرا لأن الرومانيين كانوا قد ضموا هذه الأراضي داخل حدودهم العسكرية في القرن الثالث، فإنها كانت آهلة بالسكان في العهود العتيقة وحتى في الأزمنة التي تلت الفتح العربي. وتستمر هذه المنطقة الخصبة نحو الشمال الشرقي طوال النهر الواصل الذي يتجه إلى شليف. وقد كانت الحدود الرومانية التي تحدثنا عليها من قبل تمر من هنا، بالحاشية الجنوبية للونْشَريس، كي تعبر شلَيف إلى البُخاري.

ومن بعد الجبال الشاهقة ذات الشعاب، والمشرفة من الجنوب على سهل مَتيجَة، يأتي نجد الميدية الطيني العاري، ذو التضاريس المضطربة، الذي تمزقه الأخاديد العميقة لأنهار تبتعد نحو الغرب. وأخرى نحو الشمال والشرق، وبه عدة عيون مائية، كما أنه ليس محروما من الأراضي الصالحة لزراعة الحبوب.

وهو عبارة عن ممر بالغ الصعوبة بين شعب شليف وثلاثة سهول، هي سهل بني سليمان وسهل عريب وسهل البويرة، وكلها متتابعة من الغرب إلى الشرق. وتمثل واديا قديما على ارتفاع يتراوح بين 500 و600 متر. فأما سهل بني سليمان فيشكو الجفاف. وهناك أبعد منه نحو الشرق، عين بسّام. وبها أرض جيدة تنال قدرا كافيا من ماء المطر، كما تكثر بها خرائب الآثار العتيقة. وأما سهل البويرة فيؤدي إلى شعب وادي الساحل الذي سيُعرف من بعد باسم وادي الصمام. وهو يحد بلاد

القبائل الكبرى من الجنوب والشرق. وعلى غرار شعب شليف، فإن هذا الوادي تقطعه العراقل : ففي مكانَيْن وجب أن يفتح النهر لنفسه الطريق بين الحواجز الصخرية. والتربة هنا رسوبية كثيرة الخصوبة، لكن الأمطار هنا أيضا غير كافية غالبا، لأن سلسلة الجُرْجُرة توقفها. لذا كانت زراعة الحبوب غير متأكدة النتائج، بينما يقل الخطر على الأشجار لأنها لا تخشى الجفاف كثيرا. أما أقاصي الوادي بقرب البحر فإنها لذلك تنعم بظروف أكثر ملائمة. وهنا تزدحم خرائب الآثار، كما أن مستعمرة هامة هي توبوسوبْتو Tubusuptu قد أنشئت هناك في عهد الإمبراطور أوغسطس.

ولم تكن الطريق العسكرية الرومانية الآتية من شعب شليف تمر بالميدية، ولا بالسهول المتتابعة حتى وادي الساحل. وإنما كانت تبعد إلى الجنوب، حيث أنها – عن طريق البرواغية، وسُور جوَاب وسُور الغزلان Aumale – كانت تسير على قطعة عريضة من الأرض الكلكيرية، وذلك في القسم الشمالي لمنطقة وعرة تخترقها من الغرب إلى الشرق سلسلات متوازية من الجبال. أما الشعاب الفاصلة بين هذه الجبال فتكسوها هنا وهناك تربة سجيلية مخلوطة بفسفاط الكلس، الأمر الذي جعلها أراضي خصبة، أو يكسوها طين تنبع منه العيون وتعلوه المراعي الجميلة، وقد كانت هذه الأرض الجبلية محصورة داخل الحدود العسكرية للقرن الثالث التي كانت تتبع حاشيتها الجنوبية من البخاري إلى سيدي عيسى جنوب سور الغزلان.

وفي شمال ولاية قسنطينة، خلف السلسلة الكلكيرية التي تحد الهضبة القديمة، تترادف الجبال من حجر رملي أو من الكلكير في صفوف على العموم متراصة حتى تصل للسهول العليا بالمنطقة

الوسطى. أما الأنهار فتسير في شعاب ضيقة أو تتلوى في حوانق بالغة الضيق، ومع ذلك فالأمطار هنا غزيرة. وحيثما كانت الأرض صالحة للحبوب أو للأشجار أو لتربية الماشية الكبيرة فإن المراكز العتيقة للسكن تصبح متعددة. وتضم هذه الناحية حوضَيْن كانا على الخصوص آهلين بالسكان، أحدهما هو حوض قُسّنْطينة، وهو بحيرة قديمة طولها 80 كيلومترا من غربها لشرقها، وعرضها 20 كيلومترا، وهذا الحوض ملأه الطين وأنواع الحجارة، وصار ذا مظهر مضطرب. ومع أنه ليس خصبا بذاته، فقد استعمل في الزراعة على نطاق واسع، وأصبح كالضاحية لمدينة سِرْتا Cirta (قسنطينة) التي نالت أهميتها - حتى قبل الغزو الروماني - من موقع دفاعي لا يضاهى لقيامها على صخرة ممتنعة. والثاني هو حوض قالمة Guelma الذي يعبره نهر سيبوس، ويخرج منه بعد أن يحطم أحد الحواجز، وبهذا الحوض تربة سجيلية صالحة لزراعة الكروم والحبوب، كما أن خرائب الآثار الرومانية تقابلك بكل مكان جنوبي هذا الحوض، حيث الأراضي الخصبة الطينية المليئة بفسفاط الكلس تمتد في مساحات شاسعة بهذه الأرض الجبلية التي يمر بها وادي شرف - وهو شعبة من سيبوس - وتمر بها روافده والأنهار الأخرى التي تسير بعيدا لترتمي في سيبوس. وأخيرا يمر بها المجرى الأعلى لنهر مجردة.

4

وتمتد جنوب التل بولايتي وهران والجزائر منطقة من البراري التي تبتدئ من المغرب بين الأطلس المتوسط والأعلى ثم تسير وهي تضيق وتنحدر من الغرب إلى الشرق من ارتفاع 1200 متر إلى 800 متر.

وتتكون هذه المنطقة من سهول شاسعة تفصل بينها تجاعيد خفيفة، وبها بحيرات مبعثرة هنا وهناك، أحواضها ليست عميقة القعر، وتتجمع بها في فصل الشتاء المياه التي تجرف الأملاح، ولكنها تكاد تجف في فصل الصيف. وتتكون تربة هذه البراري على وجه العموم من رسوبيات صوانية ليّنة أو متكتلة يكاد جميعها يكون مغطى بقشرة كلكيرية خلطت بالحصى والحصباء. ويتراوح سمك هذه القشرة من بضعة سنتمترات إلى عدة أمتار. كما أن وجود هذه القشرة والطبيعة الملحية لكثير من الأراضي جعلا المنطقة غير صالحة للأشجار وللزراعة حتى ولو تهاطلت الأمطار عليها بكثرة كافية. إذ لا يثبت بها سوى نباتات بسيطة تقاوم الجفاف وتحب التربة المالحة. لهذا كانت المنطقة منطقة مراع هزيلة لا يطول عمرها السنة كلها.

وبين هذه البراري والسهول العليا لولاية قَسّنْطينة توجد الحضْنَة، وهي حوض منغلق، بموسطته بحيرة كبيرة تصلها المياه مما حولها. وسواء كانت الحضنة منطقة انهارت أو حوضا للرسوبات، فمعدل ارتفاعها إنما يبلغ 400 متر، أي أنه أقل بكثير من ارتفاع الأراضي التي بجانبها، وحظ الحضنة من مياه المطر قليل. ورغما عن خصوبة أراضيها الرسوبية فإنها لا تكون سوى إحدى البراري، لولا أنها مصب للفائض من مياه الأنهار المتولدة بالجبال العليا التي على الجانب الشمالي للحوض، أو الأنهار التي تخترق هذه الجبال وتمكن من سقي مساحات عريضة شمال البحيرة. أما عند الجنوب فإن الكثبان الرملية تكون ما يشبه الصحراء وفيها واحة بوسْعادَة الجميلة. وقد كانت الحضّنة داخلة في نطاق التراب الروماني.

أما موسطة ولاية قسنطينة فسهول عليا تمتد حتى غرب القطر التونسي وتبرز بها هنا وهناك سلسلات صغيرة من الجبال التي هي في الغالب من الكلكير، وهي متقطعة، وبها أخاديد حدثت بسبب عمليات التحات، كما أن جوانبها عارية أو يغطيها قليل من أشجار الصنوبر والسندروس والعرعر والبري. وفي القسم الشمالي الغربي لهذه المنطقة الشاسعة يتجه خط هذه الجبال من الغرب للشرق على غرار تجاعيد التل بشرق الجزائر، بينما السلسلات الأخرى التي هي أكثر عددا والتي تبدأ مقابلتنا لها بجوار الحُضْنَة فهي تتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي على غرار الأطلس الصحراوي. وتلوح لنا غالبا كقباب ذات قواعد دائرية أو بيضوية الشكل. وهو الطراز المميز للجهاز الجبلي التونسي، وإن كنا نبدأ بملاحظة وجوده بالجزائر. وفي الشرق تسبب التحات أحيانا في إيجاد موائد أو مصطبات ذات أجراف وعرة. وأهم هذه السطوح قلعة سنان التي توجد بين تبِسّة والكاف.

أما السهول فبها أكمات بناحية المجانة Medjana وسَطيف، ثم تنبسط في الناحية الشرقية. ويتراوح ارتفاعها من 700 إلى 1000 متر، فالتي بالمجانة تميل في انحدار نحو الجنوب، وذلك هو اتجاه مجاري المياه التي تسير لتنضم إلى وادي القصُب Ksob قبل دخوله في الحُضْنَة. بينما السهول الأخرى التي بشمال المنطقة المتحدث عليها، فإنها من سهول جبهة البحر الأبيض المتوسط، وتخترقها أنهار تساهم في تكوين نهر الصمام ونهر الوادي الكبير ونهر سيبوس. وتوجد بالجنوب سهول بوسطها أحواض تجتمع بها في فصل الشتاء مياه غالبا ما تكون مالحة، وتجف في الصيف بالتبخر. وهنا نجد – ولكن على نطاق ضيق – طبيعة البراري التي بولايتَيْ وهران والجزائر. وكذلك، فإن بشرق الجزائر وغرب تونس سهولا أخرى تصرف مياهها بواسطة وادي ملاگ

Mellégue الذي هو أهم روافد نهر مجردة، والذي ينبع من شمال الأطلس الصحراوي غير بعيد من خنشلة، ويتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي كما يقع التصريف أيضا بواسطة روافد هذا النهر الأخير. وختاما توجد بالقطر التونسي مياه تجري في اتجاه الجنوب الشرقي.

وليست هذه المنطقة كلها خصبة. ذلك أن التربة المشبعة بالملح، والممتدة حول منخفضات الأحواض المنغلقة وحتى في الجهات الأخرى وعلى الخصوص بين سوق أهْراس وتبسّة، لا تصلح سوى لتربية الضأن. وزيادة على ذلك فإن مساحتها ضيقة. وعلى النقيض من ذلك، فإن مساحات شاسعة يكسوها الغرين والسجيل الغَنِيّان بفسفاط الكلس تصلح جيدا لزراعة الحبوب. لكن الأمطار قد تكون في بعض الأحيان غير كافية بسهول الشمال كما تكون في أغلب الأحيان غير كافية بسهول الجنوب، ما عدا أمام جبال الأوراس وباطْنة Batna التي تحدث التكاثفات بكتلتها. وكل هذه السهول جرداء تماما، أو لعل عملية استصلاحها لم ينح عنها سوى الأعشاب، لأن طبيعة الأرض غير مناسبة للأشجار. وبعدما كانت قبل الفتح الروماني متروكة للرعاة على العموم، فقد عمرت بعد ذلك بعدد كبير من السكان المزارعين الذين استقروا حول مدينة الكاف وجنوبها وبحاشية الأوراس، حيث تكثر عيون الماء وحيث الاحتلال العسكري على نطاق واسع قد ساعد على نماء الاستعمار، كما استقر هؤلاء السكان المزارعون بجنوب سطيف وبجنوبها الشرقي.

5

ومنطقة موسطة الجزائر يحدّها جنوباً الأطلس الصحراوي الذي هو الامتداد الشرقي للأطلس الأعلى المغربي. وتوجد بجنوب السهول

العليا لولايتي وهران والجزائر وكذلك بجنوب حوض الحضنة تضاريس أو تجاعيد تمتد متوازية وتتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، ولها ذرى ضيقة وعارية، وتتكون في الأغلب من حجر رملي قابل للتفتت، كما يملأ الفراغ بينها حطام غير خصب تساقط من هذه السلسلات. ونجد هناك نفس النباتات الهزيلة كما في البراري. ومع ذلك فإن سلسلة جبال العَمّور، التي تواجهنا في ناحيتها الشرقية بمصطبات كبيرة ذات أجراف عمودية، قد كانت ذات حظ أحسن، إذ لها مراع جميلة بين غابات العَرْعَر والصنوبر والسندروس كما أن العديد من عيون الماء يستعمل في سقي البساتين وفي ري القرى التي لاشك أنها وجدت منذ عهد قديم جدا.

وتمتد جنوبي ولاية قسنطينة سلسلة جبال الأوراس التي يمكن أن نربطها في الشمال الغربي الجبال الكلكيرية التي يطلق عليها اسم جبال باطنة، والتي يتعدى ارتفاعها 2000 متر، وتحمل غابات من الصفصاف والسندروس والأرز. وينفتح بين هذه الجبال والأوراس ممر طويل يتجه نحو الجنوب، تتحكم فيه اليوم باطْنَة. وفي القديم كانت تتحكم فيه لامْبيز Lambèse المعسكر الروماني الكبير. هذه الطريق المهمة الواصلة بين السهول العليا والصحراء تساير نهر القنطرة الذي خرق حاجزا معترضا ومر خلال مخنق قصير، حيث نجد إحدى الواحات الصحراوية مباشرة.

أما التجاعيد الكلكيرية الدقيقة الوعرة التي بالأوراس فتتسامى إلى أكثر من 2300 متر، وتفصل بين شعاب ضيقة تميل نحو الجنوب الغربي، وإحدى عمليات التّحاتّ هي التي عمقت حفر هذه المهاوي ودفعت بكتل ضخمة من كسارتها حتى الصحراء. وتكثر العيون والأنهار التي يمكن

استعمالها للسقي، بهذه الجبال التي كان السكان الأهالي بها كثيرين في القرون الميلادية الأولى، فالأرض هنا – على غرار بلاد القبائل الكبرى – أرض أشجار، لأن منحدرات الجبال مغطات بغابات جميلة من السنديان والسندروس والسنوبر والأرز.

وبشرق وادي العرب، فإن جبل شيشار Chechar المضطرب جدا تمزقه الشعاب التي تراكمت فيها الحجارة، ويتمم جبال الأوراس. وفي البعيد تغيب عنا التجاعيد المتزاحمة التي للأطلس الصحراوي. أما أرض النمامشة Nemenchas الواقعة إلى الجنوب الغربي من تبسّة فتنقسم إلى ناحيتين واضحتين : في الشمال نجد قبابا واسعة بيضوية الشكل، عريت وتسطحت بفعل التحات، وتحولت إلى سهول معدل ارتفاعها 1000متر. وتشير أحرفها البارزة إلى دائرات لجبال قديمة، وتنبع منها عيون الماء. هذه الناحية ليس بها أشجار ولا تكفي أمطارها لزراعة الحبوب، ولعل تربية الضأن هي المورد الوحيد للأهالي. وقد كان قسم كبير من هذه السهول في العهد الروماني مغروسا بأشجار الزيتون كما كان آهلا بالسكان. أما في الجنوب فهناك سلسلة من السطوح المتدرجة الكثيرة الحجارة. وهي تتجه من الغرب إلى الشرق وتنزل نحو الصحراء، وتمر بها مجارٍ للمياه أحدثت فيها أخاديد وشعابا. وكذلك، فإن اتجاه هذه السطوح والتضاريس التي تتممها عند الجنوب، هو نفس الاتجاه الموجود بتضاريس جنوب القطر التونسي.

لقد سبق لنا القول بأن المياه النازلة من الأطلس الأعلى هي السبب في ازدهار الواحات الجميلة بجنوب المغرب. أما في الجزائر فإن واحات الحاشية الصحراوية قليلة الأهمية جدا. وهي مدينة بوجودها للأنهار التي تخرج من الأطلس الصحراوي أو لأحواض باطن الأرض التي

تتزود المياه من نفس المصدر. وأهمها حوض الأغواط بالجنوب الغربي لجبال أولاد نايل، ولرأس وادي جدي الذي يحفر أثناء سيره من الغرب للشرق أخدودا طويلا شمال الصحراء، وكذلك الأحواض التي في الزيبان بناحية بِسْكرة وأخيرا الأحواض التي تكونت حيث الأنهار تغادر الأوراس وجبل شيشار وسطوح النمامشة. وبجنوب الحضنة بين تجاعيد جبال أولاد نايل، كان الرومانيون قد أنشأوا بعيدا عن خط حدودهم، خطا من المراكز العسكرية، ولم يكن هذا الخط يقف إلا على بعد قليل من الأغواط، وكان يحمي الممر الواصل بين الحضنة والصحراء. فقد احتلوا واحات الزيبان، وكانت حدود الإمبراطورية في هذه الجهة تسير مع واد جِدي ثم تتبع الطرف الجنوبي لسلسلة جبال الأوراس.

6

يولد نهر مجَرْدة في الجبال القائمة جنوبي حوض قالْمة ويتابع سيره ليصب في خليج تونس. ويدخل النهر البلاد التونسية بعد أن يمر في خانق محصور بين تجعيدتين من الهضبة العالية التي تغطي جبالها الزاوية الشمالية الشرقية للقطر الجزائري، بين سهل عنابة والقالة وسوق أهراس، ثم تستمر في تونس الشمالية بجبال خمير وجبال المقعد Mogodie شمال المجرى الأوسط للنهر.

هذه المنطقة مضطربة جدا، تلوح بها مجموعات من الكدى الممتدة – على غرار الأطلس الصحراوي – من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وتقطعها المهاوي العميقة كما تفصل بينها شعاب قصيرة ضيقة. أما البحر الأبيض المتوسط بين سهل عنابة والرأس الطيب القريب من بِنْزَرت، فتشرف عليه الأجراف التي تنزل عموديا والتي

تقطعها الكثبان شرقي طبَرْقة، أي بأسهل المواقع الساحلية اتصالا بوادي مجَرْدة، وبالهضبة حجر رملي كباقي الهضاب التي تمتد بعيدا إلى الغرب حتى بلاد القبائل الكبرى، وهو يحمل غابات جميلة من السنديان. والأمطار هنا غزيرة، كما أن عيون الماء كثيرة. وتوجد كذلك عدة من المراعي الجيدة بالوهاد وفجوات الغابات. ولكن التربة الصوانية لا تساعد على زراعة الحبوب.

ومنذ الحدود الجزائرية حتى ملتقى نهر باجة، أي جنوب قسم كبير من هذه المنطقة الجبلية، فإن نهر مجردة يخترق سهلين : هما سهل غار الدماء وسهل الدخْلة اللذان كانا بحيرتين في القديم. وأولهما يمتد على نحو عشرين كيلومترا، أما الثاني فأكبر منه. ويفصل بينهما حاجز خرقه النهر. وفي أقصى الناحية المقابلة من الدخلة يصطدم النهر بهضاب لا يتعداها إلا بمشقة. إذ يعبر فجاجا كثيرة التعاريج ثم يسير مع تلك الهضاب حتى طبرية. وهنا يبدأ النهر سهله الوطئ الذي زاد اتساعا على مر العصور بالرسوبات التي جرفتها مياهه نحو البحر، والذي غالبا ما تغمره المياه حتى اليوم.

أما سهل غار الدماء وسهل الدخلة اللذان دعاهما القدماء باسم السهول الكبيرة، واللذان تغطيهما الرسوبات الخصبة التي جرفها نهر مجردة ونهر ملاك المنضم لمجردة في الدخلة، ونظرا كذلك للرسوبات التي جرفتها أنهار أخرى فإنهما أصبحا من أجود الأراضي الصالحة لزراعة الحبوب، ولذلك استغلت أرضهما منذ العهد البونيقي.

وأما موسطة القطر التونسي بجنوب مجردة فيحتله نجد عريض معدل ارتفاعه 800 متر. على أن هذا النجد في الحقيقة قبة كبيرة انخفض وسطها كثيرا. وانتثرت فيها كدى غير متناسقة الشكل،

وقطعها التّحات إلى مصطبات، ونزلت أجرافها عموديا على الشعاب العميقة. ومن هذا المكان تنبعث أنهار تسير في جميع الاتجاهات. فنجد في الشمال وادي تاسّة – واد خلاد – وواد سلْيانة. وكلها روافد لنهر مجِرْدة. كما نجد بالغرب أودية ترتمي في نهر ملاگ، أما بالجنوب والشرق فهناك عدة من مجاري المياه تسير لتجتمع في سَبْخة الكلْبية بقرب القيروان. وكذلك نجد بالشمال الشرقي الواد الكبير الذي يسمى أسفله بواد ملْيان والذي يأتي بالمياه لخليج تونس في جميع فصول السنة. أما الشعاب التي تعبرها هذه الأنهار فمتفاوتة في السعة. وقد تشابكت على شكل نجمة حول النجد الأوسط. وتربتها تتكون من رسوبات سميكة وخصبة، بينما تغلب فوق النجد التربة السجيلية المخلوطة بفسفاط الكلس. وهي صالحة لزراعة الحبوب. أما العيون فتعطي على العموم كميات قليلة من الماء ولكن عددها مع ذلك كثير. ونظرا لارتفاع الأراضي هنا فإن الأمطار تهطل بقدر كاف. وقد كانت هذه الأرض كلها آهلة بالسكان في العهود القديمة، كما كانت بالغة الازدهار حتى قبل الفتح الروماني.

وينفصل عن النجد من ناحية الشرق بسلسلة الجبال الزوجيطانية Zeugitane المكونة من الكلكير ذي اللون الرمادي أو الأزرق، ولها قمم مؤشرة. وبهذه السلسلة نجد مجموعة من القباب المتكسرة غالبا، المفصولة عن بعضها بالمنخفضات، خصوصا بجبل زَغْوان الذي يقارب ارتفاعه 1300 متر. وهذا الجبل هضبة غنية بالعيون، منه جرّ الرومانيون المياه اللازمة لإرواء الأرض من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، على غرار جميع جبال تونس الشمالية والوسطى، ثم تتجه نحو الشمال لتنتهي في خليج تونس قرب حمّام الأنْف. ويقوم على جانبي هذه

السلسلة تجاعيد من الزمن الجيولوجي الثاني، وهي تحيط، مع الجبال من ناحية الشمال بشعب واد مَلْيان الخصب الذي استغل جميعه للزراعة في العهود القديمة، ومن ناحية الجنوب بالسهل المديد لواد نَبْعان أي النهر الذي ينعطف بعد ذلك نحو الجنوب الشرقي ليصل إلى السبْخَة الكلْبية. كما تمتد تجعيدتان أخريان حتى أقصى شبه جزيرة الرأس الطيب.

أما بشرق البلاد التونسية فإن السواحل المنبسطة الممتدة من خليج الحمّامات إلى خليج قابِس تتقدم المنطقة المعروفة باسم منطقة الساحل التي هي إما سهول وطيئة مثل أنْفيدة بين السلسلة الزوجيطانية والبحر، وإما نجود قليلة الارتفاع جدا كنجد الجمّ، وفي الخلف تمتد منخفضات في حوضها تجويف قليل، وتحدها كدى خفيفة. فتتكون في فصل الشتاء بوسط هذه السهول بحيرات ذات قعر طيني، لا تخلّف في فصل الصيف سوى غبار ملحي. وأهم هذه البحيرات - وإن كانت ليست أكبرها - هي السبْخَة الكلبية بالشمال الشرقي للقيروان، حيث تتجه عدة من الأنهار الآتية من الشمال الغربي، ومن الغرب والجنوب الغربي والنابعة من السلسلة الزوجيطانية أو من النجد الأوسط. وليس لهذه الأنهار روافد تغذيها في مسيرتها، لأن عيون الماء قليلة جدا بهذه الناحية التي لا ينزل بها المطر مطلقا، فالأنهار لا تصب في السبْخَة سوى كمية ضئيلة من المياه لأن المياه تتبخر أو تسرب في تربة شريب. ومع ذلك فالسبخة الكلبية لا تجف تماما، إذ لها قناة تصلها في بعض الأحيان - وعقب أمطار غزيرة - بسَبْخة هرْقَلة التي هي إحدى بحيرات الساحل. وفي الجنوب توجد بحيرات أخرى أهمها سبخة سيدي الهاني بالجنوب الشرقي للقيروان.

وبشرق القطر التونسي مساحات مالحة لا تحتمل سوى تربية الضأن. لكن الأراضي خفيفة على العموم وتتكون من عناصر خصبة. وقد اشتهر قمح نواحي سُوسَة في العهود العتيقة بضخامة سنابله. ولسوء الحظ، فإن الأمطار لا تكفي غالبا للحصول على غلّة وافرة من الحبوب لأن السلسلة الزوجيطانية وكتلة النجد الأوسط تمنعانها من جهة الشمال الغربي. وإذا كانت المحاصيل منتظمة إلى حد ما حول سوسة، فإنها في الجنوب وفي الداخل تصبح غير أكيدة، غير أن تكوين التربة يساعد جيدا على غراسة الأشجار. فَتَحْتَ الطبقة العليا التي يمتص بها الرمل ماء المطر بسرعة، والتي لا تتعداها جذور السنابل، يوجد على عمق قليل طبقة من الحوارى Tuf الكلكيري الذي يتشرب الماء بقلة. وهكذا فبينما السطح جاف تماما، إذا بباطن الأرض يبقى نديا، وهناك تنمو جذور الأشجار. وهكذا يمكن لعدد كبير من السكان أن يعيشوا من أشجار الفاكهة في بادية لا تجري أنهارها إلا بقدر لا يغني من المياه التي تنصب في الصيف في بادية عيون الماء قليلة بها جدا. وقد كانت بساتين الزيتون تكسو في العهد الروماني قسما كبيرا من السباسب التي كانت قطعان الرحَّل تجوبها من قبل.

وفي غرب هذه الناحية، جنوبي النجد الأوسط والسهول الموالية لسهول ولاية قُسّنْطينة، تمتد منطقة تنحدر في اتجاه منخفض عريض يحدها من الجنوب. وخلافا لما أمده الغير، فإن هذا المنخفض لم يكن أبدا حوضا بحريا يتصل بخليج قابس. ويمتلئ المنخفض بشَطّ الجريد الذي يمد للشمال الشرقي ذراعا تحمل اسم شَطّ الفجاج كما يمتلئ بشط الغَرْسة. وبعيدا إلى الغرب (بالجنوب الجزائري) يمتلئ بعدة من السباخ غير منتظمة الأشكال، أهمها شطّ أمّ الخير Melghir.

أما التجاعيد التي امتدت في الجنوب التونسي نحو عرض قفْصة، وامتدت جنوبها كذلك حتى الشطوط، فإنها على العموم متجهة من الغرب للشرق، وقد تضرست المنطقة بهذه السلسلات التي حدت شعابا أو سهولا لها مظهر مُنحنٍ وتحتل المستنقعات وسطها قسما من السنة. وفي شمال قَفْصة تمتد في اتجاهات مختلفة نتوؤات أخرى صغيرة منعزلة أو متصلة فيما بينها وتشرف على نجود عريضة. وتكاد تكون هذه المنطقة عارية تماما، وإن كانت الأغنام والماعز والجمال ترعى نباتاتها الضئيلة. ومع ذلك فالتربة بعدة أمكنة منها ليست مجذبة، فهناك بعض الأراضي الغنية بفسفاط الكلس. غير أن الأمطار قليلة جدا حتى إن غلاّت الحبوب غير مضمونة. وفي القرون الميلادية الأولى اتسعت بها غراسة الأشجار، وهي تقاوم الجفاف، وذلك بالمحلات التي مكن فيها تنظيم المياه من تزويد الناس بما يلزمهم منها لحياتهم، وللقيام ببعض عمليات السقي. وتكونت حول العدد القليل من عيون الماء واحات بنخيلها الذي صاحبه غيره من أشجار الفواكه. وهكذا فإن هذه الأرض الانتقالية تنتج الثمر والزيتون في آن واحد.

وعلى الحاشية الصحراوية نفسها، التي وصلها الحكم الروماني، توجد واحات جميلة في الجريد، بين شط الجَريد وشطّ الغَرْسة، وبنَفْزاوة شرقي شط الجريد وجنوب شط الفجاج، وأخيرا بقابس على ساحل البحر.

7

وكما سبق لنا أن قلنا، فإننا – لأسباب مصدرها التاريخ – نربط إلى شمال إفريقيا الأراضي التي تحدّ خليج سِرْتة من جنوبه. فبشرق

سرتة الكبرى تمتد سيرنيكا، التي كأنها جزيرة من جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقي، والتي عرفت ازدهارا استعماريا صيّرها أرضا إفريقية، كما أنها كونت مع جزيرة أقْريطِش ولاية واحدة لما صارت بعد ذلك رومانية. وهي من الوجهة الجغرافية والتاريخية مغايرة تماما لما نسميه باسم شمال إفريقيا.

فبيْن قابِس ورأس مَسْراته نجد الساحل وطيئا تحده كثبان الرمل التي امتدت من خلفها المستنقعات هنا وهناك، كما تناثرت به الواحات المفصول بينها بمساحات صحراوية. والساحل يتقدم أرضا تكونها سهول متموجة قليلا، وتعلو في ارتفاع خفيف نحو الداخل. تلك هي الأرض التي يطلق عليها الأهالي اسم الجفّارة Djeffara ويبلغ تغلغلها إلى الداخل 100 كيلومتر عند الحدود التونسية، ثم يقل تغلغلها ذلك عند الشرق. وهي غير مسكونة الآن لأنها رملية وجافة، وكذلك كان شأنها في العهود العتيقة، باستثناء قسمها الشمالي الغربي بتونس، حيث هي ضيقة جدا، وحيث قُربها من المرتفعات التي سنتحدث عنها يجعلها في هذه الجهة تستفيد من بعض الأمطار، كما يساعد على استغلال الأنهار النازلة من المرتفعات واستعمالها في الزراعات التي تتطلب القليل من الماء.

ويشرف على الجفّارة سلسلة طويلة من الأجراف الكلكيرية العمودية التي ترتفع بمعدل 300 متر، وتكون دائرة واسعة مفتوحة على الجنوب، من نواحي قابِس إلى ما يقارب رأس مَسْراته.

وليست هذه المنطقة التي يطلق عليها الأهالي اسم الجبل سوى حافة لنَجْد صحراوي عظيم، وهي أبعد من أن تكون مختلفة قد تقطعت وتمزقت وتكسرت بسبب عمليات التحات. وفي بعض الأحيان تلوح

متدرجة. بل إن بعض الأجزاء انفصلت عن الكتلة وكونت مقدمة للسلسلات في القسم الشمالي الغربي من الجبل. أما بالشمال الشرقي فإن ما يطلق عليه اسم جبل تَرْهونة ليس إلا نجدا به أخاديد، وكأنه حصن عظيم بارز على الحافة، وهو يمتد في اتجاه الخُمْس ولَبْدة بواسطة التلال القائمة على الساحل. لهذا كان الجبل عرقلة مفاجئة ترغم الرياح البليلة التي تهب في بعض الأحيان من البحر، على أن تتفرغ مما تحمله من بخار الماء، وكانت الأمطار - ولو أنها غير مستمرة - تمكن العدد الكثير نسبيا من السكان من العيش في هذه الناحية. فتثور الجداول على شكل شلالات صغيرة خلال الحفر والمسالك الملتوية وتستعمل في السقي. أما على المنحدرات فتكونت سطوح متدرجة تستند إلى جدران تحدّها، وعلى السطوح حقول للشعير أو لأشجار الفاكهة، خصوصا منها التين والزيتون. كما أن السقي يجعل الزراعة ممكنة بسفوح الأجراف خلف ردامة الحاشية الصحراوية، غير أن الأودية سريعا ما تنضب لأنها لا تقدر على عبور الجفّارة. وخلف الجبل تبدأ الصحراء، وهي مساحة شاسعة من الحجارة.

أما الساحل الغربي لخليج سِرْتة الكبرى بالجنوب الشرقي لمسْراته فتحده السبْخَة المديدة، الجافة اليوم، المعروفة باسم تورغَة Taor-ga والتي تتجه إليها عدة أودية آتية من الغرب. وشعاب هذه الأودية تشق النجد الصحراوي الذي يميل في هذه الجهة نحو الشرق، والذي ليس سوى مفازة خالية. غير أن الأودية لها مهادات منبسطة، واسعة غالبا وبها بعض النداوة لسريان الأودية في باطن الأرض، فهي لذلك لا تمتنع عن بعض الزراعات الفقيرة. وقد سكن الإنسان هذه الفجاج في العهود العتيقة، كما يسكنها اليوم. أما في الاراضي الحجرية الفاصلة بينها فإن الحياة كانت دائما غير ممكنة.

وأما بجنوب سِرْتَة الكبرى فالصحراء تتقدم حتى الساحل، فلا خير يرجى من هذه الناحية التي اكتفى فيها القدماء بإنشاء طريق على طول الساحل لضمان المواصلات مع سِرِنيكا (بَرْقة).

8

هذا العرض الجغرافي يبين إلى أي حد ينعدم الاتساق بشمال إفريقيا. فإذا كانت المناطق التي تشتمل عليها بلاد فرنسا مختلفة جدا، فإنها مع ذلك تتجمع حول نواة وسطى، وتتابع دون اختلافات حادة، كما أنها تنفتح وتعبرها مسالك سهلة ترابية ونهرية. ففرنسا بلاد الاتساق والتوازن. وليس الأمر كذلك في بلاد البربر. إذ هي تمتد على طول يتجاوز أربعمائة فرسخ من المحيط الأطلسي إلى خليج سِرْتة ولكن لها سعة ضئيلة. فهي إذن لا تساعد على تكوين دولة موحدة، ولا على نمو حضارة من نمط واحد. والحق أن بالغرب منطقة خصبة واقعة بين المحيط والريف والأطلس، وإنها تكوّن مجموعة متناسقة إلى حد ما، وأن بالشرق نجدا كبيرا - وإن كان مضطربا - يحتل موسطة البلاد التونسية، وأن عدة شعاب تحيط به، ولكن حتى بقرب هاتين المنطقتين توجد مناطق أخرى عزلتها الطبيعة : ففي شمال المغرب يوجد الريف الذي نتأت به سلسلات متراصة، وفي الجنوب يوجد السّوس الذي يغوص بين جدارين سامقين، وفي شمال البلاد التونسية توجد الهضبة الشجراء لسلسلة جبال خُمير. وبين هذه وتلك توجد الجزائر مسندة بالجبال طوال ساحل البحر الأبيض المتوسط وتحتل غالب أرضها قفار في الداخل. ومجاري المياه بهذا الهيكل الطويل النحيف ذي الشكل السيئ لا تمكن من السير. وكذلك الملاحة فإنها ليست ممكنة إلا على

نهرين أو ثلاثة من الأنهر التي بغرب المغرب، والتي يحول بينها وبين البحر حاجز مائي خطير La barre. أما الأنهار الأخرى فيكاد جميعها يجف في الصيف، او تبقى بها أوشال ليس فيها غناء، كما يتحول أغلبها في فصل الشتاء إلى سيول تنحدر مندفعة في مجرى تعرقله الصخور. وحتى شعاب هذه الأنهار فقلما يكون بها مسالك سهلة. وكذلك فإن عدة من الأنهار في طريقها إلى البحر الأبيض المتوسط تقطع السلسلات الموازية للبحر قطعا اعتراضيا، وتفتح لنفسها الطريق بصعوبة في خوانق عميقة وملتوية أو بشلالات سريعة، بينما الأنهار الأخرى التي يساير مجراها الاتجاه العام للتضاريس تكون في بعض الأحيان منحصرة بين تجعيدتين، أو تكون ملزمة بتحطيم العراقيل هنا وهناك لفتح فجاج ضيقة. أما نهر مجَرْدة الذي هو أهم الأنهار بشرق أرض المغارب، فيخترق في أعالي السهول الكبرى وأسافلها منطقتين مضطربتين يتحول فيهما واديه إلى مجرد معبر. وفي مكانين بالتل الجزائري تضيق الشعاب الطويلة لنهري شلْيف وصمّام، كما أن سيبوس بين سهول قالَمة وعنّابة هو عبارة عن مهواة ذات أجراف صخرية. وبعيدا من هنا في الداخل تسير بعض الأنهار لتضيع في أحواض لا منفذ لها.

لقد استخدمت الأنهار في أرض المغارب أحيانا كحدود سياسية بينما كان دورها الاقتصادي دائما بسيطا جدا. وكثير منها تتغير أسماؤها حسب البلاد التي تمر بها، الأمر الذي يدل على أن الناس لم يكونوا يتعقبونها في السير، وقد قامت خلف الساحل مدن التل بقرب العيون الثرة وبالأمكنة التي يسهل الدفاع عنها، غير أنها لم تكن مراكز التقاء لعدة أنهار، كما هو الحال بالنسبة لكثرة من مدن بلاد الْغال.

ومن بين المناطق الطبيعية بشمال إفريقيا، توجد عدة جبال كثيرة السكان، وذلك رغما عن قلة القيمة التي لتربتها، إذ يشعر الناس أنهم بها في مأمن أكثر مما لو كانوا بغيرها، مثال ذلك جبال الأوراس، والقبائل الكبرى والريف فتكونت بها مجتمعات صغيرة حريصة على استقلالها، وإن كانت لا تعمر أراضي محصورة.

أما الأراضي الوطيئة، فقد سبق القول بأن لها قيمة غير متساوية. فبعضها لا ينال ما يكفيه من الأمطار وبعضها به مستنقعات، وبعضها الآخر عقيم بسبب كثرة الأملاح المخالطة للتربة. وإذا استثنينا بعض النواحي الفسيحة، وخصوصا منها موسطة البلاد التونسية وغرب المغرب فإن المساحات الخصبة ليست سوى جُزُر تتعارض مع فقر وقساوة الأراضي المحيطة بها، والتي تتصل فيما بينها بممرات يهيمن عليها أهل الجبال.

إذن فهل كُتب على هذه المنطقة الشاسعة أن لا يكون لها تاريخ آخر سوى الأخبار المملولة التي تروى عن مجموعة من الجهات التي تحركها الأطماع المبتذلة والخصومات التافهة التي تحدث بين الجيران ؟

إن المتأكد هو أن البربر كثيرا ما أضاعوا جهودهم في مناوشات ليس فيها مجد وليس فيها فائدة، منازعات الأشخاص، والأسر، والطوائف والقرى، والقبائل. وكادت تنعدم لديهم، وفي أغلب الأحيان، مشاعر التضامن الواسع التي تكون الأمم.

ومع ذلك فالعلاقات بين سكان مختلف مناطق شمال إفريقيا قد تكونت من عهد مبكر، وانتشرت في جميع الجهات لغة واحدة، هي اللغة التي انحدرت منها اللهجات البربرية، ونجد في المراكز التي ترجع لعهود

الحضارة الحجرية علامات لمبادلات عريقة في القدم، ولاشك أن تأنيس بعض الحيوانات جعل العلاقات أكثر استمرارا وأكثر انتظاما بسبب أن المناخ كان يلزم الكثير من الرعاة بالترحّل. وظواعن الجنوب كان بحاجة للحبوب التي يحصدها المزارعون بالتل، ويحملون لهم صو قطعانهم وتمر الواحات.

ولاشك أن المجموعات التي نطلق عليها اسم القبائل قد تولدت ع ضرورات الدفاع والهجوم. وبعدها بكثير تكونت دول وحّدت مختلف المناطق، ولكنها جزأت أرض الشمال الإفريقي المستطيلة الشكل إل أقسام. واستولت قرطاجة على قسم كبير من تونس، بينما تكونت مملك بالمغرب، وامتدت ممالك أخرى بالجزائر وغرب البلاد التونسية، وأخير استولت رومة على البلاد كلها في عدة مراحل. وكانت كل واحدة مر الولايات التي أنشأتها رومة تعيش حياتها الخاصة. لكن، بينما كانت مدينة ليون عاصمة حقيقية لغاليا، نجد أن قرطاجة التي صارت في القرون الميلادية الأولى إحدى المدن الكبرى في العالم، ليست سوى المركز المهم لهذه الولايات.

ولم يعرف الشمال الإفريقي في العهود العتيقة مطلقا الوحدة السياسية والإدارية، كما عرفها وادي النيل والسهول العراقية المتفتحة. كما أن سادة الشمال الإفريقي لم يتمكنوا أبدا من جعل استيلائهم مقبولا بصفة نهائية وشاملة، بل حتى الملوك الذين كانوا على رأس الممالك الكبيرة المورية والنوميدية، يظهر أنهم لم يكونوا مطلقي الأيدي في حكمهم كما يدّعون. فكثيرا ما كان عليهم أن يقمعوا ثورات رعاياهم، شأنهم في ذلك شأن قرطاجة، وكذلك السلام الروماني فكثيرا ماعكّرت

صفوه ثورات الأهالي التي لم يكن أخفها تلك الثورات المندلعة في عهد الإمبراطورية السفلى، بعد عدة قرون من الاحتلال.

إن بنية البلاد قد حافظت لمختلف سكانها على الاختلاف في السلوك والمصالح. ثم إن الحضارة والبدائية كانتا تعيشان جنبا إلى جنب. إحداهما في السهول والنجود، والأخرى في مناطق القفار الجرداء وبسلسلات الجبال التي تشرف على البوادي الغنية وتعزلها، وتترصد فيها الفرصة المناسبة لتنطلق للنهب. هذا الذي منع من تكوين أمة بربرية سيّدة مصيرها. وعندما نجح الفتح الأجنبي في أن يفرض على شمال إفريقيا ظاهرا من الوحدة، عجز البربر عن أن يصهروا في تآلف دائم عناصرَ واسعة الاختلاف.

الفصل الثاني

شمال إفريقيا

في عالم البحر الأبيض المتوسط

1

كاد الشمال الإفريقي أن لا يكون إفريقيا. فمن ناحية الجنوب تعزله عن موسطة القارة صحراء شاسعة وجدت منذ قرون طويلة. تحدثنا نصوص إفريقية ولاتانية أن السكان السود كانوا في العهود العتيقة يعمرون جل الواحات شمالي الصحراء. ولكننا لا ندري هل كان هؤلاء (الأثيوبيين) قرابة متينة بالسودانيين. وعلى كل، فإنهم - وأثناء العصور التاريخية على الأقل - لم يكونوا يتطاولون إلى بلاد البربر نفسها. ولابد أن تكون المبادلات بين شمال إفريقيا والسودان قد تسعت مع استعمال الجَمل على نطاق واسع حوالي القرنين الثالث الرابع للميلاد. ولكنه حسب علمنا لم ينتج روابط سياسية، ولم يؤثر في حضارة المنطقتين.

أما بالنسبة لجانب المشرق فَنحْدس وجود علاقات قديمة جدا بين بلاد البربر وشرق إفريقيا، بحيث أن اللغات لها نفس الأصول العريقة في القدم، كما أن التشابه في الخلقة عند بعض السكان يمكّن من الاعتقاد بوجود قرابة متينة إلى حد ما، وكذلك فإن أحد المعبودات المصرية كان يُعبد حوالي الألف الثاني ق.م بالجنوب الغربي للبلاد الجزائرية. لكن العلاقات البرية بين الشمال الغربي والشمال الشرقي للقارة لم تكن لها أهمية في العهود التاريخية، لأن الصحراء التي تحدّ سرْتَة الكبرى كانت تفصل سرِنيكا الإغريقية عن إفريقيا القرطاجية، ثم اللاتانية فيما بعد. فالطريق البرية لم تستخدم إلا في نهاية العهود العتيقة، حين مرّ بها الفاتحون العرب، وبعد ذلك بثلاثة قرون مرّ الفاتحون الفاطميون في اتجاه معاكس في نفس الطريق ليصلوا إلى مصر.

إن بلاد البربر جزء من الأبيض المتوسط الغربي، أكثر مما هي جزء من إفريقيا. فقد كانت لهما العلاقات الأكثر عددا والأكثر غناء مع إيطاليا وإسبانيا، الهضبتين الأوربيتين اللتين تتقدمان في اتجاهها. حتى إن من بين القدماء من يجعلها في أروبا. ويقول لوكان Lucain (إذا أردتَ أن تصدق القول المشهور، فإن القسم الثالث من العالم هو ليبيا. ولكن إذا اعتبرتَ الرياح والسماء فستنظر إليها كجزء من أروبا). وذلك لشدة ما يربطها بجنوب قارتنا كل من مناخها وبنيتها ونباتاتها، وإلى حد ما حيوانها. فهي تشبه بالخصوص إسبانيا بكون الأراضي العالية تغطي أكبر قسم فيها، وبكون السهول الوطيئة تمتد هنا وهناك قرب الساحل بسفوح جبال وعرة، وبنظام الأنهار ووضعيتها : إذ تكون سيولا في فصل الشتاء، ومهاوي أكثرها جاف في الصيف، وبكون هذه الأنهار تشق طريقها نحو البحر بصعوبة، وأنها أخاديد لا مسالك.

وفيما مضى كان الشمال الإفريقي ملتحما مع أوروبا. فمضى جبل طارق يؤرخ انفتاحه ببداية عهد البليوسين. كما أن تونس ربما كانت متصلة مع إيطاليا أثناء قسم من العهد الجيولوجي الرابع، حين كان من الممكن أن يسكن الإنسان بهذين القطرين.

وفوق ذلك، فإن البحر الأبيض المتوسط بشكله الحالي ليس عرقلة مانعة، حتى بالنسبة لقوم بدائيين لا يتوفرون في الملاحة إلا على وسائل بسيطة جدا. ومضيق جبل طارق لا يتعدى عرضه أربعة عشر كيلومترا، وإن كان يحسن أن نضيف أن التيارات والرياح تجعل عبوره صعبا. وبعيدا عن المضيق تلوح في الآفاق الوضيئة، التقاطيع ذات اللون الرمادي للجزر التي يمكن أن تهدى العابرين أو تمنّيهم بملاجئ يأوون إليها. أما البحر الداخلي، فقلما يحجبه الضباب. ويمكن الاطمئنان إلى هدوء أمواجه مدة طويلة إلى حد ما. وعلى العموم فإن الساحل الإفريقي بين المضيق والشمال الشرقي للبلاد التونسية تحده أعماق كبيرة، فلا خوف مطلقا قبل الوصول إليها من التكسر على الصخور.

ومن الصحيح أنه كثيرا ما تهب رياح شديدة ويهيج البحر فجأة، في فصل الشتاء تهب من الغرب ومن الشمال الغربي، كما تهب من الشرق والشمال الشرقي من شهر ماي إلى أكتوبر. والنواحي البحرية لسرْتَة كانت مرهوبة عند القدماء ومشهورة بحوادث غرق السفن، والخليج الكبير على الخصوص خطير برياح الشمال التي تدفع بالسفن إلى الساحل، وبرياح الجنوب التي تنطلق حرة نحو الأراضي الوطيئة، وتأتي لتهيج الأمواج. وبقرب السواحل بعض التيارات التي يمكن أن تعارض إرادة الملاحين. تلك هي التيارات التي تتصادم حول الرأس الطيب، والتيار الذي يأتي من المحيط الأطلسي ويسير مع ساحل

المغرب والجزائر وتونس، غير أنه إذا كان يساعد في الرحلات من المغرب للشرق، فإنه يضايق تلك التي تجري في الاتجاه المعارض، كما يجب أن ننظر نظرة اعتبار للهدوء الكلي الذي يسود أحيانا البحر الأبيض المتوسط طيلة أيام عديدة ويعرقل الملاحة الشراعية.

ولكن العلاقات البحرية لشمال إفريقيا مع باقي مناطق البحر الأبيض المتوسط عرقلتها على الخصوص طبيعة سواحل هذا البحر الذي قال عنه المؤرخ اللاتاني سالوسْت «إنه بحر بدون موانئ». فالمؤرخ يغالي، ومع ذلك فالصحيح هو أن الملاجئ قليلة العدد بهذا الساحل : فليس به تقاطيع عميقة تكون مأوى أمينة جدا، الأمر الذي يفسر بكون الجبال تمتد موازية للساحل الذي تقوم عليه، وهذا بالنسبة للقسم الأكبر من الساحل الشمالي. والخلجان العريضة قليلة كذلك : فخلجان الجزائر تنفتح في اتساع كبير على الشمال، وخليج تونس يوجد بالشمال الشرقي أي الجانب الذي تهب منه رياح عاتية. وليس بعد ذلك سوى تجويفات حفرت بسبب قضم البحر من أرض قليلة المقاومة. وهي تجويفات معرضة إلى حد ما لرياح البحر. والساحل الشمالي لبلاد البربر يتكون على الخصوص من منحدرات وعرة أو من أجراف عمودية قد تنكسر عليها السفن التي تدفع بها الرياح إليها، كما أنه ينخفض في بعض الأماكن، ولكن الكثبان تحدّه هناك. أما في الناحية الغربية فتوجد على طول الساحل المحيطي سلسلة من الأجراف والكثبان التي تكون ساحلا رتيب الشكل، تكاد تنعدم به النتوؤات والخلجان. فلا شيء يحميه من رياح الغرب ورياح الشمال، ولا يوجد به أي مأوى حسن. وكذلك السواحل الشرقية لتونس فهي معرضة للرياح الشرقية والشمالية الشرقية. وسواحل طرابلس وطيئة رملية، وكثيرا ما تنتهي بمستنقعات، وتتقدمها مضاحل Hauts- fonds، وهنا أيضا تنعدم الملاجئ. أما في

خليج سرتة الصغرى حيث يرتفع المد البحري إلى ثلاثة أمتار، فإن الجزْر يضاعف من خطر تورط السفن.

ومع ذلك، فإن بحّارة العهود العتيقة كانوا بحاجة إلى موانئ متعددة، وكانوا مدة زمن طويل يخشون أن يبتعدوا عن السواحل، وكانوا يتلافون السفر بالليل، وكذلك كانوا حسب استطاعتهم يتوقفون عند المساء ويجرون سفنهم للرمل، ثم يعودون للركوب نهارا بعد أن يتزودوا من الماء. هذه الطريقة البدائية من المساحلة، كان لابد فيها من وجود عدة موانئ. ثم أخذت السفن بعد ذلك بكثير، تغامر بسهولة في عرض البحر، كما صارت تبقى راسية في الميناء. ولكن الملاحة بقيت متحرزة خاضعة لتقلبات الرياح وباحثة عن الملاجئ. لهذا فإن الموانئ بالسواحل الإفريقية كانت كثيرة العدد حتى في العهد الروماني، كما يؤكد ذلك ما تذكره كتابات مؤرخة بالقرنين الثاني والثالث للميلاد. على أن بعضا من هذه الموانئ كان جيدا، وأكثرها لم يكن صالحا. وفي بعض الأحيان كانت الموانئ تقوم بمصبات الأنهار، كالعديد من موانئ المغرب، وكميناء لَبْدة في طرابلس. غير أن ولوج الأنهار كان عسيرا من ناحية المحيط بسبب وجود الحاجز La barre البحري، بينما كان تراكم الأتربة المترسبة في أمكنة أخرى عرقلة خطيرة. وهناك موانئ أخرى أقيمت خلف جزيرة أو عدة جزر قريبة جدا من الساحل. وقد كان الفينيقيون يبحثون عن هذه المواقع الصالحة، لأن الجزيرة وقاية من الرياح الآتية من عرض البحر، كما أنها صالحة لأن تنشأ بها المخازن المصونة عن أطماع الأهالي. وأيضا فإن الموانئ كثيرا ما تكون محمية بأحد الرؤوس البحرية، والرأس عبارة عن نتوء من صخر صلد قاوم التَّحاتَ أكثر مما حوله. وهناك قاعدة جعلت الميناء الأمين بالساحل الشمالي دائما شرقي

الرأس الذي يقيه من الرياح الخطيرة الآتية من الغرب والشمال الغربي. وبعد ذلك بكثير أنشئت بعض الموانئ الاصطناعية إما ببناء الأرصفة أو بحفر الأحواض الداخلية.

ولم تكن قلة وجود الموانئ الطبيعية الجيدة هي وحدها التي تصد الأجانب عن شمال إفريقيا. بل هناك أيضا عسر التغلغل إلى داخل البلاد للمتاجرة أو للاستيلاء عليها نهائيا. فعلى الساحل الشمالي تقل السهول المحاذية للبحر، وقد سبق أن رأينا أنها كانت ذات قيمة ضئيلة في نظر القدماء. وبكل مكان تقريبا تقوم سلسلات الجبال كالأسوار على هذه السهول أو على أمواج البحر مباشرة. ولاشك أن هناك مسالك تؤدي إلى الداخل، أقيمت عند بداياتها مراكز بحرية، مثل طبَرْقَة قرب الوادي الكبير، وهيبون Hippone غير بعيد من نهر سيبوس، وبِجايَة في أقصى شعب صمام. لكن هذه الطرق لا تلبث أن يشتد ضيقها. أما في الشمال الشرقي فإن خليج تونس، الذي أنشأ به الفينيقيون أوتيكا وقرطاجة يتقدم في اليابسة بنحو خمسين كيلومترا، وينتهي إليه نهر مهم هو مجَرْدة. وقد كان هذا الخليج في العهود العتيقة الباب الكبير للشمال الإفريقي، عند مدخل الأبيض المتوسط الغربي بمواجهة صِقِلّية. غير أن شعب مجردة ليس مسلكا خاليا من العراقل. وإذا كان ولَوج إفريقيا سهلا من ناحيتي المحيط وتونس الشرقية فإن الموانئ الطبيعية بهما تنعدم بكل تأكيد. وفوق ذلك فإنهما بعيدتان عن المناطق المواجهة لبلاد البربر، والتي هي مهيأة - نتيجة لذلك - لأن تكون لها ببلاد البربر علاقات مستمرة.

ولهذا فليس من مصلحة أحد الفاتحين حين يحط قدمه بالأرض أن يحبس نفسه في الجهات التي يظن احتلالها مفيدا له. بل إنه مدفوع لأن

ينشر سيادته على العشائر المهتاجة التي تتهدد فتوحه. فمن السهول الخصبة، يجب عليه أن يقتحم السلسلات الجبلية التي هي مأوى الناهبين. ومن الساحل يجب عليه أن يتقدم حتى الأراضي التي يقطعها الرحَّل، حتى القفار والصحراء.

2

كل هذه العراقل تفسر لنا إذن الانعزال النسبي لبلاد البربر، وضآلة الجاذبية التي كانت لها. فلاشك أن مضيق جبل طارق قد أوقف غير واحد من الشعوب. وكان الونداليون وحدهم، هم الذين عبروه في جموع كثيرة أثناء العهود التاريخية القديمة. ويظهر أن الفينيقيين عندما استوطنوا إفريقيا بصفة دائمة، وجهوا اهتمامهم بالخصوص لاحتلال مدخل البحر الأبيض المتوسط الغربي، كما اهتموا بتنضيد الطريق الرابطة بين إسبانيا والحوض الشرقي لهذا البحر بسلسلة متتابعة من المحطات. أما قرطاجة فإنها لم تكوّن منطقة إفريقية تابعة لها إلا بعد تأسيسها هي بأكثر من ثلاثة قرون، أي بعد أن أصبحت تملك إمبراطورية استعمارية شاسعة. وكذلك رومة فإنها لم تثبت أقدامها في تونس إلا لتمنع عدُوّتها قرطاجة من العودة ثانية إلى الحياة، ولتحمي المرور بين حوضي البحر الداخلي. وقد انتظرت ما يقرب من مائتي عام قبل أن تستولي على جميع السواحل الإفريقية حتى أقصى الغرب. وكان الدفاع عن نفسها هو الذي جعلها تتقدم في مناسبات متتابعة بحدودها نحو الجنوب.

ومع هذا، فإن التجانس الواقع بين شمال إفريقيا والبلاد القريبة منه جدا، كان لابد له أن يخلق حضارات وسيادات مشتركة. فقرطاجة

استولت على إسبانيا وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط، واستولت على البلاد التونسية وسواحل الجزائر والمغرب، وتمسكت بصفة خاصة، وفي عناد طويل، بالمحافظة على ممتلكاتها بصقلّية وبتوسيع هذه الممتلكات بالجزيرة، وذلك نظرا لأن قرطاجة أرادت لنفسها السيادة على المضيق المؤدي إلى الأبيض المتوسط الغربي. أما رومة فقد أخضعت جميع شعوب البحر الداخلي وأشاعت العادات اللاتانية بإفريقيا، كما أشاعتها بإسبانيا وغاليا. ومن بعض الوجوه فإن الولاية البروقنصلية كانت من بين الولايات الإفريقية التابعة لرومة تتمة لإيطاليا. أما موريطانيا الطنْجِية فكأنما كانت شارعا مؤديا لإسبانيا. وانتشر الإسلام بعد ذلك بكثير في إسبانيا وصقلية، بعد استيلائه على أرض المغارب، فكانت الحضارة الإسلامية بالمغرب وغرب الجزائر شبيهة بتلك التي في الهضبة الإيبيرية. وكذلك البرتغاليون وشارل الخامس فإنهم حاولوا التوطن بشمال إفريقيا الذي استولت عليه فرنسا من بعد.

منذ قرون وتجارة بلاد البربر تقع على الخصوص مع البلدان الأخرى التي بالأبيض المتوسط الغربي، الأمر الذي جعل قيمة للمدن البحرية في هذه المنطقة. وحتى عندما لم تكن أرض المغارب متصلة مع أروبا بروابط سياسية وعلاقات سلمية، فإنها لم تستطع الاستغناء عنها، فاكتسبت ثروة على حساب أروبا عن طريق القرصنة في عهد الونداليين وعهد الأتراك.

والرأس الشمالي الشرقي لإفريقيا الصغرى، لا يبعد عن صقلية إلا بمائة وأربعين كيلومترا، وهو يفصل بين حوضي البحر الأبيض المتوسط. وبينما أحد الوجهين الصغيرين لهذا الرأس ينظر للحوض الشرقي من هذا البحر، إذا بالرأس الشمالي الغربي يحدّ مع إسبانيا

قاصية حوضه الغربي. فنحن إذن نفهم أن إفريقيا الصغرى استخدمت ممرا وميدانا للصراع بين الغرب والشرق، وأن المقادير جعلتها إلى حد ما شبيهة بفرنسا التي سيطر على تاريخها التعارض والعمل المتبادل لكل من الجنوب والشمال. فعلى عتبة الحوضين كانت قرطاجة مدينة صُور جديدة، أخضعت قسما من الغرب ونشرت به سلعها وحتى أخلاقها ومعتقداتها. ثم قهرتها رومة عدوّتها التي مكّنت في جميع الغرب لحضارتها اللاتانية. وفي إفريقيا على الخصوص تم إحكام تحضير الاندماج في المسيحية بين العناصر الشرقية والغربية أثناء القرون الميلادية الأولى. وكذلك فإن استيلاء الونداليين الجرمانيين الذين قدموا عن طريق أقصى الغرب قد حلّت محله الإمبراطورية البيزنطية التي كانت في آن واحد وريثة لرومة وممثلة للحضارة الإغريقية الشرقية. وأخيرا فإن الفتح العربي قد فصم العلاقات التي كانت تربط إفريقيا إلى العالم اللاتاني، ومكّن فيها للدين الإسلامي وللغته.

إن إفريقيا الشمالية التي عزلها البحر والصحراء، والتي يصعب الدنوّ منها واقتحامها، قد كانت مع ذلك مدعوة لأن تحتل مكانا في تاريخ البحر الأبيض المتوسط وذلك بفضل موقعها الجغرافي.

ولكنها أخذت أكثر مما أعطت. فأهلها كانوا غير قادرين على جمع كل قواهم في كتلة واحدة، وعلى تأسيس إمبراطورية، وعلى خلق حضارة خاصة بهم. ولذلك تقبلوا أو تحملوا السيادات المادية والتأثيرات الأخلاقية التي تقدمت إليهم على التعاقب. بل إنهم ساهموا في نشرها : قد استولى محاربون من الليبيين أو البربر على إسبانيا لصالح قرطاجة والإسلام، كما أن الكتّاب اللاتانيين الكبار الذين هم من إفريقيا المسيحية قد ساعدوا مساعدة قوية على انتصار الدين الذي سينمحي بعد بضعة قرون من وطنهم كليا.

ظروف النماء التاريخي

الفصل الثالث

مناخ شمال إفريقيا في العهود العتيقة

1

هل تغير مناخ الشمال الإفريقي منذ العهود العتيقة ؟ كثيرا ما ألقي هذا السؤال. ولكن الأجوبة غير متفقة. فيجب إذن أن نبحثه عن قرب، لأنه هام جدا. إن شمال إفريقيا أثناء قسم من العهد الذي نكتب تاريخه قد تمتع بازدهار زراعي كبير، لهذا يجب أن نعرف هل السبب الرئيسي لهذا الازدهار هو أن المناخ كان أكثر موافقة للزراعة من المناخ الحالي، أو إنه يرجع على الخصوص لذكاء الناس ونشاطهم ؟ هل يجب أن نكتفي بالتحسر على ماض لن يعود ؟ أو إننا على النقيض من ذلك نطلب منه فوائد تنفع في الزمن الحاضر ؟

ولنذكر قبل كل شيء الخطوط العامة للمناخ الحالي : إن شمال إفريقيا واقع في المنطقة المعتدلة الشمالية، ولكن في القسم الجنوبي لهذه المنطقة. فهو يقع حقيقة بين الدرجة 29 من خطوط العرض الشمالية (أقصى غرب الأطلس الصغير) والدرجة 37 (أقصى الشمال

الشرقي للبلاد التونسية). فهو إذن من جملة البلاد الحارة، غير أن الاقتراب من البحر أو البعد عنه، والاختلاف في العلوّ أوجدا بشمال إفريقيا اختلافات مناخية واضحة.

تعرض هذه البلاد على الأنظار مساحات كبيرة جدا من السواحل التي على طولها يحدث التأثير البحري المعدل طقسا ليس فيه اختلاف كبير بين الدرجات القصوى للحرارة والبرودة. فقلما ينزل ميزان الحرارة إلى ما تحت الصفر - على الأقل أثناء النهار - أو يرتفع إلى أعلى من 30 درجة مئوية. ومع ذلك، فحتى بالقرب من السواحل يجب اعتبار بعض حالات الانخفاض في الحرارة أثناء الليل، ذلك الانخفاظ الذي ينشأ عن الإشعاعات في أوقات الصحو الكثيرة بإفريقيا. والإشعاعات تؤثر في الطبقة السفلى من الفضاء حتى علوّ يقارب المتر الواحد، فكثيرا ما تنزل درجات الحرارة في جزء من الليل لما تحت الصفر بالقرب من سطح الأرض. وقد يكون لهذا الانخفاض في الحرارة تأثير سيء على النباتات. وفي الصيف تكون رطوبة الهواء شاقة، غير أنها تخفف من قوة أشعة الشمس، كما تخفف من التبخر، وعندما تثور ريح السمّوم Sirocco. فإن رطوبة الهواء تطري جفافها اللافح. أما نسيم البحر فيهبّ وسط النهار من مايو إلى شتنبر، ويحمل طراوة منعشة.

ومع ذلك فشمال إفريقيا في مجموعة بلاد الأراضي العالية، حيث الاختلاف بين الدرجات القصوى للمناخ يزيد بقدر ما نصعد في الأرض وبقدر ما نبتعد عن الساحل. وربما نزل مقياس الحرارة بالنهار أثنا، فصل الشتاء تحت الصفر إلى 9 درجات في تيارت و11 في سطيف و13 في باطْنة و5 في الكاف، وإلى 6 بمكتار، كما أن البرودة الليلية التي يحدثها الإشعاع على سطح الأرض كثيرا ما تكون قاسية حتى في

الربيع، الفصل الذي يخشى فيه من الصر Gelée على النباتات بالخصوص، وكذلك شفوف الهواء في أيام الصيف، فإنه يترك لأشعة الشمس كل قوتها فتشتد الحرارة والتبخر، غير أن طرواة الليل تحدث أثرا منعشا على الإنسان والحيوان، كما أن الإشعاع يولد الندى الذي يتدارك إلى حد ما آثار التبخر النهاري.

أما الرياح، فمن بينها ريح السَّموم ذات الطابع الخاص والاسم سيروكو Sirocco الذي يظهر أنه من أصل إغريقي (من لفظ يعني جفف) يطلق في أروبا الجنوبية، وأحيانا حتى في شمال إفريقيا على رياح شتوية بليلة وحارة، الأمر الذي نشأ عنه التباس. لذلك يحسن الاحتفاظ بكلمة سيروكو لريح جافة، وفقا للأصل الذي ذكرناه للفظ. هذه الريح لا تثور أحيانا إلا بمساحات محدودة جدا، ويكون نزولها عموديا، من غير أن تحدث اضطرابا في الفضاء، وتدوم زمنا قصيرا على العموم. وأحيانا هي ريح صحراوية يختلف اتجاهها - نتيجة لذلك - من الجنوب الشرقي إلى الجنوب الغربي. ويمكن أن تعبر البحر وتتقدم حتى الشواطئ الجنوبية لإسبانيا وموسطة إيطاليا. وهي تهبّ بشدة فيسود الفضاء بالغبار الذي تحمله، كما تمتص النداوة وتصحبها حرارة لا تطاق، إلا إذا مرّت بجبال يغطيها الثلج. ومع أنها قد تثور في أي فصل من فصول السنة، فإن ثورانها يحدث بالصيف على الخصوص، حيث تدوم بضع ساعات، كما أنها قد تدوم عدة أيام. أما تأثيرها فيوهن الكائنات الحية، وييبس النباتات كذلك، ويُخشى منها بالخصوص على أشجار الكرم. أما الحبوب التي تحصد في أوائل الصيف فإنها أقل تعرضا لمخاطرها.

وعدا السّموم، فإن الرياح المهيمنة في الشتاء هي التي تهبّ بالمغرب من الجنوب الغربي ومن الغرب، والتي تهبّ بالجزائر وتونس من

الشمال الغربي. وكثيرا ما تهبّ الرياح الأولى الجنوبية الغربية والغربية في هذا الفصل بالجزائر أيضا. أما الرياح المهيمنة بالصيف فهي التي تهبّ على المغرب والجزائر من الشمال الشرقي وتهبّ على الساحل الشرقي لتونس من الشمال الشرقي ومن الشرق.

إن كميات الأمطار الهاطلة بغزارة أو بقلة، وتوزيع هذه الأمطار توزيعا يفيد النبات، كل ذلك هو الذي يعطي القيمة الاقتصادية للمناطق، أكثر مما تعطيها نوعية التربة، بما في المناطق من أرض للزراعة والأشجار، ومن البراري التي لا تنبت سوى ما يساعد على تربية أنواع من الحيوان القنوع، وأخيرا بما فيها من الصحارى.

والأمطار تحملها إلى شمال إفريقيا رياح الجنوب الغربي، ورياح الغرب، ورياح الشمال الغربي. وكلها تكون قد مرت فوق مساحات بحرية شاسعة، فتصل محملة ببخار الماء. وقد لوحظ بالجزائر - البلاد التي درست أحوال طقسها بصفة جيدة - أن الأمطار التي يكثر ورودها وتشتد غزارتها ويتسع مدارها هي التي تهب بها رياح الشمال الغربي.

ويتفق الفصل المطير مع الشتاء تقريبا، الذي يدخل فيه النصف الثاني من الخريف وبداية الربيع، أي بين أكتوبر - نونبر وأبريل - ماي. هذه الحقبة من السنة هي التي تسيطر فيها الرياح التي تحدثنا عنها والتي يتلاقى ما تحمله فوق الأراضي الإفريقية من بخار الماء مع طقس بارد إلى حد ما، ويرغمها على التكثف. والغالب أن هذا الفصل يكون فيه حقبتان من التهاطل الغزير جدا، أي يكون له حدّان أقْصَيان تفصل بينهما حقبة جفاف.

وتهاطل الأمطار بين ماي وأكتوبر يكون قليلا، ويكون عادة على دفعات قصيرة في شكل عاصفة. أما في يوليوز وغشت فالأمطار تكاد

تنعدم كليا، لأن الرياح المهيمنة وهي الشمالية الشرقية، لا تجد على سطح الأرض البالغة الحرارة الظروف المناخية اللازمة لتكاثف بخار الماء، الذي ابتلت به حين مرورها فوق الأبيض المتوسط. وفوق الجبال ينشأ عن الحرارة المبكرة ذوبان سريع للكتل الثلجية، التي في بلدان أخرى واقعة شمال الشمال الإفريقي، تكوّن احتياطيا يغذي الأنهار في نهاية الربيع وأثناء قسم من الصيف. وهكذا فالثلوج تغيب في ماي عن القمم العليا لبلاد القبائل، ويستمر وجودها أكثر من ذلك بالأطلس المغربي الذي هو أكثر ارتفاعا، ويكون لها أثر محمود على كميات المياه بالمجاري. ومع ذلك، فحتى بهذه الناحية تكون الثلوج قد انتهى ذوبانها تقريبا في شهر يوليوز، وربما يستثنى من ذلك الشقوق العميقة التي لا تدفئها الشمس. ونحن نعلم كيف يكون في الصيف أكثر أنهار الشمال الإفريقي.

والحق أن هذا الفصل الجاف تطريه بعض الشيء النداوة التي يحملها نسيم البحر أحيانا إلى بعيد بالداخل. وكذلك الأمر بالنسبة للطل. كما أن هذا الفصل حينما لا يأخذ كثيرا من الخريف والربيع، ولا يعجز الحبوب التي تنمو أثناء فصل الأمطار، لا يمكن إلا أن يفيد الكرم والزيتون. بل إنه - بصفة عامة - لا يسئ مطلقا للأشجار، لأنها تتحمله بما لها من مقاومة. ولكنه يحدث مصاعب كبيرة في تربية الماشية.

أما الفصل البليل فإن عدم انتظامه يجرّ أخطارا كثيرة على الزراعة. فأحيانا تنعدم الأمطار تماما أو تكاد. ولكن لحسن الحظ إن ذلك قليلا ما يحدث. ثم إن كميات المطر المتهاطل بمكان واحد، كثيرا ما يحدث فيها تغير كبير من سنة لسنة، وذلك من غير أن نستطيع نحن، تفسير أسباب هذه الاختلافات.

ومع ذلك فإن كمية التهاطلات أقل أهمية من كيفية توزيعها. فمعدل الأمطار بسيدي بلْعبّاس لا يصل إلى 400 ميلمتر، ولكن نظرا لحسن توزيع هذا المقدار فإن المحاصيل تكاد تعطي دائما أحسن النتائج.

ولكي يمكن حرث الأرض الجافة ورمي البذور فيها، يجب أن تمطر السماء في أكتوبر نونبر، ثم في مارس أبريل كي يتسنى للنباتات التي تكونت أن تتشرب النداوة اللازمة لها لتقاوم الشمس التي أصبحت حارة فيتم نضجها. ولابد بين ذلك من تعاقب المطر والصحو. ولكن كثيرا ما تبطئ أمطار الخريف، الأمر الذي يؤخر رمي البذور، ويؤخر – نتيجة لذلك – وقت النضج الذي يجب أن يقع عندما تكون حرارة الشمس قد اشتدت، وأن يكون وقوعه بعد الوقت الاعتيادي لهطول المقاييس العليا من أمطار الربيع. والجفاف غالبا ما يستمر أسابيع، وقد يستمر شهورا، فيمنع البذور من الإنبات كما يمنع نمو النباتات. وأخيرا فإن أمطار الربيع، وهي الحاسمة بالنسبة لمحاصيل الحبوب يمكن أن تنعدم تماما، أو أن لا تكون كافية.

هذه الأمطار المتقلبة ليست صالحة دائما، فكثيرا ما تهطل على شكل سيول. وذلك هو ما يفسر لنا مثلا لماذا مدينة الجزائر بمائة يوم مَطير لها حصة من الماء أعلى مما لمدينة باريس، حيث معدل الأمطار هو مائة وأربعون يوما. (الجزائر 682 مم – باريس 594 مم). فعوضا عن الأمطار الرقيقة المستمرة التي تبلل التربة دون أن تغرقها وتخربها، والتي تتغلغل إلى باطن الأرض وتكوّن به خزانات المياه التي تفور عيونا، عوضا عن ذلك، تتفجر الزوابع حقيقة. فينتج عن ذلك، خصوصا بالأراضي الطينية وهي كثيرة بإفريقيا، أن تسيح المياه بسرعة على الأرض المائلة، وعلى التربة التي قست بفعل الشمس. فتعظم السيول

بالشعاب التي تقصدها المياه، وتجري هذه السيول بسرعة تقوى بقدر ما تشتد وُعورة المنحدرات غالبا، وبقدر ما تختلف صعوبة مستويات الأرض بهذه المنطقة المضطربة. فتجرف في طريقها كميات كبيرة من التربة النباتية، وتحدث الانهيارات كما تحفر الأخاديد العميقة. وينشأ عن فيضاناتها خسائر عظيمة، ثم لا تلبث مجاريها أن تخلو من الماء. وقد تفاقمت منذ عدة قرون مساوئ هذا السيحان المائي بقطع الأشجار واقتلاعها كما سنرى من بعد. ثم إن المساحات المنبسطة القليلة التشرب، التي تنزل عليها هذه الأمطار الجامحة من السماء مباشرة أو تنبعث إليها من الجبال، تتحول فجأة إلى بحيرات سريعا ما تضيع، إذ التبخر شديد لشدة حرارة الشمس، وكذلك لشدة الرياح في الغالب. أما الأراضي اللينة، فقد يحدث أن تبتل في تربتها كثيرا إلى حد أن الزراعات الخريفية تجري في أحوال سيئة، فتفسد البذور المزروعة في الحقول والجذور الناشئة.

وربما اتخذت التهاطلات الغزيرة شكل أعاصير البرد التي تعيب بالأرض العالية في التل، أي في القسم الصالح للزراعة من بلاد البربر. وتحدث هذه الأعاصير على الخصوص بفصلي الشتاء والربيع. وفي هذا الفصل الأخير يمكن أن تضر كثيرا بالنباتات.

تتلقى مختلف مناطق الشمال الإفريقي مقادير مختلفة جدا من الأمطار. فعَيْن الدراهِم بجبال خمير مثلا لها معدل سنوي هو 1641 مم، بينما سكيكْدة لها 766 مم وقُسنْطينة 632 مم، وباطْنة 399 مم، وتبِسّة 344 مم، وبسْكرة 170 مم، وهذا التفاوت في المقادير يرجع لعدة أسباب: كالقرب أو البعد عن البحر، واختلاف العلو، وسهولة أو صعوبة وصول التيارات الهوائية المحملة ببخار الماء لهذه الأرض أو تلك حسب تعرضها.

لقد سبق أن قلنا إن الرياح البليلة تهب من ناحية الجنوب الغربي – والغرب والشمال الغربي، بعد مرورها على المحيط أو الأبيض المتوسط. لهذا فإن السواحل التي تجدها هذه الرياح في طريقها، وتكون محظوظة بالأمطار هي الساحل الغربي والشمالي للمغرب، وساحل القطر الجزائري والساحل الشمالي للقطر التونسي. ومع ذلك، فليست حظوظها هذه ذات صفة موحّدة، لأن البحر الأبيض المتوسط أمام المغرب وولاية وَهْران أقل اتساعا منه أمام الجزائر وقُسّنطينة وتونُس.

إذن فهو يعرض للتبخر مدى أقل اتساعا، لكن بالزاوية الشمالية الغربية للمغرب يقع التعويض عن هذه المضرة بالرياح الآتية من المحيط. وأبعد من هذا المكان نحو الشرق فإن رياح الجنوب الغربي التي تصل إلى ولاية وهْران تكون قد تجردت فوق الأطلس المغربي عن أكثر ما بها من النداوة. ومن ناحية أخرى تصل رياح الشمال الغربي – وهي مَطيرة بنوع خاص – إلى الساحل الإفريقي بعد أن تكون قد تجردت تقريبا عن بخار الماء فوق الجبال العليا بالجنوب الإسباني، ومن دون أن تعوض ما فقدته تعويضا كافيا أثناء عبورها للبحر الأبيض المتوسط. وأبعد من هذا المكان نحو الشرق، ابتداءا من مصب نهر شليف تقريبا، تحمل هذه الرياح النداوة فوق البحر الداخلي الذي يتسع أكثر فأكثر، وتأتي لتتصل بمقدمة الساحل الذي يكاد يعترض الاتجاه الذي تسير فيه. فينتج عن ذلك كثرة الأمطار، خصوصا بسفوح سلسلات جبال بلاد القبائل الكبرى والصغرى. والمعدّل هو : 594 مم بتِنِيس Tenes، 766 مم لمدينة الجزائر، 1306 مم لبجاية، 1007 مم لجيجل، 738 مم لعنّابة، 861 مم للقالة و1094 مم لطبَرْقة.

وأما الساحل الشرقي التونسي فلا تصله الرياح الشتوية المطيرة إلا بعد مرورها على مسافات ترابية تكون قد تخلت بها عن جل بخارها المائي. لذلك فإن المعدلات هنا أقل بكثير: 471 مم لمدينة تونس، 415 مم لسوسة، 246 مم لصَفاقس، 190مم لقابِس.

ولكي نفسر الفرق الواقع في مقدار التهاطلات، يجب أن ننظر باعتبار إلى ارتفاع الأرض، سواء كانت قرب البحر أو بالداخل. فالمعلوم أن الجبال تدفع لتكوين الأمطار : ذلك أن التيارات التي تأتي لتصدمها تبرد بحركة التصاعد التي تتحملها هذه التيارات وبملاقاتها مع درجات حرارة أخفض من درجاتها هي. وذلك هو ما يدعو إلى تكاثف البخار الذي تحمله وإلى سقوط المياه، أو إلى سقوط الثلج إن كان الهواء أقل من درجة الصفر. فبقدر ما يرتفع الجبل، وبقدر ما يكون وعرا هذا الحاجز الذي يعترض به الرياح البليلة، تكون الأمطار غزيرة. غير أن الجبال تكوّن حواجز حقيقية توقف المطر بكيفية تكاد تكون تامة، وعلى حساب الأراضي الممتدة بالخلف، خصوصا إذا كانت الأراضي الخلفية شديدة الانخفاض وعميقة. لذلك فإن التيارات التي تكون قد تجردت من أكثر ندواتها عند تخطّيها عقبات الجبال تسخن أثناء انحدارها، ولا يتكاثف ما بقي بها من بخار الماء إلا بصعوبة شديدة. فيمكن إذن تقرير مبدإ هو : في شمال إفريقيا تتلقى الجوانب الشمالية الغربية والشمالية لإحدى السلسلات أو الهضاب أمطارا أغزر بكثير مما تتلقاه الجوانب الجنوبية والجنوبية الشرقية منها. ونتيجة لذلك، فإن الجهات ذات الارتفاع العالي بالقرب من الساحل يكون لها على العموم مناخ شتوي أكثر مطرا من الأراضي الخفيضة. فينزل في بني رتَن (فورناسيونال Fort-National) في بلاد القبائل الكبرى 1121 مم من المطر، وفي طاهَر بالقبائل الصغرى 1153 مم. والحد الأقصى يكون في

جبال خمير بعين الدراهم، حيث لوحظ معدل 1641 مم على ارتفاع 1019 من الأمتار. وإذا وجدت جبال تعوق وصول الرياح البليلة، فإن بعض الجهات القريبة جدا من الساحل لا تتلقى على النقيض من ذلك، سوى تهاطلات ضئيلة، كما هي الحال بشعب نهر شليف وهو منخفض تفصله عن البحر سطوح الظهْرَة وسلسلاتها شمالا، وتشرف عليه من الجنوب سلسلة الوَنْشَريس التي تجلب الغمام : فالمعدل بمدينة الأصْنام هو 442 مم. ومثل ذلك يقال عن الشعب العميق لنهر الصمام الذي تقف جبال الجُرْجرة حاجزا قويا بشماله وشماله الغربي. وخلف خمير تنحط الحصة السنوية إلى 478 مم بسوق الأربعاء في سهول نهر مجَرْدَة.

أما في الداخل، فإن تناقص الأمطار يجب أن يكون على نسبة المسافات التي تفصل مختلف المناطق عن البحر الذي تأتي منه التيارات البليلة. وذلك إذا كانت التضاريس والوضعية لا تفرض تغيرات مهمة.

فإذا كانت التضاريس على شكل سطوح متتابعة ومتفاوتة في العلو، بحيث تواجه الرياح المحملة ببخار الماء، وإذا كانت هناك ممرات تنحدر نحو الشاطئ وتسمح لهذه الرياح بالمرور، فإن الأمطار يمكن أن تنفذ إلى بعيد. وهكذا فإن موسطة البلاد التونسية بسهولها العالية وبنجودها التي تقطعها شعاب عميقة، وبالجدار الذي تكوّنه السلسلة الزوجيطانية، تقدم مساحة شاسعة للتكاثف رغما عن كون الجبال الواقعة بالشمال تنزع للرياح قسما كبيرا من النداوة، لأن هذه الجبال ليست بالغة الارتفاع حتى تنزع النداوة كلها. فمدينة الكاف تتلقى من المطر 543 مم، وسوق الجمعة 508 مم، وقد سبق لنا القول عن الجزائر بأن ممر شعب مينا يمكن التيارات البليلة من الوصول بسهولة لناحية

تيارْت، حيث الارتفاع العالي يساعد على التكاثف. فالمعدل هناك هو 477 مم. وبعيدا إلى الجنوب تحدث السلسلات الجبلية المهمة اشتداداً في الأمطار. بينما التهاطلات في براري ولايتَيِ الجزائر ووَهْران لا تتعدى 200 مم، وتصل لما يقارب ضعف هذا المقدار بالأطلس الصحراوي الذي يكوّن الحد الجنوبي لهذه البراري أي 389 مم للبياض Geryville و380 مم لجَلْفة.

لكن في الخلف، أي في الجنوب والجنوب الشرقي للحواجز التي تكونها الجبال في الداخل، يظهر بوضوح تناقص الأمطار. فيكون 398 مم في سيدي بلعبّاس، وخلف سلسلة تسالة 433 مم بسطيف، وخلف سلسلة بابور (حيث يتعدى المعدّل مترا واحدا) 269 مم في بوسْعادة، وفي منخفض الحضْنة الذي تحده من الشمال دائرة من الجبال العليا 450 م تقريبا في أنفيدة، وأقل من ذلك خلف السلسلة الزوجيطانية : 364 م للقيروان. أما بالجنوب المغربي مباشرة خلف الجدار الأطلسي العظيم، فالسماء صاحية طوال السنة تقريبا بناحية وادي سوس وعلى الطرف الشمالي للصحراء، ولا تتلقى الأغواط وبسكرة الواقعتان بالسفح الجنوبي للأطلس الصحراوي سوى 187 مم و170 مم من الأمطار.

وهكذا، فإن أهم الخواص للمناخ الحالي بإفريقيا الشمالية هي : وجود فصل يكاد يكون جافا كلية مدة أربعة أشهر على الأقل، (إذ تختلف مدة الفصل حسب البلاد)، وأحيانا وجود جفاف يكاد يكون مطلقا طيلة السنة. وفي فصل الأمطار، كثيرا ما يكون المطر غير كاف وغير موزع توزيعا حسنا. وتحدث بالفصل حقب يطول فيها أمد الجفاف، كما تقع التهاطلات على شكل عواصف. أما التبخر فقويّ وسريع. وكذلك توزيع الأمطار فليس فيه أي تساوٍ بين الجهات العالية أو الخفيضة،

المضطربة أو المنبسطة، التي غالبا ما تتداخل فيما بينها على صورة كبيرة من الفوضى.

2

وكيف كان مناخ هذه المنطقة في العهود العتيقة ؟

إنه بكل تأكيد قد تغير منذ ظهور الإنسان، (وليس للمؤرخين أن يصعدوا إلى أبعد من ذلك). ففي عهد البليسْتوسين أو العصر الرابع، أثناء العهد الذي ترجع إليه أقدم الأدوات الحجرية التي عثر عليها بالشمال الإفريقي، لابد أن المناخ كان بصفة عامة أكثر حرارة وأكثر رطوبة مما هو عليه اليوم، كما توضح ذلك عظام بعض الحيوانات التي جمعت مع هذه الأدوات مثل الفيلة (من أنواع المسمى Elephas atlanticus) ووحيدات القرن وأفراس النهر. أما الصحراء، فلاشك أنها كانت أكثر جفافا من ناحية البحر المتوسط، ولكنها مع ذلك لم تكن بيداء. ويجوز ان نفترض أن الصحراء ربما اخترقتها بعض الحيوانات التي تحتاج إلى مقادير كبيرة من الماء، لأنه لوحظ وجود تشابه بين عدة أنواع من الحيوانات التي كانت موجودة آنذاك في أرض المغارب وبين التي تعيش حتى اليوم بالسودان وإفريقيا الجنوبية.

أثناء قسم من العصر الرابع في المدة الطويلة الواقعة بين عهدين جليديين، كان يهيمن على أوروبا الوسطى مناخ حار شديد الرطوبة، إذ ذاك ظهرت بهذه المنطقة أقدم آثار الصناعة الإنسانية. ثم جاء عهد بارد بليل، تبعه مناخ كان في آن واحد جافا وباردا تميز من الناحية الحيوانية بوجود الأيايل (الرنة Rennes) فاستعمل الإنسان المغارات للسكنى. ولابد أن هذا البرد كان له تأثير أيضا على شمال إفريقيا، حيث سبب

اختفاء او تناقص بعض أنوا ع الحيوان، وربما دفع الإنسان إلى الالتجاء للكهوف. غير أنه كان هنا أقل وضوحا منه في موسطة أروبا. والظاهر أن أرض المغارب لم تكن بها ثلاجات مطلقا، حتى فوق جبال الأطلس المغربي المرتفعة جدا.

وإنه لمن الصعب ان نقول بتدقيق كيف كان مناخ شمال إفريقيا طوال سلسلة القرون التي انطوت من هذا العهد البدائي للإنسانية إلى العهد الذي ترجع له أقدم الوثائق التاريخية، أي إلى أواسط الألف الأولى قبل الميلاد. وحسبنا أن نلاحظ في التل أن الحيوانات المصاحبة لآثار الصناعة المتأخرة من العهد الحجري القديم ولصناعة الحجري الجديد كانت لاتزال تعيش، او ربما أنها عاشت بالبلاد، وأن الأنوا ع التي لا توجد اليوم لم تكن ممثلة إلا بقلة. ولنذكر من ناحية أولى كثرة قطع بيض النعام، الحيوان الذي لا تناسبه سماء بليلة جدا. كما نذكر من ناحية أخرى كثرة الحلزونات التي لا يرضيها هواء جاف جدا.

فالمحطات وكذلك مراكز العمل سواء بالعراء أو بالكهوف التي عثر عليها بعدة نقط من التل، كانت تقع حيث الأحوال المناخية لا تزال تساعد على تأسيس مراكز للإقامة الدائمة.

وتوجد ببلاد البربر – وعلى الخصوص في جنوب ولاية وهران – رسوم على الصخور، أنجز بعضها على الأقل في العهود المتأخرة من صناعة العصر الحجري الجديد. ويظهر أن هذه الرسوم تشير إلى أن مناخا كثير الاختلاف عن المناخ الحالي قد كان يهيمن آنذاك على الجبال التي تحد الصحراء، إذ كثيرا ما تظهر الفِيَلة والجواميس الضخمة بين الحيوانات المرسومة. وبالتأكيد فإن الأطلس الصحراوي ليس حتى اليوم أرضا صحراوية، إذ يهطل ما يقارب 400 مم بجبل

عمّور، بقدر ما يهطل بسيدي بلعباس وتقريبا بسطيف وسوسة، ثم إن عيون الماء به ليست منعدمة، كما به غابات ومراع حسنة. ومع ذلك فليس من المحتمل ان تجد به قطعان الفيلة اليوم - وفي الفصل الحار - الطعام والشراب اللازمين لحياتها. أما الجواميس - وهي حيوانات تستحم في الصيف وتخشى الحرارة الجافة - فلست أدري كيف يمكن أن تعيش بالأطلس الصحراوي. وعلى هذا، فافتراض حدوث تغير بمناخ هذه الجهة ليس مخالفا للصواب.

إن الصحراء خارجة عن نطاق المنطقة التي هي موضوع دراستنا. ولكن من المفيد أن نتحدث عنها هنا ولو باختصار، لأن مناخها قد امتد إلى البلاد المجاورة لها شمالا أو كان له تأثير واضح إلى حد ما على هذه البلاد.

من المعروف لدى الجميع أن محطات ومصانع من عهد ما قبل التاريخ، توجد بكثرة مدهشة بشمال الصحراء الكبرى. كما أن أهمية الكثير من هذه المراكز تشهد بأنها عمّرت عهدا طويلا باستمرار أو مع تقطع ومعاودة. وعثر بهذه المراكز على مهاريس ومدقات ومسحقات كانت تستخدم في سحق الحبوب. فهل كانت بعض أجزاء الصحراء صالحة للزراعة آنذاك ؟ هذه الاكتشافات تأذن على الأقل بطرح السؤال.

وما وقع العثور عليه من أدوات وأسلحة حجرية يقدم أكثره لنا نماذج من العصر الحجري الجديد Néolithique والتي اكتشفت بالجنوب الشرقي للجزائر - أي بالعرق الشرقي Erg oriental - تقدم لنا قرابة متينة، وفي الأغلب شبها تاما بالأدوات التي عثر عليها بمصر، والتي يرجع تاريخها لعدة آلاف من السنين قبل الميلاد. ولكن يجب أن نحذر

من تأكيد التوافق الزمني بين الحضارات الحجرية في المنطقتين. فمن الممكن كما سنرى، أن الحضارة الحجرية التي حافظت على نفس الطرائق ونفس الأشكال، تكون قد استمرت بالصحراء مدة أطول مما استمرت بغيرها.

وعلى هذا، فإن عددا كبيرا من السكان قد عاشوا بالصحراء الحالية خلال مدة مشكوك في حدودها، وإن كانت طويلة جدا، تنزل على ما يظن حتى العصر التاريخي، وتصعد دون شك إلى أبعد من ذلك بكثير.

ويجب أن نلاحظ أن المحطات ومراكز الصناعة بالصحراء لا توجد إلا بالجهات التي لاتزال حتى اليوم أو كانت من قبل منخفضات، أي محلات طبيعية لتجمع المياه وسهولا غرينية للأنهار القديمة. لكن هذه الشعاب البليلة إلى حد ما، تشق أرضا كان مناخها قد أصبح كثير الجفاف حتى عاشت به النعامة، لأن بقايا من بيض هذا الطائر تكثر بجل محطات الحجري الجديد بالصحراء.

ثم إن المنخفضات نفسها صارت شيئا فشيئا غير صالحة لسكنى الإنسان، إذ تكونت فوق الرسوبات الغرينية كثبان من الرمل التي شكلتها الرياح، فسدّت هذه المنخفضات وجزأتها وعرقلتها وملأتها. فالمياه التي كانت فيما مضى تجري على وجه الأرض أو على عمق قريب، تمتصها اليوم كثبان الرمل، فتختفي في باطن الأرض أو تتبخر بسرعة في أحواض لا منفذ لها. ومع ذلك فيمكن التساؤل : هل احتقان الشعاب كاف لتفسير تغير كلي مثل هذا في النظام المائي ؟ وهل تناقص الأمطار لم يسهم في جفاف الصحراء تدريجيا ؟

ولنعرض الآن للعهد الذي لدينا وثائق تاريخية عنه. هذا العهد كما سبق لنا القول يبتدئ بالقرن الخامس قبل الميلاد. كما أن الفتح العربي في القرن الميلادي السابع يكون من ناحية أخرى نهاية للعصور العتيقة بالشمال الإفريقي.

وسنتكلم أولاً على الصحراء. هناك نصوصن كثيرا ما ورد ذكرها، تؤكد أن هذه المنطقة صحراء آنذاك. فقد تحدث هيردوت عن أن وراء المنطقة البحرية والمنطقة التي تسكنها الحيوانات المتوحشة : «منطقة رمال شديدة اليُبس، وخالية من كل شيء...، منطقة من الرمال تمتد من طيبة المصرية حتى أعمدة هِرَقْل... ، وخلف ذلك في اتجاه الجنوب وداخل ليبيا، فالبلاد قاحلة ليس فيها ماء ولا حيوانات ولا مطر ولا أشجار، وليس بها أي نداوة...». وتحدث ثيوفْراسْت Théophraste عن : «قسم ليبيا الذي لا ينزل به مطر، وفيه نخل عال جميل». وسْترابون الذي يرينا خلف الساحل ليبيا الداخلية : «بيداء صخرية، رملية، جرداء ويابسة». ويكتب دِيودور الصقِلّي أن : «المنطقة الممتدة بالجنوب (لسِرنيكا) ... جرداء تنعدم بها المياه الجارية. فهي تشبه البحر، ولا يلقى النظر بها تنوعا، وتحيط بها الصحاري التي يصعب اختراقها، فلا يرى المرء فيها طائرا ولا بهيمة باستثناء الغزال والثور» - أي لاشك أن ديودور يقصد نوعا من بقر الوحش يعرف بالثيتل - «ولا يرى نباتا ولا أي شيء يمكن أن يريح النظر. وبعيدا في اتجاه الداخل لا تعرض عليك الأرض سوى أكداس من الكثبان». ويقول بومْبونْيوس مِيلاَPomponius Méla بدوره : «أكبر قسم من إفريقيا غير محروث وتغطيه رمال عقيمة، أو هو خال بسبب جفاف السماء والأرض». والريح الجنوبية الشديدة :

«تدفع فيها الرمال كأنها أمواج البحر». ويذكر في الأخير سينيك : «إذا كانت مفاوز أثيوبيا جافة، وإذا كان المرء لا يجد بداخل إفريقيا سوى القليل من عيون الماء فسبب ذلك - حسبما يقولون - أن طبيعة السماء بها محرقة وأن الصيف يكاد يسيطر بها دائما. لذلك فإن الرمال القاحلة التي لا تتلقى المطر إلا لماما فتشربه بسرعة، تمتد في غير شجر ولا زراعة». ومع أن هذه النصوص المختلفة تشتمل على بعض التفاصيل التي تمكن مجادلتها، فإنها لا تدع شكا في أن طبيعة الصحراء كانت جرداء في العهد التاريخي.

ويحسن مع ذلك أن نلاحظ وراء المغرب، في مكان بالساحل المحيطي يمكن أن يكون هو الساقية الحمراء بين رأس جوبي Juby ورأس بوجْدور، دخل حَنّون القرطاجي نهرا كبيرا تتصرف فيه مياه بحيرة واسعة، وأن هذه البحيرة تتصل بنهر آخر كبير مملوء بالتماسيح وأفراس النهر. فهذه الإشارات التي سنعود إليها من بعد، توضح أن ناحية الساقية الحمراء كانت في القرن الخامس قبل الميلاد ذات مظهر مغاير جدا لما هي عليه اليوم. غير أن هناك نصوصا أخرى تؤكد كذلك أن الساحل المحيطي بجنوب المغرب قد كان قاحلا. فلابد إذن من أسباب خاصة نفسر بها وجود النهرين والبحيرة الوارد ذكرها عند حنّون، ويجب أيضا أن لا نستنتج من هذه الأقوال أن الصحراء - على عمومها - كانت تتمتع بطقس أكثر رطوبة مما هي عليه اليوم، إذ سبق أن ذكرنا الكتّاب الذين شهدوا بعكس ذلك.

ومع ذلك، فلربما كان من الممكن اختراق الصحراء بسهولة، وإذا كانت معلوماتنا ضئيلة جدا عن العلاقات التي كانت لشمال إفريقيا مع السودان في العصور العتيقة، فإن ذلك ليس كافيا لإنكار وجود تلك

العلاقات، لأن القوافل كانت تخترق الصحراء منذ العهد القرطاجي. وبعد ذلك بكثير، أي عند نهاية القرن الميلادي الأول، فعل مثل ذلك جيوش على رأسها قادة رومانيون يصحبهم بعض الكرمانطيين. وقد كانت هناك مسالك تنطلق من خليجي سرْتَة وتتغلغل في الصحراء. ولهذا فإن الازدهار الكبير لمدن طرابلسية ولِلَبْدة Leptis Magna وأويا Oea وصَبْراتة، وجغْتي Gighti، كما أن استيلاء الرومانيين على بعض الواحات التي تتحكم من وراء حدود الإمبراطورية في هذه المسالك، كل ذلك لا يمكن تفسيره إلا بوجود مبادلات نشيطة مع السودان، هذه المبادلات التي كان سادة الساحل يستفيدون منها ويعملون لحمايتها، وإن كان وقوعها لا يمكن أن يتم دون وساطة الأهالي. فلابد أن الكرمانطيين كانوا حماة لقوافل الصحراء على غرار ما يفعله الطوارق الحاليون.

وزيادة على هذا، فنحن نعلم أن الجمل لم يستخدم إلا في عهد متأخر بشمال إفريقيا لحمل الأثقال. فصورته لا توجد ضمن الرسوم الصخرية لما قبل التاريخ. وليس هناك أي لفظ بربري يطلق عليه، كما يقول باسّيه. ولم يرد له ذكر مطلقا في عهد السيطرة القرطاجية. أما پْلين الشيخ الذي تكلم على جمال خراسان Bactriane والذي صرح أن الشرق هو وطن هذه الحيوانات، فيظهر أنه كان يجهل وجودها بشمال إفريقيا، بينما هي موجودة بهذه المنطقة منذ عهد يولْيوس قَيْصر، غير أنها كانت تستعمل – لاشك – على نطاق ضيق. وأول نص يطلعنا على عدد كبير من الجمال المستعملة في النقل بالحاشية الصحراوية، هو النص الذي يرجع تاريخه لعهد الإمبراطورية السفلى. وتؤكده وثائق أثرية ترجع هي أيضا لعهد متأخر. ولربما ستساعد الاكتشافات المقبلة

على تحديد تاريخ يكون أكثر قدماً في الاستعمال العام للجمل في القوافل الصحراوية، غير أن سُكوت پْلَين الذي زار إفريقيا، يظهر أنه يمنع من الصعود إلى ما فوق نهاية القرن الأول.

في عهد هيرودُت، القرن الخامس قبل الميلاد، كان الكرمانطيون وهم أهل الفزّان اليوم يركبون عربات تجرها أربعة أفراس، ويطاردون بها الأثيوبيين سكان المغاور Troglodytes الذين ربما كانوا يعيشون في التّبسْتي. أما الأثيوبيون الغربيون المقيمون بساحل المحيط، أمام جزيرة صِرْني (القرن) Cerné – في أرض محظوظة حقيقة، وإن كانت الصحراء تحيط بها – فإنهم اشتهروا في القرن الرابع قبل الميلاد بكونهم فرسانا أقوياء. وزيادة على الخيول، كان للكرمانطيين ثيران يستخدمونها لركوبهم، وربما في حمل أثقالهم، كما أنهم قد يكونون استخدموا الحمير، ولو أن النصوص لم تشر لذلك مطلقا. ومن ناحية أخرى إذا كان الجمل يستطيع أن يمكث ثمانية أيام – وحتى عشرة – دون أن يشرب، فإن الفرس (و لا نتحدث عن الثور) يطلب الماء كثيرا. فهل كان الأهالي السائرون خلال الصحراء على متون الجياد أو على العربات يلتزمون بحمل المؤن لريّ حيواناتهم وإطعامها أياما عديدة ؟ إن الأمر ممكن، ومع ذلك نكون على صواب حين نفرض أن المحلات التي بها ماء وكذلك المراعي لم يكن بعضها آنذاك بعيدا عن البعض طوال الصحراء. ولقد تناقص عدد هذه النقط المائية وهذه المراعي نتيجة لتقدم الكثبان التي تراكمت أكثر فأكثر في الشعاب القديمة بالصحراء. ولربما أن الأمطار التي كانت تزوّد هذه النقط المائية قد صارت هي أيضا ضئيلة. ولكن يجب أن لا نغفل عن وهن مثل هذا الفرض.

وهل هناك من أسباب لقبول كون المناخ قد تغير بالحاشية الشمالية للصحراء، وبالقسم البربري الذي يحد الصحراء من شمالها ؟ لقد كتب لابْلانْشير في هذا الموضوع قائلا : «هناك قسم من ليبيا الشمالية حدث فيه بالتأكيد، ومنذ العصور التاريخية، تغير كبير في النظام المائي وفي مقياس الرطوبة وفي الطقس. والذي لاشك فيه مطلقا هو أن جنوب هذه المنطقة – أي شمال الصحراء – قد كان، ولو في جزء منه، منطقة بليلة جدا مليئة بالمستنقعات، ومليئة طبعا بالنباتات العالية، وكان هذا البلل يمتد إلى الأراضي المجاورة. فمنخفض الشطوط التي سُمّيت دائما باسم المستنقعات والسباخ في النصوص اللاتانية والإغريقية، والأغوار المبتلة أيضا في النجود غير العالية، وحوض هذا النيل، هذا النيجر، هذا النهر المبهم الذي كاد جل الكتّاب القدماء يخالونه خلف بلاد البربر، ثم هذا المنخفض الموجود فعلا بسفح الأطلس الصحراوي، والشعاب الندية حتى اليوم بجبل عمور والأطلس المغربي، والممرات الطويلة في شعاب إيغرْغار وبوادي مِيَا وفي وادي غِيرْ Ghir ووادي جْدي وكذلك التي بوادي دَرْعَة ووادي الگير Guir ووادي زَسْفَانة الذي هو حتى اليوم مستنقع بين إگلي وفِگيك، إن كل هذا كان فيما مضى كغابة تتصل أو لا تتصل بغابات الشمال... فكيف حصل التغير ؟ كيف انتصر اليُبْس، واختفى النبات، وهاجرت الحيوانات إلى الجنوب ؟ ذلك ما لا نستطيع قوله. ولكن هكذا كان... فحين استعمرت إفريقيا كليا كانت الزراعة إذا اصطدمت بالصحراء تصطدم فيها حقيقة بأرض جرداء... وقد اكتشفها المعمرون كما هي اليوم، ولو أنها كانت آنذاك في حالة أحسن، لأنها كانت غنية جدا بينابيع المياه وبالآبار والواحات».

إن دراسة النصوص لا تساعد على الأخذ بهذا الرأي. إذ من المحيط إلى أعماق سرْتَة الكبرى نجد جل شهادات الإغريق واللاتانيين، القديم منها والحديث، تقدم لنا سلسلة من المناطق الجافة التي كأنها الدهاليز الحقيقية للصحراء. وسنبحث هذه في الأول، ثم نقدر قيمة الشهادات الأخرى التي يظهر أنها تناقضها.

حول القرن الخامس قبل الميلاد سار حَنّون مع ساحل الصحراء بمجرد ما اجتاز اللكْسوس Lixus أي وادي دَرْعة بجنوب المغرب، وفي أواسط القرن الميلادي الاول التقى القائد الروماني سويطونْيوس باولينيوس بالصحراء بمجرد ما اجتاز الأطلس المغربي سائرا في اتجاه نهر جير Ger، الذي ربما هو اليوم وادي گير Guir، فوجد أمامه مفاوز من الرمل الأسود الذي تبرز فيه هنا وهناك صخور تظهر محروقة. ومع أن الحملة وقعت في فصل الشتاء فإن الأرض غير صالحة للسكنى بسبب الحرارة. أما النهر الذي قال عنه الملك يوبا إنه هو النيل، والذي ينبع من جبل بجنوب موريطانية غير بعيد من المحيط، فقد كان يجري خلال منطقة «جرداء، محرقة، رملية عقيمة». وبجنوب الأوْراس كانت واديس Vadis التي هي باديس اليوم «في رمال جافة أحرقتها الشمس».

أما بالجنوب التونسي فإن شُطّ الجريد وشط الفْجَاج لم يكونا في العهود العتيقة أوسع مما هما عليه الآن، لأن قشرة الملح التي يتكون منها سطحهما لم يقع فيها انخفاض، بل تلقى بأحد المسالك في وسط شط الجريد نفسه بئرا قديمة (هي البئر المنزوف) وقد سدت منذ عهد بعيد، وكانت تتزود الماء العذب من باطن الأرض. والملاحظ هو أن جنبات هذه البئر لا تعلو على الأرض المحيطة بها إلا بقدمين أو ثلاث. فيتضح أن القشرة الملحية التي كانت فيما مضى تمكن من الوصول

للماء بالبئر ما كانت لتعلو أو على الأقل لم تكن تتجاوز المستوى الحالي. والطريق العسكرية الكبيرة التي أنشئت في بداية العهد المسيحي، والتي تربط تبِسَّة بقابِس، كانت تمر بقاصية الشمال الشرقي لشط الفجاج. وقد عثر على نصب موضوع بالميل 155 من هذه الطريق على جانب الشط قرب آخر الأراضي الصالحة للزراعة. فيمكن أن نستنتج من ذلك أن هذا المكان لم يكن به فيما مضى، وكما هو شأنه اليوم، سوى غبار ملحي يسهل اختراقه حتى على العربات الثقيلة.

أما تكابس Tacapes (قابس) فإنها حسب قول پْلين الذي يظهر أنه زارها كانت واحة وسط الرمال، وبجنوب الشطوط بالجنوب الشرقي لقابس وعلى طول الطريق الواصلة بين ولاية أفريكا وسرنيكا، حاول الناس التعويض عن فقدان الماء الجاري بالآبار والصهاريج التي بلغت شدة احتياج المسافرين لها إلى حد أن الكتب القديمة في الرحلات قد نصت عليها. وكما قال شاعر إفريقي : إنها لمعجزة أن ترى شعاب خليجي سرتة تأتي بالماء للبحر. فمن الساحل الذي تقوم به مدينتا صبراتة وأويا (طرابلس) إلى حافة النجد الصحراوي لا توجد آثار بالناحية المنبسطة المعروفة اليوم بإسم جفارة، لأن الحياة بها ليست ممكنة لا في أيامنا ولا في القديم. وساحل سرتة الكبرى كما يقول سترابون : هو أرض رملية جافة، قاحلة. وتصف أبيات للشاعر لوكان Lucain هذا الساحل، حيث لا ينزل المطر، وحيث الحرارة والغبار يحولان دون أي نبات. وقبل ذلك بخمسمائة سنة ذكر هيردوت أن الأرض الواقعة بداخل سرتة محرومة من الماء.

هكذا كان الساحل. أما الداخل، وراء حافة النجد الصحراوي الذي تطل أجرافه عموديا على جفارة، فكان هو الصحراء المحرقة التي لا

تسكن. يقول پْلين «تمتد البيد الشاسعة في اتجاه أرض الكرمانطيين» ويقول عنها كوربوس Corippus «أمكنة حزينة، ليس بها أي وسيلة للسير ولا للحياة». فالذاهب من الساحل عند الكرمانطيين، كان يسير مع مسالك حفرت بها الآبار. لذلك فالأهالي إذا أرادوا قطع المواصلات يكفيهم أن يردموا هذه الآبار بالرمل.

ولنذكر الآن بعض الشهادات التي يظهر أنها تناقض ما سبق أن أوردناه.

عندما وصل حَنّون بالمحيط إلى مصب لكْسوس Lixus الذي قال عنه أنه يأتي من الجبال العالية، وجد نهرا كبيرا وعلى ضفافه الرحّل يرعون قطعانهم. ونحن نعلم أن اللكسوس هو وادي دَرْعَة. لكن هذا الوادي اليوم لا يأتي بالماء للبحر إلا إذا حدثت فيضانات استثنائية. فمن المنعطف الذي يتحول به نحو الغرب أي على طول 600 كيلومتر، إنما هو مجرد حفير واسع كما أنه لا يجري إلا في باطن الأرض. ولاشك أنه يجب اعتبار عمليات السقي التي تنزف النهر في القسم الأعلى من مجراه. لكن الغالب على الظن أن مياهه لن تصل للمحيط حتى ولو اختفى سبب هذا الإنهاك. ويظهر أن الأمر كان بعكس هذا في عهد حنّون، الذي ما كان ليصف المهاد الجاف بكونه نهرا كبيرا. وبعد ذلك بكثير وصف بوليب أو أكريبا Agrippa الساحل وأشار إلى وجود التماسيح بدارات Darat الذي يظهر أيضا أنه يطابق دَرْعة. وهذا يجعلنا نعتقد أن الجبال التي كانت تزود هذا النهر وروافده بالماء، وهي الأطلسان الأعلى والصغير، قد كانت تتلقى من المطر أكثر مما تتلقاه اليوم.

والتماسيح كانت كذلك موجودة بواحد أو بعدة من الأنهار التي كانت مثل درعة تنزل من الأطلس، والتي كان القدماء يسمونها باسم

النيل. فهل كان لهذه الأنهار من الماء أكثر مما لوادي زيز Ziz ولوادي الگير Guir اليوم ؟ يجب أن لا نسارع إلى تأكيد ذلك. فالتماسيح يمكنها أن تعيش بالأنهار التي ذكرناها، بل إنها لتعيش حتى اليوم في الصحراء.

وعلى مسافة قليلة جنوبي وادي جدي، الذي ينبع قرب الأغْواط ويسير في اتجاه الشرق حتى الجنوب الشرقي لبِسْكرة، يمكننا أن نتتبع أثر حفير عظيم على طول نحو 60 كيلومترا. وبالطبع، فإن الناس رأوا فيه منشأة للري الزراعي، لأنه يبتدئ من النهر. فإذا كان الأمر كذلك فيكون من اللازم التسليم بأن وادي جدى كان يعطي مقدارا عظيما جدا من الماء ليكفي للسقي على نطاق واسع. لكن لم يعثر على أي قطعة من السد العظيم الذي كان لابد من بنائه في مهاد النهر. على أن هناك أسبابا أخرى تدفع إلى الاعتقاد بأن هذا الحفير كان علامة للحدود الرومانية، وأنه كان جافا دائما.

وعلى ضفاف وادي يتل Itel الذي يمتد بموازاة وادي جدى على نحو 50 كيلومترا إلى الجنوب توجد آثار لحلل Bourgs من بناء الأهالي. غير أن وضعية بعض المنشآت الدفاعية تؤكد أن البناة اجتهدوا في تقليد الحصون الرومانية أو البيزنطية. وتوجد على أرض هذه المباني القديمة قطع من الفخار المزجج من صنع روماني. وهناك عدة من المقابر التي هي عبارة عن تلات جنائزية Tumulus، أي نوع المدافن الذي يصعد لاشك إلى عهد عتيق عال. ولكن عثر بها على أدوات من الحديد وعلى فخار مزجج، فلعل سكان القرى المجاورة هم الذين أقاموها. وليس متأكدا أن جميع هذه الخرائب ترجع لعهد واحد، لأن المراكز المسكونة قد انتقلت من مكان إلى مكان غيره. وعلى كل فإنها، إن لم تؤكد سكنى عدد كثير جدا من الناس بها، فهي تشهد على الأقل

بوجود عوائق الاستقرار في بلاد لم يعد يعمرها سوى الرحل في قسم من السنة لا غير. فهل يجب التسليم بحدوث تغير في المناخ ؟ وهل يكفي، خلافا لذلك إقامة السدود على الأنهار وحفر الآبار لإيقاظ الحياة الماضية ؟ ذلك ما نجهله.

إن الخرائب الرومانية تكثر بالجنوب والجنوب الشرقي لسلسلة الأوراس، كما يكثر وجودها بالجنوب الشرقي لقابس بين جبال مطماطة والبحر. ونحن نعلم أن القدماء عند استغلالهم لهذه المناطق قد وقع اختيارهم على الزراعات التي تتطلب القليل جدا من الماء، وأنهم استعملوا بأشد الحصافة والتبصر كل الإمكانيات التي قد تقدمها لهم الأنهار النازلة من الجبال، وكذلك الأمطار والمياه الباطنية. ومع ذلك فقد ندفع إلى التساؤل : ألا تدل هذه الآثار على كثرة من السكان قد لا يحتملها المناخ الحالي في ظروف مماثلة من استثمار الأرض واستخدام للماء الموجود ؟

بعدما وصف پْلين الشيخ ولاية أفريكا، تحدث عن سرْتَة الكبرى والصغرى فقال : «للذهاب إلى سرْتَة الصغرى يجب اختراق صحاري من الرمل تعيث فيها الحيّات، ثم تأتي منابت Saltus» يملأها عدد كبير من الحيوانات المتوحشة. وأبعد من ذلك إلى الداخل، تأتي البراري حيث تعيش الفيلة، وقريبا من ذلك البيد الشاسعة، ومن خلفها الكرمانطيون الذين يبعدون عن الأوجيليين Augiles باثني عشر يوما من السير.

وتبعا لهذه البيانات، فإن المنابت Saltus والأمكنة التي تسكنها الفيلة لابد أن تكون بين خليج قابِس والفزّان على حافة النجد الصحراوي، في المنطقة التي يدعوها الأهالي باسم الجبل (أي جبال مطماطة، وجبل الدويرة وجبل نفّوسة).

وقد أشار هيرودت إلى وجود غابات كثيفة على بعد 200 فرسخ من البحر، بجبل النعَم Grâces الذي ينزل منه نهر كينبس Cinyps أي في الأراضي الواقعة جنوبي لبدة Leptis Magna ويتحدث نفس المؤرخ بحماس عن الأرض التي يمر بها هذا النهر فيقول : «تساوي ناحية كينبس أحسن أراضي العالم في الحبوب، ولا تشبه في شيء باقي ليبيا. فالتربة سوداء تسقيها العيون، وليس لها أن تخشى الجفاف ولا كثرة الأمطار لأن المطر ينزل بهذا القسم من ليبيا. والمحاصيل لها مع البذور نفس النسبة التي لها بأرض بابل ... ثلاثمائة للواحد».

فالأراضي العالية التي تكاد من وراء لبْدة تطل على الساحل توقف الرياح المحملة بالنداوة وتتلقى بعض الأمطار. وترى بها حتى اليوم «مغارس جميلة من الزيتون وحقولاً واسعة للشعير وما لا يحصى من قطعان الأغنام» . ومع ذلك فليست هي هذا الفردوس الذي وصفه هيرودُت. ولعل المبالغة أتت ممن أخبره.

ومع أن ناحية الجبل تتلقى هي أيضا قليلا من المطر فإنها أقل حظا. ومن المستحيل لاشك أن تعيش بها الفيلة.

فدراسة النصوص والوثائق الأثرية التي بين أيدينا يمكن أن تسمح لنا إذن ببعض التردد. لكن يظهر أكيدا أن الحاشية الشمالية للصحراء قد كانت منطقة جافة في نصف الألف من السنين قبل الميلاد، وكذلك في نصف الألف التي عقبته. ويجوز مع ذلك الاعتقاد بأن الجبال التي تحدّها كانت تتلقى مطرا يفوق قليلا مطرها اليوم. لقد كانت إذن تستأثر بماء السماء، وكانت أشجارها على ما يظن أكثر من اليوم، كما كانت تربتها النباتية أكثر، لذلك كانت أصلح لاختزان هذا الماء الذي كان يخرج في الوديان من بعد أن كان في باطن الأرض خزانات يوصل إليها بالآبار.

وبقي علينا أن ندرس مناخ بلاد البربر الحقيقية: هناك من يقدم بعض الحجج ليدعم بها أن المناخ كان أكثر رطوبة في العهود العتيقة منه اليوم.

فهناك أولاً نضوب الماء أو انخفاضه في العديد من العيون والآبار، ولذلك عدة أسباب يمكن ذكرها لتفسير ما حدث. أولاً : التناقص في الأمطار. ثانياً : تفاقم سيحان المياه نتيجة لقلع الأشجار ولتخريب السطوح التي بنيت متدرجة بالمنحدرات، ولتناقص المساحات التي ليّن الحرث تربتها. ثالثاً : تحركات التربة التي يمكن أن تغير منافذ عيون الماء أو تسدها أو تخرب الخزانات الباطنية. ونحن نعرف أن الهزات الأرضية كثيرة الوقوع بشمال إفريقيا. على أن هذين الفرضين الأخيرين، هما من قبيل الظواهر المحلية ولا يرجعان للمناخ. ونضيف لذلك أن جفاف بعض الآبار واختفاء بعض العيون لا يحدثان – دون شك – إلا في الظاهر، إذ العيون والآبار إنما تكون قد سدت لأن الأهالي يهملون تنظيفها، خلافا لما سار عليه القدماء الذين كانوا يبحثون عن العيون بكامل العناية. فقد كان بإفريقيا الرومانية – وحتى الوندالية – مهندسون خاصون (عرفاء المياه Aquilegi)، كانت تلك حرفتهم. وأحيانا كانت فوهة العين تغير مكانها فحسب. كما يلاحظ أحيانا أخرى أن إحدى العيون تنقطع عن الجريان مدة من الزمان ثم تعود للظهور، وأن عينا أخرى كانت ثرّة في العهد الروماني، بينما هي اليوم ضئيلة، وقد كانت تجري بغزارة منذ أعوام قليلة. فلابد أن تعزى هذه التقلبات إما لحركات الأرض، وإما لتعاقب عهود مطيرة وأخرى جافة.

وعلى هذا، فلكي تكون للحجة قيمة حقيقية، يجب دعمها بمشاهدات حقيقية متعددة وشاملة لمناطق واسعة. ولحدّ اليوم، ليس لدينا سوى ملاحظات كأنما حدثت بالصدفة. والكثير من هذه الملاحظات يجب أن لا يعزب عن بالنا، ولو أننا لا نستطيع اليوم استخراج نتائج عامة منها. فقد لوحظ بأرض النمامشَة بالجنوب الغربي لتبِسّة وجنوبها أن «عدة آبار عتيقة قد نظفت في أيامنا وبقيت جافة». كما أن تنظيف عدة آبار بين قَفْصَة وصَفاقِس وحول صفاقس لم يعط نتائج أحسن. فالأمر كما نرى يتعلق بأرض قليلة البعد عن الصحراء.

إن جل العيون التي كانت تزود المراكز الرومانية بالماء لاتزال موجودة حتى اليوم، بل إن ذلك هو السبب الذي جعل قرى المعمّرين تكاد تقوم دائما حيث توجد الخرائب الأثرية. فهل نقصت كمية مياهها منذ نحو من خمسة عشر قرنا ؟ لا يمكننا أن نجيب بتدقيق. غير أن هناك مشاهدات قليلة تساعد على الاعتقاد بأنه لم يحدث تغير في كميات المياه وذلك في أماكن مختلفة.

لكن بعض الجهات التي تغطيها الخرائب الأثرية الشاهدة على كثرة في السكان، تقل بها العيون كما يقل الماء بالعيون، وربما أن العيون لا توجد بالمرة. تلك هي حالة المناطق الواقعة بشرق سعيدة وبالجنوب والجنوب الشرقي لتيارات، وبجنوب سطيف، وبالجنوب الشرقي لخَنْشلة وبجنوب تبسّة، وكذلك الأمر بالنسبة لجنوب البلاد التونسية. فلابد من أن ندرس بأناة الوسائل التي استخدمها القدماء بهذه المناطق المختلفة ليحصلوا – بقطع النظر عن العيون – على الماء اللازم لهم، والذي يظهر أنهم استعملوه لشرابهم على الخصوص. ويحسن أن نبحث هل هذه الوسائل تساعد اليوم أيضا على كثافة في السكان. ومن ناحية أخرى،

نكرر هنا ملاحظة ذكرت من قبل، وهي أن هذه الخرائب الأثرية يمكن أن توزع على سلسلة طويلة من القرون. فوجود حلتين تتقابل آثارهما على مسافة قليلة، يمكن أن لا تكونا متعاصرتين وأن إحداهما حلّت محل الأخرى. وقد يكون من الخطأ القيام بعملية جمع حسابي لسكان هذه المراكز المختلفة لمحاولة تحديد عدد كلي ينطبق على عهد بعينه. إذن فليس هناك من حجة قاطعة تؤكد تناقص عدد العيون، ولا تناقص الأمطار كنتيجة لذلك.

وقد وقعت الإشارة إلى بعض غابات هي في حالة تدهور، وأن الأشجار تموت من الإنهاك، دون أن تعوّض بما يكفي من الأشجار الفتية. فتناقص الأمطار هو السبب في ذلك. وهنا أيضا لابد من إجراء بحث دقيق لتحديد نصيب الناس والماشية، ونصيب المناخ في التلف التدريجي لهذه الغابات.

وإذا كان الجفاف حقيقة، فلابد من أن نحدد حسب المستطاع متى بدأ وقوعه، فلربما كان ناتجا عن أسباب حديثة.

وأخيرا، كثيرا ما أوردوا، كحجة على تغير المناخ، وجود الفيلة بشمال إفريقيا في العهود القديمة.

إن النصوص التي ذكرت وجود الفيلة بهذه المنطقة كثيرة جدا، وتتعلق بعهد يشمل عدة قرون. فحَنّون ذكرها حول القرن الخامس ق.م بعهد يشمل عدة قرون بالمغرب الحالي. وهيرودُت في نفس القرن ذكر وجودها بالأرض التي تقع حسب قوله غربي نهر تريتون Triton أي في تونس ثم يأتي أرسطوطاليس الذي قال : بناحية أعمدة هرَقْل توجد الفيلة كما بالهند، وأكاثارْخيد Agatharchide وبوليب الذي أكد أن ليبيا

مليئة بالفيلة وحكى نقلا عن الملك كلوسا ابن مسنيسا أن بجنوب إفريقيا (يقصد بلاد البربر) على تخوم أثيوبيا تكثر نيوب الفيلة إلى حد أن الناس استعملوها في صنع الأعمدة والسياجات وتحويط زرائب الماشية، ويأتي ذكرها كذلك عند الشاعر مانيليوس والملك يوبا الذي يظهر أن إيليان Elien قد استقى منه فقراته المتعلقة بالفيلة الإفريقية. وسْترابون الذي يشير للفِيَلَة بموروسيا Maurusie (المغرب) وكذلك پْلين الذي يذكرها بنفس البِلاد وبجنوب السرْتَـتَيْن، ثم عند جوفُنال ولوسيان اللذين يتحدثان عن العاج الذي يبعث به الموريون إلى رومة، كما يتحدثان عن قطعان الفيلة التي توجد بموريطانية.

إننا نعلم أن الفيَلة لعبت دورا مهما في الجيوش القرطاجية في القرن الثالث قبل الميلاد. وإذا ذكرنا بعض الأرقام فإن بوليب يشير إلى 140 فيلاً استُعملت في صقلية أثناء الحرب البونيقية الأولى. وكان بأيدي حنّون وعَملْكار 100 ثم 80 منها أثناء حرب المرتزقة. وحَسدرَبَعْل، صهر عَملْكار، كَان معه 200 منها في إسبانيا. كما أن حسدربَعْل ابن جيسكون كان معه 140 في الجيش الذي قاده قرب أوتيكا في سنة 204، وكان مع حَنيبَعْل 80 فيلا في زاما. وكانت أسوار قرطاجة تضم حظائر لإيواء 300 فيل، وكان الملوك النوميديون والموريون يملكون أيضا فيلة للحرب، فقد ضاع منها ليوغُرْطة 44 في إحدى المعارك، كما أن يوبا الأول ساق 120 منها لأنصار بومبي لمحاربة يوليوس قيصر.

وقد كانت هذه الفيلة تصطاد في إفريقيا الشمالية، إذ يحكي أبيان Appien قائلا : «أثناء الحرب البونيقية الثانية، لما ذاع أن سيپْيون يتجهز للعبور إلى إفريقيا، بعث القرطاجيون حسدَرَبَعْل بن جيسكون لاصطياد الفيَلة». ولابد أنه لم يذهب للبحث عنها بعيدا عن قرطاجة، لأن

الوقت الذي قضاه في إنجاز مهمته كان قصيرا جدا. وهناك حَسدربَعْل آخر، لعله صهر عملكار استطاع الدخول في أرض النوميديين ليصطاد الفيلة «التي تكثر بنوميديا» كما يقول فرونْتان. أما پومْپي فقد اصطاد الفيل بنوميديا. وكذلك الفيلة التي صفها يوبا الأول في معركة ثابسوس «كانت حديثة العهد بالخروج من الغابة».

ويروي پْلين الشيخ وبْلوتارْك Plutarque نقلا عن يوبا الثاني كيف يجري العمل في إفريقيا لاصطياد هذه الحيوانات. وقد أصبح الفيل وكأنه رمز لهذه المنطقة، فظهر رسمه على نقود الملوك الأهالي. وأخذه الفن الهيلِنِسْتي فشخّص إفريقيا ووضع على رأسها إهاب الفيل. أما الرومانيون الذين سبق لهم أن حاربوا الفيلة الأسيوية التي كانت في جيش بيرْهوس Pyrrhus فإنهم عرفوا الإفريقية منها أثناء الحروب البونيقية. وتعلموا الاسم الذي كان يسميها به الأهالي والقرطاجيون، وهو كيْسَار Kaisar (أو صيغة أخرى تقارب هذه).

يقول الكتّاب كانت الفيلة الإفريقية أصغر جسما وأقل قوة من الفيلة الهندية. والصور – ولو أنها ناقصة الصنع – ترينا أن هذه الفيلة كانت لها أنياب أطول، ولها على الخصوص آذان أعرض وضعت كالمروحة، وتلك خاصية توجد في النوع الإفريقي الحالي (Elephas Capensis). ورغما عن كون هذه المسألة غامضة، فيمكن القول بأنها انحدرت من النوع المسمى Elephas Africanus أي الفيل الإفريقي المتميز عن الفيل الأطلنطي Elephas atlanticus، والذي عاش بعد هذا الأخير.

إن أكثرية النصوص التي أخبرتنا بوجود الفيلة لا تعارض بأي شيء من التدقيق عن تقسيمها الجغرافي، وإن كان بعضها يعطينا في هذا المجال معلومات مفيدة. ولنذكّر أولاً بالنصوص التي تشير إلى

وجود الفيلة بجنوب بلاد البربر على حاشية الصحراء، وهي : النصان اللذان يشير پْلين فيهما إلى وجودها خلف السدرتين، والنص الذي يرويه نفس الكاتب عن پوليب، وفيه ذكْر لكثرة الفيلة بتخوم أثيوبيا. كما كانت موجودة حسب بْلين وإيليان بسفح الأطلس الأعلى المغربي، كما كانت حسبما يظهر على منحدري الجبل، لأن كلام پْلين تظهر منه الإشارة لوجودها بالمنحدر الجنوبي، قرب الصحراء مباشرة. وهناك نصوص تتعلق بمناطق أبعد إلى الشمال، فحَنّون بعد ما مر أمام رأس سلويس Soloeis (رأس كنْتان Cap Cantin) وصل في نصف يوم أمام سبخة مليئة بالقصب العالي، وكان بها فيلة مع حيوانات أخرى كثيرة. وحسب قول پْلين كانت أحواز سلا عند مصب النهر الذي يحمل نفس الاسم (هو اليوم أبو رقراق) مليئة بقطعان الفيلة. ويشير إليها كل من أرسطوطاليس وپْلين بأعمدة هِرَقْل. ونحن نجهل أين كان يوجد نهر أميلو Amilo الواقع في غابات موريطانية، الذي كانت تأتيه الفيلة لتتطهر فيه باحتفاء عند ظهور الهلال الجديد، كما تقول الأسطورة التي ذكرها پْلين ونقلها عن يوبا دون شك. وهناك وثائق من العهد الروماني ذكرت في موريطانية القيصرية ونوميديا وبولاية أفريكا أمكنة لها أسماء ذات مغزى : إيلفَنْطاريا Elephantaria التي ربما كانت بسفح الجبال المشرفة على متيجَة، وكَسْتلوم إيلفَنْتوم Castellum Elephantum غير بعيد من قُسّنْطينة، وإيلفَنْطاريا قرب مجاز الباب (بشعب مجَرْدة). فمثل هذه التسميات يظهر أنها تؤكد أن هذه الأسماء عاشت طويلا بعد اختفاء هذه الحيوانات. وهكذا فبولاية وَهْران شرقي تِلِمْسان، نجد عينا للماء تسمى عين تالوت، بينما تلوت (كذا) ربما أنه هو اللفظ المؤنث أو الدال على التكرار والمبالغة لكلمة إيلو Ilou، ومعناها الفيل في عدد كبير من اللهجات البربرية.

وقد اختفت الفيلة من شمال إفريقيا في القرون الميلادية الأولى. ففي القرن الميلادي الرابع ذكر ثِميسْتيوس Thémistius أنها لم تعد موجودة بهذه المنطقة. وفي القرن السابع كتب إيزِدور الإشبيلي قائلا: «كانت موريطانيا الطنْجية فيما مضى مليئة بالفيلة، أما اليوم فالهند وحدها تنتجها». وهذا الاختفاء لم يكن سببه الحتمي التغير في المناخ. فالعمليات التي كانت تجري على نطاق واسع لاصطياد هذه الحيوانات المستعملة في الفرجات، وحب اقتناء العاج كافية لتفسير سبب اختفائها. وقد اختفت اليوم الأسود بسرعة من الجزائر، وينتظر أن تختفي منها النمور كذلك مع أن المناخ ليس له يد في شيء من ذلك.

ولا نلقى أي نصّ من العهد الكلاسيكي يشير إلى وجود أفراس النهر أو وحيد القرن في بلاد البربر الحقيقية. فأفراس النهر التي ذكرها حَنّون، كانت تعيش بعيدا إلى الجنوب، ربما في ناحية الساقية الحمراء. والفيل إذن هو الوحيد من بين الحيوانات الضخمة لإفريقيا الوسطى الذي تأكد وجوده بشمال إفريقيا في العهد الذي يعنينا.

ولكي يكون قد استطاع الحياة بها منذ أقل من عشرين قرنا وفي أحوال اعتيادية، كان لابد أن يجد في كل وقت كميات كبيرة من الماء والنبات. ولا تزال هناك حتى اليوم جهات يمكن أن يقضي بها فصل الجفاف دون أن يموت من ظمأ أو جوع كالريف وسفوح الأطلس المغربي مثلا، حيث ذكرت النصوص القديمة وجوده. لكن اعتمادا على المعلومات الأخرى التي لدينا عن مناخ بلاد البربر، يمكن أن نفرض أن الفيلة عرفت في غير هذين المكانين ظروفا قاسية في المعاش أثناء القرون السابقة لاختفائها. ويسوغ الاعتقاد بأن هذه الفيلة بقايا حية من

مجموعة حيوانية خاصة بمناخ أكثر رطوبة، وأنها تجمعت ربما - في بضع مناطق إذا غادرتها ماتت.

هذه هي البراهين التي ذكرت تدعيما لنظرية تغير المناخ، وهي كما نرى تستحق الدرس، ولكنها لا تستدعي التصديق وهي على كل حال لا تؤكد أن التغيير قد كان عميقا.

فالذين يقبلون التغير يحاولون تفسيره بأسباب عدة، فتارة يعزون ذلك لظواهر عامة، كتأثير تغير مكان محور الأرض، وتغير نظام الرياح في الجزء الجنوبي من المنطقة المعتدلة الشمالية. وهذه كلها افتراضات واهية. إذ يستحيل أن نؤكد حدوث تغير في وضعية خط القطبين، منذ العهود التاريخية إلى حد التأثير في المناخ. أما عن الرياح فسنرى من بعد أن المعلومات الضئيلة التي تشتمل عليها النصوص القديمة تتطابق تماما مع النطاق الحالي لهذه الرياح.

وتارة أخرى يتحدثون عن اقتلاع الأشجار وعن الأثر الذي أحدثه منذ العصور العتيقة في مناخ شمال إفريقيا. ورغما عن المبالغات الكبيرة في هذا الشأن، فإن اقتلاع الأشجار قد جرى في كثير من النواحي الواسعة إلى حد ما. ولم تقتصر عمليات الاقتلاع على الغابات الطبيعية، بل تناولت كذلك مغارس واسعة لأشجار الفاكهة. فكانت له نتائج وخيمة، لأنه جعل سيحان المياه أسرع وأشأم، إذ السيحان يعري المنحدرات ويخرب الأراضي السفلية بالسيول وبأكداس من الوحل والأتربة التي يجرها معه. ولابد أنه كان سببا في تناقص الماء ببعض العيون أو في اختفائها، لأنه مكّن مياه الأمطار من الانزلاق على مساحات ملساء، بدل تغلغلها بأناة في الأراضي الليّنة. فهل كان له كذلك تأثيرات كبيرة على نظام الأمطار، كما أكده غير واحد ؟

إن التبخر المنبعث من الغابات يحافظ على النداوة والطراوة في الهواء المحيط. وعندما يتلاقى هذا الهواء، على الخصوص في المرتفعات وفي المنحدرات الوعرة، ويصطدم فوقها بتيارات محملة ببخار الماء، فإنه يزيد من إشباع هذه التيارات ويبردها ويساعد على تكثفها نتيجة لذلك، ثم إن الأشجار تعرقل سيرها إلى الأمام، فينتج عن ذلك وجود ضباب أو تهاطل الأمطار على الغابة وأحوازها المباشرة. ولإحداث هذا الأثر لابد طبعا من أن تكون الغابة واسعة المدى. وعلى النقيض من ذلك إذا كانت أرض الجبال عارية فإنها تدفئ بسهولة في الشمس، كما أن الرياح التي تجول فوقها ولا يعوقها شيء تساهم هي أيضا في جفاف هذه الأرض العارية، التي تدفئ بدورها الهواء الذي يلامسها وتبعده عن نقطة الإشباع.

فلاشك إذن أنه يحسن في هذا المجال النظر بعين الاعتبار لعملية اقتلاع الأشجار التي جرت بكثرة في عدة نقط من الشمال الإفريقي، وكذلك لسيحان المياه الذي عرى الصخور من غطائها الترابي ومن النباتات والأعشاب، وجعلها تشبه الصفائح العاكسة. ولكن يجب كذلك أن لا نغالي في تقدير النتائج، لأن هذه الأمطار الغزيرة والمنتظمة جدا، ما كانت لتمتد بعيدا خلف الغابات التي سببتها. كما أنها كانت تهطل فوق أراضي الجبال التي لم تكن لها قيمة زراعية، نظرا للغابات التي كانت تغطيها أو نظرا لتكوينها الجيولوجي أو لارتفاعها. فهي على أكبر تقدير كانت صالحة لتحافظ في جنبات الغابة على بعض المراعي الصيفية. لكن إذا كانت هذه الغابات التي لم يعد اليوم لها وجود قد ساعدت في تكثير التهاطلات فوق بعض المساحات المحدودة، فإنها لم يكن لها أي تأثير على

النظام الاعتيادي للأمطار، إذ هو نظام ارتبط ويرتبط بأسباب عامة جدا ذات فعالية على مناطق شاسعة من كرتنا الأرضية.

6

إن بعض الأحكام المجازفة التي نجدها عند بعض الكتّاب القدماء، يمكن أن تدفعنا إلى الاعتقاد بأن بلاد البربر كانت فيما يتعلق بالمناخ آنذاك، ذات حظ أسوء من حظها اليوم. فتيمي Timée، الذي نقل عنه بوليب ثم ردّ عليه، هو الذي ادعى أن إفريقيا جميعها رملية، جافة وجرداء، ثم بوسدونيوس Posidonios الذي تحدث عن انعدام المطر بشمال ليبيا، وعن الجفاف الناتج عن ذلك، ثم هذه الكلمات الشهيرة التي كتبها سالوسْت : «والماء سواء كان من المطر أو من العيون، فإنه قليل جدا». والشاعر فِرْجيل ينطق شخصا ألزم بالابتعاد عن إيطاليا بقوله : «سنذهب عند الأفارقة الظماء». ويقول جسْتان : «إن إسبانيا ليست ملتهبة بشمس قاسية مثل إفريقيا» ويؤكد فرونْتان: «أن إفريقيا منطقة بالغة الجفاف». وكذلك يتحدث أومين المعلم الغالي عن البوادي الليبية العطشى.

لاشك أن هذه الأقوال مبالغ فيها. إذ، لكي تكون إفريقيا البلد الذي يشهد بخصوبته الكثير من الأقوال، كان لابد أن ينزل بها المطر، وأن يكون نزوله على الأقل أثناء السنة في الحقبة التي يكون فيها المطر لازما للمزروعات.

وسنذكر الآن سلسلة طويلة من النصوص والوثائق الأثرية التي يظهر أنها تؤكد كون مناخ هذه المنطقة لم يتغير مطلقا، أو أنه تغير قليلا في العهود العتيقة الكلاسيكية عما هو عليه اليوم.

فمن بين الرياح، نجد ريح السيروكو Siroco قد ذُكرت في عدة مناسبات، وسأترجم نصّيْن لكاتبين إفريقيين أعطيا أوصافا دقيقة جدا لتأثير السيروكو. أحدهما هو فيكْتور دوفيتْ Victor de Vite وهو مؤرخ من أواخر القرن الميلادي الخامس. والثاني هو كوريبُوس Corippus من شعراء القرن السادس. وقد تحدث الأول عن جفاف شديد تألمت منه إفريقيا في عهده. وإليك قوله من بين ما أورده من التفصيلات : «وإذا تصادف أنّ نباتاً ناميا في أحد الشعاب الندية قد بدأ يعطي لونا باهتا، عوض اللون الأخضر الذي يكون للكلأ عند ظهوره، فسرعان ما تعالجه ريح محرقة ملتهبة وتيبسه تماما، لأن العاصفة التي تشوي كل شيء تحت السماء الجافة، كانت قد أتت لتغطي البلاد كلها بزوابع غبارها».

ويكتب كوريبوس قائلا : «إن الأفريكوس Africus الذي يتقيأ اللهب قد بدأ يحرق الأرض بهبوبه، ويهد قوة الجنود وحماسهم. إن كل الأجسام تخور بلفح هذه الريح النارية. فاللسان يجف، والوجه يحتقن، والصدر المرتجف يتنفس بصعوبة، والهواء الذي يمر بالأنف مضطرم، والفم يحترق خشنا خاليا من الريق، والنار تلتهم الحنجرة اليابسة. كل العرق ينضح من المسام ويبلل البشرة، ولكن حرارة الهواء المؤذية تجففه وتأخذه دافئا من أديم البدن».

وكما رأينا، فالسيروكو الذي وصفه كوريبوس يدعى باسم الأفريكوس. ويطلق اللاتانيون عادة اسم أفريكوس على الريح التي تهب في إيطاليا من الجنوب الغربي، أي من اتجاه إفريقيا، وهي ريح شديدة يخشاها الملاحون. أما الاسم الذي يطلقه الكتّاب كثيرا على السيروكو فهو أوسْطير Auster وبالإغريقية نُطوسْ Notos ريح الجنوب التام. فهم أحيانا يذكرون بدقة تأثيرات هذه الريح الجافة التي يمكن أن تصل حتى إلى إيطاليا، وأحيانا أخرى يطلقون لفظ أوسطير على ريح شديدة

ومطيرة، تعيث أحيانا بالهضبة. فهي على وجه العموم لا تختلف إلا قليلا عن الأفريكوس. وقد تنبه پلْين للتمييز بين أوسطير إيطاليا وهو بَلِيل، وأوسطير إفريقيا الذي «يجلب حرارة محرقة في زمن به صحو». وعلى نقيض هذا، هناك كتاب آخرون يتحدثون عن أوسْطير بَلِيل حتى في إفريقيا. وهذا الوصف لا ينطبق على السيروكو الحقيقي. والحق أنه يمكن أن نلاحظ أن السيروكو في فصل الشتاء يتلوه المطر (ولا يصاحبه)، على أن الأفضل هو أن نقبل كون هؤلاء الكتّاب قد تذكروا الأوسْطير الإيطالي كثيرا وهم يكتبون.

ومن جهة أخرى، لاشك أن السيروكو الإفريقي هو الذي ذكره كل من هيرودُت ولوكانْيوس على مقربة من سَرْتة الكبرى تحت اسمي نُطوس وأوسْطير، وبالغا جدا في تأثيراته. ونفس الريح هي التي ذكرها سالوسْت من غير أن يعطيها اسما، وأنها بنفس الجهة تهيج زوبعات الرمال. وكذلك فإن السيروكو هو الذي وصفه بدقة مقال من مجموعة أبقّراط حين قال : «إن النُّطوس حار وجاف في ليبيا. وهو ييبس بها منتجات الأرض ويفعل بالناس، على غير علم منهم، نفس الفعل».

لقد سبق أن قلنا أن الأمطار في فصل الشتاء تأتي بها على الخصوص رياح الشمال الغربي. ولم يكن القدماء يجهلون أنها كانت في إفريقيا تأتي من الجهات الشمالية، كما يشهد بذلك أبيات من شعر لوكانيوس، وستاس Stace وروتيليوس نماتيانوس. أما رياح الشمال والشمال الشرقي فتهيمن في فصل الصحو على الساحل، وتثيرها نفس الأسباب التي تثير الرياح الهابة من الشمال في مصر (هي الرياح الإيتيسية عند الإغريق). ويمكن أن نسرد في هذا المجال فقرة من كاليان Galien : (الأراضي المجاورة للبحر في مصر وليبيا، أقل حرارة

في الصيف من الاراضي الداخلية، لأنها تطرى برياح الشمال). أما على الساحل التونسي الشرقي، فالأغلب أن تهب الريح الشرقية طيلة فصل الحرارة، وقد أشار بركوب Procope إلى وجودها في شهر شتنبر.

لقد كانت الشمس في الصيف تبعث بأشعتها المحرقة، ولم يكن المطر ينزل، أو على الأقل لم يكن ينزل إلا لماما، وكانت الأنهار تجف، ومع ذلك، كان الندى يعطي النداوة بالليل للنباتات.

وليس بالإمكان أن نقول هل كانت الحرارة الصيفية الكبرى تبتدئ وتنتهي قبل أو بعد وقتها اليوم، وهل كانت - بصفة عامة - أشد منها الآن. فليس لدينا معلومات دقيقة عن وقت الحصاد. أما قطف الأعناب فهناك نص يذكر نهاية غشت، ونص آخر يذكر الخريف. والوقتان صواب حتى اليوم. (تختلف أوقات القطاف بحسب درجات الحرارة، وارتفاع الأرض وطريقة الغراس). وفي شهر شتنبر من سنة 533 م وقع جنود بلزير Bélisaire في ساحل بيزسينا Byzacéne على كثير من الفواكه الناضجة. ولم يذكر عنها بْروكوب تفصيلا، ولاشك أنها التين والرمّان والعنب، وكلها فواكه نعلم أنها كانت منتشرة جدا بإفريقيا في العهود العتيقة. والخبر يتفق مع وقت نضجها اليوم. أما الزيتون فكان - كاليوم - يجنى ابتداء من نونبر ويستمر حتى أثناء الشتاء.

وفصول الشتاء، هل كانت أكثر أو أقل شدة اليوم ؟ ذلك ما نجهله.

ولكن لدينا بعض المعلومات عن نظام الأمطار. فأحيانا كانت هناك سنوات من الجفاف العظيم، على غرار ما يقع حتى اليوم. فعندما زار هادرْيان إفريقيا سنة 128م (المطر الذي كان قد انحبس منذ خمس سنين، نزل مع قدومه، ولهذا السبب أحبه الأفارقة). كما قال كاتب

ترجمة هذا الإمبراطور. أما أرنوب Arnob فيتحدث في نهاية القرن الثالث عن الجفاف الذي حدث في السنة التي كتب فيها وأصاب حقول الجيتوليين وموريطانية الطنجية، بينما كان الموريون بموريطانية القيصرية والنوميديون يجمعون المحاصيل الوفيرة جدا. وفي سنة 484 م يؤكد كاتب معاصر هو فيكتور دوفيت قائلا : «لم ينزل أي مطر، أية قطرة ماء لم تنزل من السماء». وتحدثت بعض النصوص على انعدام المحاصيل الزراعية، وعلى المجاعات الناتجة طبعا عن انعدام المطر. فقد ذكر تُرْتولْيان : «أنه لم تكن هناك محاصيل زراعية في عهد حكم هيلارْيانوس (حوالي 202 م) كما أن نقشاً من روسْكُناي Rusguniae قرب مدينة الجزائر يمدح جود أحد أعضاء البلدية الذي زود مواطنيه بالقمح، ومنع بذلك من الزيادة في ثمن هذه المادة». كما أن نقشا آخر من ثُبورْنيكا Thuburnica بناحية مجَرْدة يرينا أن القمح ارتفع ثمنه جدا ووصل إلى عشرة دوانق (deniers) للبواصو، الأمر الذي لا يمكن تفسيره إلا بسوء المحاصيل. وكتابة أخرى من مَداورُوس Madauros تتحدث عن وقوع مجاعة. وعلى نقش بروما، يقدم الشكر الجزيل لشخصية كان صاحبها يشغل منصب بْروقُنْصُل سنة 366-367 م لأنه أبعد الجوع عن ولاية أفْريكا، وفي سنة 383 م لم تكن المحاصيل وافية بما يلزم للبلاد، فكان لابد من جلب البذور من الخارج.

ثم إن هذا الجفاف كانت له نتائج وخيمة على الفلاحة، إذ كان أحيانا يمتد عدة سنين. وقد رأينا من قبل أن خمس سنين جرت في عهد حكم هادريان من غير مطر. وبعد هذا بقرن من الزمان يذكر القدّيس سبْريان St Cyprien تناقص الأمطار التي تروي المزروعات، ويرى فيه دليلا يدعم نظريته حول شيخوخة العالم. فلاشك أن البلاد كانت تمر بدورة السنين الجافة.

ومع ذلك، فإن الجفاف المطلق كان – كما هي الحال اليوم – ظاهرة استثنائية، وعلى الأقل بالنواحي الساحلية. وقد ذكر القديس أوغسطين في خطاب ألقاه بمدينة هيبون Hippone أن المطر يكاد ينزل كل سنة بالمحل الذي يوجد هو به على ساحل البحر. وقد يحدث له أن يشتكي من كثرة الأمطار بأحد الفصول الشتوية

والواقع أن توزيع التهاطلات، فيما مضى واليوم، لم يكن محكما، لقد كان المطر يتأخر قدومه فيستولي القنوط على الفلاحين، ويرجو الناس المعونة من المعبود. وكان الوثنيون يتوجهون بالخصوص إلى ربة السماء منزلة الغيث، كما يسميها ترتولْيان. ونرى على الخصوص أن الجفاف كان إذا استمر يمكن أن يؤخر وقت رمي البذور. فالقديس أوغسطين لما تحدث إلى المؤمنين في ذكرى استشهاد القديسة كريسبين يوم 5 دجنبر، أخبرنا أن المطر الذي طالما انتظره الناس قد نزل منذ قليل، وأن : «الرب قد رضي أن يسقي الأرض بمطره ليمكّننا من الذهاب بقلب أكثر فرحا للمكان الذي نترحم فيه على الشهداء».

أما كوريبوس، فيرينا من ناحيته الفلاحين الأفارقة وهم ينتظرون في الربيع المطر بتلهف، ويأخذون في الاستعداد لكي يحدث المطر في حقولهم أحسن النتائج الممكنة : «فلاحو الأرض العطشى بليبيا ينظرون السحب عندما تلمع البروق الأولى في السماء المضطربة، وعندما تضرب ريح الجنوب في الفضاء بضربات الرعد المتكررة، فتجري جماعات الفلاحين في البوادي الجافة راجين المطر وينظفون ويسوّون الأمكنة التي لابد أن يمر منها الماء، وينظمون مسبقا سير هذا الماء حتى تجري السواقي بالحقول المخضرة، ... ويقيمون العراقل بتكديس الرمل، وينشئون الحواجز بالمنحدرات ذات التربة الخصيبة».

وإذا نزل المطر فالغالب أن يجري على شكل سيول كما يحدث حتى اليوم. وقد كان الجيش الروماني يزحف على تهالة Thala أثناء حرب يوغرْطة، وإذا به يُفاجأ بأمطار طوفانية. وفي بداية سنة 46 ق.م كانت جيوش قيصر تعسكر بناحية سوسة، وإذا بها تفاجأ ليلا بعاصفة شديدة، إذ تكونت بغتة سحابة عظيمة ونزل المطر والبرد بكثرة قلبت الخيام وأسقطتها. وفي سنة 212 م تحدث ترتولْيان عن السنة السابقة لها والتي كانت طوفانية حقا. وقد ذكرت أمطار طوفانية أخرى إما بقرب ساحل الأبيض المتوسط، وإما بداخل الأراضي. والقديس سبْريان، والقديس أوغَسْطين وكوربوس يذكرون كذلك عواصف من البرد كانت سيئة الوقع على الزراعة. لأن هذه العواصف الوابلة كانت تغرق البوادي وتغطيها بالأوحال، فتزخر السيول وتسبب الخسائر، وتفسد المسالك على الخصوص.

وكما لا يزال يحدث حتى اليوم، فإن كميات الأمطار كانت في العهود العتيقة تختلف كثيرا بحسب الجهات.

كان الماء موجودا بالأراضي المجاورة للساحل. يقول صولان : «قسم إفريقيا المعرض للشمال مروي جدا». لكن، هل كان هذا الماء أغزر منه اليوم ؟ ذلك ما لا تؤكده الوثائق التي لدينا. وقد سبقت الإشارة إلى أننا كثيرا ما نجد حتى اليوم عيون الماء بجوار مراكز مأهولة بالسكان في العهود العتيقة.

كان البحر المحيط يستقبل مياه سُبوبوس Sububus الذي قال عنه پْلين : «نهر جميل وصالح للملاحة». إنه نهر سبُو الذي لايزال صالحا للملاحة طوال نحو خمسين كيلومترا في جميع فصول السنة، وإلى أبعد من ذلك في فصل الشتاء. وفي شرق مضيق جبل طارق تمنع وضعية

جبال منطقة التل من تكوين الأنهار الكبيرة. لكن پْلين يذكر مع ذلك أن بعض أنهار شمال المغرب صالحة للملاحة : تلك هي نهر تمودا Tamuda ولاوُد Laud وملْوان Malwane أي وادي مَرْتيل وواد لاوْ، ووادي مَلْوِيَة، وإذا كانت كلمة (صالحة للملاحة) تعني أن هذه الأنهار يمكن للقوارب في جزء من السنة أن تصعد فيها وأن تبعد عن مصبها بعض المسافة، وهذا القول لا يزال صوابا. أما بشمال القطرين الجزائري والتونسي، فتلاقينا بعض الآثار لجسور رومانية. وهي جسور لم يقع بناؤها لعبور مهادات أوسع من المهادات الحالية، التي يجب أن نقول إنها مهادات قلما تمتلئ. والذي يستحق الملاحظة هو قلة عدد هذه الجسور في بلاد كانت تخترقها طرق عديدة. فخط الطرق بعدة نقط لا يمكن أن يشك فيه. ولكن يلاحظ أن هذه الطرق كانت تمر بأنهار لم يبق بها اليوم أي أثر للجسر. فيمكن أن نفرض أن هذه المجاري المائية كانت تعبر بالمعديات، أو بجسور أقيمت على القوارب، وإن كان الأقرب للصواب أنها كانت تعبر خوضا. ويصح إذن أن نعتقد أن أقصى كميات مياهها لم يختلف في العهد الروماني عما هو عليه اليوم.

أما الجهات المجاورة للساحل، فإنها بحكم كونها رويت بما يكفي، لقد كانت خصبة، إلا في بعض الأجزاء. وقد قال بوليب وهو يردّ على تيمي : «إن خصوبة ليبيا أمر معجب». وكتب سْترابون : «أن الساحل من قرطاجة إلى أعمدة هِرَقْل خصيب على العموم» وقال أيضا : «يتفق الجميع على القول بأن موروسْيا Maurusie المغرب) أرض خصيبة وبها ماء كثير، باستثناء بعض الصحاري التي ليست واسعة»، ويذكر من بين هذه الجهات الجافة مقاطعة ميطاگونيون Métagonion، برأس الماء Cap de Agua قرب مصبّ نهر ملْوِية، ويقول إن أراضي الساحل خصيبة

من الميطاكونيو إلى رأس تْريتون الذي هو اليوم رأس بوفرعون. ويؤكد مِيلاَ Mela أن إفريقيا خصيبة جدا، حيثما هي مسكونة. ويمدح الساحل المحيطي للمغرب.

ولم تكن الأمطار تنعدم نهائيا بالداخل. فسالوسْت يشير لوجودها في كَبْسا Capsa (قَفْصة) وفي تْهالَة التي ربما كانت بناحية كبسا. غير أنها غالبا ما لا تكون كافية لضمان المحاصيل الوفيرة من الحبوب. وذلك هو ما لاحظه القديس أوغسطين إذ قال : «إن جيتولْيا ظامئة، بينما البحر يتلقى المطر ... هنا (في هيبون) يُنزل الربّ المطر كل سنة، وكل سنة يعطينا القمح... وهناك (في جيتولْيا) لا يعطي ذلك إلا قليلا، وإن كان بقدر كبير». ذلك أن المناخ بليل بالساحل وجاف في جيتوليا، فالحبوب إذن كانت تحفظ عند الجيتوليين مدة أطول.

وبعدما ذكر سترابون أن الساحل خصيب بين رأس ميطاكونيون ورأس تْريتون، زاد قائلا : «وفوق هذه الأراضي – باستثناء بعض الأقسام المحروثة التي يملكها الجيتوليون – لا نجد سوى سلسلة من الجبال والصحاري إلى غاية السّرتَتَيْن. وطبعا فإن الجغرافي الإغريقي قد أشار لأرض السباخ والبحيرات التي يمر بها الفاروسيون Pharusiens (وهم من أهالي الجنوب المغربي) عند ذهابهم من أرضهم إلى سِرْتا Cirta (قُسّنطينة). غير أن هذه البحيرات موجودة حتى اليوم، وسط براري المغرب الشرقي وبموسطة الجزائر، وتدعى الشط الغربي والشط الشرقي، وزاغر الغربي كذلك، وزاغر الشرقي، وهي كما قلنا من قبل مستنقعات بليلة في الشتاء، جافة في الصيف وتمتد في أرض قاحلة. أما الأهالي الذين يتحدث عنهم سترابون فيرحلون ويحملون قِرباً مملوءة بالماء، يربطونها تحت بطون خيولهم. وليس لدينا أي دليل على أن هذه

الشطوط كانت في العهود العتيقة أوسع منها الآن. بل نشاهد على النقيض من ذلك وجود خرائب أثرية رومانية في الخضراء على طرف الشط الشرقي. وقد كان هذا هو النقطة الوحيدة التي احتلها في القفار سادة التل لحماية أحد ممرات الرحّل، إذ لم يهتموا بأن يضموا لإمبراطوريتهم سهولا عريضة قاحلة.

ويوجد كذلك بالجنوب الغربي لولاية قسنطينة خرائب أثرية عتيقة بحاشية الأراضي التي يغطيها شط الحضْنَة في فصل الشتاء. والواقع أن عمليات السقي بحوض هذا الشط وحول السباخ أو البحيرات التي سنتحدث عنها، قد أنقصت بكيفية محسوسة مقادير المياه التي تجلبها الأودية للشط. ولكن سكان هذه الجهات ما كانوا لِيخْطئوا ويقيموا مساكنهم بحيث تغرق إذا توقفت عمليات السقي لسبب ما. ولا يعقل من جانبهم أن يلزموا أنفسهم السقي في حالة ما إذا نزل مطر يملأ الأودية ويجعل سقي الحقول دون جدوى. ولهذا يجب أن نسلم أن هذه المساكن كانت تقع خارج الأراضي التي تغطيها البحيرات في الشتاء، حين تتلقى الوديان أكثر نصيب من الماء. وعدا هذا فإن الأمطار كانت قليلة بحوض الحضْنَة، لأن أحواز مَكْري Macri وثُبوناي Thubunae بالشمال الشرقي وشرق الشط كانت تعتبر من الصحراء في نهاية القرن الخامس للميلاد.

وكذلك السباخ الواقعة بالجنوب الشرقي لسطِيف، والممتدة شمال الأوْرَاس والتي تتزود من مجاري المياه النازلة من هذه الجبال، فهي أيضا لم تكن فيما مضى أكبر مما هي اليوم، لأننا نجد على أطرافها أيضا الخرائب الأثرية.

ويقول سالوسْت إن نهر موثول Muthul – هو وادي ملاك، أهم الروافد اليمنى لنهر مجَرْدة – يخترق جهة جافة ورملية، ووسط سهل

قاحل بسبب انعدام الماء، باستثناء الأمكنة المجاورة للنهر. كما يقول سالوست أيضا إن كبْسا (قَفْصَة) تقع في قفر عظيم. وباستثناء النواحي المجاورة للمدينة التي لها عين مياه لا تنضب، فالجهة كلها قاحلة جرداء، ينعدم بها الماء. أما تهالة، المدينة التي يشبه موقعها موقع كبْسا، فلاشك أن حولها بعض العيون. لكن المنطقة، بين المدينة وأقرب نهر يجاورها، جافة وقاحلة على مدى خمسين ميلا. وحينما زحف ميتلوس Metellus على تهالة، وزحف مريوس على كبسا حملا جنودهما بزاد كثير من المياه. ويلاحظ سالوسْت أن الأهالي في إفريقيا – يقصد شمال إفريقيا – يتلافون أكل الأطعمة التي تظمئهم، لأنهم قد يعوزهم الماء لإرواء غلتهم.

وفي عهد الحكم الروماني، كاد الماء يكون منعدما بكل مكان بين القيروان وقفْصَة وصفاقس. ذلك أننا لا نلاقي بهذه الجهة إلا القليل من آثار السدود بالشعاب. ووجود الكثير من المنشآت المائية الأخرى يدل على أن الناس إذا كانوا لم يستفيدوا من هذه الشعاب فلأنها كانت على العموم تبقى فارغة.

وحتى على الساحل الشرقي لتونس الذي هو اليوم جاف إلى حد ما كما ذكرنا سابقا، فإن جيوش قَيْصر الذي كان يحارب بنواحي سوسة (هدرميت) قد أعوزها الماء في فصل الشتاء وبداية الربيع. وبعد ذلك بستة قرون، لما نزل جنود القائد بليزير Belisaire برأس كبوديا، قليلا إلى الجنوب من سوسة في شهر شتنبر، وجدوا أنفسهم بأرض جافة تماما. والعناية السماوية هي التي جعلتهم أثناء أعمال تسوية الأرض ونقل الأتربة يعثرون على صهريج من المياه الباطنية. وكذلك فإن بعض

المدن ذات الأهمية في العهد الروماني، مثل لَمْطة Leptis Minor وتيسْدروس Thysdrus كانت تستغني عن ماء العيون.

وفي القرون الميلادية الأولى، كان العمل الدؤوب الذي قام به الإنسان، هو حرث الأرض عدة مرات حتى تحافظ على ما تستطيع اختزانه من النداوة، كما كان أيضا هو اختيار المزروعات التي لا تتطلب إلا القليل من الماء. إن كل ذلك قد حول البوادي إلى الغنى في قسم لا بأس به من المناطق الإفريقية التي قلما كان المطر ينزل بها، أو كانت عيون الماء بها قليلة، أو كانت شعابها فارغة عادة. فبكل مكان بهذه الجهات نرى آثار الأحواض والصهاريج والخزانات والآبار التي استخدمت لشرب الإنسان والحيوان أكثر مما استخدمت لسقي المزروعات. لهذا فالمياه التي كانت تنزل من السماء والتي يختزنها باطن الأرض كانت ثمينة إلى حد أن الناس لم يذخروا وسعا في تلقيها وفي عدم تضييعها في الأعمال المبتذلة.

على أن المنشآت المائية لم ينعدم وجودها كذلك حتى بالجهات التي تحظى بالمطر. فالمنشآت التي كانت تزود المدن والحلل تدل بوجه خاص على الإرادة التي كانت للسكان في أن يشربوا ماء صافيا ونقيا بقدر الإمكان. ولكن منشآت أخرى تدل على أن ماء السماء لم يكن كافيا بحاجيات الزراعة حتى في هذه الجهات. فكان الناس يلجأون - إن استطاعوا - لسقي الخضروات والفاكهة أثناء فصل الصيف، أو حتى في الشتاء، أثناء حقب الجفاف المستمر التي نعلم أنها لم تكن قليلة الوجود في هذا الفصل. وفرونْتان Frontin له ملاحظة تستحق أن تذكر، قال : «في إيطاليا وفي بعض الولايات تسببُ لجارك خسارة كبيرة إذا

أدخلت الماء لمزرعته، أما في إفريقيا فالخسارة هي أن تمنع الماء من المرور إليه».

إن النصوص التي درسناها تنقصها الدقة غالبا، لهذا فيجب أن لا نقبل جميعها بثقة عمياء. ولكنها مع ذلك تساعد على بعض الاستنتاجات وهي : في جنوب بلاد البربر، كانت الصحراء صحراء في القرون التي سبقت الميلاد والتي تلته. ولكنها ربما كانت أقل جفافا مما هي عليه اليوم. وليس من الصحيح أن نقول إن الحاشية الشمالية للصحراء كانت منطقة بليلة أثناء قسم من العهد التاريخي. غير أن هناك دواعي للافتراض بأن الجبال التي تحد الصحراء كانت تتلقى مطرا أكثر شيئا ما من اليوم.

أما شمال إفريقيا حقيقة، فكان يتمتع بمناخ، إن لم يكن مثل مناخ اليوم، فهو قريب منه جدا : الجفاف المعتاد في الصيف، وجفاف ربما يستمر طوال السنة، وأمطار غير منتظمة، وعلى شكل سيول غالبا، وهي بصفة عامة أقل غزارة بداخل البلاد من الأراضي المجاورة للمحيط وللأبيض المتوسط، منذ مضيق جبل طارق حتى الرأس الطيب. أما أن هذه المنطقة قد كانت بليلة فيما مضى أكثر من اليوم، فذلك ممكن، ولانعدام البراهين القاطعة يمكن الاستدلال ببعض العلامات التي ليست مجردة عن كل قيمة. لكن في الختام، إذا كان مناخ بلاد البربر قد طرأ عليه تغير منذ العهد الروماني، فإن ذلك لم يكن إلا بقدر ضئيل.

الكتـاب الأول

ظروف النماء التاريخي

الفصل الرابع

حيوانات شمال إفريقيا ونباتاته في العهود العتيقة

1

لا نريد أن نقوم هنا بعرض شامل لكل ما يمكن أن تخبرنا به البقايا المستحجرة، والوثائق الأثرية ونصوص الكتاب عن حيوانات إفريقيا الشمالية ونباتاتها، قبل نهاية العصور العتيقة. وإنما نريد أن نبين بوجه خاص، وبكيفية سريعة، علاقات هذه الحيوانات وهذه النباتات بالناس، وما كان الناس يستطيعون أن يستفيدوه منها، والعراقل التي كانت تواجههم بها.

فمن بين الحيوانات التي كانت تعيش بالبلاد في عهد البليستوسين، أو العصر الرابع، والتي عثر على عظامها مع أقدم آثار الصناعة الإنسانية وقع التعرف على ما يلي :

فيلٌ له جثة ضخمة ونابان عظيمان، أطلق عليه اسم الفيل الأطلنطي Elephant atlanticus وهو نوع انقرض، فرس النهر من النوع

الحالي، وحيد القرن، ولاشك أنه وحيد القرن كاموس Camus الذي يعيش اليوم في إفريقيا، الأسد، النمر، عناق الأرض Caracal، الضبع، الدبّ، الخنزير، والخنزير أبو قرنين Phacochère الموجود حتى اليوم بالسودان، حمير الزرد Zèbres التي يظهر أن أحد أنواعها هو الدوّ Daw الموجود حاليا بإفريقيا الجنوبية، الجمل، الزرافة من النوع الحالي بإفريقيا الوسطى، الغزلان، الثيتل Antilope bubale ou alcèlaphe الغنوة Gnou من النوع الحالي بإفريقيا الجنوبية، بقايا من الغنم والماعز، ثور سماه بوميل Pomèl باسم Bos opisthonomus، وهو ذو جثة ضخمة، وقرنان طويلان قويان ينثنيان أمام عينيه. ويرى بوميل أنه انقرض من الوجود، لكن الأغلب أنه من أنواع Bos primigenius الذي كان بأروبا وآسيا، كما عثر على ثور آخر أصغر جثة من السابق، معرفته غير تامة، أطلق عليه بوميل اسم Bos curvidens. وربما عثر على بقريات أخرى. أما حطام بيض النعام فيكثر في المحطات المتأخرة للعصر الحجري القديم.

ومن بين هذه الحيوانات ما هو شبيه أو له قرابة بعدد من الحيوانات التي سكنت أروبا في العصر الرابع، كفرس النهر ووحيد القرن والأسد والنمر والخنزير، والخنزير ذي القرنين والدبّ والوعل. فالقارتان لاشك كانتا متحدتين في عهد البليوسين، وربما كان لايزال بينهما اتصال أثناء قسم من العهد الموالي. أما الأنواع الأخرى التي لم توجد بالبلاد الأوربية، فإنها – على النقيض من ذلك – تمت بقرابة للأنواع الحالية التي بإفريقيا الوسطى والجنوبية. وذلك إما لأنها استطاعت أن تعبر الصحراء، وإما لأن الاتصال تم عن طريق أخرى.

ولما انعزلت بلاد البربر بعد ذلك بكثير، بسبب البحر والصحراء كانت لها حيوانات ذات صفات متميزة، وإن كانت لها مشابهات مع

حيوانات أروبا الجنوبية. وفيما يخص المناطق الجافة، كانت لحيواناتها مشابهات مع حيوانات مصر وبلاد النوبة. كما أن بلاد البربر حافظت على حيوانات انقرضت في أروبا. وباستثناء بعض الحالات فإنها فقدت حيوانات استمرت موجودة خلف الصحراء.

فقدت الفيلَ الأطلنطي أولاً، وكان ذلك على ما يحتمل بسبب انخفاض الحرارة وجفاف الطقس، ثم فقدت بعد ذلك فرس النهر ووحيد القرن. ويعثر بكثرة على حطام بيض النعام في محطات الحجري الجديد. كما يعثر بها على بقايا من السنّوريات كالأسد والنمر Tigre وغيرهما، وبقايا من الضبع والجقل (الوعوع) Chacal، والثعلب والخنزير، والخنزير ذي القرنين، وحمار الزرد الذي يظهر أن وجوده أخذ يقل، وكذلك على بقايا من الجمل – وهو أيضا قليل – ومن الغزلان، وظباء أخرى، والثيتل، والغنوة، وتيس الجبال Mouflon والثور المسمى Bos opisthonomus وبقَريات أخرى. على أن جاموسا يدعى Bubalus antiquus كان يوجد بقلة، وكان طوله يبلغ ثلاثة أمتار، كما يصل ارتفاعه إلى أعلى كاهله مترا واحدا و85 سنتمتراً (1,85)، ويصل إلى متر واحد و70 سنتمتراً (1,70) عند ردفه. ويعتقد بوميل Pomel أن هذا النوع خاص بشمال إفريقيا، وأنه انقرض. ويرى الغير أنه هو المعروف باسم Bubalus Palaeindicus الذي عاش بالهند وآسيا الأمامية وحتى في أروبا، والذي يوجد حتى اليوم بشمال الهند حيث يعرف باسم أَرْني Arni. وفي هذا العهد – لاشك – صار للأفارقة حيوانات مؤنسة، ولكن يصعب أن نبين إلى أي حد ترتبط هذه الحيوانات بأنواع محلية متوحشة، أو أن نعلم النصيب الأجنبي فيها.

ويظهر الأسد والجقل (الوعوع) Chacal والخنزير والغزال والنعامة في النقوش الصخرية التي بناحية قالمة، والتي يظهر أنها ترجع لعهد

واحد هي ونقوش ما قبل التاريخ الموجودة بجنوب الجزائر. ونعتقد أن هذه الأخيرة - أو بعضها على الأقل - عاصرت الصناعة المتأخرة للعهد الحجري الجديد. وهي كثيرا ما ترينا الفيلة التي يرى بوميل أنها من نوع الفيل الأطلنطي. لكن الأقرب للصحة هو أن ينظر إليها على أنها انحدرت من الفيل الإفريقي Elephant africanus وتناسلت منها مباشرة الفيلة التي كانت موجودة بشمال إفريقيا في العهد التاريخي. والجاموس العتيق Bubalus antiquus يظهر بكثرة على هذه النقوش، كما نعرف بها أيضا الأسد والنمر والوعل والغزلان وظباء أخرى، وتيس الجبل Mouflon والثيران والنعامة. أما الزرافة فمصورة ولكن بقلة.

2

نحن نعلم أن الفيل قد عاش بشمال إفريقيا حتى القرون الميلادية الأولى. ولكن ليس لدينا أي برهان قاطع على وجود الجاموس الكبير B.Antiquus في العصور التاريخية. ولا يستحيل أن تكون الزرافة قد استمر وجودها هنا وهناك بطرابلس وحتى بجنوب الجزائر.

أما الحيوانات التي يذكرها الكتاب الإغريق واللاتانيون أو التي تصورها بعض الآثار من العهدين القرطاجي والروماني فإن أكثرها يعيش حتى اليوم في بلاد البربر، بينما اختفت أخرى أو هاجرت منذ زمن قليل. ولن نتكلم هنا على الحيوانات المستأنسة التي سندرسها بمكان آخر.

أما القردة التي كثيرا ما ذكر وجودها، فلاشك أنها كانت من نوع Magot، ولاتزال إلى اليوم موجودة بعدة أمكنة من الجزائر والمغرب

(بجبال اللنْجرة بين تطِوّان وسبْتة). ولا توجد بتونس حيث كانت من قبل، حسبما تشهد به النصوص.

كانت إفريقيا بالنسبة للقدماء هي الأرض الاعتيادية للحيوانات الضارية. وقد كانت قبل الاحتلال الروماني تكثر ببعض الجهات إلى حد أنها كانت تمنع الناس من أن يعيشوا بهذه الجهات، ومن أن يشتغلوا فيها بأمان. ومع الزمان تناقص عددها. إذ كان الناس يصطادونها بشدة (كان اصطيادها الشغل المفضل عند السكان) إما للتخلص منها، أو للحصول على القنائص، أو لتزويد رومة عاصمة الدنيا، وكثير غيرها من المدن بالحيوانات المخصصة للفرجة. وهكذا يبين أوغسطس أن نحوا من 3500 من حيوانات إفريقيا قد قتلت في ست وعشرين حفلة أقامها للشعب. وكانت هذه الحيوانات يبعث بها إلى رومة منذ بداية القرن الثاني قبل الميلاد، واستمر إرسالها حتى عهد حكم ثيودوريك. ونجد عند بعض الكتاب وأحيانا في بعض النقوش ذكرا للوحوش الليبية Ferae libycae وللوحوش ferae أو للحيوانات الإفريقية Bestiae africanae أو ذكر الإفريقيات africanae فحسب. (وهو اللفظ الذي يدل خاصة على النمور). وفي عهد پْلين الكبير كانت نوميديا على الخصوص هي التي تبعث بها.

أما الوحوش التي كثيرا ما تذكرها النصوص، فهي الأسود التي اختفت من الجزائر وتونس في القرن التاسع عشر، والتي لاتزال موجودة بالمغرب. والأسد يظهر على بعض النقود الأهلية، كما ظهر مصاحبا لإفريقيا على بعض عملات الإمبراطورية الرومانية. وقد كانت هذه الحيوانات مرهوبة جدا. ويتحدث إيليان، ربما نقلا عن الملك يوبا، عن قبيلة بأسرها قضت عليها الأسود في جهة غنية بالمراعي. بل إن الأسود كانت تجرؤ على الاقتراب من المدن. وقد رأى بوليب بعضا منها

مصلوبة، لإبعاد مثيلاتها خشية مثل هذا العقاب. ورغما عن شدة مطاردتها فإنها بقيت إحدى بلايا هذه الأرض. ومع ذلك فإننا نجد ذكرا لأسود مؤنسة.

أما النمور التي أخذت تقل بشمال إفريقيا، فقد كانت بها كثيرة فيما مضى. ويدعوها الكتّاب بعدة أسماء هي : بارْداليِيس Pardaleis بارْدي Pardi، بانْطِراي Pantherae وليوبارْدي Leopardi. والإسمان الأولان كانا يطلقان على الفهود Guépards التي هي أصغر من النمور، ولكن لها نفس الإهاب، ثم إن لفظة الإفريقيات Africanae لم تطلق على النمور فحسب وإنما أطلقت أيضا على بعض السِّنَّوْريات الاخرى كالنمر والبج Serval وعناق الأرض Caracal، وربما حتى على الضباع. وهناك عدة نصوص ورسوم بالفسيفساء تخبرنا عن الصيد بالنمر. ولكن لاشك ان النمور المستأنسة التي يصورها لنا أحد الشعراء الأفارقة وهي تصيد مع الكلاب، إنما كانت فهودا. ولايزال العرب حتى اليوم يربونها للتغلب على الغزال.

ويجب القول بأن عناق الأرض هو ما سماه إيليان باسم الوشق Lynx، وذكر وجوده عند الموريين. وقال إنه حيوان يشبه النمر، وله شعرات في نهاية أذنيه، وأنه يتقن القفز.

ولما تحدث ديودور الصقلي عن حملة قام بها الإغريق في داخل البلاد في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، أشار لسلسلة عالية من الجبال طولها 200 اسطاد، مليئة بالقطط، ولا يبني بها أي طائر عشّه بسبب العداوة الموجودة بين هذه الحيوانات. ولاشك أن المقصود هنا هو القط المرين Chat ganté، النوع المنتشر في جميع بلاد البربر، أو ربما كان الأمر يتعلق بالبج Serval المعروف لدى العامة باسم القط النمر الإفريقي.

ووقعت الإشارة كذلك للضبع والثعلب. أما الحيوان الذي ذكره هيرودُت باسم الثوس Thos وأشار لوجوده عند الليبيين الرحّل، فلاشك أن المقصود به هو الجقل Chacal (الوعوع)، وكذلك يمكن أن نفرض أن الحيوانات التي سماها بعض الكتاب اللاتانيين باسم Lupi إنما كانت هي الثعالب، نظرا لأن الذئاب لم توجد تقريبا بشمال إفريقيا. وكذلك الأمر بالنسبة للحيوانات التي اسمها لوكوي Lykoi والتي نزعت حسبما يؤكدون أنصاب الحدود بالمستعمرة التي أنشأها كيوس كراكوس C.Gracus بقرطاجة. ويقول بْلين إن ذئاب إفريقيا ومصر جبانة وصغيرة الأجسام، وهما ملاحظتان تنطبقان تماما على الجقل (الوعوع) Chacal.

ويشير فيتروف إلى وجود النمس Ichneumon Mangouste بأرض المغرب، كما أن سترابون يشير إلى أنه يوجد به حيوان يسميه Gale، شبيه بالقط، سوى أن وجهه أكثر بروزا إلى الأمام، مما يجعلنا نفكر في الزريقاء Genette. وفي أمكنة أخرى يتحدث عن حيوانات إفريقية متوحشة لها نفس الاسم، ويستعملها أهل الجنوب الإسباني للتغلب على الأرانب في جحورها. ولاشك أن هذا الحيوان الذي كان الإسبانيون يستعينون به هو ابن مقرض Furet، ولكن يجب أن نلاحظ أنه لا يوجد اليوم بإفريقيا. ويشير هيرودُت كذلك إلى الحيوانات التي يسميها Galai، وإلى أنها موجودة عند الليبيين الرحّل، بالمنطقة التي تنتج نبات السلفيوم، بشرق سرْتَة الكبرى ويقول إنها تشبه كثيرا حيوانات طرطسوس (الجنوب الإسباني). فهل المقصود بهذا هو الزريقاء، أو غيرها من السرْعوبيات ؟

أما الدب الذي كان يعيش في بلاد البربر في العصر الرابع، فلربما أنه لايزال موجودا بالمغرب، وأنه لم ينقرض من الجزائر إلا في عهد

متأخر، وإن كان پلين يؤكد أن إفريقيا ليس بها دِببة. غير أن كلامه هذا، تعارضه أقوال هيرودُت، وفرْجيل، وسترْابون، ومرسْيال وجوفنال، ونيمسيان، وصولان. وهذا الأخير يخبرنا أن دببة نوميديا كانت تفوق غيرها في الشراسة وفي طول أوبارها. وتوجد صور كثيرة للدببة على الفسيفساء الإفريقية. كما أن الدببة النوميدية ظهرت أكثر من مرة في ألعاب رومة. ولاشك أن الحيوانات المحلية هي التي ظهرت في ملاعب قرطاجة وغيرها من مدن إفريقيا الشمالية.

وقد أخطأ كثير من الكتاب حين أنكروا وجود الخنزير بهذه المنطقة التي وجد بها منذ العصر الرابع، ولا يزال يوجد بها حتى اليوم. وفوق ذلك أشارت له بعض النصوص القديمة، وصُوِّر على كثير من الآثار، وعلى الفسيفساء بالخصوص.

أما الحُمُر الشاردة بالصحراء اليوم، فهي حمير آبقة، كانت من قبل داجنة ثم تركت حرة. وليس لدينا حجة للتصديق بأن الأمر كان كذلك بالنسبة للحمر الوحشية، وهي الأخدريات Onagres التي أشار القدماء إلى وجودها بإفريقيا الشمالية. فقد كانت تعيش قطعانا تتكون من ذكر له سلطة ومن عدد من الإناث. وقد ادعى البعض أن الذكر كان غيورا إلى حد أنه كان يخصي صغاره عند ولادتها. وكان الأفارقة يفضلون ركوب الخيول لصيد هذه الحيوانات الكثيرة السرعة، التي كانوا يستعملون الأوهاق لصيدها. كما أن الناس كانوا يستطيبون لحوم صغارها. ويمكن أن نتساءل : ألم تكن حمير الزرد بعضا من هذه الفرسيات Equidés ؟ لأننا نعلم حقيقة أن حمير الزرد قد وصفها الإغريق أحيانا بكونها حميرا وحشية، كما أن حمار الزرد عثر على بقاياه ببعض محطات ما قبل التاريخ. فليس من قبيل المستحيل أن يكون استمر

موجودا في بعض الجهات. ومع ذلك فهذا الفرض ليس مقبولا بالنسبة للحمير الوحشية التي يتحدث عنها أوبيان Oppien لأن هذا الكاتب يؤكد أنها كانت ذات لون فضّي أي رمادي أغبر كالأخدريات الموجودة اليوم ببلاد النوبة.

أما الوعل فوجوده متأكد في عهد ما قبل التاريخ، ونلقاه حتى اليوم بالتخوم الجزائرية التونسية، وبأقصى الجنوب التونسي، وكان يعيش بأرض المغارب أثناء العهود التاريخية العتيقة رغما عن التأكيدات المخالفة التي ذكرها كل من هيرودُت، وأرسطوطاليس وبلْين، وإيليان. وقد ورد ذكره عند فرجيل، وأريان، وأوبيان، ونيمسيان، والقديس أوغسطين، وحتى إيليان. وتوجد صور صيد الوعل على الفسيفساء الإفريقية. وأعتقد أن لا داعي لنفرض أنه كان اختفى عدة قرون ثم أعيد إدخاله من جديد في عهد الرومانيين بعد بلْين.

ويعثر أحيانا على الوعل الآدم Daim في الحدود الجزائرية التونسية بناحية القالة. ولم يشر القدماء لهذه الحيوانات. أما تلك التي لها قرون مستقيمة، وذكرها دراكونتيوس، وهو شاعر من العهد الوندالي باسم Dammae، وعزاها لإفريقيا، فإنما هي ظباء على ما يحتمل.

وقد أصاب بِلْين في قوله لا يوجد اليحْمور Chevreuil بهذه المنطقة. غير أن شاعرا لاشك أنه كان يكتب في عهد الحكم الوندالي ذكرها باسم Capreae، وعلى هذا، فلربما أنها أدخلت للاستمتاع بصيدها.

أما المجترات، من فصيلة الظباء التي وجدت بكثرة في عهود ما قبل التاريخ حتى على الساحل، فإنها تقل اليوم شيئا فشيئا بشمال الأطلس الصحراوي، ولكنها لا زالت كثيرة بالصحراء. وهي أنواع كثيرة

من الغزلان، أشهرها الغزال المعتاد واسمه الآدم Gazella dorcas، وغزال الجبال Gazella dorcas kevella، والمهاة Antilope addax وغزال المغرب Nanguer Antilope moher والثيتل Antilope bubale. ونجد عند الكتاب القدماء ألفاظا مختلفة لتعريف ما كان يعيش من هذه الحيوانات بشمال إفريقيا في العهد التاريخي. ولكن، كثيرا ما يصعب معرفة الانواع المقصودة فقد أطلقت : كلمة دُركاس Dorcas على الغزال، أطلقها هيرودُت على غزال الليبيين الظواعن، وثيوفْراسْت بالقسم الذي لاينزل به المطر من ليبيا، وديودور الصقلي أطلقها على غزال الصحراء جنوبي سرنيكا، وسترابون على غزال المغرب الحالي، وأريان الذي أوضح أن الليبيين يصيدونه على متون الجياد، وإيليان الذي وصفه وتكلم على صيد الفرسان الليبيين له، واستعمل مرسيال كلمة دركاس باللاتانية.

ويذكر هيرودُت أن الليبيين الظواعن لهم حيوانات سماها Oryes وقال إنها في حجم الثيران وأن قرونها تستعمل في صنع الصنوج الموسيقية عند الفينيقيين، وقد جرى تصحيح Oryes بكلمة Oryges على وجه من الاحتمال. ويذكر بْلين أن الأرخ Oryx يعيش في إفريقيا بالجهة المحرومة من الماء، والتي يجوبها الجيتوليون وهو يستغني عن الشراب. وجوفنال أيضا يذكر الأرخ الجيتولي الذي يستطيب الذواقون لحمه. ويضيف بْلين فيقول أيضا عن الأرخ إن شعرها يتجه نحو الرأس، وليس لها سوى قرن واحد. وهي أقوال استقاها من أرسطوطاليس. وليس من المتاكد أن لفظ الأرخ Oryx الوارد في هذه النصوص المختلفة يعني الظبي المعروف اليوم عند علماء الحيوان باسم الوضيحي Oryx leucoryx الذي يعيش في السودان وبلاد النوبة، والذي لم يتأكد وجوده بالشمال الغربي لإفريقيا، لأني فيما يرجع للحيوان الذي تكلم عليه هيرودُت، أفضل أن المقصود به هو المهاة Addax.

وقد ذكر پْلين المهاة قائلا : «إن Strepsicores الذي يطلق عليه في إفريقيا اسم المهاة Addax له قرنان قائمان تحيط بهما حزوز عمودية، وينتهيان بحد دقيق، وربما يصلحان لصنع الصنوج». وفي نهاية القرن الميلادي الرابع، كان سيماك Symmaque يبحث عن الأدس Addaces لتظهر في الألعاب. وعلى هذا فيسوغ القول بأن هذا الحيوان المسمى باسم Strepsicores أو Addax هو حقيقة الظبي الذي أطلق عليه المتأخرون اسم المهاة Addax.

ويذكر هيرودُت أن العقاب البحرية «Pygarges هي المعروفة بكونها بيضاء الذنب Cul-Blanc» توجد بأرض الليبيين الظواعن. ونفس الاسم Pygargus ذكره بعض الكتاب اللاتانيين مثل پْلين وجوفنال وسيماك. وهذا الأخير كان يبحث عن هذه العقاب مع المهاة في آن واحد.

لقد سبق أن تحدثنا على الوعل الآدم ذي القرنين القائمين، الذي ذكره الشاعر دراكنتيوس. أما نيمْسيان القرطاجي فقد أشار هو أيضا لهذه الحيوانات. ويقول پْلين إنها تسكن بالجهة الأخرى للبحر (بالنظر لإيطاليا)، ويلاحظ أن قرونها معقوفة إلى الأمام. واعتمادا على هذه الجزئية يرى كوڤْييه Cuvier أنها من نوع الظباء المسماة Nanguer أو Moher التي نلاقيها بالمغرب والصحراء (غزال المغرب).

ويصف إيليان بهيمة إفريقية يطلق عليها اسم Kemas تحدث عليها وعلى الغزال في آن واحد، وقال إن الكيماس لها وبر أصهب كثيف جدا، وذيل أبيض، ولها عينان لونهما أزرق داكن، وأذناها يملأهما شعر كثير جدا، أما قرناها الجميلان فيتقدمان إلى الأمام ويكوّنان سلاحا خطيرا، وهي تعدو بسرعة كبيرة، وتعبر الأنهار والبحيرات سابحة.

والحيوانات المعروفة اليوم باسم الظباء الثياتل فهي بالضبط التي كان الإغريق يطلقون عليها اسم Boubalis وBoubalos وقد أشار هيرودُت لها عند الليبيين الظواعن، وكذلك بوليب الذي أشاد بجمالها، وسترابون وإيليان اللذان ذكرا أنها موجودة بموريطانية، كما أشار لها ديون كاسْيوس الذي حكى أن سِرباً منها مر سنة 41 ق.م بمعسكر روماني ليلا. فأحدث مروره الذعر بالمعسكر، وأن هذا الحادث جرى بأرض جبلية بتونس.

وقد اتخذ اللاتانيون هذا الاسم، فهناك مصباح كتب عليه Bubal ويمثل ظبيا من الثياتل. غير أن اللغة الشعبية أعطت اسم Bubalus لحيوان آخر هو الأوروس Urus الثور الوحشي الأوربي (Bos primigenius) حتى أن مارسيال نفسه استعمله بهذا المعنى، الذي يقول عنه پلْين إنه تحريف لغوي، ويقول وهو العالم الطبيعي إن Bubalus حيوان إفريقي يشبه على الأصح العجل والوعل.

وهناك مصورات إفريقية - أكثرها من الفسيفساء - نرى بها الغزلان وظباء يظهر لنا أنها وضيحيات Oryx leucoryx كما نرى المهى والثيتل. ولا يلزم من صوَر الوضيحيات أن هذه الظباء قد عاشت آنذاك بهذه الأرض، إذ لربما تكون الصوَر نقلت عن نماذج من الأسكندرية. ولكن حيث إن الأرخ موجود ضمن النقوش الصخرية فلا مانع لدينا من قبول وجوده بالشمال الغربي لإفريقيا أثناء العهد التاريخي.

وحسب إيليان فإن Catoplebon حيوان إفريقي شبيه بالجاموس، غير أن مظهره مفزع جدا . فحاجباه عاليان كثيفان وعيناه أصغر من عيني الثور ومحقونتان بالدم. وهو ينظر إلى الأرض، لا إلى الأمام. ومن هنا كانت تسميته. وله عرف يشبه عرف الفرس، ينزل من قمة رأسه ويمر

بالجبهة ثم يملأ الوجه ويجعله أكثر شراسة. وهذا الحيوان يرعى الجذور السامة. وهو إذا نظر إلى أسفل كما تفعل الجواميس، سرعان ما يقف شعره ويقوم عرفه وينفرج مشفراه، ثم يخرج من حنجرته نفس ثقيل مُنْتن يسمم الهواء حول رأسه. وهذا الهواء مؤذٍ للحيوانات التي تشمه لأنها تفقد أصواتها وتقع على الأرض في تخبط قاتل. لهذا فهي تبعد عنه ما استطاعت، إذ تعلم – كما يعلم هو أيضا – قدرته المؤذية.

وينقل الكاتب أَطيني Athénée عن أليكْسَنْدر المنْدوسي قائلا : «يقول الرحّل إن الگرگون Gorgone في ليبيا هو حيوان Catoplébon الذي يعيش في تلك الأرض، وهو يشبه كبشا متوحشا ويشبه العجل حسب قول الآخرين. ويؤكد البعض أنه يقتل بتنفسه كل من يلقاهم. وهو يحمل عرفا قويا ينزل من جبهته على عينيه. وحين يثبت نظره في أحد الناس، فإنه يحرك هذا العرف بصعوبة. وتلك النظرة قاتلة. وأثناء حرب يوغرطة رأى جنود مَرْيوس الگرگون يتقدم برأس منحنٍ ويسير ببطء، فظنوه كبشا متوحشا وتسارعوا إليه يريدون قتله بسيوفهم، فذعر الحيوان، وحرك العرف الذي يغطي عينيه، ونظر مهاجميه، وسرعان ما مات هؤلاء جميعا، ولقد لقي غيرهم نفس المصير. وأخيرا فإن فرسانا من الليبيين قد قتلوا – بأمر من مريوس – حيوان Catoplébon بِرماحِهم من بعيد وأتوا به للقائد. ويقال إن مريوس بعث بجلود هذه الحيوانات المتوحشة إلى رومة، وأنها وضعت بمعبد هركول.

ويتحدث كل من بلنْيوس وپومْبونيوس مِيلاَ عن نفس الحيوان الذي يسميانه Catoblépas ويقولان إنه يعيش عند الإثيوبيين الغربيين، بالقرب من العين التي يعتقد كثير من الناس أنها منبع النيل (أي بجنوب المغرب)، وأن جسمه متوسط، وله أعضاء لا تتحرك، ويكتفي بأن يحمل

بصعوبة رأسه الثقيل جدا، وهو يجعل هذا الرأس يميل دائما إلى الأرض، ولولا ذلك لكان شرا على النوع الإنساني، إذ أن كل الذين يرون عينيه يموتون في الحين. وتلك هي وسيلته الوحيدة في الهجوم، لأنه لا يغير مطلقا على غيره ولا يعض.

ويحسُن أن يستهين المرء بهذه الترّهات التي ربما أن مسؤولية الكثير منها ترجع للملك يوبا. لكن، بالنظر لبعض التفصيلات فإن كوڤييه Cuvier ظن أن هذا الحيوان هو ظبي الغنوة Gnou الذي يعيش اليوم في إفريقيا الجنوبية. ذلك أن الغنوة مشابه مع كل من الفرس والثور والظبي، كما أن له جُمّات من الشعر على وجهه (وكأن نظراته نظرات مجنون). ويجب أن نضيف لذلك أنه يتحرك بسرعة كبيرة. وقد سبق أن رأينا أن هذا الحيوان كان موجودا بشمال إفريقيا في عصور ما قبل التاريخ، وليس من قبيل المستحيل أن يكون وجوده قد استمر بجنوب هذه المنطقة.

أما الكباش المتوحشة فقد ذكرها هيرودُت عند الليبيين الظواعن كما ذكرها كولميل Columelle. ويحكي هذا الأخير أن عمه اشترى بقابس بعض الكباش الإفريقية التي لها لون عجيب، والتي كانت قد أتى بها إلى إسبانيا لتظهر في الألعاب، وأنه أزوجها بشياه من ضيعته. ونجد عند تيموطي الغَزّى Timothé de Gaza ذكرا لنوع من الكباش الليبية المتوحشة، وهي حيوانات بلهاء يسهل صيدها، ولا قيمة لصوفها.

ويتحدث إيلْيان عن معيز متوحش يألف قمم الجبال في ليبيا : فهو ربما بلغ جسمه حجم الثيران، وعلى فخذيه وصدره وقفاه وذقنه شعر كثيف جدا. ولهذه الحيوانات جباه محدبة، كما أن عيونها حادة، وقوائمها قصيرة. أما قرونها - فعوضا من أن تكون قائمة كما هو الشأن عند

غيرها من معز الجبال - فإنها تتباعد في اتجاه العرض ثم تنزل عمودية لتحاذي الأكتاف، وذلك من كثرة طولها. ولا يوجد في المعيز أخف من هذه، لأنها تقفز بسهولة كبيرة من قمة لقمة، وإذا سقطت فلا يصيبها الأذى بسبب صلابة أعضائها وجماجمها وقرونها. ولكنها لا تقوى على الفرار إذا كانت في سهل، لذلك يسهل أن يقبض عليها حتى من لا يسير بسرعة. وتحمي جلودها الرعاة والصناع من البرد القارس، كما أن قرونها تصنع منها أقداح واسعة لأخذ الماء من الأنهار والعيون.

هذا الوصف يتناسب مع الأرْوي ذي الأردان Mouflon à manchette (يسميه المغاربة لَرْوِي) الذي يعيش بجبال جنوب بلاد البربر وجبال الصحراء. أما المعيز المتوحش حقيقة فلا يوجد في إفريقيا. ويحتمل أن تكون الكباش المتوحشة التي ذكرها هيرودُت وكولميل أَرْوِية كذلك، وربما أن واحدا من هذه الحيوانات مصور على الفسيفساء بمدينة الجمّ بتونس.

ويقول إيليان : نجد في ليبيا عددا لا يحصى من الثيران المتوحشة التي تعيش حرة. فالجواميس شاردة مع الأبقار والعجول، وإذا لم تكن مُتْعبة من كثرة السير، فإنها تسبق الفرسان الذين يطاردونها، وتستطيع في أغلب الأحيان النجاة منهم بتخفيها في الأدغال والغابات، على أن بعض الصيادين ينجحون مع ذلك في القبض على بقرة وعجل معا. فهم حينما يقبضون على عجل يربطونه بحبل ويذهبون فيختفون، وتسارع البقرة وتحاول فك صغيرها، ولكن قرنيها يشتبكان في العقد فتبقى أسيرة. وعند ذلك يأتي الليبيون فيذبحونها ويأخذون الكبد، ويقطعون الثديين الحافلين، وينزعون الجلد ثم يتركون ما بقي للطيور الكاسرة. أما العجل فيسوقونه لبيوتهم، لأنه أكلة شهية.

ليس لدينا إشارات أخرى عن وجود ثيران متوحشة ببلاد البربر في العهد الروماني. فهل تكون منحدرة من تلك الجواميس الكبيرة التي كانت تعيش بالبلاد في عهود ما قبل التاريخ ؟ هل كانت ثيرانا وحشية حقيقة ؟ أو كانت في الأصل مؤنسة ثم أعيدت إلى الحرية ؟ إن الجواميس التي توجد اليوم بإفريقيا قد استجلبت إليها أخيرا. وقد أشير لثيران وحشية، قيل إنها موجودة بالمغرب، لكن يجب التحفظ في هذا الخبر.

وكما هي الحال اليوم، فإن الأرانب البرية Lièvres كانت موجودة بكثرة، وكان الناس يحبون صيدها. ويذكر هيرودُت أن الليبيين الظواعن لهم ثلاثة أنواع من الفئران : (منها ما يسمى ديبوديس Dipodes ومنها زيكريس Zegéries وهو اسم من اللغة الليبية معناه الجبال بالإغريقية، والنوع الثالث يسمى أَخِنيس Ekhinées. والمقبول اليوم بعد البحث أن الحيوان الأول يعني اليرابيع Gerboise التي تسير إلى الأمام قافزة على قائمتيها الأخيرتين، وهما أطول من الأوليين. وكذلك فإن المقصود بالحيوان الثاني فئران الجبل على ما يحتمل، من النوع المعروف باسم كوندي Gondi. أما الثالث... فهو القنفذ. وكذلك يشير هيرودُت وإيليان إلى حيوان الهيستريس بإفريقيا وهو الشّيْهم porc- épic.

3

كانت النعامة في عهود ما قبل التاريخ موجودة بكل مكان من الساحل وحتى بالصحراء. واستمر هذا الطائر يسكن بلاد البربر في العهود التاريخية. وكان القرطاجيون يبحثون عن بيضه الذي كانوا يجعلون منه أواني وأكوابا يحلونها بالألوان والرسوم، ويقطعونه أقراصا أو أهلّة يرسمون عليها الوجوه. وكثيرا ما ذكرت النعامات في النصوص

الإغريقية واللاتانية، وصورت على الآثار الإفريقية، كما ظهرت في بعض الألعاب في رومة. وكانت لاتزال موجودة في القرن التاسع عشر بطرابلس وبراري الجزائر، ثم اختفت من هذه الجهات وقلّ وجودها جدا بالصحراء.

حينما وصف الشاعر نيميسيان القرطاجي إفريقيا بأنها أمٌّ ولود للطيور الكبيرة، فإنه كان يفكر في الكواسر العديدة جدا بهذه المنطقة. وبصفة عامة، لابد أن مجموعة الطيور التي لم تكن تصادف نفس المصاعب التي صادفتها الثدْييات، كانت تشبه كثيرا مجموعة أروبا الجنوبية. وفي هذا الموضوع لسنا نجد عند الكتاب القدماء سوى أخبار قليلة. أما الطيور المصورة على الزليج فلابد أن يدرسها علماء الحيوان ويعطوها أسماءها بدقة، وليقولوا أيها يخص البلاد وأيها كان نقلا عن نماذج شرقية.

ويتحدث پْلين وإيليان عن سلاحف إفريقيا، كما سبق أن ذكرنا النصوص القديمة التي تحدثت على التماسيح بجنوب موريطانيا بحاشية الصحراء. أما الأوزاغ التي يبلغ طولها ذراعين، والتي نلقاها في إفريقيا كما يقول سترابون فيرى البعض أنها الأورال Varans، وهي عظاءات تبلغ حقيقة مترا أو تتعداه ويكثر وجودها بجنوب بلاد البربر وبالصحراء كذلك. وينطبق هذا الوصف كذلك على التماسيح البرية التي تصل لثلاث أذرع وتشبه الأوزاغ كثيرا، والتي ذكر هيرودُت أنها توجد عند الليبيين الظواعن ويشير پْلين لوجود الحرباء Caméleon.

وكما أن شمال إفريقيا أرض الوحوش، فإنها أيضا أرض الحيّات التي تحدثت عليها نصوص كثيرة. فقد كانت هذه الهوام تعيش بعدة جهات وتزرع فيها الذعر. فمن بين ما ذكره القدماء منها، وأعطوا عنها

تفصيلات صادقة إلى حد ما، نذكر الحية القرناء Céraste التي لها لون الرمل، وقرنان على جبهتها. وهي الحية ذات القرنين (الأفعى عند العرب)، كثيرة بجنوب البراري وفي الصحراء. ومنها الصل Aspic الذي ينتفخ عنقه إذا هيج، وهو الناشر Naja الذي يسكن جنوب بلاد البربر. ومنها المعطشة Dipsade حيوان صغير الجسم، لذغها قاتل كالقرناء والصل ويحدث عطشا لا يروى. أما الحيات الصغيرة التي لها قرن واحد، والتي يشير هيرودُت لوجودها عند الليبيين الظواعن فلاشك أنها أفاعي طويلة الرؤوس وهناك عدة خرافات كانت تحكى عن الباسليق Basilic التي لم يكن طولها يتعدى اثنتي عشرة أصبعا أي 22 سنتمترا وكان لها على رأسها بصمة بيضاء تكون شيئا كالإكليل (هي المسماة بالمكللة)، وكانت تتقدم واقفة على نصف جسدها وكان الناس يدعون أنها كانت تصفر فتهرب منها الحيات الأخرى، وأن نفسها وحده كان يفسد ويحرق النبات والكلأ، ويكسر الصخور، وأن سمّها كان يشيع على طول القضيب أو الرمح الذي يضربها، ومع ذلك فإنها تموت برائحة ابن عرس المنتن ومن صياح الديك، إلى غير ذلك وكان البسيليون Psylles، وهم قبيلة كانت تعيش بساحل سرْتَة الكبرى مشهورين بأنهم لا يتأثرون بلذغ الحيات التي ألفوا العيش معها. فكانوا يداوون الملدوغين بامتصاص السم، وبتفل الريق على موضع اللذغ، كما يقولون، وبأدوية غريبة وأعمال سحرية كذلك.

وقد أشار بعض الكتاب للحيات ذوات الأجسام الطويلة جدا ولاشك أنها كانت من فصيلة الثعابين Pythons التي كانت تحكى عنها حكايات غريبة. فقد ادعى بعض البحارة أن ثعابين إفريقيا كانت تلتهم الثيران، وأن بعضا من هذه الزواحف ارتمى من الساحل يطاردهم فقلب سفينتهم. والجميع يعرف خبر الحية التي يقال أن جيش ريگلوس Régulus لاقاها

على ضفاف نهر مجردة، والتي يقال إنها خلفت العديد من الضحايا، حتى اضطر الرومانيون لاستخدام الآلات الحربية لقتلها، وأرسل جلدها إلى رومة، حيث عرض بأحد المعابد مدة قرن ونيف من الزمان إلى أن كانت حرب نومنصا. وقد كان لهذا الحيوان مائة وعشرون قدما طولا - على ما قيل - أي أكثر من خمسة وثلاثين مترا، الأمر الذي لا يقبله أي واحد من علماء الحيوانات المعاصرين.

ويوجد بليبيا عنكبوت اسمه راز Raz وهو كما يقول إيلْيان مستدير، أسود، يشبه حبة العنب، أرجله قصيرة جدا، وفمه في وسط بطنه. فلعل المقصود بهذا النوع هو الشبت ويضيف إيليان قائلا أن لسعته تقتل في الحين، كما يشير سترابون لنوع من العناكب يوجد بكثرة ويثير الانتباه بكبر جسمه.

وعلى بعض نقود الإمبراطور هادرْيان تظهر صورة إفريقيا ممسكة إحدى العقارب. كما أن كتّابا قدماء أشاروا «لهذا الحيوان الإفريقي المؤذي، ولهذه البلية الإفريقية». ويدعي سترابون أن الأهالي يحكّون أرجل فُرُشهم بالثوم ويحيطونها بالأشواك ليبعدوا عنها العقارب. وحسب إيليان كان الأهالي يلبسون نعالا جوفاء وينامون على فُرُش عالية جدا، وكانوا يحتاطون بجعل هذه الفرش بعيدة عن الجدران، كما كانوا يجعلون أرجلها في جرار مملوءة بالماء، ولكن ذلك لم يكن بجدي. ويؤكد الكاتب البسيط أن العقارب كانت تجتمع تحت السقف، وتنزل منه وقد أمسكت بعضها ببعض على شكل سلسلة لتصل لضحاياها. وفي قرطاجة كان الناس يخفون تحت منازلهم صوَرا معدنية لهذه الحيوانات كطلّسمات يقصد بها حماية السكان، وربما لطرد العقارب الحقيقية على الخصوص. ولاشك أن ذلك هو سبب وجود صورة لعقرب على أسكفة

أحد الأبواب في ناحية دُقّة Dougga. وقد اخترع الطب والسحر أدوية مختلفة لعلاج اللذغات، فكان المسيحيون يجعلون شارة الصليب على الجرح مصحوبة ببعض الصلوات ثم يحكّون مكان اللذغة بالجسم المدعوس للحيوان نفسه. ونفس الطريقة كان يستعملها الوثنيون أيضا، وحوفظ عليها لدى الأهالي. وكلمة عَقْرباذين Scorpiace وهي لاشك تعني الترياق ضد العقارب، كانت هي العنوان الذي أطلقه ترتوليان القرطاجي على مؤلّف له ضد الغنوصيين، هؤلاء المفسدين الذين كانوا يعملون لتسميم الدين وقتله.

وكما هو الشأن اليوم، فإن الجراد – وأصله من السودان – كان كثيرا ما يزور شمال إفريقيا، حيث يضع سرْأته في التراب فيخرج منها غوغاء لا حصر لها، وتكون أشد منه خطرا. وإذا كانت هذه الحشرات تستعمل في بعض الأمكنة طعاما للأهالي، فإن الناس كانوا على العموم يعتبرونها بلاء سلطه عليهم غضب الآلهة. وقد وصف الشاعر الإفريقي كوريبوس زحف الجراد بهذه العبارات : «... فكذلك هو الجراد، يسقط عند نهاية الربيع، حين يهبّ الاستير (ريح الجنوب) تحت النجوم ويتناثر على بوادي ليبيا، وكذلك هو الجراد حين يدفعه النطوس من أعالي الفضاء ويأخذه إعصاره الشديد ويرمي به إلى البحر. فالفلاحون يخشون، وترتعش قلوبهم أن يروا البلية البغيضة تقضي على المحاصيل والفواكه التي لاتزال غضّة، وتخرب البساتين المخضرة، أو تفسد زهور الزيتون التي ذرت على الغصون الناعمة». وقد ادعى فارون Varron أن بعض الأفارقة اضطروا لمفارقة المناطق التي كانوا يسكنونها بسبب عيث الجراد بها. ويذكر بعض الكتاب الوسائل التي كانت معتمدة في صد الجراد. وهي وسائل يجب أن نقول إن أكثرها يظهر تافها جدا.

وبسرِنيكا قانون يأمر الناس بالقضاء على السراة والغوغاء والجراد البالغ، ويعاقب المخالفين العقاب الشديد.

وهجمة الجراد التي خلفت أسوأ الذكريات هي التي حدثت سنة 125ق.م. وقال عنها بول أوروز : في جميع إفريقيا اجتمعت مقادير عظيمة من الجراد، فلم يكتف بالقضاء النهائي على المحاصيل في السنابل، ولا بالتهام جميع الكلأ مع بعض جذوره، ولا أوراق الأشجار مع الأسوق الناعمة، بل إنه قضم حتى لحاف الشجر والخشب الجاف. وهبّت ريح بغتة فانتزعته من الأرض وحملته مدة طويلة في الفضاء متجمعا في كتل متراصة، إلى البحر، حيث غرق. ولكن الأمواج عادت فرمت إلى الساحل بكميات وفيرة منه فنتنَتْ جثته وتحللت ونشرت رائحة قاتلة. وانتشر وباء أصاب جميع الحيوانات من طيور وقطعان وغير ذلك من الحيوانات التي كانت جثتها الملقاة بكل مكان تزيد في البلية... ويقال أن نوميديا الأرض التي كان ملكها آنذاك هو مَسِّنيسا، مات فيها ثمان مئة ألف شخص ومات أكثر من مائتي ألف في المنطقة البحرية التي تقع فيها أوتيكا وقرطاجة، وأن ثلاثين ألفا من الجنود الذين يكوّنون الجيش الروماني بإفريقيا قد استأصلهم هذا الوباء. ويؤكدون أنه انتشر بسرعة وشدة إلى حد أن أكثر من ألف وخمسمائة جثة لهؤلاء الشباب قد تساقطت دفعة واحدة.

وكان الأفارقة في عهود ما قبل التاريخ يأكلون الحلَزون بكثرة، كما تشهد لذلك الكثرة الخارقة للعادة لهذه الحلزونيات التي تكاد توجد بجميع المحطات. أما في العهد الروماني فكان الناس يستطيبون كثيرا حلزونات إفريقيا التي كانت تؤخذ كطعام مختار أو للدواء ولذلك كانت تربى بعناية كبيرة.

تشبه نباتات إفريقيا الشمالية في التل نبات إسبانيا وجنوب فرنسا وصقلية وإيطاليا. فنفس النباتات المعتادة على ضفتي البحر الأبيض المتوسط تغطي التربة وتكون الغابات التي تكثر بها الأنواع ذات الأوراق الدائمة، كما أن الثروة الفلاحية تكونت خلال سلسلة العصور من نفس النباتات، ومن نفس أشجار الفاكهة، وبمنطقة البراري نلقى بجانب الأنواع الأوروبية النباتات التي توجد بمصر وفلسطين وبلاد العرب وفارس الجنوبية. وفي الصحراء تظهر بصفة أوضح المشابهات مع الشرق الصحراوي، حيث تمور النخيل تساعد على العيش بالواحات. يقول كوصون Cosson : «من ناحية الجغرافية النباتية يكون الابتعاد عن الساحل في اتجاه الجنوب معناه الاقتراب من الشرق أكثر مما تتقرب من المدار».

وسندرس النباتات الفلاحية في مكان آخر. أما هنا فسنقتصر على النظر في الوثائق القديمة المتعلقة بالغابات وهي مع الأسف وثائق قليلة العدد وقليلة التدقيق في الغالب.

إن أهمية الغابات بشمال إفريقيا قد أكدها كل من هيرودُت وسترابون. فالأول يقول أن ليبيا الغربية ويقصد الأرض الواقعة غرب خليجَيْ سرْتَة، «ذات أشجار أكثر من الناحية التي يعمرها الظواعن، وأنها كثيرة الأشجار جدا». والثاني يذكر أن موروسيا – يقصد المغرب الأقصى حاليا – «أرض ذات أشجار، وأن الأشجار بها تبلغ ارتفاعا كبيرا». وتذكر النصوص التي أوردناها من قبل أن في إفريقيا حيوانات مختلفة وكثيرة، مسكنها الاعتيادي هو الغابة، كالقردة والنمور والدببة والخنازير. ومن ناحية أخرى، فإن بعض القوانين من عهد الإمبراطورية

السفلى، تخبرنا أن مقاطعة شمال إفريقيا كان بإمكانها تزويد رومة بكميات كبيرة من الخشب لتسخين الحمامات العمومية.

ونريد ان نعرف توزيع هذه الغابات، غير أن المعلومات التي لدينا ضئيلة جدا. فسترابون يؤكد ان جبل أبيلة Abilé على مضيق جبل طارق يحمل أشجار عالية. ويشير حَنّون لرأس سَلويس على المحيط – هو اليوم رأس كَنْتان – وأنه تغطيه الأشجار. وهناك غابات كثيفة كانت تقوم فوق الأطلس المغربي، ذكرها كل من فِرْجيل وپْلين وسِيليوس إيطاليكوس، وبوزْنياس، وإيليان. كما يشير بَلْين لغابات تسكنها الفيلة بالقرب من نهر أميلو Amilo الذي يرى تيسّو Tissot أنه هو واد أمليلو أو مليلو – الرافد الأيسر لنهر ملَوْية – الأمر الذي ليس متأكدا.

ونكاد لانعرف شيئا عن غابات الأرض التي كانت في العهد الروماني تكوّن ولاية موريطانية القيصرية، أي غرب وموسطة القطر الجزائري. كما أن جبل أنْكوراريوس Ancorarius الذي كان يحمل غابة جميلة من أشجار العَرْعر Thuyas أفنيت في عهد بلْين، كان يقع قرب شعب شليف. والمظنون أن هذا الجبل هو جبل الونْشَريس.

أما المنطقة الغابوية بنوميديا، التي ذكرها صولان، فلابد أنها كانت المنطقة الممتدة بالشمال الشرقي للجزائر والشمال الغربي لتونس وكانت آهلة بالوحوش. ومن المحتمل أن الأخشاب المرسلة لرومة في عهد الإمبراطورية السفلى، كانت تأتي من هذه المنطقة، وإلا فإن مصاريف النقل تكون عالية جدا لو لزم حمل هذه الأخشاب من الداخل. ويوجد نقش يذكر الصنوبر Pin بجوار البحر ونهر أمْبساگا Ampsaga أي بالشمال الشرقي لقُسّنطينة. ويتحدث جوفنال عن الغابات الضليلة المليئة بالقرود في ثَبراكة Thabraca التي هي اليوم طَبَرْقَة. كما يذكر أن

الثروات ومنعهم من نيل المغانم. فإذا صح وقوع التخريب الذي يعزى لها، فإنه قد وقع على مغارس أشجار الفاكهة أكثر من وقوعه على الغابات. إذن، فالظاهر أنه لا صحة للتأكيد بأن الوسائل التي أمرت بها الكاهنة قد «ضاعفت خراب الغابات الإفريقية إلى حد ليس فيه علاج».

وأيا ما كان الأمر، فلابد أن هذه الغابات قد حلت بها النازلة الشديدة قبل هذا الوقت بأمد طويل. فالونداليون كانوا في نهاية القرن الخامس الميلادي يقطعون الأشجار في كورسيكا ليصنعوا منها السفن. ولربما كان يصعب عليهم أن يجدوا بإفريقيا المواد الضرورية لذلك.

ولاشك أن انتزاع الأشجار قد اتسع نطاقه منذ قدوم بني هلال في القرن الحادي عشر الذي رمى إفريقيا الشمالية بالآلاف من الرحّل ونمى الحياة الرعوية كثيرا. وإدخال الماشية للغابات الفارغة ليس فيه أذى كثير، بل إنه يفيد في القضاء على الأخياس Sous-bois التي تسبب الحرائق، غير أن الراعي الذي يجهل مع ذلك مصالحه الحقيقية هو عدو الغابة التي يوقد فيها النار ليهيء لنفسه المراعي. والغابة تعود من جديد وبسهولة للحياة إذا وجدت راحة، خصوصا على الساحل في الأراضي البليلة. والأمر على النقيض من ذلك في الأراضي التي تدخلها الماشية. والكباش بوطئها المتكرر للتربة تجعلها صلبة وتمنع النوابت Germes من الظهور، والثيران تسحق النباتات الطرية كما أن المعيز ترعى البراعم الناشئة والأسوق الغضة مع الأوراق ولحافها.

وقد ظهرت آثار الغزو حتى في الأمكنة التي لم يصلها الرحّل، إذ تراجع أمامهم الأهالي الذين كانوا يسكنون السهول، وذهبوا يلتجئون بالأقاليم الجبلية. فزادوا في عدد سكانها. ولزم إيجاد محل للزراعة بها على حساب الغابة.

أيضا، وهي كثيرة جدا، وعدوة يخشاها الإنسان والقطعان. وفي كثير من الأماكن، لم تعش النباتات الطبيعية، على ما يحتمل، إلا في الأرض التي لم يكن بالمستطاع أن تعطي أجود من ذلك.

ونُضيف لأسباب تناقص الغابات الاستغلال المنزف على ما يحتمل. فقد سبق لِپْلين أن لاحظ اندثار بعض غابات العرعر، كما أن وثائق من عهد الإمبراطورية السفلى تبين كما سبق أن رأينا، أن كميات كبيرة من الخشب كانت تبعث إلى رومة. وحتى في إفريقيا فإن السكان - وعددهم كثير جدا - كان لابد لهم أن يستهلكوا كثيرا من الخشب في النجارات والتدفئة، كما كان لابد من الفحم لمعالجة المعادن في مناجم تقع عموما في الأراضي الجبلية وفي الغابات.

وكذلك الحرائق، ما حدث منها صدفة أو عمدا، فإنها لاشك قد كانت كثيرة الوقوع، فتكفي شرارة واحدة، عندما تهب ريح "الشُّوم" Siroco الجافة في أيام الصيف الحارة لإحداث أفدح الخسائر وقد تشعل النار عن قصد، فتهيئ الأرض للزراعة وتغنيها بمادة البوتاس المتولد عن الرماد، وتهيئ للماشية في السنة التالية الكلأ القوي والنبات الطري الجديد.

والقضاء على الغابات صاحَب أيضا الشرور التي تجرها الحروب وقد قدم لنا كوربوس الأهالي الثائرين وهم يحرقون الأشجار في ولاية بيزاسين، وإن كان الواقع أن ذلك أحدث بأشجار الفاكهة. وقد قيل لنا إن الكاهنة البطلة البربرية الشهيرة، أمرت حوالي القرن الميلادي السابع بقطع الأشجار بكل مكان. وكانت الأشجار تكوّن ظلا متصلا من طرابلس إلى طنجة. ولاشك أن في هذا مبالغة شديدة. وفوق هذا فإن الكاهنة حسبما يؤكدون - كانت تريد حرمان الفاتحين العرب من

وفي عهود الفتن التي سبقت عهد السلام الروماني، كانت الجبال على ما يحتمل تستخدم ملاجئ للسكان الذين كانوا يحسون أنهم فيها أحسن دفاعا ضد الهجمات المباغتة، وضد النهب في الأراضي المنبسطة، وقد ساعد ذلك على النقصان من الغابات.

وخلال القرون الميلادية الأولى نالت الفلاحة دفعة قوية إلى الأمام بالوسائل التشريعية التي شجعت على استصلاح الأرض، إذ كان شمال إفريقيا كثير السكان. وفي القرن الميلادي الثالث كتب ترتوليان مع بعض الفخفخة قائلا : «المزارع الضاحكة محت أكثر الصحاري شهرة، والحقول المزروعة قهرت الغابات، والقطعان طردت الوحوش الضارية... وفي ذلك البرهان الواضح على تكاثر النوع الإنساني ! إننا عبء على العالم... وفي كل مكان تسمع هذه الشكوى : سنفقد الطبيعة». إن راهب قرطاجة عندما فاه بهذا الكلام، لابد أنه كان يفكر في مسقط رأسه على الخصوص.

وكنتيجة لاستثمار عدد من الأراضي الخصيبة، في السهول وفي الشعاب، ونتيجة أيضا لتكاثر السكان، فالمناطق الجبلية والغابوية التي أجلي إليها الأهالي الذين بقوا على "بارباريتهم"، لابد أنها استغلت بنشاط أكثر مما مضى. والقصة التي يرويها أمْيان مرسُلان عن ثورة فيرْموس Firmus في نهاية القرن الميلادي الرابع تشهد بكثرة السكان في شرق بلاد القبائل، وبقسم من جبال البابور والبلاد التي تحد شعب شليفْ وتحيط بسور الغزلان. ويعطي بْروكوبْ معلومات مماثلة عن جبال الأوراس في القرن السادس. فقد كان هؤلاء الأهالي يتعاطون تربية الماشية او الزراعة حين تساعد الأرض عليها. وفي كلتا الحالتين لابد أن يغروا باقتحام الغابة إغراءهم بأرض النباتات الكثة. وليس ذلك للزيادة في مساحات الأراضي المهيأة فحسب، بل ولإبعاد الوحوش

لايمكن قبوله، مثلما لا تقبل كلمة "الأرض جرداء من الأشجار" التي كتبها سالوسْت، وذلك حتى لو تذكرنا أن هؤلاء الكتاب لا يقصدون الظلال التي تكونت بالغابات فحسب بل حتى بمغارس أشجار الفاكهة أيضا.

في بعض الجهات نجد الغابة قد عادت إلى الأرض التي لابد أنها كانت تحرث في العهد الروماني، وذلك لأننا نجد اليوم الخرائب الأثرية تختفي داخل الأجمات. وقد لوحظ هذا في أرض خمير وفي الشمال الشرقي لولاية قسنطينة بين سوق أهْراس والقالة وهي مناطق تغزر بها الأمطار فتنمو النباتات، ويقل بها عدد قطعان الماشية، الأمر الذي يساعد الغابة على التكون من جديد. وقد لوحظ كذلك وجود آثار مهمة في الأوراس، هي اليوم تختفي في قلب الغابة.

وعلى النقيض من ذلك، فإن الكثير من بين النصوص القديمة التي أوردناها من قبل يخبرنا بغابات اندثرت، كالتي كانت تحيط بالأربس غير بعيد عن الكاف، وربما أيضا بقسم كبير من الغابات التي أشار كوربوس لوجودها بموسّطة تونس وجنوبها أي بالأراضي التي هي اليوم قليلة الأشجار، وكالغابات التي ذكر كل من هيرودُت وسْتْرابون أنها موجودة بجوار لبدة بجبل النِّعم وبرأس مسْراتة.

وعملية قلع الأشجار بشمال إفريقيا، لابد أنها بدأت منذ العهود العتيقة. وإذا كان الناس قد حولوا إلى مزارع للحبوب كثيرا من الأراضي العارية أو التي كانت مكسوة بالنباتات الكثة فحَسْب، كالدْرو Lentisque والسدْرة والرتم Genêt والدوم وغيرها، وإذا كانوا قد غرسوا فيها حتى أشجار الفاكهة، فمن المحتمل أن تكون الزراعة أيضا وسّعت مداها على حساب الغابات الطبيعية.

يعلم هذا أكثر من غيره. فنوميديا التي يعنيها والتي يهيمن عليها الدوناتيون الذين يردُ عليهم، هي أرض السهول الممتدة جنوبي قُسّنطينة حتى سفوح سلسلة الأوراس. أما اسم جيتوليا، فكان القدماء يطلقونه على منطقة داخلية تقع بين المناطق المجاورة للساحل والصحراء وعلى هذا فإن السهول الجنوبية التي بموسّطة ولاية قسنطينة كانت من ضمن جيتوليا، وكذلك مداوْرش - جنوبي سوق أهْراس - فإنها كانت عند الحد الفاصل بين أرض جيتوليا وأرض نوميديا، وليس المقصود هنا نوميديا بالمعنى الإداري للفظ. أما في تونس فيظهر أن سيكا - أي مدينة الكاف - كانت بجوار جيتوليا.

على أن هذا الفقدان للأشجار في مساحات عريضة كهذه يجب أن لا نعزوه لعملية انتزاع للأشجار قام بها الناس ليهيئوا لأنفسهم المراعي وأراضي الزراعة، فشمال إفريقيا يوجد به من التربة ما لا يصلح للنباتات الغابوية، كما هو الشأن في عدة أقسام من موسّطة ولاية قسنطينة والبلاد التونسية التي تنتشر عليها جلّة Carapace جبسية كلكيرية متولدة عن تبخر المياه الصاعدة بواسطة الشعْرية Capillarité، إذا لم يتدخل الإنسان ليكسر هذه الجلة فإنها تعوق جذور الأشجار عن النمو. ومثل ذلك يقال عن قسم كبير من براري ولايتَيِ الجزائر ووَهْران، حيث توجد جلة مماثلة، وحيث الأمطار لا تهطل حتى بالقدر الذي يروي أشجارا لا تطلب ماء كثيرا. وكذالك هي الأراضي الطينية في كثير من الشعاب والسهول التي تيبس تربتها تماما في فصل الشتاء. وأخيرا، كذلك هي أراضي غرب المغرب الخصيبة، التي ليس عليها سوى قشرة رقيقة تكسو باطن أرض ذات أحجار متراصة. وعلى هذا، فإن بعض الكتّاب العرب حين يؤكدون أن الظلال في نهاية القرن الميلادي السابع كانت منتشرة من غير انقطاع من طرابلس إلى طنجة فإن قولهم هذا

وجود الأشجار قد لفت نظر سالوست، الذي كان كما هو معلوم حاكم ولاية إفريقية الجديدة – أي غرب تونس وشرق ولاية قسنطينة – فلابد ان الأمر كان حالة واقعية في قسم كبير من البلاد. وفي القرن الميلادي الأول كتب كولميل قائلا : «في نوميديا، الأرض على العموم عارية من الأشجار ومزروعة بالقمح». أما القديس أوغسطين فإنه عندما أوضح أن فقرة الكتاب المقدس التي ورد فيها ذكر للجبل الظليل لا يمكن أن تنطبق على نوميديا، خلافا لما ادعاه الدوناتيون، كتب يصف هذه المنطقة قائلا: «إنك تجد بها كل مكان عاريا. إن البوادي خصيبة حقّاً، ولكنها تحمل المحاصيل. فهي ليست غنية بأشجار الزيتون، ولا بهيجة بغيرها من الأشجار». وفي مكان آخر يقول : «خذ أحد الجيتوليين واجعله بين هذه الأشجار الجميلة – يقصد أحواز هيبون – فسيحب الفرار من هنا والعودة إلى جيتوليا العارية». وقد اضطر قيصر حين كان يحارب بنواحي هَدْروميت (سوسة) وثَبْسوس إلى أن يأتي بالخشب من صقلية ليصنع الآلات، لأن المواد اللازمة كانت منعدمة في إفريقيا، كما لاحظ ذلك مؤلف كتاب حرب إفريقيا Bellum africum أما بداخل الأراضي، فإن نواحي قَفْصَة وتْهالة Thala قد كانت عارية في عهد يوغَرْطة، وإذا كانت الأشجار قد كستها فيما بعد، فإن تلك الأشجار كانت للفاكهة.

وهكذا فإن هذه النصوص تذكر أن الأرض كانت عارية بنوميديا وجيتوليا وبقسم من الولاية التي كانت تحمل اسم بيزسين Byzacène في عهد الإمبراطورية السفلى. أما القديس أوغسطين، فلم يكن يقصد بنوميديا الناحية الساحلية التي خلف موانئ طبَرْقَة والقالة وسْكيكْدة وكولو. إذ الواقع أن هناك ما يدعو للاعتقاد أن هذه الأقسام من نوميديا كانت شجيرة في العهود العتيقة كما هي اليوم. وقد سبق أن أوردنا شهادة جوفنال في موضوع غابات طبرقة، ولابد أن أسقُف هيبون كان

أما الأراضي الكلكيرية التي يتكون منها أغلب الجبال الداخلية فهي أراض غابوية. لكن، نظرا لكونها على العموم تتلقى من الأمطار أقل مما تتلقاه منطقة الساحل، فإنها على الخصوص تحمل أنواعا تتطلب القليل من الماء. وشجرتها الطرازية هي صنوبر حلب الذي يتطلب اليسير سواء في التربة او في النداوة، بحيث يكفيه 0,30 مم من المطر، ويتقدم حتى حاشية الصحراء، كما ينبت على ارتفاع يتراوح بين 1500 و1600 متر. وكثيرا ما يصحبه سندروس فينيقيا الذي هو شجرة صغيرة قد تعلو منابتها إلى 1700م.

ومن بين الأنواع الأخرى، فإن أشجار البلوط والعرعر والأرز يرضيها كل من الحجر الرملي والكلَكيري. فالبلوط شجرة قنوع وقوية وتكوّن مشاجر Boisements مهمة بين 600 و1200 متر تقريبا وإن كان يستطيع بلوغ 1700 متر. أما العرعر فقليلا ما يتعدى 800 متر، وغالبا ما يصحبه صنوبر حلب، بينما الأرز ينبت بين 1300 و2000 متر.

ولا يظهر أن الأسباب الفعالة في النباتات الغابوية بإفريقيا قد طرأ عليها تغيير منذ العهود العتيقة. لذلك فلا داعي لنفرض أن توزيع الأنواع كان مغايرا لما هو عليه اليوم.

وفيما يتعلق بكثافة وسعَة الغابات، فيحسن أن نتذكر بعض النصوص القديمة التي تبين أن إفريقيا الشمالية كان بها مسافات شاسعة غير شجيرة.

في الوصف الشهير الذي كتبه سالوست، نقرأ هذه الكلمات : «الأرض... جرداء من الأشجار». ولاشك أن تأكيد المؤرخ قاطع أكثر مما يلزم، لأن الوثائق التي ذكرناها من قبل تشهد بذلك، لكن إذا كان عدم

ويذكر نفس الكاتب ان القائد سويطونيوس باولينيوس أشار إلى أن سفح الأطلس المغربي به غابات كثيفة، مكونة من أشجار غير معروفة بمكان آخر، لها قامات عالية وجذوع صقيلة من غير عقد وإنها بأوراقها شبيهة بالسرو، وتنبعث منها رائحة قوية : (وهي مكسوة بغفار خفيف، يستطيع الماهرون أن يصنعوا منه نسيجا كما يصنع الحرير). وقد ظن البعض أن هذه الأشجار الغريبة، وربما لم تكن سوى أشجار للصنوبر، تعيث فيها اليساريع الزاحفة Chenilles processionnaires، التي كونت بها أكياسا كالحرير، بيضاء اللون واستعملتها مساكن جماعية لها.

هذه هي الأخبار التي خلفها لنا القدماء عن الغابات بشمال إفريقيا.

5

إن انتشار الغابة وكثافتها وتوزيع الأنواع المكنونة لها يخضع للمناخ وللارتفاع وللتكوين الجيولوجي للتربة.

والمنطقة الغابوية الحقيقية في أرض الشمال الإفريقي، هي المنطقة الممتدة خلف الساحل، من القبائل الكبرى لما بعد أرض خُمير أي المنطقة الجبلية التي تغزر بها الأمطار وتكثر بها الأراضي الصوّانية المتكونة خصوصا من الحجر الرملي الصالح جدا لإنبات الشجر الصغير. تلك هي أرض الفرنان Chêne liège النوع الذي يصلح في الصوان والذي يطلب على الأقل 0,60 مم من المطر، وينبت حتى في 1300م من العلو وإن كان يصلح على الخصوص بين 600 و800 متر. وتلك أيضا هي أرض الزان Chêne Zeén الذي يبدأ ظهوره على ارتفاع 800 متر تقريبا، وترتفع منابته إلى أعلى من منابت الفرنان وتصل إلى 1800 متر تقريبا.

ولدينا عن الستروس Citrus بعض التفصيلات فخشب هذه الشجرة المشهورة منذ عهد مسّنيسا، كان في أواخر عهد الجمهورية وبداية عهد الإمبراطورية يستخدم في صنع موائد تبلغ أثمانا عالية جدا. كما أن هذا الخشب، في القطع الجميلة، كان له لون الخمر الممزوجة بالعسل، وتظهر فيه عروق أو بقع لامعة، ومن هنا جاء إطلاق كلمتي بَبْر ونَمِر على هذه الموائد لأن العجر التي تنبت على أرجل الأشجار، والتي تكون عريضة في الغالب كانت تستخدم في صنع هذه الموائد. وقد كانت أكبر مائدة من قطعة واحدة على ملك واحد ممن أعتقهم تيبير Tibère، وكان مقياسها أربع أقدام. كما أن مائدة أخرى ملكها بطلمي ملك موريطانية كانت أكبر من الأولى - أربع أقدام ونصف - ولكنها كانت من قطعتين موصولتين وكذلك كان يصنع من هذا الخشب أخونة الطعام، كما كان يبطن به الأثاث والأبواب والجدران والسقوف، وتصنع منه بعض الأواني وغير ذلك. يقول پْلين الشيخ إن الستروس يشبه في أوراقه ورائحته وجذعه شجرة السرو البري Cyprès sauvage كما أن ثِيوفْراست يطلق على نفس الشجرة اسم Thuon أو Thua ويذكر أنها موجودة بسرنيكا، وفي واحة زيوس أمون (فهو يشبه السرو في الشكل والأغصان والأوراق والجذع والتمرة ... وخشبه لا يفسد أبدا. أما جذره فبه عروق، وتصنع منه مصنوعات متقنة). فالستروس إذن حسب هذه المعلومات هو العرعر Thuya الذي تتكون على أرجله (هذه العجر الجميلة المعقدة المخططة بالأحمر الفاتح والقاتم فتجعله أثمن أنواع الخشب في النجارة الدقيقة). هذه الأشجار اليوم ليست طويلة القامة. ولكننا نعلم من پْلين أن غابات جبل أنكوراريوس Ancorarius التي أعطت أجمل أشجار العرعر، كانت في عهده قد أفنيت تماما.

وهل يمكن التعويض عن النقص الحاصل في النصوص بدراسة توزيع الخرائب الأثرية ؟ إن الخرائب قليلة العدد في أراض تكسوها الغابات اليوم، كما بأرض خُمير مثلا، وبالجنوب الغربي للقالة وبالجنوب الشرقي والجنوب الغربي لجِيجِل، وفي جبال البيبان وشرق القبائل الكبرى، وفي الجبال الممتدة جنوبي متِيجَة، وفي الونْشَريس. فهذه الجهات لم تنتشر فيها الحضارة اللاتانية إلا قليلا. فالمدن غير موجودة والقرى والدياكر تقع – مع قلة عددها – في الشّعاب التي كان بها أراض تصلح للزراعة، أما الخرائب الرومانية القليلة التي نلاقيها في الأقسام الوعرة فتمثل مساكن منعزلة وربما مزارع أنشئت في فجوات الغابات، ومع ذلك يجب أن لا نعلق أهمية كبيرة على هذه الملاحظات. إذ عدم وجود أو قلة وجود خرائب ذات مظهر روماني، أو بناء شُيّد بمواد ثابتة لا يبرهن بصفة قطعية على أن الأرض كانت فيما مضى جرداء أو كالجرداء لأن العديد من الاهالي قد يكونون سكنوها في أكواخ لم تخلف أثرا بعدما هجروها.

ولا يخبرنا الكتاب بشيء كبير عن الأنواع التي تكوّن الكساء الشجري الطبيعي لشمال إفريقيا. فهم يذكرون أشجار البلوط Chêne vert ou yeuse والأرز Cedre والصنوبر Pin، وربما صنوبر حلب، والصنوبر البحري (تايدا)، والدرْدار Frêne والصفصاف Peuplier، والسندروس Genévrier والبطم Térébinthe وربما الدور Lentisque، والعرعر Thuya والزيتون البري Olivier sauvage الذي سنتحدث عليه فيما بعد. ويجب ان نضيف المران L'Orme واسمه البربري ثْلْموث في بلاد القبائل، ولاشك أنه مشتق من أولموس Ulmus باللاتانية ولم نعثر على أي إشارة دقيقة عن الفرنان Chêne liége الذي هو اليوم أهم ثروة غابوية بشمال إفريقيا.

أخباره مبهمة، ويستحيل القول أين كانت إيفيرا Ifera (ذات الغابات الكثيفة)، وفي أي النواحي كان يعيش السِّلْكادنيت Silcadenit، والسلْفايزان Silvaizan، والماكار Macares الذين كانت أراضيهم شجيرة. ومع ذلك فنحن نعرف موقع الغابات التي خاض في وسطها الجنرال سليمان Solomon معركة كانت شرا عليه. فقد كانت هذه الغابات تقع قرب كيليوم Cillium أي القصرين، بين سبيطلة وفريانة. أما المنابت Saltus التي ذكر پْلين أنها بعد سرْتَة الصغرى في اتجاه الجنوب، فربما أنها لم تكن غابات حقيقية. ونذكر في الأخير الغابات الكثيفة جدا، التي يذكر هيرودُت وجودها بجبل النعم Colline des Grâces جنوبي لَبْدة بطرابلس، كما نذكر الغابات التي يقول سترابون أنها كانت تظلل رأس صيفال Céphales، أي رأس مَسْراتة قليلا إلى الشرق.

ومن المعلوم أن كلمة سَلْتوس Saltus تعني أرضا يكسوها نبات طبيعي، في أغلب الأحيان غابوي. وبجانب هذا المعنى الأصلي كثيرا ما نجد لها في إفريقيا معنى آخر هو المزرعة الكبيرة. إذن فقبل أن يشرع في استثمار هذه المزارع، لابد أن بعضا منها قد كانت الغابات أو النباتات الكثيفة تكسوه كليا أو جزئيا. ولكن يجب أن لا نعتقد حيثما وجدنا سلتوس – المزرعة، أنه كان هناك سلتوس – الغابة، لأن معنى اللفظ طرأ عليه تغيير. ونفس الملاحظة يجب أن نقولها في موضوع الإشارات لسلْفانوس Silvanus الذي كان له عباد كثيرون بإفريقيا الرومانية. فكَون هذا الرب قد عُبد في بضعة أماكن باعتباره حاميا للغابات أمر يمكن قبوله، ولكن لم يتأكد أن الأمر كان دائما هكذا، لأننا نعلم أنه تحول في إيطاليا إلى حام للمواشي، وللبساتين، وللحقول المحروثة وللحدود. وعلى هذا، فإن النقوش التي تذكر السلْتوس والإهداءات إلى سِلْفان غير مجدية في التعريف بمواقع الغابات العتيقة.

كستيلوم أوزيا كانت تحيط به غابات واسعة، ويحتمل أن هذه الحلة الحصينة Bourg كانت بأرض نوميديا، ولكننا نجهل موقعها بالضبط. وكذلك الأمر بالنسبة للأمكنة الشجيرة التي جر يوغرطة إليها أولوس بستوميوس Aulus Postumius الذي كان يحاصر سوثول، والأمكنة الشجيرة التي فر إليها يوغرطة بعد أن انتصر عليه ميتلوس بالقرب من نهر ملاگ الرافد الأيمن لنهر مجردة. وفي القرن الميلادي السادس كانت الغابات تحيط بمدينة لاريبوس Laribus التي هي اليوم الأربس بالجنوب الشرقي للكاف. وبالقرب من هذا المكان، في سهل السرس بين الكاف ومكثار، اكتشف نقش إهداء لسِلْفان يشير لغابة قرب عين الماء، ولكنها ربما لم تكن سوى مشجر بسيط.

ومنذ عهد بعيد كان الأرز النوميدي يستعمل في البناء ويتحدث بْلين عن الجائزات Poutres التي استعملت بمعبد أبولون بمدينة أوتيكا أثناء تأسيس هذه المدينة، وأن هذه الجائزات كانت لاتزال في حالة جيدة بعد مرور 1178 سنة، فإذا كان توزيع غابات الأرز منذ ثلاثة آلاف سنة هو نفس توزيع اليوم، فلابد أن تكون هذه الجائزات قد أتي بها من بعيد، من الأوراس او من جبال باطْنَة. ونجد في كوربوس إشارة لغابات الأوراس، وهي جبال لاتزال إلى اليوم شجيرة جدا.

وفي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد كانت الغابات على مسافة قليلة من قرطاجة، إذ أن القنصل كُنْصورينوس Censorinus الذي كان يحاصر هذه المدينة، عبر بحيرة تونس وذهب ليبحث عن المواد الصالحة لصنع الآلات والسلالم.

وكثيرا ما ذكر كوربوس الغابات التي كانت في عهده – أي القرن الميلادي السادس – موجودة بموسطة القطر التونسي وبجنوبه. لكن جل

ويمكن تقدير الخراب الواقع بالجهات الغابوية بالجزائر منذ الاحتلال الفرنسي. إذ السببان المهمان لذلك التخريب هما الرعي والحريق. وهما ظاهران في الجبال المشرفة على السهول الكبرى بولاية قسنطينة، وبالسفح الجنوبي للأوراس، وبجبل البليدة وجبل العمور وغيرها. وكذلك غابات موسطة البلاد التونسية وغابات المغرب فإنها في تضاؤل.

لكن عملية هذا التخريب التي تتابع تحت أبصارنا قد بدأت منذ عهد بعيد. ففي عدة أماكن يفهم المرء وجودها. ولاشك أن الغابة كانت منتشرة فيما مضى فوق جبال هي اليوم عارية من النبات، مع أن تربتها مماثلة للسلسلات المجاورة التي تحمل أشجارا حتى اليوم. يقول فيشور: «إن جبل مَكْريس Mégris المعرى تماما، يعرض نفس التكوين الذي يعرضه جبل تمَسْكيدا Tamesguida والقمم شجيرة بناحية جيجل على بعد ثلاثين كيلومترا تقريبا إلى الشمال، وهو تكوين من الحجر الرملي المجاني Grès Medjanien فبجميع السلسلات الصغيرة المنتشرة فوق النجود من سطيف إلى العين البيضاء، تجد كلكير الكريتاسي الأسفل هو الذي يكوّن هذه التلال المستديرة الشكل أو هذه الكدى العارية، التي نشاهدها عند الجنوب تنتقل بتدرج لتصير جبالا شجيرة متشابهة تكوينا ومظهرا في أولاد سالم وبِلزْمة Bellezma». وبصفة عامة يستحيل تدقيق عهد عمليات قلع الأشجار. والمتأكد هو أنها جرت خلال عهد طويل جدا، ابتدأ دون شك في العهود العتيقة. كما أن استبعاث بعض الغابات لم يعوض عن الخسارات التي أخذت تفدح من قرن لقرن، والتي تكاد لا يكون لها علاج في الأراضي الداخلية لأن الجفاف وقطعان الماشية بها أكثر مما بالساحل.

أما في السهول وفي المنحدرات الخفيفة، فإن اختفاء النبات الطبيعي يعطي للناس الأراضي الزراعية الضرورية لهم. ومع أن هذا الاختفاء تكون له بغير السهول والمنحدرات الخفيفة عواقب سيئة فلابد من عدم المبالغة فيها. فنحن لا نظن أن للغابات تأثيرا كبيرا في تكون الأمطار ولا يظهر أنها تساعد في تغذية عيون الماء إلى الحد الذي جرى فيه الكلام. إن الأشجار توقف قدرا كبيرا من ماء السماء. ولكن يستعيده التبخر الحاصل بالشمس أو بالريح. أما الماء الذي يصل إلى الأرض فلاشك أنه أقل تعرضا للتبخر مما لو كان في الأرض العارية. ولكن كثيرا ما تستأثر به الدبالات Terreau والأشنة Mousses فتتملأ منه عن طريق جذور الأشجار التي لا يكاد يكفيها في كثير من الأماكن بالشمال الإفريقي، إذ الأرض تتشرب من الماء أقل بكثير مما تتلقاه الغابة منه.

والمتأكد هو أن كساء التربة في الأراضي الجبلية يقلل كثيرا من سيحان المياه، سواء أكان ذلك الكساء غابة أو نباتات كثة. إذن ففي هذا المجال كان اقتلاع الأشجار شرا لا يستطيع أحد إنكاره. ومع ذلك، يمكن التقليل من ضرره وأخطاره بإحداث مصطبات متراكبة تحمل الغروس على المنحدرات. والقدماء كثيرا ما عملوا بهذه الطريقة في معالجة الأراضي الوعرة.

إذن، فمن الملاحظات المتقدمة يمكن أن نستنتج أن شمال إفريقيا عرف من العهود العتيقة إلى أيامنا المقاطعات الشاسعة العارية التي لم يساعد تكوين تربتها ولا مناخها على نبات الأشجار. وكان بهذه المنطقة أيضا غابات واسعة، ربما كان عددها أكثر مما هو الآن، ولكن إلى أي حد ؟ ذلك ما نجهله، كما أن عملية اقتلاع الأشجار بدأ فيها منذ تلك العهود، غير أن عواقبها التي كانت سيئة على الجبال، قاومها الإنسان بعمله في كثير من الأماكن.

الكتاب الأول

ظروف النماء التاريخي

الفصل الخامس

ظروف استثمار الأرض

1

كاد أهل شمال إفريقيا، طوال عهود تاريخهم، يكونون قد استخلصوا معاشهم من الفلاحة وتربية الماشية فحسب، مع استثناء وحيد هو قرطاجة، المدينة الصناعية والتجارية الكبرى.

لهذا فمن المجدي أن نعرض باختصار كيف كانت ظروف استثمار الأرض في بلاد المغارب أثناء العهود الغابرة. ولقد أبانت لنا دراسة المناطق الطبيعية وأحوال المناخ أن تلك الظروف لم تكن متشابهة بكل مكان، وأنها لم تكن مطلقا تساعد في جميع الجهات على الحصول على نتائج حسنة.

فالنباتات المغروسة أو المزروعة بشمال إفريقيا في العهود العتيقة كانت هي النباتات التي أملت اختيارها وضعية هذه المنطقة، وهي النباتات التي انتشرت منذ سلسلة طويلة من القرون في باقي بلاد البحر الأبيض المتوسط. ولن نتحدث هنا على بعض النباتات المعروفة بكونها

أجنبية مستجلبة. فهذه لم يعرفها القدماء إلا قليلا، ولم يوطنوها على ما يظهر في مناخ بلاد المغارب حيث لا يمكن أن تنجح إلا في بعض الأماكن المتميزة كشجرة القطن وقصب السكر المغروسين في العهد العربي هنا وهناك، كالأرز الذي لم يدخل في زراعة الأبيض المتوسط إلا في القرون الوسطى.

إن الأراضي التي تصلح لزراعة الحبوب في شمال إفريقيا هي على الخصوص ذات التربة الطينية الكلكيرية أي السجلية وذات التربة الصوانية الكلكيرية. فالنوع الأول يكوّن الأراضي القوية التي تستلزم جهدا شديدا، والنوع الثاني يكوّن الأراضي الخفيفة التي تسهل خدمتها، لأنها تتشرب النداوة وتحافظ عليها جيدا، وهي التي تحدث عنها كولميل (Columelle) العالم الزراعي الروماني فقال : «في إفريقيا وفي نوميديا توجد رمال هشة تفوق في خصوبتها أشد التربات قوة».

ولتوزيع طبقات فسفاط الكلس أهمية من الناحية الزراعية. فنحن نعلم أن هذه الطبقات تمثل رسوبات يختلف سُمكها، وإنها تجمعت على طول السواحل في العهد الثالث في حقبة الأيوسين، وإنها مليئة ببقايا الأسماك الكبيرة، والروث المتحجر Coprolithe وقواقع الرخْويات Mollusques وغير ذلك. وأصاب التَّحات هذه الرواسب في أماكن عديدة ثم جرف ما لا يحصى من أجزائها، وخلطها كعناصر للتخصيب بتربة الشعاب والسهول. يقول أحد علماء الجيولوجيا : «من الغريب أننا حين ندرس الخرائب الرومانية – بتونس – نجد ان آثار الضيعات الزراعية تكثر بصفة خاصة في التربة السجيلية لعهد الأيوسين، التي تبين دائما عن محتوى كبير من فُسْفاط الكلس». وأهم مواقع الفسفاط المعروفة اليوم توجد بالجنوب الغربي للقيروان بسيدي نصر الله، وتوجد بين

الكاف وتبسَّة وبجوار هذه المدينة الأخيرة، وبغرب قَفْصة على طول نحو من ستين كيلومترا، كما توجد بجنوب بلاد النمامشة بجبل العنق، وكذلك بناحية سوق أهْراس، وفي المجانَة بالجنوب الغربي لِسْطيف، كما توجد بأحواز سوق الغزلان والبرواغية البخاري.

غير أن سعة مدى الأراضي الخصيبة جيولوجيا، تتعدى مدى الأراضي التي يمكن زرعها بالحبوب في ظروف مناسبة، فعلى العموم، تعتبر حصة من الأمطار المتراوحة بين 35 و40 سنتمترا حدا أدنى لابد منه لنجاح المحاصيل. لكن ليس بالجزائر وتونس - حسب إحصاء تقريبي - سوى 18 مليون هكتار تتلقى 40 سنتمترا من الأمطار سنويا، وذلك هو ثلث فرنسا تقريبا. أما التعويض بالري عن فقدان الأمطار أو تخلّف مواعيدها، فلابد فيه من وجود مياه احتياطية سطحية او باطنية تكون أغزر مما هي عليه في أرض المغارب. وتقدر المساحة العامة من الأرض المسقية اليوم في الجزائر وتونس بنحو 220.000 هكتار. وإذا جدت منشآت مائية مستوحاة من أمثلة العهود العتيقة ورفعت هذا العدد، فإن الارتفاع لن يكون كثيرا، ولربما يصل للضعف. إن السقي ينمي الأشجار الصغيرة وزراعة الخضر التي تكون غير واسعة المدى نسبيا، أما الحقول الواسعة التي تزرع بالجنوب فإن سقيها لا يكون ممكنا إلا بصفة استثنائية. وهكذا، فإن هذه الطريقة من الاستثمار كثيرا ما تكون نتائجها غير متأكدة في المناطق التي قد تكون طبيعة أرضها أكثر مساعدة، كما في موسطة تونس وجنوبها مثلا.

وحتى في المناطق الصالحة للحبوب، من حيث تكوين تربتها ومناخها المعتاد، لابد من اعتبار الجفاف الذي يكثر حدوثه طيلة فصل الأمطار، ويكون خطيرا بصفة خاصة في وقت رمي البذور وفي الربيع.

ونتيجة ذلك أن المحاصيل تكون مشكوكا فيها ومختلفة أكثر من اختلاف المحاصيل في أروبا الوسطى. إذن، حيث أن الأمطار قد تنحبس أو تقل في مايو وأحيانا في أبريل، ونظرا لكون الحرارة المباغتة التي تداهم آنذاك وتفسد جودة الحبوب في السنابل، فلابد من رمي البذور في وقت مبكر ليكون الحصاد في وقت مبكر. غير أن الأرض التي صلبت أثناء الصيف، لابد أن تلين بالمطر - الذي كثيرا ما يبطئ قدومه في الخريف - حتى يتسنى الحرث ورمي البذور. ونضيف أن الخريف هو الفصل الذي يصعب جدا العثور فيه على العلف لثيران الحرث.

والحق أنه يمكن التعويض إلى حد ما عن هذه الأحوال غير المناسبة، كما يمكن زرع الحبوب حتى في المناطق التي تنخفض فيها حصة المطر عن 35 سنتمترا، أو قلما تبلغ فيها الحصة 25 سنتمترا. فالفلاحة العتيقة نهجت طريقة تهيئ الأرض بتركها تستريح مدة سنة، الأمر الذي يسهل تشرب التربة للماء، ويمنع تبخر المياه ويقضي على النباتات التي تستنزف هذه المياه. وهكذا يمكن رمي البذور دون انتظار للأمطار منذ نهاية شتنبر أو بداية أكتوبر. وإذا نثرت البذور بتفريج بينها في الأراضي الجافة فإن الأرض تحافظ على النداوة التي اختزنتها مدة استراحتها، والتي قد تستنزفها النباتات المتزاحمة.

في قسم كبير من شمال إفريقيا، بجوار الساحل وعلى ارتفاع ضئيل، نجد لطافة المناخ في فصل الشتاء تمكن الحبوب من الاستمرار في النمو ومن الوصول بسرعة إلى النضج. أما السهول العليا الداخلية، كالتي بناحية سطيف مثلا، فإن البرد يؤخر فيها الإنبات، وحتى إذا ظهرت النباتات فإن صقيع فصل الربيع يمكن أن يؤذيها. كما تكثر النباتات الفضولية كالخرطال البري Folle Avoine والعكرش Chiendent

وغيرهما وتنمو بشدة. وأخيرا يسبب السيروكو (ريح الشوم) في الربيع أحيانا خسارات فادحة.

يقول ريڤْيير و ليكْ Rivière et Lecq في كتابهما «الزراعات في جنوب الجزائر وتونس» : «من بين الزراعات الجنوبية، لاشك أن زراعة الحبوب هي الأقل تناسبا مع مناخ البحر الأبيض المتوسط». وهذا التأكيد صحيح بالنسبة للقمح أكثر من صحته بالنسبة للشعير الذي لا يخشى الجفاف كثيرا، وينضج قبل القمح بشهر. لذلك يجب تفضيل الشعير على القمح في الأراضي التي يقل فيها المطر، وفي السنوات التي يلزم فيها تأخير رمي البذور.

ورغما عن الأخطار المحدقة بزراعة الحبوب، فإن هذه الزراعة قد عرفت انتشارا كبيرا في العهود العتيقة. ونحن لا نكاد نعرف كيف توطنت هذه الزراعة ولا كيف انتشرت بهذه البلاد، غير ان الصرا ع ضد الغابة والمستنقعات لابد أنه كان أخف وطأة مما كان عليه في بلاد الغال، لأن الأراضي المستنقعة قليلة جدا بشمال إفريقيا. وقد سبق لنا أن رأينا أن الكثير من الأراضي هي غير صالحة للأشجار. ومع ذلك، لابد من القضاء على العُكّاش Broussaille، التي غالبا ما يكون كثيفاً ويصعب استئصاله خصوصا في الأراضي الجيدة.

إن تشابه الأحوال الطبيعية وبعض الشهادات الصريحة تمكن من الاعتقاد بأن مناطق زراعة الحبوب كانت في الماضي نفس مناطق اليوم تقريبا. وسنذكر على الخصوص السهول الغربية للمغرب حيث توجد البسائط الواسعة من التربة السوداء المعروفة باسم التيرَسْ، وحيث توجد تربة حمراء هي أيضا خصيبة، وكذلك سهول سيدي بلعباس وبسائط نواحي سعيدة وتَغْمارت، وإن كانت ضيقة شيئا ما، كما نذكر

نجْد تيارْت وسرسو، وسهول المجانة وسطيف، والسهول الواقعة جنوب قسنطينة وقالمة وسوق أهْراس، وسهول غار الدماء والدخْلة حيث يمر نهر مجردة، والنجد التونسي الاوسط والشعاب المحيطة به، ونذكر كذلك قسما من الساحل الشرقي لتونس بجنوب خليج الحمّامات وبشمال سوسة وحولها. إن جل هذه الأراضي التي ذكرناها سهول عالية أو وطيئة. أما في غيرها من الأراضي الجبلية كالريف وبلاد القبائل الكبرى والصغرى وأرض خُمير، والأوْراس وغيرها، فإن الشعاب تساعد على زراعة الحبوب، وإن كانت المساحات الموجودة غير واسعة على العموم.

لقد كانت غراسة الأشجار كثيرة الازدهار بإفريقيا فيما مضى، ولاشك أنها ستعود لازدهارها. ويمكن أن تنجح بالأراضي التي ليست صالحة للحبوب، وفي مقدمتها الأراضي الجبلية حيث المطر غزير والتربة فقيرة، إذ تكتفي بها بعض الأنواع من أشجار الفاكهة على غرار النباتات الطبيعية بالغابات. كما أن عيون المياه التي يكثر وجودها بهذه الجهات تستعمل في الصيف أو أثناء مدة الجفاف الشتوي في السقي الضروري للأشجار الفتية أو البالغة.

على أن أشجار الفاكهة، خصوصا منها الزيتون والتين واللوز، تحتمل الجفاف الطويل احتمالا حسنا، وذلك لأن جذورها القوية تذهب باحثة عن النداوة التي استمرت موجودة في باطن الأرض، بينما الشمس تكون قد أيبست القشرة الخارجية، وهذه المياة المخزونة موجودة بكمية كافية حتى في الأراضي التي قلما تتجاوز حصة المطر فيها 25 سنتمترا. فإذا عولجت هذه المياه المخزونة بقصد الحصول على ما يلزم منها لسقي الغروس الفتية، أمكن تكوين بساتين عريضة لها غلات تكاد تكون مضمونة. وذلك هو الذي كان في العهود العتيقة وحتى بعدها

بكثير، سبباً في ازدهار تونس الشرقية والجنوبية، وازدهار أرض النمامْشَة والحضْنة.

ومن الطبيعي أن المراكز التي لها حظ من الأهمية تكون محوطة بأشجار الفاكهة التي يستخدم ما تنتجه في الاستهلاك المحلي. وكثيرة هي المدن التي لا تزال حتى اليوم بشمال إفريقيا منطقة بحزام من البساتين الجميلة. وكذلك كان الأمر في العصور الوسطى، ولاشك كذلك حتى في العهود العتيقة، إذ نعلم أن بساتين تِلمْسان خلفت بساتين بوماريا Pomaria. وأخيرا ففي واحات الجنوب، حيث السقي يساعد الغراسة، ينبت العديد من أشجار الفاكهة في كنف النخيل، وتكون هذه الأشجار ضعيفة وتتطلب جهودا شاقة. أما النخيل – الذي يظهر أنه أهلي في الصحراء – فهو وحده الذي له قيمة اقتصادية لم يهملها القدماء.

والنوعان المهمان في بلاد البربر ذاتها هما الكرم والزيتون، وكانا يوجدان بها على حالتهما الطبيعية منذ أقدم العصور. ونجد تقريبا بكل مكان، بعيدا في الأراضي الداخلية، الزيتون البري Oléastre الذي لا ينتظر سوى التلقيح ليعطي نتائج جيدة. أما الزيتون المغروس فينبت في أشد التربات فقرا بدون حاجة إلى سماد، ولكن باستثناء الأراضي المستنقعية. ويمكن أن يغل على ارتفاع كبير، وحتى في أعلى مما يقال عادة، إذ نجد آثار المعاصر العتيقة بالأراضي التي يتجاوز ارتفاعها 1000 متر. ومع ذلك فإنه يتأثر بالبرد الشتوي الشديد والمستمر، وبالصقيع المبطئ والمتكرر في الربيع. وعلى النقيض من ذلك، يظهر أن الحرارة إذا لم تكن قاسية تحدث مفعولا حسنا على ما بثماره من الزيت، (فقد لوحظ أن نفس الأنواع هي أغنى في المواد الدسمة بإفريقيا منها بفرنسا، وأغنى بمغارس الجنوب عنها بمغارس الشمال). أما الكرم

المغروس فينمو نموا حسنا في المناطق ذات المناخ المعتدل، المجاورة للبحر، ولكنها في الأراضي الداخلية يمكن أن يؤذيها الصقيع المباغث في الربيع، بينما تكون قد شرعت في التبرعم.

ويظهر أيضا أن التين واللوز شجرتان أهليتان في أرض المغارب، فالأولى منهما لا يؤلمها برد ولا جفاف، وترضيها كل التربات وتصعد إلى ارتفاع كبير يبلغ 1200 متر في بلاد القبائل. وكذلك اللوز فشجرته قوية جدا لا تخشى خارج الساحل سوى برد الربيع.

أما الغروس البقولية، فالفول من بينها يناسب شمال إفريقيا بصفة خاصة، لأن النبات قلما يخشى الجفاف بفضل جذوره الطويلة جدا، وزيادة على ذلك، فإنه بخاصيته في تثبيت آزوت الهواء يكوّن سمادا حقيقيا ويهيئ التربة لتقبل الحبوب، وكذلك الشأن في النباتات البقولية الأخرى.

2

ويجب في تربية الماشية - كما في الزراعة - مراعاة توزيع الأمطار. فظروف حياة الماشية تكون حسنة خلال قسم كبير من السنة في الجهات التي يتجاوز فيها المعدل السنوي 35 سنتمترا، وحين لا يكون في التهاطلات اضطراب كبير في المواعيد. ففي شهر دجنبر، وحتى في نونبر حين تبكر الأمطار، تكسي الأرض ببساط من الكلأ الطبيعي، من النجيليات Graminées والبقليات Légumineuses التي يلذ الكثير منها للمواشي، ويكون طعمها ألذ وتغذيتها أفيد بالجهات المرتفعة كالجبال التي بشمال ولاية قسنطينة، والسهول العليا لسطيف وتيارت. ولكن نموها يكون أحسن بالجهات السفلى للساحل، حيث المناخ ألطف.

أما بالجهات ذات الارتفاع العالي، فإن البرد يعيق حياة النبات، وسقوط الثلج يمنع الماشية من الرعي، كما أن قساوة المناخ، والصقيع الليلي بالخصوص، تحدث فيها ضحايا كثيرة. وابتداء من يونيو فإن الشمس تلهب المراعي التي لم يعد المطر يبللها، كما أن السيروكو (ريح الشوم) قد يسرع بمفعول الشمس. وفي يوليوز - وأحيانا في غشت - تقتات الماشية على كل حال بالعشب اليابس وترعى الحصائد. أما من غشت إلى نهاية نونبر تقريبا فالأرض لا تكاد تقدم لها شيئا باستثناء الأراضي التي حوفظ فيها على النداوة بالسقي الاصطناعي، والغابات التي تحمي أشجارها الكلأ من قساوة الشمس. فأثناء هذه المدة الخطيرة لابد على العموم من تغذية الماشية الكبيرة على الأقل بالعلف المدخر.

أما في أراضي السهوب، أي جنوب تونس، وفي قسم من نجود ولاية قسنطينة، ونجود ولايتَي الجزائر ووَهران، وبالظهرة المغربية أي بشرق مَلْوية العليا، وبالمنطقة الداخلية للنجود الممتدة بين المحيط والأطلس، فإن الأمطار غير غزيرة وغير منتظمة. ومع ذلك فإنها تنبت نباتات هزيلة متكونة من النجيليات والسرمقيات Salsolacées وتنبت "الحلْفاء" في التربة الكلكيرية، والدرين Drinn في الكثبان، والشيح في المنخفضات الغرينية، أما القطف فينتشر بصفة خاصة بناحية الشرق في الأراضي المالحة. والماشية لا ترعى الحلفاء، وتأكل الشيح حين لا تجد غيره، ولكنها تبحث عن القطف وعن النباتات الصغيرة التي تتخلل الحلفاء والشيح. ففي الشتاء توجد إذن مراع نافعة، قلما يغطيها الثلج، كما في الجبال العالية بالتل. ولكنها سرعان ما تنتهي، الأمر الذي يوجب كثرة تنقل القطعان، كما توجبه أيضا قلة منابع المياه وقلة غزارة الموجود منها. فلابد للماشية أن تتحمل البرد من غير مأوى، لأن الحظائر تمنعها من التنقل. ولمدة من الزمن تكون النباتات، بعد فصل

الأمطار، لا تزال ترتوي بالندى الذي يحدثه إشعاع ليلي قوي. أما في فصل الصيف فينعدم الماء بالسهوب، ولا تعطي الأرض ما يغذي، كما أن النباتات الهزيلة التي كانت تكسو الأرض في فصل الشتاء لم يمكن حصدها لتدّخر احتياطا. لذلك يجب أن تنتقل القطعان إلى مكان آخر، إما إلى جبال الجنوب حيث لا تجد دائما ما يلزمها من ماء ونبات، وإما إلى التل. وختاما، فإن الحاشية الشمالية للصحراء يوجد بها في فصل الشتاء، هنا وهناك، بعض المراعي التي سريعا ما تنتهي.

إن الثيران لا يمكن تربيتها إلا في المناطق ذات الأمطار الغزيرة والمراع الثرية. وهي تستحسن على الخصوص الأراضي الجبلية، حيث الكلأ ناعم، وحيث تدوم النباتات أكثر مما تدوم بغيرها، نظرا لأن المياه الباطنية تحدث نضوحات عديدة، ونظرا كذلك للغابات التي تكسوها. وهي موجودة بكثرة بالمغرب عند قبائل زمّور وَزايان التي يمر بأرضها نهر أبو رَقْراق وروافده، وفي أقصى الشمال الغربي للمغرب بين طنجة ونهر سبُو، وكذلك بناحيتي سوق الغزلان والبخاري، وبالشمال الشرقي لولاية قسنطينة أي بأرض قالمة وجْماب وعنّابة وسوق أهْراس، وأخيرا بشمال تونس.

والحصان يحتاج إلى نداوة أقل، بل إنه يستطيع العيش في السهوب، والجهات التي تنتج اليوم أحسن الخيول هي منطقة عَبْدة بالجنوب الشرقي لآسَفي بالمغرب، ونواحي سَبْدو، والضّاية وفرنْدة، وعمّي موسى، وتِيارت، وشلاّلة، والبخاري وسوق الغزْلان، ونجود ولاية قسنطينة، أي مجانة ونواحي العلمة وشاتودان الرمل، وعين مْليلة وباطْنة وخنْشلة وتِبسّة وكذلك بحوض الحُضْنة وهذه كلها بالجزائر. أما في تونس فتنتج بنواحي الكاف وسهول القصْرين وفرْيانة.

وبالطبع، فإن الأغنام تطيب لها مراعي التل. أما التعبير المبتذل "أرض الأغنام" الذي يطلق على سهوب الداخل الجزائري، فإنه يجب أن لا يجعلنا نعتقد أن هذه الأراضي أصلح للأغنام من غيرها، بل الصحيح هو أنها مدينة لهذه الحيوانات بقيمتها الاقتصادية، وإن كانت قيمة ضئيلة. فالأغنام - في الأراضي الواسعة التي يقل فيها الماء، والتي يجب فيها التنقل - تستطيع أن تمكث لغاية أربعة أيام دون أن تشرب، كما تستطيع السير المديد. وهي تبحث عن الكلأ المالح، وترضى بالمياه المغنيزية التي يكثر وجودها بالسهوب.

وإذا كان الماعز كثير الإذاية بنهمه لتقمم البراعم واللِّحاف وحتى أغصان الأشجار الفتية، فإنه عند الضرورة يعرف أن يكتفي بأشد المراعي هزالا وبأسوء العُكَّاش، ويصبر عند الاقتضاء على العطش عدة أيام، ويتحمل مثل الأغنام مساوئ التقلبات المناخية. إنه ولود، وله منافع كبيرة بألبانه ولحومه وأوباره وجلوده.

وقد كانت كثرة الوحوش المفترسة أحد العوائق الكبيرة التي حالت في العهود العتيقة دون التوسع في تربية الماشية، غير أن عدد هذه الحيوانات المفترسة قلّ كثيرا في العهد الروماني.

3

قليلا ما يكون للمرء في بعض جهات الشمال الإفريقي حرية الاختيار بين مختلف طرائق الاستثمار التي عرضناها من قبل. فالسهوب لا تساعد إلا على تربية الماشية، والسهول العليا بموسطة ولاية قسنطينة، وكذلك الأراضي السوداء بغرب المغرب تصلح للحبوب. ولكنها

على العموم لا تساعد على جودة الأشجار، بينما التربة في قسم من موسطة تونس وجنوبها تناسب غراسة الأشجار في حين أن المناخ بها يكاد يتنافى مع الحبوب. أما الواحات فغرس الفاكهة هي الممكنة بها.

ومع ذلك فإن عملية التصنيف التي ترمي إلى تقسيم جهات الشمال الإفريقي إلى أراضي للحبوب، وأرض للماشية، وأخرى للأشجار تكون لاشك عملية مغلوطة، لأن الكثير من بين هذه الأراضي تقبل استثمارات مختلفة والزراعة الأحادية Monoculture، التي كثيرا ما ألقي بسببها اللوم على معاصرينا، ليس لها ما يسوغها في قسم كبير من التل. ورجُل الأرياف، تحت سماء لطيفة عادة، يستطيع العمل في الهواء الطلق طيلة السنة تقريبا، ولديه من الوقت أكثر مما لمثله في أروبا الوسطى. وتبعا لظروف الإنبات، فإن الخدمات الضرورية لمختلف الزراعات تسير في تتابع، بحيث يمكن لنفس السواعد أن تقوم بها واحدة بعد أخرى. يقول صوران : «إن حرث الأرض للحبوب يجري من يوليوز إلى نهاية نونبر، ولا ينتهي رمي البذور حتى يكون الوقت قد حل لحرث أرض الكرم وحفرها وتشذيبه، وبعد ذلك يسرع الفلاح لقطع العلف ولحصد غلاته من أبريل إلى نهاية يونيو. أما أعمال قطف العنب، فتوقف عمليات الحرث التمهيدي لرمي البذور، نحواً من خمسة عشر يوما».

إن المنتجات التي يمكن استخراجها من الأرض ليست هي وحدها لتي تدفع الناس لاستيطان هذه الجهة أو تلك، بل إن عليهم أن يهتموا بالحصول على الماء الضروري لمعاشهم، هم والحيوانات المتأنسة. لذلك فالمساكن تقام بجانب العيون. لكن توجد بشمال إفريقيا جهات يقل فيها وجود هذه العيون، بل إنها تجف في الصيف. لهذا لا يكون عدد سكانها لا قليلا، إذا لم تنشأ بها خزانات لحفظ مياه أمطار الشتاء، وإذا لم

تحفر الآبار للوصول إلى المياه الباطنية كما هي الحال في جنوب تونس وفي قسم كبير من المغرب الغربي.

ولابد من اعتبار أن الأبدان الإنسانية تقابل المناخ بجلَد كبير، فالشمال الإفريقي يكاد في جميع الجهات يكون أرضا صحية، وكذلك كان فيما مضى. يقول هيرودُت إن الليبيين هم أصح من عرف من الرجال. ويتحدث سالوسْت عن الأهالي بهذه الألفاظ قائلا : «أهلها أصحاء الجسم، خفاف، أقوياء على العمل، يكادون جميعا يموتون من الشيخوخة، إلا من يسقطون بحد السيف أو تمزقهم نيوب الوحوش، إذ يقل منهم من يموت مرضا». ويقول أپْيان Appien : «النوميديون أقوى الليبيين. وهم أطول أعمارا من بين أولئك الذين يعيشون طويلا. ولعل سبب ذلك أن الشتاء ليس قاسيا عندهم، وأن حرارة الصيف ليست محرقة كما هي عند الإثيوبيين والهنود». ومَسِّنيسا مات عن تسعين سنة، وقد قيل إنه ولد له ابن وهو في السادسة والثمانين، وأنه كان لايزال يركب فرسه قبل موته بسنتين، فكان بذلك في نظر الإغريق والرومانيين أحسن مثال على هذه القوة وهذا الجلد الجسماني. وكثيرة هي النقوش التي تذكر أعمارا بلغت مئة سنة في عهد السيطرة الرومانية.

ومع ذلك فهناك بعض الجهات التي تشيع فيها الحمى، خصوصا منها السهول الوطيئة المجاورة للساحل. وفي العهود العتيقة لابد أن الأمر كان أشد، على الأقل في الأقسام التي لم تكن فيها المياه تنصرف بقنوات اصطناعية، لأن عمل الأنهار يملأ المستنقعات شيئا فشيئا بمجروفات الغرين كان أقل تقدما منه الآن. وقد سبق لنا القول بأن متيجَة كادت تكون غير صالحة للسكنى. فحيث نجد اليوم الأرض اليابسة قد حلت محل المستنقعات، كانت حمى الملاريا تمنع إقامة الإنسان.

لاشك أن الأمر كان كذلك بالنسبة لسهل المقطع ولقسم من السهول الممتدة خلف عنّابة. ولم يكن هواء هيبون Hippone صحيا، على الأقل في الصيف. وكذلك كانت بالداخل مناطق غير صحية. فهناك كتابة من أوزيا Auzia أي سوق الغزلان بقبر امرأة عاشت أربعين سنة من غير أن تتألم من الحمّيات. وهذا - في هذه المدينة الرومانية - استثناء يستحق أن يذكر. ولنلاحظ أيضا أن المنشآت المائية التي أنشأها القدماء أمكنها هنا وهناك أن تساعد على نشر حمى المستنقعات. وفي جنوب بلاد المغارب، فإن الواحات غير صحية بالنسبة للبيض، ذلك أن مياه الري لا تجري فيها بصفة حسنة، كما أن ستار النخيل غالبا ما يعيق الريح عن السير، لذلك فالسود والخلاسيون Métis أكثر تحملا لمناخها.

أما الطواعين، فإنها على العموم لم تذكر سماتها بالضبط، ولكن أشير لوجودها في عدة مناسبات، إما في العهد القرطاجي وإما في العهد الروماني. ومن بينها طاعون تفشى في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد، ويظهر أنه انتشر بواسطة بعض الجيوش التي أصيبت به في صقلية. كما أن طاعونا آخر أحدث في القرن الميلادي الثالث كثيرا من الضحايا في قرطاجة، وكان قد أتى من إثيوبيا وانتشر في جميع حوض البحر الأبيض المتوسط. كما أن الطاعون الذي انتشر في عهد السيطرة البيزنطية سنة 543 كان قد حمل من المشرق. وهناك طاعون آخر ذكر أنه كان سنة 125 ق.م، جلبه زحف مخيف من الجراد. وقد انتشر هذا الطاعون في نوميديا، وفي الولاية الرومانية وبَرْقَة. غير أن هذه العَدْويات المؤذية كانت كبعض الهزات الأرضية مجرد حوادث، لم تخلف سوى آلام عابرة.

وفي الختام، إن شمال إفريقيا منطقة تنمو فيه الحياة الإنسانية بصفة تناسب الأهالي الأصلاء، والمهاجرين الآتين من المناطق المعتدلة بأروبا وآسيا، حيث المناخ لا يوهن عادة، لا القوة البدنية ولا الذكاء، على أن هاتين المزيتين يجب استعمالهما تقريبا في كل مكان بشدة، لأن هذه البلاد ليست الأرض المباركة التي توزع هباتها بكرم. وسنرى أن قسما كبيرا من سكانها - لا القرطاجيين ولا الرومانيين وحدهم - بل حتى الكثير من الأهالي أيضا، أحسنوا التصرف في الخيرات المتاحة لهم، وذلك كلما كانوا أحرارا ليشتغلوا في سلام، وكلما عرفوا أنهم سينالون من عملهم فائدة عادلة.

الكتـاب الثاني

الأزمنة البدائية

الفصل الأول

الحضارة الحجرية

1

إن أقدم الشـهادات بـوجود الإنسـان فـي شمـال إفـريـقيـا هـي الأسلحة والأدوات الحجرية التي عثر عليها مع بقايا الحيوانات التي كانت تسكن هذه البلاد في العصر الرابع، أثناء عهد من الحرارة الرطبة. وترجع هذه الأشياء إلى الفترات الأولى من صناعة العصر الحجري القديم Paléolithique وهي تشبه تلك التي عثر عليها في أقاليم أخرى، وخصوصا منها أوربا الغربية، حيث يميز علماء ما قبل التاريخ ثلاثة نماذج غالبا ما يعثر عليها مجموعة، وعلى الخصوص منها النموذجان الأخيران. هذه النماذج الثلاثة هي : الشِّلّي Chéléén المتمثل في الفأس Coup de Poing المقطوعة بصفة بسيطة، والآشولي Acheuléén المتمثل في المقدّات Haches اللوزية الشكل التي في صنعها بعض الإتقان، ثم المسْتيرى Moustérien المتمثل في القرنات Pointes والشفرات Lames والمكشّطات Racloirs التي عولجت من وجه واحد.

وعثر في ترْنيفين بولاية وَهْران على أدوات حجرية وعلى بعض العظام التي هي من مخلفات الصيد، وترجع لحيوانات عهد حار من العصر الرابع مثل الفيل الأطلنطي ووحيد القرن، وفرس النهر والخنزير وحمار الزرد والجمل والزرافة والظباء وغيرها. وكانت هذه العظام مبعثرة هنا وهناك حول تل من الرمل علوّه نحو من ثلاثين مترا، كوّنته رسوبات العيون الأرتوازية، وتغطيه طبقة من الحجر الرملي. والكثير من هذه العظام به حزوز أو كسر من وسطه لاستخراج ما به من المخ لاشك. أما الأدوات أو الأسلحة فهي فؤوس شلّية من الحجر الرملي ومن الكرزيت Quartzite غالبا، غليظة الصنع جدا، لها شكل غامض يوهم بشكل اللوزة، يتراوح طولها من 15 إلى 20 سنتمترا، أولها شكل رباعي مستطيل. ومن هذه الأدوات والأسلحة فُهور Galets أو أنصاف فهور بعض أقسامها لم تمسسه يد الصانع، وهو الجانب الذي تمسكه اليد، والأقسام الأخرى عولجت بإزاحة شظايا كبيرة. كما أن من الأدوات والأسلحة قطعا من حجر الظر Silex ومن الكرزيت، لها أحجام مختلفة اكتُفي بكسرها أو عولجت ببساطة كثيرة واستعملت كقرنات ومكشطات.

وقد أجريت ملاحظات مماثلة في بحيرة كرار التي هي مستودع طبيعي يقع شمال تلمسان، دفعت إلى دراسة متأنية ظهر منها أن الحصى الذي يكون قعر الماء يحتوي على نفس الخليط من الأدوات البدائية ومن العظام، أي عظام الفيل الأطلنطي ووحيد القرن، وفرس النهر والخنزير وحمار الزرد وغيرها. وكانت بعض الأدوات من الكرزيت لوزية الشكل، بقرنة نحيفة وطويلة إلى حد ما. طولها يتعدى 20 سنتمترا، وهي تمثل بدقة النموذجين الشلي والآشولي. والأدوات الأخرى من حجر الظر، صغيرة الأحجام. وهي إما شظايا Eclats أعيد استعمالها، أو

أدوات عولجت من وجه واحد لتكون قرنات أو مكشطات. ومن المحتمل أن تكون المجموعتان معا متعاصرتين.

ويؤرَّخ لهذه المواقع بالحيوانات المخالطة لبقايا الصنعة الإنسانية. وفي عدة أماكن بالمغرب والجزائر وجنوب تونس وفي الصحراء، عثر بسطح الأرض أو في الرسوبات على أدوات شلية وآشولية لا تصحبها عظام. وتكون تارة منفردة، وتارة أخرى مع أدوات مستيرية كالقرنات والمكشطات، التي غالبا ما تكون مختلطة مع أقراص لها أطراف قاطعة، ومع فهور بقيت قاعدتها على خشونتها، ولكن في جهتها المقابلة للقاعدة وجيْهات مقعّرة Facettes concaves ومتعاقبة، بحيث يتكوّن بها حد منعطف. ولابد أن كلاّ من هذه الفهور والأقراص كانت تستعمل كمقذوفات.

وسنذكر بصفة خاصة الاكتشافات التي أجريت بنواحي قفصة بجنوب تونس. فالأدوات الشلية والآشولية والمستيرية كثيرة الوجود بهذه الناحية. ويختلط بعضها ببعض غالبا. ويظهر أنها ترجع لعهد واحد. وتوجد إما بمراكز المحطات الواقعة عادة بالسهل، وإما بالمصانع الواقعة حيث توجد مقاطع حجر الظر الصالح للاستخدام. وهذه المصانع كانت في الغالب ذات أهمية، خصوصا فوق تلال المقطع بالشمال الغربي لقَفْصَة، وبالرديف غربيها. والصخور المستعملة في صنع أدوات النماذج الثلاثة لم تكن من نوع واحد. فالفؤوس الشلية كانت من البِتْروسلِكْس Pétrosilex أي الصخر الطباشيري المشرب بالظر. وهي مادة أقَل انكسارا من حجر الظر، ولكنه لا يحتمل القطع الرقيق. والمقدات الآشولية من حجر الظر العادي الغميق اللون، بينما الأدوات المستيرية من الظر الدقيق جدا، ذي اللون الفاتح. فينتج من هذا أن

الصناع الذين كانوا في بعض المصانع يستغلون مقاطع حجرية (مناجم) بعينها، قد كانوا لا يتعاطون إلا لنوع واحد من المصنوعات الثلاث، مع أنها كانت متعاصرة. ولقد اعتقد البعض أنه تعرف في مرتفع كوّنته المجروفات النهرية بالقرب من قَفْصَة، على تراكب لنماذج مختلفة من الحجري القديم، وإن هذا التراكب يساعد على إرجاع النماذج لعهود متتابعة : ففي الأسفل توجد الفؤوس الشلية، وفوقها الأدوات المستيرية، أولاً المختلطة مع المقدات الآشولية، ثم المنفردة. ولكن دقة هذه الملاحظات وقع الاعتراض عليها، إذ أن مُرْگان Morgan أوضح أن الأدوات المعنية قد انتزعتها أمطار طوفانية من مركز إقامة أو مصنع تارة، أو من غيرهما تارة أخرى، وأن محلها في المجروفات راجع إلى صدفة سَيَحان المياه.

ولم يُعثر على أدوات شلية وآشورية بمغارات شمال إفريقيا. وذلك لأن الناس كانوا يعيشون في الهواء الطلق، ومع ذلك فليس من المستحيل أن يكونوا قد التجأوا إلى أكواخ من قصب أو من أغصان الأشجار. وربما فضلوا الإقامة قرب عيون الماء، وقرب الأنهار، وبالخصوص عند ملتقيات الأنهار، على النجود الصغيرة أو على الكدى، حيث يمتد النظر بعيدا، وحيث كان يسهل عليهم أن يدافعوا عن نفوسهم. وفي الأراضي التي كان الصيد بها كثيرا، والتي كان ماؤها يجري في جميع فصول السنة، لم يكن للناس ما يدعوهم إلى التنقل. ونحن نجهل جهلا كبيرا هذا العهد مما قبل التاريخ بالشمال الإفريقي. فلا نستطيع أن نقول أي جهة كانت أكثر سكانا.

ونجهل أيضا أهمية مجموعات الأفراد الذين عاشوا حياة مشتركة. ولكننا نلاحظ مع ذلك أن مراكز الإقامة كانت متعددة حول قفصة، ولكنها كانت على العموم - قليلة السعة.

وربما كان لهؤلاء البدائيين أدوات من خشب كالدبابيس والهراوات والحراب التي اكتسبت رؤوسها صلابة بالنار، وأن بعض العظام ذات الرؤوس الحادة لابد أنها استعملت أسلحة، كما استعملت الجلود ملابس وأوعية. ولا تحدثنا الكشوف إلا عن الأدوات الحجرية، إذ كانت هناك أسلحة وأدوات ليس فيها تعمّل، بحيث هي مجرد شظايا استعملت كقرنات أو مكشطات، زيادة على الأحجار التي لم تمسها الصناعة، والتي يمكن استخدامها كقذائف ودبابيس وسواحيق. وكانت الأدوات الشلية والآشولية تصنع من الصِّوان في السهول العليا بداخل الجزائر وفي جنوب تونس، بينما كانت من الكرزيت، والحجر الرملي والكَلْكير في التل الجزائري، حيث إن فهور الصوان الجيدة هي على العموم أصغر حجما من أن تصلح لصنع أدوات كبيرة. ومن المحتمل أن بعضا من هذه الأدوات قد انتفع بها في استعمالات متنوعة، بينما البعض الآخر كان له استعمال خاص لاشك. ونظرا لأشكال هذه الأدوات، فإنها كانت فؤوسا، ومقدّات، ومِطْرقات وأسْفينات Coins، ومقطعات Ciseaux ومعاول Pics ومنكشات Pioches لاستخراج الجذور. والأدوات المستيرية كانت من الكرزيت ومن الصوان على الخصوص، وكلاهما صخر إذا كسر أعطى حدا قاطعا، فكانت تستعمل في ثقب الجلود وقطعها وكشطها.

وهناك تَشابه كلّي بين الأدوات التي عثر عليها بأرض المغارب وبين ما عثر عليه في مناطق أخرى مجاورة إلى حد ما، كمصر وإيطاليا وإسبانيا. فهل يُفسر ذلك التشابه بعلاقات بين سكان هذه الأراضي ؟ أو يفسر بتشابه الاحتياج الذي دفع - في مناطق مختلفة - إلى ابتكار أدوات متماثلة ؟ من الممكن أن لا نجد لهذه المشكلة حلا أبدا. ومع ذلك، فلا حق لنا في أن نرفض الافتراض الأول بدعوى أنه غير محتمل،

خصوصا إذا صدقنا، مع بعض علماء الجيولوجيا، أن أروبا كانت في العصر الرابع متصلة بالقارة الإفريقية.

وقد استمرت الأشكال المتيسرة أمدا طويلا بشمال إفريقيا، بعدما اختفت الأدوات الشلية والآشورية مبكرا. وسنرى انها التقت متناثرة في أماكن مختلفة مع منتجات لصناعة أخرى أحْدَث منها عهدا. على أن هناك مواقع أخرى ليس فيها سوى الأدوات المستيرية، فيستحيل التوقيت لها بالضبط إذا كانت البقايا الحيوانية ووضعية الطبقات الترابية لا تعطينا أي إيضاح في هذا المجال. ولكن بعض مغارات الجزائر بها أدوات مستيرية تظهر مع حيوانات العصر الرابع، وتكون عادة تحت طبقة تحتوي صناعات من الحجري الجديد. ومن ناحية أخرى، فإن عدم وجود أدوات شلية وآشولية بها، يدعو إلى الاعتقاد بأن هذه المواقع متأخرة في الزمان عن المواقع التي سبق لنا الحديث عليها.

في هذا العهد شرع الأفارقة يسكنون الكهوف والغيران. وهي عادة استمرت خلال العصور، أثناء الحجري الجديد وبعده بكثير كذلك. فقد ذكر بعض قدماء المؤرخين بعض عشائر الشمال الإفريقي التي كانت في صميم العهد التاريخي تسكن مغارات طبيعية أو مصطنعة. واستمرت منذ ذلك العهد الحياة بالكهوف في جهات مختلفة كطرابلس، والجنوب الشرقي للبلاد التونسية، وعلى الأطراف الممزقة بالنجد الصحراوي، وفي الجبال بجنوب ولاية قسنطينة، وبالأطلس المغربي.

إن الكهوف مساكن يستطيع الناس فيها أن يصونوا أنفسهم عن هجمات أمثالهم، وهجمات الحيوانات المفترسة. وهم فيها في مأمن من المطر، ومن برد الشتاء والليل، ومن شدة حر الصيف، وهو أمر مهم في إفريقيا. أما في أروبا، فإن أهم سبب دعى متوحشي العصر الرابع إلى

سكنى الكهوف كان لاشك هو عودة المناخ إلى البرودة. وقد سبق أن بينّا أن هذه العودة للبرودة كانت أكثر خفة في جنوب البحر الأبيض المتوسط. وعلى كل حال فإن الكثير من الأفارقة استمروا يسكنون المواقع التي بالعراء.

2

بعد العهد الأول، الذي هو العهد الحجري القديم المتميز بالنماذج الشلي والآشولي والمستيري، يميز العلماء الفرنسيون لما قبل التاريخ عهدا ثانيا يعرف بعهد الأيْل (الرنة Renne)، الذي تعاقبت فيه الصناعات المعروفة باسم الأورنياسية Aurignacienne والسولترية Soltrienne، والمجدلانية Magdalénienne وليس في الإمكان تطبيق هذا التصنيف على شمال إفريقيا. وذلك لأننا لا نجد بين الحجري القديم والحجري الجديد سوى حضارتين واضحتين، إحداهما بشرق أرض المغارب والثانية في غربها.

فهناك محطات بنواحي قَفْصَة والرّديف بغرب قفصة، وتبِسّة، وتگرينْ بالجنوب الشرقي من الجزائر، وكذلك بموسطة ولاية قسنطينة. وكلها كشفت لنا عن الصناعة التي دُعيت باسم الصناعة القَفْصية أو الجيتولية. وقد كان بعض هذه المحطات مأوى عند الصخور، ولكن أغلبها ربوع Campements، تكون واسعة المدى أحيانا، وتقع عادة قرب مراكز المياه. وتعرف بما بها من ركامات ضخمة من الحلزون المختلط بطبقات كثيفة من الرماد الذي توجد به كمية ضئيلة من عظام الوعل وحمار الزرد والظباء والثيران والأرْوي، وحتى وحيد القرن. أما بيض النعام فبقاياه كثيرة. وهي غالبا محروقة. فلابد أنه استخدم كآنية

للمطبخة. وربما استعمل على الخصوص لطبخ الحلزون. وينعدم بهذه المحطات وجود الخزف والمقدات المصقولة. ولكن الأدوات الحجرية المصنوعة من الصوان الجيد، تظهر عليها مشابهات - يجب أن لا تكون من قبيل الصدفة - مع الأدوات الأورنياسية بأروبا. وهذه الأدوات هي في الغالب شفرات وقرنات عولجت من وجه واحد، بينما أحد الجانبين الطويلين يكوّن ما يشبه الظهر، وغالبا ما تلوح به عدة من التصويبات. وهي أيضا محكات Grattoir، بعض منها دائري الشكل تقريبا، والبعض على شكل شفرة ذات نهاية مستديرة. وهناك شفرات كأنما هي منقشات Burins، تنتهي في الأعلى بقسم مقعّر ورأس زاوية حادة. وبعض هذه الشفرات والمحكات بها حزوز متعرضة، أعيدت معالجتها بإتقان. كما توجد بهذه المحطات بعض الأقراص التي لها أطراف قاطعة، فمن المحتمل أنها كانت أحجارا للقدف.

ويظهر أن هذه الصناعة دامت زمنا طويلا جدا ولابد بعد دراستها جيدا، أن تقسم إلى عدة عهود. فهناك ركامات للحلزون تكثر بها أدوات صغيرة الحجم جدا، منها قرنات مستقيمة، وأخرى معقوفة مثل منقار البيغاء، ومنها أدوات من صوان لها شكل شبه المنحرف كانت تستعمل إما قواطع tranchets، أو كانت على الأصح رؤوس سهام لها حد قاطع معترض. فيحسن بهذه الأدوات أن تعزى إلى عهد حديث نسبيا، كان قسم منه لاشك يعاصر حضارة الحجري الجديد في جهات أخرى. أما العظم الصقيل الذي كان قليل الوجود في المحطات القديمة، فإنه أصبح كثيرا، ويتمثل وجوده في الخناجر والمثاقب والإبر. وتوجد بقايا من بيض النعام عليها بعض الزخارف التي تتكون من خطوط مزدوجة بينها مجموعتان تتقاطعان أحيانا لترسما شكلا ذا ترابيع، وتتكون أيضا من شبكات متتابعة من الخطوط المنحرفة أو المتعرجة، أو من خطوط من

النقط. وهناك أقراص صغيرة، أو قطع من أشكال أخرى اقتطعت من بيض النعام وثقبت. فهي بقايا لقلائد كانت تستعمل، وكذلك الأمر في القواقع والأحجار المثقوبة. وتحمل بعض المدقات آثارا من اللون الأحمر - المغرة الحمراء Hématite - الذي لابد أنه استعمل في صبغ البشرة أو في رسم بعض الرسوم المنعزلة عليها.

أما الصناعة الثانية، التي تذكرنا من بعض الوجوه بالمجدلاني الأروبي، فهي معروفة على الخصوص من الحفريات التي وقعت بالمآوي عند الصخور في المويلَحْ قرب لالّة مَغْنِية، غربي ولاية وهران. وأدوات هذه الصناعة من صوان، صغيرة جدا. وهي شفرات مستقيمة خشنة أو ذات جنبات أعيدت معالجتها. ومن بينها عدد كبير من الشفرات التي لها شكل هلال مستطيل، يظهر مستصلحا. فلربما كانت الغاية منها معالجة العظام. ومن بينها قذائف بتشظية متعاقبة، وأخيرا من بينها أقراص حدودها قاطعة. أما الأدوات التي لها شكل شبه المنحرف فلا تزال قليلة جدا. ووجود الصوادم Percuteurs والنوى - Nuclei أي الفهور Rognons التي استعملت كمادة أولية - فيشهد أن الصنع كان يتم بعين المكان. بينما المثاقب وكسارة رؤوس الحراب هي من العظم المصقول. أما الحيوانات فهي تقريبا نفس الحيوانات التي نجد آثارها بالركامات الحلزونية الجيتولية. فتشتمل - من بين الأنواع - على وحيد القرن وحمار الزرد. ويكثر الحلزون وكذلك قطع القشور المحروقة من بيض النعام. وهنا أيضا عثر على مدقات تحتفظ بأثر اللون الأحمر، وعلى قواقع وأحجار مثقوبة. وهنا أيضا ينعدم وجود الخزف والمقدات الصقلية.

وتوجد بغرب الجزائر بعض المحطات Campements في العراء، تعطينا نفس الصناعة التي اقترح بَلاري Pallary تسميتها باسم الإيبيرة

المورية Ibero-maurusienne، لأنها توجد أيضا بمحطات الحجري القديم المتأخر بجنوب إسبانيا.

3

في عدة من المغارات وقع اكتشاف أدوات اتضح أنها من الحجري الجديد Néolithique، وتتضمن على العموم الخزف والمقدات الصقيلة، وترجع لعهد اندثرت فيه الحيوانات الدفيئة التي كانت في العصر الرابع، ونجد ذلك في الولايات الجزائرية الثلاث. ومما يؤسف له أن الكثير من هذه المغارات قد وقع التنقيب فيها من غير تأنّ. أما الأمكنة الأخرى، فحتى الآن لم يقع فيها تنقيب، خصوصا بشمال القطر التونسي، ولاشك فإن المستقبل سيظهر لنا اكتشافات سارة، على أن مغارات وهران هي التي درست فيها الآن هذه الصناعة التي توجد في أمكنة عديدة متراكبة فوق طبقة أقدم عهدا، وتشتمل على أدوات مستيرية. ونشير كذلك إلى المغارات التي نقبت في الواد المالح بالجنوب الغربي لوهران، وفي سعيدة بولاية وهران، وبالحجرة الكبيرة قرب مدينة الجزائر، وفي عنّابة وقسنطينة، وأبو زْباوين قرب عين مْليلَة بموسّطة ولاية قسنطينة، وفي بَرْزينَة بالأطلس الصحراوي جنوب البياض، وبالكهف الأحمر والكَهْف المزْوي قرب تبسّة. وهناك مأوى في الرّديف بالجنوب الغربي التونسي توجد به طبقات جيتولية، من فوقها خليط من نفس الصناعة في مرحلة متأخرة من نموها، وكذلك أدوات من الحجري الجديد الصحراوي.

ونكاد لا نحتاج إلى التأكيد بأن الأثاث (الأدوات) ليس متشابها بكل مكان. فالأدوات الصوانية قليلة الوجود طبعا حيث تكون المادة الأولية مفقودة، أو توجد بقلّة. ولذلك فإن بعض الأنواع من الأدوات تكون أكثر

أو أقل وجودا، وتكون المعالجة أيضا متفاوتة في الإتقان. ويمكن تفسير هذه الاختلافات، إما بأن الصناعات المحلية قد نمت بصفة غير متوازية فيما بينها، وإما بوجود فوارق زمنية بينها. والواقع الذي لاشك فيه، هو أن هذا العهد من الحضارة قد امتد أمده طويلا. وبالنظر إلى سمك الطبقات الأثرية، فإن بعض المغارات قد سكنها الإنسان بصفة مستمرة أو متقاطعة أثناء سلسلة من القرون. ويجب أن لا ننسى أن هذه المغارات قد وقع إفراغها عدة مرات، أي كلما حصل تضايق من تراكمات الأزبال والرماد.

والأدوات الحجرية التي كان سكان المغارات يستخدمونها كانت في الغالب تصنع بنفس المكان، كما يتأكد من الصوادم والنوى وشظايا الصنع والقطع التي لم تتم معالجتها. وجل هذه الأشياء من الصوان. وهي تمثل صناعة متفرعة عن صناعة المويلح، ولها قرابة من الصناعة القديمة للحجري الجديد في أوروبا الغربية، وفي الجنوب الشرقي لإسبانيا على الخصوص، وهي أدوات صغيرة نحيفة وخفيفة، عولجت من وجه واحد. فمنها شفرات لم تنقح أو أعيد العمل في ظهرها، وشفرات بحزوز، وهذه هنا أكثر عددا مما في الإيبيري الموري، ومنها قرنات بعض منها لم يشذب، والبعض الآخر شذب محيطها، كله أو بعضه كرؤوس السهام والمثاقب والمخارق Perçoirs، ومنها قرنات شبيهة بمنقار الببغاء ويتساءل هل كانت مخرقات ؟ ومنها منقشات اقتطع أحد طرفيها بانحراف مع حافة مائلة، ومنها مشعبات لها شكل مخروط ضيق، كما أن منها محكات دائرية الشكل، ومناشير وعددا كبيرا من الصوان ذي الأشكال الهندسية كأشباه المنحرف والمثلثات والرباعيات التي ربما كانت رؤوسا للسهام. ويشير السيلان Pédoncule أحيانا إلى أن الشفرات أو المحكة قد كانت مثبتة إلى نصاب Manche من عظم أو

خشب. أما رؤوس السهام التي كانت لها جنيحات وسيلان، والتي عولجت من وجهين، فقليلا جدا ما يقع العثور عليها، حتى إنه ليظن أنها كانت تصنع في مصانع بعيدة، وربما في الصحراء.

وكما استعمل الصوان لصنع بعض الادوات الغليظة الصنع، استخدم كذلك الكرزيت، والحجر الرملي والكلكير أحيانا.

والمقدات الصقيلة قليلة الوجود، وهي على العموم صغيرة الأحجام. بعض منها مصنوع من الحجر الرملي أو من الشِّسْت، وأكثرها من حجر الحية Ophite، وهو صخر أخضر يؤخذ من مناجم العهد الترياسي التي نعثر عليها بعدة أماكن من أرض المغارب، والتي كانت المصانع تقام بقربها، ومنها كانت تنقل هذه الأشياء إلى مختلف الاتجاهات. ونلاحظ أن للمقدات شكلين، فهناك نوع مفلطح ومبسوط شبيه بالنماذج الأوربية. ونوع ثان على شكل الذراع، طويل وأسطواني، ينتهي في الطرف المقابل للرأس القاطع برأس غليظ. وهذا النوع الثاني الخاص بشمال إفريقيا استمر وجوده في صناعة الحجري المتأخرة، ولكن بأحجام أكبر في الغالب.

ويظهر العظم الصقيل بكثرة تفوق ما كان عليه بمأوى المويلَحْ. فمن هذه المادة كانت تصنع الإبر والمثاقب والمدلكات والمشاذب Retouchoirs وبعض الملاعق، وربما حتى الخناجر ورؤوس الحراب.

ولم يبق شيء مما صُنع من الخشب. أما ما صنع من الجلود، التي لاشك أنها استعملت ملابس وأوطئة وأغطية، فيشهد له المحكات والمخرقات الحجرية، وعلى الخصوص المثاقب والإبر العظيمة التي استعملت لخياطة القطع.

وتجمع عادة شقوف من فخار له جوانب غليظة، تميل ألوانه إلى الرمادي والأسود والأحمر. صنع باليد وطبخ في نار عارية. تلك الشقوف كانت قدورا وصحافا وزلافات، لها قعر مستطير، وجوانب قائمة منشرحة أو مجموعة. أما سطحها الخارجي، فقد وقع تدليكه في غالب الأحيان بقبضة من النبات أو بأداة من عظم، كما أن داخلها أحيانا قد صبغ بلون أحمر. وكثير من هذه الآنية تحمل بخارجها من الجهة العليا زخرفة هندسية بسيطة، خطت بمنقشات حجرية، أو بقرنات من عظم أو خشب، أو بأمشاط من خشب. فهناك خطوط دائرية مفردة أو مزدوجة، وسلسلات من النقط او من الثقب التي تكون غالبا عدة خطوط متراكبة، وخطوط عمودية او مائلة أو متقاطعة، رسمت بحيث تكون تربيعا. كما هناك خطوط متموجة أو قائمة ومجموعات من التشبيكات، وحزوز تشبه حرف الواو رسمت بالظفر. وهناك خزف له أضلاع أو حبال بارزة، زخرفت أحيانا بخطوط متشابكة، وله أثداء تساعد اليد على إمساكه، وببعض هذه الأثداء ثقب معترض يمكن من تعليق الإناء. وفي برْزينَة بجنوب وهران خزف صنع بعناية في قالب من قصب Vannerie، بنفس الطريقة التي سنجدها بالصحراء.

وكان بيض النعام يستخدم آنية تستعمل للنار، تحلّى أحيانا بزخرفة تتكون من نقط وخطوط. وقد اكتُشف بالرّديف قطع منه تحمل بقايا لصوَر حيوانية كالظبي، وربما النعامة. والخطوط المرسومة الدالة على نطاق الأجسام تضم ترقينات Hachures عادية أو متقاطعة.

ولقد عثر في الركامات الحلزونية الجيتولية وكذلك في مأوى المويلَحْ على أقدم شهادة بوجود ما نسميه بأدوات الزينة. وهي أدوات سيكثر وجودها بحضارة الحجري الجديد كالمدقات أو الأحجار لسحق اللون

الأحمر، الذي لا يزال منه أثر بها، وكبقايا القلائد المصنوعة من أشناف بيض النعام، وكالقواقع والأحجار المثقبة، وأسنان الخنزير، وكالصفائح الصغيرة التي قدت من قشرة السلحفاء. ولاشك أن هذه الأعلاق كانت تمائم أكثر مما كانت حلى.

وكان سكان الكهوف يعيشون في حالة من الوسخ لاتصدق، بين مواقد النار وأزبال المطبخ التي تكاد تخالط الأجسام البشرية المدفونة تحت طبقة كثيفة من التراب والرماد.

وكما في المحطات السابقة، فإن بقايا طعامهم تتكون من قطع من بيض النعام ومن قواقع الرخْويات والعظام. والرخْويات هي إما أنواع بحرية خصوصا البطلينوس Patelle وبلَح البحر Moules كما في مغارات الساحل، وإما من الحلزون الكثير دائما. وبدون شك فإن عظام الحيوان ليست كلها من بقايا طعام الإنسان، ذلك أن الوحوش التي سكنت المغارات بعدما غادرها الإنسان مؤقتا، قد حملت بقايا فريساتها لهذه المغارات، كما أنها هي أيضا ماتت بها. ولكن لاشك أن سكان الكهوف أكلوا الخنزير والوعل وأنواعا مختلفة من الظباء، كما أكلوا الأروى والكباش والماعز والثيران والحمير، وأنهم شقوا عظامها الطويلة بأدوات حجرية ليستخرجوا منها المخ. وسنبحث في الفصل الموالي مسألة تأنيس بعض هذه الحيوانات. أما الفرس والكلب فلا يوجدان إلا بالطبقات الأكثر حداثة.

ونكاد نلقى العظام الإنسانية بكل مكان، وبكمية كبيرة إلى حد ما. وأكثر هذه العظام - إن لم نقل كلها - من أفراد أقبروا في المغارات. فلا عجب إذن في أن تختلط هذه العظام مع مخلفات المطبخ التي تكوّن أرضية الماوي. ولكن يحق لنا أن نعجب لكوننا نجدها دائما في حالة من

الفوضى. فلربما أنها اختلطت بفعل بعض الحيوانات النابشة، أو على الخصوص بفعل الناس عندما كانوا ينظفون مساكنهم من غير تروّ. أما أكل سكان الكهوف للإنسان فهو ليس مرفوضا، ولكنه ليس متأكدا.

ونضيف أن من الأهالي من كان - منذ هذا العهد - يأكل الحبوب، كما يشهد بذلك اكتشاف لأرْحية الحبوب في مغارات الواد المالح Rio Salado وبرزْينَة.

4

في شمال إفريقيا، أعيد اكتشاف العديد من محطات الحجري الجديد، التي كانت في العراء وكانت على العموم مصانع أيضا. ولكن معلوماتنا عنها لاتزال ناقصة جدا. فالاكتشافات قليلة جدا بمختلف الجهات، بالمغرب الذي يكاد يكون مجهولا، وبشمال تونس وشمال ولاية وهران اللذين أهملهما علماء ما قبل التاريخ كثيرا. ومن المحتمل أن تنقيبات متأنية ستسد الثغرات الظاهرة.

هذه المحطات - والبعض منها مهم يستحق أن يطلق عليه اسم القُرى - لم تكن مسكونة حتما بصفة مستمرة. ومع ذلك فلابد من قبول كون الكثير من الأفارقة قد كانوا آنذاك مستقرين. وما قلناه عن القناصين صحيح كذلك بالنسبة للرعاة، في الأراضي التي تستطيع القطعان أن تعيش بها في جميع فصول السنة. فتربية الماشية ليست مرادفة للترحل حتى عند العشائر التي قل حظها من الحضارة. ولما انتشرت زراعة الحبوب، ربطت هذه الزراعة الإنسان إلى الأرض بشدة.

ولم تكن المصادفة هي التي تعيّن المواقع. فالأهالي - على غرار العهود البعيدة للحجري القديم - كانوا يبحثون بالخصوص على الماء

وسهولة الدفاع. فقطعة أرض يكاد يحيط بها البحر، ونجْد أو مرتفعٌ عند ملتقى نهرين أو بين الشعاب، تلك هي الأمكنة التي كانوا يفضلونها، إذا وجدوا بجوارها القريب منبعا للماء. بل من المحتمل أن يكونوا منذ هذا العهد صانوا أحيانا قراهم بأسوار من قطع حجرية ثخينة مرصوصة دون ملاط، ومثال ذلك أن جَبل القلْعَة بشبْه جزيرة الرأس الطيب قد لوحظ به وجود أسوار لها مظهر بدائي، ولها قواعد موضعة على شكل درج ثخين، تسد قاصيتي مرتفع صخري ضيق طوله 400 متر، جمعت من فوقه أدوات حجرية كرؤوس السهام وشظايا الصوان.

على أن دراسة عميقة للمحطات ولانتشارها وللبقايا المحيطة بها قد تساعدنا على تقديم نظرية عن مظهر المساكن وعن تجمعها وعلى القول هل كانت الأكواخ مستديرة او رباعية الشكل، وهل لم يكن قد شرع في بعض الأماكن في إقامة المنازل بالحجارة.

إن حضارة كهوف الحجري الجديد توجد أيضا بمحطات يعثر عليها في أماكن مختلفة من القطر الجزائري، وهي محطات لم يقع التنقيب فيها إلا قليلا. لذلك سنتوقف عن الحديث في شأنها، إذ ليس في إمكاننا سوى أن نردد ما سبق أن قلناه في موضوع سكان الكهوف.

وفي محطات العراء وحدها، لا في المآوى، ظهرت صناعة أخرى من نوع الحجري الجديد. وهي أحدث عهدا. وأطلق عليها اسم الصناعة البربرية. وقد عثر عليها بأمكنة عديدة من المحيط إلى قَفْصَة، ومن ساحل ولايتيْ وهْران والجزائر حتى الصحراء الغربية : أي شعب واد زُسفانَة، واد السّوارة وتيديكلْت. والانحطاط في الصنع ظاهر للعيان. فالأدوات وهي من الصوان والكرزيت - كبيرة الأحجام، مقطوعة على عجل بشظايا كبيرة، ومن وجه واحد، إلى حد أنها كثيرة الشبه بالنماذج

المستيرية. وهي عبارة عن شفرات وقرنات ومحكات وأحجار للقذف، وعن أقراص قاطعة وفهور بِوجيْهات. كما أنها على الخصوص قرنات بسيلان، سميكة وغير منتظمة، لابد أن أكبرها رُكّب على مزاريق ورماح، وركب أصغرها على السهام. أما المقدات الصقيلة، فهي ذات حجم كبير غالبا، ويكاد جميعها يكون له شكل الذراع، كما أنها مصنوعة عادة من صخر أخضر. والخزف أشد ثخانة من خزف الكهوف. ولم يلاحظ وجود هذه الصناعة إلا في شمال إفريقيا.

ولابد أن تكون الرسوم الصخرية التي بجنوب ولاية وهران من نفس العهد، إذ في أسفل الأجراف، غالبا ما توجد ربوع Campements بربرية من الحجري الجديد. وتعطينا هذه الرسوم معلومات مختلفة عن ملابس الأهالي وسلاحهم. فنشاهد بها أشخاصا يكسون رؤوسهم بغطاء من الريش على ما يظهر. ومنهم من تمنْطقوا بحزامات رقيقة أو عريضة، يظهر أن بعضا منها يشد قمصانا قصيرة. ومنهم أشخاص ربما تحلوا بقلائد وأسْورة وأعلاق تنزل لتحاذي السواعد. ومنهم عدة قناصين تصحبهم الكلاب، ويحملون القسي. وفي الرسوم أشياء مركبة بانحراف على نصاب طويل. فهي تشبه المقدات التي لها شكل الذراع، والتي يعثر عليها بالمحطات. وفي الرسوم أدوات منعطفة يمكن أن تكون عِصِياً للقذف أو بومِرانات Boumérangs. أما التروس فلاشك أنها من جلد، وذات شكل بيضوي، أو كانت مستديرة من أعلاها وأسفلها، مع تقويمات اعتراضية تذكّر بشكل التّرس الإغريقية المعروفة باسم البيوسية Béotien.

أما رسوم واد يتَل بالجنوب الغربي من بسَكْرة، التي ربما هي أيضا من نفس العهد، فترينا رجالا بلباس يغطي أعلى الصدر، وربما

شد على أحد الكتفين. فلابد أن نفرض أن اللباس جلد حيوان. كما أن شخصا آخر، ربما يرتدي قميصا(؟) يمسك بترس لها تقويرتان مزدوجتان.

5

وهناك حضارة ثالثة من الحجري الجديد بالشمال الإفريقي، وهي على الأقل في قسم منها معاصرة للحضارة الآنفة، إذ نعثر في محطات مختلفة على أدوات مختلفة تتميز بها الصناعتان. غير أنها تصعد لعهد أكثر قدماً، معاصر جزئيا لصناعة كهوف الحجري الجديد، التي يختلط معها في مأوى الرّديف. ويمكن أن يطلق عليها اسم الصحراوية لأنها غطّت بمصانعها ومحطاتها الصحراء الشرقية، التي هي اليوم جرداء. وقد انتشرت أيضا على الجنوب التونسي بأحواز قابس وجنوبها. فرؤوس السهام التي تميز هذه الحضارة قد عثر عليها بالرديف غربي قَفْصَة وفي مَسْعد بالأطلس الصحراوي في شمال شرق الأغواط، وفي العين الصفراء بالجنوب الوهْراني، وكذلك في سهوب موسطة الجزائر. فلاشك أن هذه الأدوات قد حُملت من بعيد إلى هذه الجهات المختلفة.

والمحطات الصحراوية لا تقع بالأمكنة الصخرية والجبلية، بل تقع كلها تقريبا على الكثبان، وعلى طول الأنهار العتيقة، كما تقع غالبا حيث توجد المستنقعات حتى اليوم، أو بالجفان Cuvettes الندية والآبار. فقد كان الناس يبحثون عن الماء، ولاشك أن الماء كان يوجد بسهولة أكثر مما على الحال اليوم إما لأن المناخ كان أقل جفافا، وإما لأن الرمال كانت أقل تراكما بالشعاب. وهكذا فالجهات التي يكثر بها صوان الحجري الجديد هي واد غِيرْ، وَارگْلَة، واد مِيَا، العرق الشرقي الكبير

وعرق أيسوان. ويجب التخلي عن الرأي الذي قيل ثم وقع رفضه بما استجد من ملاحظات، وهو القائل بنمو هذه الحضارة من الجنوب نحو الشمال، إذ الحقيقة هي أننا نجهل كيف انتشرت.

أما المادة المستعملة في صنع الأسلحة والأدوات، فإنها كادت دائما تكون هي الصوان. وكان هنا وهناك مصانع هامة جدا، بل لقد لوحظ أن بعض الصناع كانوا يتعاطون بصفة خاصة لقطع هذه الأداة أو تلك.

وكذلك رؤوس السهام، فهي رشيقة وخفيفة وكثيرة الوجود، عولجت غالبا بلطافة، خصوصا حول وارگْلَة، وبالعرق الكبير، وفي عرق إيسَوان. ومن بينها ما له شكل ورقة الدِّفْلَى، بينما غيرها على الشكل المعين أو المثلث، غير أن أكثرها له جُنَيحات مع سيلان أو بدونه. وقد عولجت على الوجهين بإتقان كبير. ولبعضها أواشر Barbelures على الأطراف.

ولنذكر أيضا الشفرات المختلفة : العادية، وذات الأطراف المشذبة، وذات الظهر الذي أعيدت معالجته، وذات الحزوز. ونذكر الأدوات ذات الشكل المغزلي، الحادة الرأسين، التي قيل إنها صنارات بينما هي على ما يحتمل رؤوس للسهام. ونذكر أدوات في شكل شبه منحرف صغير، هي لاشك رؤوس سهام بقاطع معترض. كما نذكر أدوات قاطعة شكلها نصف، مستدير، وظهرها أعيدت معالجته، ولربما استعملت نفس الاستعمال، ما لم تكن مقطعات. ونذكر محكات دائرية، أو هي شفرات تنتهي بطرف محدب. ونذكر المناشير والمخرقات والمنقشات، وكذلك رؤوس المزاريق أو الحرب في شكل ورقة الدفْلَى، وعولجت من وجهين، فهي من النموذج السولتري.

وتُقدم هذه الصناعة عددا من الأدوات الشبيهة بالتي يعثر عليها بمغارات الحجري الجديد بالتل، وكذلك بركامات الحلزون الجيتولية ذات الأدوات الصغيرة. غير أنها على الخصوص ذات قرابة متينة بالحضارة التي كانت مزدهرة بمصر في عهد ما قبل التاريخ وفي عهد الأسر الأولى.

أما المقدات الصقيلة، فأكثرها من الصوان أو من الكلكير الصواني، وهي صغيرة الأحجام، مبسطة، وشكلها شبه منحرف، وتشبه المقدات المصرية.

أما الخزف الذي لم يبق منه سوى الشقوف، فقد كانت أحجامه صغيرة على العموم، وعلى غرار ما عثر عليه بالمغارات، فإنه حلي بزخرفة هندسية بسيطة جدا، هي عبارة عن خطوط من النقط والثقب، وسلسلات من الترقينات، والزوايا الحادة، ومن الخطوط العمودية المتعرجة، والمائلة المتقاطعة، والنقوش التي على شكل الواو. وقد طلي هذا الخزف أحيانا باللون الأحمر. كما أن من هذا الخزف آنية صنعت بإتقان على قوالب من القصب الذي كان يحترق عند طبخ طين الآنية. وهذه الطريقة معمول بها في إفريقيا الشرقية، عند الصوماليين، وفي السودان.

وخلف بيض النعام بقايا أكثر مما بمحطات التل، وغالبا ما تحمل هذه البقايا أثر النار. وكان بيض النعام يستعمل آنية، عثر على الكثير منها سالمة حتى الآن، كما أن بعض القطع منه محلاة بزخارف هندسية من خطوط مزدوجة، وزوايا حادة، وخطوط متقاطعة تكوّن تربيعات، وسلسلات من النقط.

ولابد من ذكر صحون كبيرة من الحجر الرملي، وخصوصا الطاحونات المثبتة التي هي أيضا من الحجر الرملي، مع مدقاتها وأيديها. وكان لهذه الطاحونات شكل إهليليجي تقريبا، كما أن سطوحها كان بها تقعير خفيف. فلاشك أن الحَب كان يسحق فيها.

والأهالي الصحراويون كانوا يتزينون بقلائد تكونها حلقات من بيض النعام أو قطع من هذه الحلقات، كما تتكون تلك القلائد من حبات اتخذت من قطع من سيقان الإنكرينات Enctines المستحجرة. (والانكرينات نوع من شائكات الجلد Echinodermes تكون مستحجرة في الترياسي). وأحيانا كان الأهالي يتزينون بأعلاق تكونها كويْرات من الحجر الرملي أو من الحصى المثقب.

إننا نعتقد صادقين ان الصناعة تصعد إلى عهود متقدمة بالصحراء كما بأرض المغارب، وأن الأدوات الآشولية التي وجدت بها تؤرخ بالعصر الرابع، وأن نماذج الحجري الجديد، الكاملة الشبه بما كان يصنع في مصر لعدة آلاف من السنين قبل الميلاد، قد عرفت حوالي نفس ذلك العهد بالصحراء الحالية. ومع ذلك فيظهر أن أكثرية المحطات التي سبق أن درسناها حديثة نسبيا. وأن الطواحين تشهد بمعرفة الناس للحبوب، وأنها شبيهة بما لايزال حتى اليوم مستعملا عند الطوارق والنيجيريين. وقد جمعت من هنا وهناك بعض قطع الأشياء من المعدن والزجاج، فلعلها معاصرة للأدوات الحجرية التي كانت مختلطة معها. ومن الممكن أن بعضا من قبائل العهد الحجري الجديد كانت لا تزال تسكن الصحراء في زمن هؤلاء الأثيوبيين جيران مصر، الذين يذكر عنهم هيرودُت أنهم كانوا يستعملون رؤوس سهام من حجر في بداية القرن الخامس ق.م.

إن الحضارة الحجرية قد نمت في شمال إفريقيا في آن واحد نتيجة تحسينات محلية ونتيجة علاقات سلمية أو حربية. ولقد سبق أن ذكرنا أن المقدّات الصقيلة ورؤوس السهام ما كانت لتصنع حيثما يقع العثور عليها. فأدوات الصوان قد نقلت إلى الجهات التي ينعدم بها وجود هذه المادة، والأخزاف استطاعت هي أيضا السفر. وعلى كل حال فيصعب أن نعزو للصدفة تلك المشابهة الموجودة بين الوشوم Motifs التي تزخرف هذه الأخزاف في بلاد مختلفة. والصناعات كثيرة التشابه فيما بينها بجنوب الهضبة الإيبيرية وبغرب القطر الجزائري في نهاية العهد الحجري القديم وأثناء الحقبة القديمة للعهد الحجري الجديد إلى حد لا يمكن معه رفض القول بعلاقات بين هاتين المنطقتين. كما أن علاقات مباشرة إلى حد ما قد وُجدت لاشك بين مصر وأهالي الحجري الجديد بالصحراء وبالجنوب الشرقي للقطر التونسي. ولقد كان تأنيس بعض الحيوانات مرحلة حاسمة عند الإنسانية، ولاشك أن هذه السيطرة الصعبة على الحيوان، إنما وقعت في بعض البلدان، ومنها انتشرت إلى بعيد، وكذلك الشأن في زراعة الحبوب. والجلب هو الذي يمكن أن يفسر لنا وحده وجود حبة زجاج في مغارة من الحجري الجديد بسْعيدة، وهو وحده أيضا الذي يفسر لنا وجود أدوات الأبْسِدْيان Obsidienne في إحدى المحطات المجاورة لبْنزَرْت وفي إحدى جَزائر الحبيبات غربي وهران. وذلك لأن هذا النوع من الصخور لايوجد بأرض المغارب، كما أنه يفسر لنا وجود قواقع بحرية بالأراضي الداخلية، ووجود قواقع أجنبية عن شمال إفريقيا، عثر عليها في ربوع صحراوية.

ومتى وصلت معرفة المعادن لأواسط الأهالي الذين كانوا يستعملون الأدوات الحجرية ؟ ومتى أنْستهم المعادن الأحجار ؟ ليس لدينا معطيات

كافية للإجابة على هذين السؤالين. لكن مغارة علي باشا في بجاية يوجد بها جيب يضم عدة مآت من الحلقات والصفائح الصغيرة الرباعية الأشكال، وهي من النحاس. فلاشك أن هذا المكان كان به معمل صغير للصناعة المعدنية، غير أننا لا نستطيع القول بأنه معاصر للأثاث الحجري الجديد الذي عثر عليه بالمغارة. وغير بعيد من هذا المكان، بقمة القرود، توجد محطة سكنها صيادو الأسماك، كانت تضم صوانا مقطوعا، وأدوات من العظم المصقول، وشقوفا من خزف ثخين الصنع، وكذلك بضعة أشياء من النحاس، هي قرنة وثلاث صنارات وقطعة من قضيب معدني، كما تضم المغارة بقايا من قلائد مكونة من كويرات الرمل المتراص، تكسوها مينا Email مختلفة الألوان، وقد صنعت بعين المكان. وكذلك الشأن بالنسبة لأدوات النحاس، فلقد عثر على جفاء Scories لايزال الفحم عالقا به. ولعل هذا المكان يرجع لعهد متأخر، إذ أن هناك علامة تساعد على الافتراض بأن الحديد كان في هذا العهد مستعملا في البلاد. وفي مكان آخر، في مأوى عند الصخور ببلاد القبائل الغربية، عثر على صنارة من الحديد مع أدوات ثخينة الصنع من الحجر المقطوع، ومقدات من الحجري الجديد وقطع من الخزف.

ويظهر أن الحديد قد عرف في مناطق أخرى من حوض البحر الأبيض المتوسط حول نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، أو حول بداية الألف الأول. وقبل ذلك مرّ عهد طويل يعرف بعهد البرُنْز الذي سبقه – على الأقل في بعض الجهات – عهد استعمل فيه النحاس الصرف. وهذا العهد النحاسي اختلط مع أواخر عهد الصناعة بالحجري الجديد. فهل جرت الأمور على هذا الترتيب بشمال إفريقيا ؟ إننا نميل إلى إنكار ذلك، وإن كنا لا نتناسى ما في معلوماتنا من ثغرات. ويظهر جيدا أن النحاس

والبرنز كان لهما انتشار قليل بين الأهالي، أو أنهما كانا مجهولين لديهم قبل العهد الذي بدأوا يستعملون فيه الحديد.

فعند الأهالي المجاورين للساحل، لابد أن الأدوات المعدنية قد دخلت على يد الأجانب، خصوصا منهم تجار المستعمرات البحرية الفينيقية التي أنشئت ابتداء من نهاية الألف الثاني، ثم اتسعت صناعة المعادن بعد ذلك، فخملت صناعة الأحجار ثم اختفت. ومع ذلك استطاعت أن تبقى لدى بعض الجماعات المنعزلة أو المتمنعة عن التقدم. ولربما أن الحجري الجديد البربري الثخين جدا، قد استمر في بعض الجهات طيلة قسم من العهود التاريخية. واستمرت الصناعة الحجرية كذلك لمدة طويلة بجنوب القطر التونسي وفي القسم الصحراوي الواقع جنوب ولاية وهران. وهما المقاطعتان اللتان يحول دون ازدهار الصناعة المعدنية فيهما قلة الخشب، وانعدام المعادن لاشك. فبقيت الصناعة الحجرية هنا وفية لتقاليدها العتيقة، واستمرت تنتج أدوات فيها إتقان كبير، خصوصا منها تلك السهام التي كانت أهم أسلحة القبائل الصحراوية، وأهم أسلحة الأثيوبيين الذين كانوا في العهد التاريخي يحلّون بالأطراف الجنوبية لأرض المغارب، والذين ذكر بعض المؤرخين القدماء أنهم أصحاب قسي وسهام، بينما لم يكن النوميديون والموريون يتحاربون إلا بالحراب.

ومن بين ما بقي من هذه الصناعة في شمال إفريقيا، نستطيع أن نذكر أدوات من الحجر الصلب الصقيل وهي شبيهة بمقدّات الحجري البربري. وقد كانت مستعملة في المحاجر وفي المناجم. واستعمالها راجع إما لأن الناس كانوا يستخدمون الأدوات التي صنعت بكثير من قبل، أو لأنها صنعت في عهد السيطرة الرومانية. وفي جبال الجنوب

وهراني والصحراء استخدمت المثاقب الحجرية في تخطيط الرسوم لمعروفة باسم الرسوم الليبية البربرية. وذلك أثناء عهد كان فيه الجمل ستعمل على نطاق عام، أي بعد الميلاد بعدة قرون. وفي تونس لا يزال رس الحبوب يقع بشظايا الصوان المثبتة على الوجه الداخلي لمائدة خشبية تجرّها الحيوانات. فهذه الجرارة التي وصفها ڤارّون Varron، لابد أنها كانت معروفة عند الأفارقة في العهود العتيقة. ولنشر في الأخير لى أننا نجد بأرض المغارب خرافة منتشرة في كثير من البلاد الأخرى، وهي أن المقدّات الصقيلة تعتبر أحجارا نزلت من السماء مع الصاعقة، يحتفظ بها كتمائم.

الكتــاب الثاني

الأزمنـة البدائية

الفصل الثاني

أصول تربية الماشية والزراعة

1

يقول سالوسْت : «كان سكان إفريقيا الأولون هم الجيتوليين والليبيين، وهم قُوم غلاظ متوحشون، يقتاتون بلحوم الحيوانات المتوحشة أو بنبات المراعي كما تفعل القطعان... يهيمون على وجوههم متشتتين ولا يقفون إلا حيث يداهمهم الليل».

ليس بهذا النص سوى مجرد افتراضات عن طريقة معاش السكان الأولين بشمال إفريقيا. ولقد سبق لنا القول إنه يجب أن نفرض أنهم جميعا عرفوا عهدا من التجوال. ومن ناحية أخرى، تدل الكشوف التي وقعت بمحطات ما قبل التاريخ على أن الصيد كان حقيقة يزودهم بقسم كبير من طعامهم. وكان هذا الصيد، خصوصا في العصر الرابع، ترصد الحيوانات القوية جدا، إذ كانت الحِيَل والفخاخ تعطي نتائج أكيدة أكثر مما يعطيه الهجوم بالمجابهة.

وقد تعاطى الأفارقة لهذا النوع من الصيد أمدا طويلا من غير أن يكون لهم مساعد. فالكلب لا يظهر إلا بالمغارات ذات الأثاث من العهد الحجري الجديد، وهو حيوان وقع تدجينه لاشك خارج أرض المغارب ولم يدخل إليها إلا فيما بعد. وكما تشهد الرسوم الصخرية بتِيُّوت Tyout، فإن الكلب كان رفيق الناس في صيدهم في عهد محطات الهواء الطلق البربرية التي هي من الحجري الجديد. وللكلاب المرسومة بها آذان منتصبة. فلعلها كانت من سلالة انحدرت من الجقل (ابن آوى Chacal) الذي تنتمي إليه – على ما يحتمل – الكلاب التي هي اليوم أكثر انتشارا بشمال إفريقيا، والتي تصلح للحراسة لا للصيد. وهناك رسم صخري آخر بالجنوب الوهراني، يظهر أنه يقدم صورة لكلب ينتمي للسلوقي الحالي، وهو جنس أصله الشمال الشرقي لإفريقيا.

كان البدائيون يتغذون أيضا بالرخْويات البحرية والبرية. ومع أن الوثائق الأثرية لا تخبرنا بشيء في الموضوع، فإنه لا يبعد أن طعامهم كان لا يزال يتكون من النباتات كالفواكه، والبلوط والجذور والكلأ. وقد استمر العمل بهذه الوسائل من القوت في بعض النواحي إلى صميم العهد التاريخي، ثم أضيفت لها وسائل جديدة.

ومعلوماتنا ضئيلة جدا فيما يتعلق ببداية تربية الماشية بأرض المغارب، فالعظام – وهي لا تزال قليلة الكمية – التي وقع العثور عليها بمحطات الحجري الجديد، لم تدرس بالعناية التي درست بها عظام القُرى المائية بأوروبا الوسطى. كما أن الرسوم الصخرية هي وثائق تستحيي جدا أمام الصوَر الكثيرة الإتقان التي خلفها لنا فنانو مصر وأرض الكلْدان وبحر إيجَه. وأخيرا فإن الأجناس الحالية من الحيوانات التي ربما أن بعضها يعيش في هذه البلاد منذ أمد بعيد، لا تزال لدينا مجهولة.

إن الثيران التي تعيش اليوم بشمال إفريقيا، لها قامة غير عالية، ولها رأس صغير أو متوسط بقرون قصيرة، ولها عنق وأطراف قصيرة ودقيقة، كما لها حارك غليظ، وصدر واسع عادة، وظهر طويل ومستقيم. أما الإهاب فهو في الغالب أصهب أو رمادي، والرأس والأفخاد من اللون الأسود غالبا. هذه الحيوانات قوية وخفيفة، حادة الطبع وقنوع. وهي عندما يحسن غذاؤها، تسمن بسرعة وتجود لحومها. ولكن الأبقار لا تعطي سوى كمية قليلة من اللبن. ويلاحظ وجود عدة أجناس، خصوصا منها ما يعرف باسم جنس قالَمة وجنس وهران. ومع ذلك فمن المحتمل أن لا يكون الأمر سوى تنويع، وأن ثيران أرض المغارب جميعا ذات قرابة متينة. والرأي الأوسع انتشارا في شأنها يصنفها ضمن الجنس المعروف باسم الإيبيري الموجود بإسبانيا وإيطاليا وفي جزر البحر الأبيض المتوسط الغربي.

لقد جُمعت من محطات الحجري القديم عدة عظام لبقريات مختلفة، من بينها واحد له قدّ كبير، أطلق عليه پوميل Pomel اسم Bos opisthonomus بسبب قرونه المعقوفة إلى الأمام، ولكن يظهر أنه نوع من الثور البدائي Bos Primigenius. ويوجد هذا الثور كذلك في المغارات ذات الأثاث الحجري الجديد. وليس هناك ما يؤكد أنه قد وقع تدجينه.

واكتشفت عظام أخرى بمغارات من الحجري الجديد عزاها پوميل إلى الجنس الإيبيري.

ويريد پوميل أن يرى هذا الجنس في الرسوم الصخرية. ولكن هذه الرسوم الشوهاء تلزمنا بكثير من الحذر. ومع ذلك نستطيع أن نلاحظ الانعدام الكلي – تقريبا – لوجود الحيوانات ذات السنام الشحمي المميز

للجواميس Zébus التي كانت كثيرة بمصر في العهود العتيقة، كما هي الحال اليوم في السودان، ومنه انتقلت إلى أماكن مختلفة بالصحراء. فاتجاه القرون وطولها صفتان بلغتا من التنوع في الثيران حدا لا نستطيع معه أن نجعلهما خاصيتين نوعيتين. وترينا بعض الرسوم حيوانات لها قرون تنعطف نحو الجبهة. وبمكان آخر نرى القرون – وهي مستقيمة تقريبا، أو ينعطف أعلاها إلى الأمام أو الخلف – تنتصب إلى الأمام وهي منحرفة أو عمودية. وفي أكثر الأحيان تكون قصيرة أو متوسطة الطول، وإن كانت تبلغ في بعض الأحيان أحجاما كبيرة. ولبعض الثيران قرون منتصبة ومنعطفة تماما. بحيث يتجه رأس أحد القرنين نحو الآخر، كما أن هناك بقريات لها قرون طويلة. منعطفة ومتجهة إلى الأمام. ولذلك يمكن أن نتساءل : هل إن النقّاش أراد تصوير الجواميس، لا الثيران ؟ وهل أعطى للقرون اتجاها غير مضبوط بقصد أن يقع تمييزها بدقة ؟

ويكاد يكون متأكدا أن الثيران المدجنة كانت آنذاك موجودة بأرض المغارب. ففي خَنْقة الحَجَر، بناحية قالَمة، رسم ثور له قرون قصيرة، ويمسكه رجل برسن. وبغير هذا المكان عدة من البقريات ذات القرون الطويلة يظهر أنها تحمل ما يشبه أن يكون برذعة أو ميثرة. وفي واد يِتَل بالجنوب الغربي لِبسْكَرة، توجد علامات تشبه حروف الأبجدية الليبية خطت على عنق وكفل واحد من هذه الحيوانات. فلعلها علامات للتملك.

وهل كانت هذه الحيوانات المدجنة منحدرة من بقريات متوحشة أهلية ؟ أو من أفراد مدجنة مستجلبة ؟ أو انحدرت من توليد بين ثيران أجنبية وأخرى أهلية ؟ إننا لا نستطيع الجواب. إذ باستثناء

الثور Bos Opisthonomus الذي قال به پوميل، لا نعرف الثيران المتوحشة التي كانت تعيش في البلاد في عهود ما قبل التاريخ. ومن ناحية أخرى، ليس لدينا وثائق جيدة نستطيع بها القيام بمقارنات بين أقدم الثيران المدجنة في شمال إفريقيا، وبين التي كانت تعيش بمصر وأروبا منذ أقدم العصور.

كانت الثيران المدجنة، على غرار المتوحشة، تزود الأهالي بلحومها وجلودها. وكانت أثناء حياتها يمكن استعمالها لحمل الأمتعة أو للركوب، وتستعمل أيضا للجر، حيثما كانت العربة والمحراث معمولا بهما. ويكثر إنتاج الألبان بالحلب المنتظم، ولكن سبق أن قلنا إن إنتاج اللبن ليس أهم صفات الأبقار بأرض المغارب.

ونتساءل عن الثيتل العتيق Bubalus Autiquus الذي نرى رسمه كثيرا في النقوش الصخرية. هل وقع تدجينه، أو التغلب عليه على الأقل ؟ ربما أن جسامة هذا الجاموس وقوته لا تسوغان الجواب بالرفض، خصوصا إذا قبلنا كونه شبيها بالأَرْني Arni، الحيوان المدجن في الهند. ولقد أشرنا من قبل إلى النقوش التي هي رسوم لبقريات عليها برذعة على ما يحتمل، ويمكن أن تكون جواميس.

أما عظام الخنزيريات التي عثر عليها بمحطات ما قبل التاريخ فهي لخنازير متوحشة. وكذلك الحلّوف Porc الذي كان قد دجن في أروبا الوسطى منذ الحجري الجديد، فليس لدينا أي حجة بأنه قد ربّي بأرض المغارب قبل عهد السيطرة الرومانية. وليس صوابا أن يكون هذا الحيوان دخل شمال إفريقيا بواسطة الليبيين الذين كانوا يسكنون بين وادي النيل وتونس، لأن هؤلاء كانوا على غرار المصريين لا يأكلونه، كما أن الفينيقيين كانوا يمتنعون عن أكله.

وللأغنام عدة أجناس في شمال إفريقيا، فمنها الجنس المسمى بالعربي، وهو ذو ذيل رقيق، ورأس أبيض، أو أسود أو أدهم، منتشر بالجزائر والمغرب، في أراضي السهول. هذه الحيوانات قوية وقنوع، لحومها جيدة في العادة، وأصوافها على العموم قصيرة ومتلبدة، كما أنها رقيقة إلى حد ما، وتكاد تكون دائما مخلوطة بالصوف الغليظة. والجنس الثاني هو المسمى بالبربري، ويوجد بالجهات الجبلية من الجزائر، وهو صغير وضئيل، لحمه صلب، وأصوافه طويلة ولكنها خشنة وثخينة، والجنس الثالث هو البربريني، يوجد بشرق ولاية قسنطينة وفي جميع البلاد التونسية وما خلفها في اتجاه الشرق. وهو يتميز بذيله العريض الذي ينتهي بكتلة شحمية قد يصل وزنها إلى خمسة كيلوات. ولحمه غير جيد في الغالب. أما صوفه التي تكاد تغطي جميع بدنه فمختلفة، بحيث أنها خشنة عند أكثر الأفراد، وحريرية عند آخرين. وبالطبع إنه كثيرا ما وقع التوليد بين هذه المجموعات المختلفة.

وهناك رأي منتشر يدعي أن العرب هم الذين جلبوا الجنس البربريني. ومن المتأكد أنه يوجد بآسيا الغربية منذ أمد بعيد كباش لها أذيال غليظة. لكن من المتأكد أيضا أن حيوانات لها هذه الخاصية قد عاشت بأرض المغارب منذ العهود البونيقية والرومانية. وزيادة على هذا، يمكن أن نتساءل هل يحسن أن نجعل من هذه الكباش التي لها مثل هذا الشحم المكنوز جنسا خاصا ؟

وقد يكون البربري من بين الكباش هو الأصيل، أو يكون على الأقل أشدها وأكثرها قدماً. ومن بين الكباش المسماة بالعربية، يظهر أن النوع ذا الرأس الأبيض قد أدخله الرومانيون، كما أن النوع ذا الرأس الأدهم قد أدخله العرب الذين قد يكونون جلبوه من سورية. وقد يكون

أول هذين النوعين هو الأصل لنوع الميرينوس الإسباني الشهير، الذي فقد خواصه المميزة بأرض المغارب. غير أن كل هذه الآراء إنما هي فروض مشكوك فيها جدا.

ونشير أيضا لكباش من جنس سوداني، تعيش في جنوب أرض المغارب، بالصحراء. هذه الحيوانات لها جمجمة ضيقة، وحنك ممتلئ، كما لها قوائم عالية ورقيقة، وأبدانها لا تغطيها الأصواف، بل عليها شعر شبيه بشعر الماعز.

أما الماعز الأهلي الحالي فهو على العموم ذو أبدان صغيرة عليها شعر طويل أسود، وله قرون تتجه إلى الخلف، ويعطي لبنا قليلا. وهذا الجنس خاص بالقارة الإفريقية التي له فيها انتشار كبير من الحبشة إلى المحيط الأطلسي.

من بين بقايا الضأنيات التي عثر عليها في محطات العصر الرابع، لم يقع التعرف بوثوق إلا على حيوان واحد هو الأروي Mouflon الذي يوجد كذلك بمحطات الحجري الجديد.

هذه المحطات تضم بقايا من الأروى ومن الماعز، وقد درسها پوميل Pomel واعتمد على خرزة من عظم القرون وعلى عظم فكي، فمال للقول بوجود قرابة بين هذه الكباش وبين الميرينوس. وهو رأي يجب أن يخضع لامتحان وثائق تكون أكثر عددا. أما الماعز فيمكن أن يكون أصلا للماعز الحالي.

ونرى بعض الكباش منقوشة على الصخور، ومن بينها واحد بالقصر الأحمر يصاحب رجلا. ويتضح من النظر لجانب وجهه ورأسه أن هذا الجانب ممتلئ، وأن للكبش قوائم طويلة. وكل ذلك يذكرنا بجنس الكباش السودانية. أما القرون فمنعطفة على شكل نصف دائرة، ويتجه

رأس القرون إلى الأمام، وله ذيل طويل، وغليظ على ما يظهر. وليس هناك ما يشير إلى وجود الصوف، ونرى في بوعَالَم، بفجّ زْناگَة، وبالريشَة كباشا ذات قرون لها نفس الشكل، وعلى رؤوس هذه الحيوانات أقراص أو كُرات. ومن بينها عدة لها أطواق في أعناقها. فهي إذن ليست حيوانات متوحشة. ومن بين النقوش الصخرية توجد رسوم للماعز، كما أن بالريشَة عنزاً له طوق.

أما الكباش والماعز التي كانت تتخذ طعاما لسكان الكهوف في عهد سابق، فلابد أن تكون أيضا مدجنة. ولهذا فظهورها المباغت لا يمكن تفسيره إلا بقبول كون الإنسان قد أدخل حيوانات أجنبية.

ويرجع تأنيس الكباش والماعز في أروبا، كما في مصر، إلى عهود بعيدة جدا. ويمكن أن نلاحظ أن أقدم جنس في مصر كانت له قوائم طويلة كما لكباش القصر الأحمر، ولكن بقرون مختلفة، أي معترضة ولَوْلَبية الشكل. ويظهر أن هذا الجنس اختفى من الوجود في الشعب الأسفل لنهر النيل قبل الدولة الحديثة. وابتداء من الدولة الوسطى كان يوجد بمصر جنس آخر له قرون منعطفة إلى الأمام، ومن هذا الجنس كان كبش آمون المقدس، الذي ترينا نقوش الجنوب الوهراني عنه صورا غليظة الصنع هي الكباش التي تحمل رؤوسها أقراصا. أما الماعز، فإنه لم يأت من أروبا التي لم يلاحظ بها وجود الجنس الإفريقي القصير القد. ولكن بما أن هذا الجنس يظهر أنه يمتّ إلى الماعز البازن Chèvre Egagre الذي لا يزال حتى اليوم يعيش متوحشا بآسيا الغربية، فمن الممكن أن يكون استجلب عن طريق الشمال الشرقي الإفريقي.

إن تربية الماعز والكباش سهلة جدا ونافعة كثيرا، الأمر الذي جعلها تنمو بسرعة في أرض المغارب، وكذلك عند الأهالي القريبين جدا

إلى مصر. ومع ذلك، فلا سبيل لأن نعتقد مع موفِرس Movers أن الليبيين كانوا في هذا المجال أساتذة الإغريق، لأن الحجج التي أوردها هذا العالم الألماني ليس لها قيمة في نظرنا.

ولا نعلم كيف كانت هيأة الحُمُر المتوحشة التي عاشت بشمال إفريقيا حتى صميم العهد التاريخي. فقد جُمعت عظام الحمير من بعض مغارات الحجري الجديد، ولكن ليس في إمكاننا القول بأن هذه الحيوانات كانت أنيسة. وكذلك الرسوم الصخرية، فإنها لا تعطينا معلومات أكيدة عن هذا الشأن.

أما الحمار المستأنس المنحدر من الحمار المتوحش الذي لا يزال موجودا بالشمال الشرقي للقارة الإفريقية، فقد كان موجودا بمصر منذ الألف الرابع قبل الميلاد. وفي القرنين الثالث عشر والثاني عشر، كان الليبيون المقيمون بين وادي النيل وسدْرَة الكبرى يملكون الحمير. فمن الممكن إذن أن نعتقد أن سكان أرض المغارب تعلموا منهم المصالح التي يمكن أن تؤديها لهم هذه الحيوانات الثمينة في الحمل والركوب. والحمير الحالية تنتمي لجنس يعرف بأنه إفريقي، وأجْود أمثلته يوجد بمصر. هذه الحُمُر صغيرة، لها رؤوس قوية، وأعين كبيرة ولطيفة ولها أعناق ممشوقة، عليها أعراف قصيرة جدا، ولها ظهر قصيرة ومسنمة وصدور ضيقة. أما الإهاب فغالبا ما يكون رمادي اللون كما للأخدريات النوبية. وهي تعيش طويلا وتتحلى بمزايا الانقياد والقناعة والمصابرة والخفة.

وبغض النظر عما استجلب حديثا من الخيول إلى شمال إفريقيا، فهناك نوعان، هما الحصان العربي والحصان المغربي Barbe.

فالحصان المغربي له رأس قوي، وجبهة محدبة، وحجاج قليلة البروز، كما أن له حنكا ممتلئة وشدقين واسعين، ومشفرين دقيقين وفما صغيرا، وكذلك الأذنان فرقيقتان ومنتصبتان، وله رقبة مستديرة وعريضة، عليها عرف كثيث، وله كذلك حارك عال، وظهر وأصلاب قصيرة، وكفل قصير حاد، وذيل أثيث نازل، أما الأطراف فقوية، ولكنها في الغالب غير متناسقة، والقامة غير مرتفعة، لها معدل متر ونصف، وألوان الإهاب مختلفة، وإن كان يغلب عليها اللون الرمادي. والمظهر العام ثقيل غير رشيق، غير أن لهذا الحيوان مزايا كبيرة هي : الانقياد والسرعة، والقوة والصبر على المتاعب والحرمان. والخيول المغربية، التي قلما يوجد الآن نموذجها الطرازي النقي بسبب كثرة توالدها مع الخيول العربية، تمتّ بالقرابة للخيول التي سبق أن وجدت - أو لا تزال توجد - بالشمال الشرقي لإفريقيا.

والفرس المعروف بالعربي له جبهة عريضة مستوية، وحجاج بارز، وحنك مستوٍ أو فيه بعض التقعير، وخدود أسيلة، ومناخير أوسع من مناخير الفرس المغربي. وكذلك الأذنان فهما أصغر، والعرف غير كثيث ولكنه أكثر نعومة، وللبدن هيأة ممشوقة وناعمة، وفيها رشاقة وتناسق لا يخلان بالقوة. وهذا الجنس الذي توجد أجود أمثلته بسورية، موجود اليوم أيضا بسائر البلاد الإسلامية. ومنه انحدر الفرس الإنكليزي الأصيل عن طريق أفراد منه نقلت في القرنين السابع عشر والثامن عشر من تركيا أو من الدول المغربية. وليس صحيحا أن البلاد العربية هي المهد الأصلي لهذا الحصان، لأن العرب كانوا يمتطون الجمل حتى عهد الميلاد تقريبا، ثم اتخذوا بعد ذلك بكثير الأفراس التي لابد أنها جاءتهم من سورية، وبقي عددها قليلا إلى حين الفتوح الإسلامية.

ويظهر أن انتشار الأفراس العربية - أو السورية على الأصح - بأرض المغارب لا يرجع إلى عهد بعيد جدا، فالمعتقد عموما، وإن كان من غير برهان، أن هذا الفرس لم يدخل إلا على يد المسلمين، ابتداء من القرن الميلادي السابع. وعلى كل حال، فإن أكثر الآثار القديمة التي عليها رسوم خيول الشمال الإفريقي، وكذلك النصوص القديمة التي تتعلق بهذه الخيول، يظهر منها أنها ترجع إلى الخيول المغربية. فمن أي زمن وهي تحتل هذه المنطقة ؟

أما بمحطات الحجري القديم، فإن الفرسيات التي مكنتنا عظامها من التعرف عليها بوثوق هي حمير الزرد. وليس لدينا أي برهان على أن الفرس كان آنذاك موجودا بأرض المغارب. وهو غير موجود أو هو مشكوك فيه جدا بأقدم محطات الحجري الجديد، ولا يوجد إلا بالطبقات العليا بالمغارات. ويظهر على قلة بالجنوب الوهراني في الرسوم الصخرية التي هي معاصرة لصناعة الحجري الجديد البربري. فبإحدى هذه المحطات نشاهد حيوانا من ذوات الأربع، رَسْمه سيء جدا، ولكن لابد أنه فرس، وهو كما يقول پوميل Pomel (يلفّه حزام عريض، ربما بمثابة السرج). ويوجد رسم ثان سيء كسابقه يرينا فرسا آخر عليه شيء كالملاءة. فنحن نرى أن الأمر يتعلق بحيوانات أليفة. وبالجنوب المغربي، يوجد رسم لفرس عليه ملاءة أو ميثرة كبيرة، وقد ربط إلى جذع شجرة. وهذا الرسم - كاللذين سبق الحديث عنهما - يظهر جيدا أنه واحد من مجموعة النقوش التي تعرف بأنها مما قبل التاريخ.

إذن، ففي الحالة الراهنة لمعلوماتنا، نستطيع القول بأن الفرس كان أجنبيا عن مجموعة حيوانات الشمال الإفريقي، وأن الإنسان أدخله في عهد حديث نسبيا.

وتوجد خيول مصورة على الزليج الإفريقي، نرى لبعضها خطوطا على الأكتاف والأفخاد والعراقيب، كالتي ترى حتى اليوم عند الخيول المغربية. فليس مستحيلا أن يكون هذا الجنس قد تكون من توليدات حدثت بين حمار الزرد الإفريقي وخيول مؤنسة مستجلبة.

لقد قلنا من قبل إن نوعا قريبا جدا من الفرس المغربي يوجد بالشمال الشرقي لإفريقيا. وتعرفنا بعض الآثار المصرية أنه كان موجودا بوادي النيل منذ عهد الدولة الحديثة، حوالي القرن السادس عشر قبل الميلاد. أما قبل ذلك فيظهر أن الفرس كان غير معروف بمصر. فنستطيع أن نستنتج من ذلك أحد شيئين : إما أن الجنس الإفريقي تكون في عهد سابق بالشمال الغربي للقارة، ومن هناك انتشر في اتجاه الشرق، وإما أنه على النقيض من ذلك تكون بالشمال الشرقي لإفريقيا حول بداية الدولة الحديثة أو قبلها بقليل ثم انتشر من بعد في أرض المغارب. ولكن ليس هناك ما يوجب الاعتقاد بأن هذه الأرض الأخيرة قد وقع بها تأنيس الفرس قبل الزمن الذي كان المصريون يستخدمونه فيه. وليس لنا كذلك أي داع لقبول كون أرض المغارب قد تلقت من أروبا الحيوانات التي كونت الجنس المغربي من الخيول. وبخلاف ذلك، فإن مصر في العهد الذي بدأت تكوّن لها فيه خيول، قد كانت لها علاقات متصلة مع آسيا. وعلاوة على ذلك، ففي غرب هذه القارة يوجد نوع من الخيول هو وإن كان يغاير الفرس المغربي، فإنه مع ذلك يمتّ إليه. والمتأكد هو أن هذا الحيوان قد استخدمه الإنسان في آسيا الغربية قبل استخدامه بوادي النيل. وبدون أن نستر عدم كفاءاتنا في هذا الموضوع، ووهن افتراضنا فيه، فإننا نميل لأن نعتقد أن الفرس المؤنس قد استجلب من آسيا إلى مصر. وفيما يجاور مصر، ربما في بلاد النوبة الخاضعة للفراعنة، تكوّن

جنس جديد بتوليدات مع حمر الزرد. وبعد ذلك انتشر هذا الجنس في اتجاه الشمال الغربي في النصف الثاني للألف الثاني قبل الميلاد، بواسطة الليبيين الساكنين بين مصر وسدرة الكبرى، إذ من المتأكد أن هؤلاء قد كانت لهم خيول في القرنين الثالث عشر والثاني عشر، وإن كان عددها قليلا آنذاك.

إن شعوب العهود العتيقة قد استخدمت الخيول في أول الأمر كحيوانات للجر على الخصوص، حيث كانت تربط أزواجا إلى العربات الخفيفة التي تنقل المحاربين. وكذلك كان العمل عند الليبيين الشرقيين، بل إن هيرودت يدّعي أن الإغريق تعلموا منهم أن يربطوا أربعة أفراس. ولكنهم اكتفوا منذ عهد بعيد باستعمال خيولهم للركوب. والرسوم الصخرية التي ذكرناها من قبل تسمح بهذا الافتراض.

والخلاصة هي أننا نجهل أصل الثيران المؤنسة التي بشمال إفريقيا، ويمكن أن نتساءل : أليست جنسا منحدرا من الثيران الأهلية المتوحشة ؟ ولعل الأمر كذلك بالنسبة للحمير، مع أن استجلاب حيوانات مؤنسة من الشمال الشرقي الإفريقي، يظهر لنا أنه أكثر احتمالا. أما الكباش والماعز والكلاب والخيول، فهي دون شك ذات أصول أجنبية. ويظهر أن الماعز والكباش قد أدخلت أولاً، ولا مانع من الظن بأنها جاءت من الشرق. ونعتقد أن باستطاعتنا أن نقول مثل ذلك عن الخيول.

2

إن تربية الماشية - المصاحبة للصيد عادة - قد استمرتْ أمدا طويلا جدا، وحتى إلى ما يقارب الميلاد، الموردَ الأساسي لعدد كبير من الأهالي. ولم يكن ذلك فحسب في مناطق السهوب التي يحول مناخها

دون زراعة الأرض، بل وحتى في قسم كبير من النل. فرعي القطعان وأخذ نتاجها، هو بالتأكيد شغل يتطلب من العناء أقل مما يتطلبه استصلاح الأرض وزراعتها، وأقل من غرس الأشجار وتلقيحها، ومن السهر على أشجار الفاكهة. ولربما كان التراخي هو الذي جعل الكثيرين من الأفارقة يكتفون بالفوائد الهزيلة التي كانوا يجنونها من عمل سهل غير متواصل. ولكن يجب أن نذكر أيضا أن المناطق التي يقل فيها الأمن، يكون فيها الرعاة بقطعانهم المتنقلة في منجاة من النهب والحرب أكثر من المزارعين. فهؤلاء لابد أنهم يطمئنوا على ملكية أرضهم أثناء الشهور التي تفصل رمي البذور عن الحصاد، وأثناء السنين التي تمر بين غرس الأشجار أو تلقيحها ووقت إثمارها. وهم لا يستطيعون نقل مؤنهم بسهولة، كما أن تخريب بساتينهم يفقرهم لأمد طويل. فإذا كان كثير من الأهالي اقتصروا على تربية الماشية، بينما المناخ والتربة قد يساعدانهم على لون آخر من ألوان العيش، فإن ذلك لم يكن عن كسل، بل خوفا من عمل لا يجدي.

قد تعاطى الآخرون للزراعة. ذلك أن الصيادين والرعاة يمكنهم - دون أن يلزموا نفوسهم بقطع المسافات الطويلة - أن يعيشوا بأرض المغارب التي تقدم لهم في كل فصل الصيد والمراعي الضرورية لقطعانهم. فلم يكن هناك من سبب يدعوهم للتنقل، حين لا يكونون ملزمين بالفرار من وجه قبيلة أشد قوة، أو إذا كانوا - هم أنفسهم - لا يطمعون في أراض أكثر غنى. وهكذا كانوا في أحوال مناسبة لأن يصيروا مزارعين، واستطاع هذا الشغل الجديد في كثير من الأماكن أن يكون إحدى النتائج - لا السبب الأول - لتثبيت السكن.

ولا نجرؤ كثيرا إذا اعتقدنا أن بعض الخضراوات قد أنبتت بشمال إفريقيا منذ عهد بعيد جدا، ومن بينها الفول الذي ربما أنه كان تلقائيا بهذه المنطقة.

أما الحبوب فقد عُرفت ببعض الجهات من عهد مبكر، وعلى كل حال قبل السيطرة القرطاجية، بل قبل الاستعمار الفينيقي. وصحيح أن محطات الحجري الجديد بالصحراء التي يعثر فيها على مسحقات الحبوب، يمكن أن يؤرخ لها ببضعة قرون قبل الميلاد فحسب، ولكن وقع العثور على أدوات مماثلة بإحدى المغارات في الواد المالح على الساحل الوهراني، وكذلك بمغارة أخرى في برْزينة بالأطلس الصحراوي مع أثاث هو حقيقة لما قبل التاريخ، ويرجع لصناعة من الحجري الجديد.

أما الذّرَة البيضاء Sorgho فيظهر أنها أهلية في القارة الإفريقية حيث أدت للإنسان نفس الخدمات التي أدتها البشْنة Millet في مناطق أخرى. ولكن ليس لدينا برهان على أنها كانت تزرع من عهد مبكر في أرض المغارب. ولا ندري أين بدأت زراعة الشعير والقمح، ولا كيف انتشرت هذه الزراعة. ونميل على العموم إلى البحث عن مركز انتشارهما في آسيا الغربية التي لا يزال هذان النباتان يوجدان بها في حالة من التوحش. هذا مع العلم أن هناك شهادة قديمة، وإن كانت غير متأكدة، تذكر قمحا ينبت تلقائيا في إحدى الجهات المجاورة لأرض المغارب هي صقلية.

وهل يجب ان نسلم بمرور عهد بدائي استعمل فيه المقلاب Houeفي الزراعة ؟ أو أن الشعير والقمح قد أدخلا إلى الشمال الإفريقي في آن واحد مع المحراث ومع استعمال الثيران الخصية لجر المحراث ؟ ذلك أن المحراث والثيران الخصية كانت هي وسائل الزراعة لدى الشعوب الكلاسيكية. وقد تحققت هذه الوسائل بمصر منذ بداية العهود

التاريخية. فسكان أرض المغارب يكونون قد حصلوا على كل هذا بواسطة الليبيين الشرقيين. لكن هذه الافتراضات قد بلغت من الوهن حدا يحسن بنا أن لا نقف عنده.

وليس لدينا معلومات دقيقة عن الكتّان الذي تصعد زراعة حبته في مصر وأروبا الوسطى إلى عهود عتيقة موغلة في القدم. ومن المشكوك فيه جدا أن حلقات الطين المشوي، التي عثر عليها ببعض المغارات ذات الأثاث الذي هو من الحجري القديم، قد كانت ثقالات للمغازل. وقد عثر على قعور لبعض الأواني الخزفية في مغارة الدِّبَّبَة بقسنطينة. ويرى بهذه القعور أثر لنسيج غليظ الصنع كانت هذه الأواني قد وضعت عليه لتجف. ولكن ليس من المتأكد أن هذه القعور من صناعة الحجري الجديد.

إن غراسة الأشجار تقتضي عملية التلقيح وتكوين البساتين والعناية المتأنية، وتقتضي حياة استقرار تامة. وأشجار الزيتون والكرم والتين واللوز أشجار أهلية في أرض المغارب، ومع ذلك فليس هناك ما يؤكد أن بعض أنواعها قد كان يغرس هنا قبل العهد الفينيقي، ولا أن الأهالي قد عرفوا الخمر والزيت في عهود ما قبل التاريخ. ونلاحظ مع ذلك أن في اللغة البربرية لفظا خاصا هو "أزَمّور" تطلقه على شجرة الزيتون المغروسة بينما استعار الإيطاليون اسم هذه الشجرة من الإغريق الذين كانوا دون شك أساتذتهم في فن غرس أشجار الزيتون. أما الليبيون فلم يستعملوا الاسم السامي الذي جاء به الفينيقيون. فهذه إشارة خفيفة لزراعة قديمة جدا. وفوق هذا، فمما لاشك فيه أن غراسة الزيتون والكرم خارج التراب البونيقي لم تنتشر قبل عهد السيطرة الرومانية.

في القرن الخامس قبل الميلاد كان النصمونيون Nasamons – وهم عشيرة كانت تسكن بساحل سدرة الكبرى – يذهبون للتزود من التمر إلى أوجيلا Augila بجنوب سرنيكا. ولاشك أن سكان هذا المكان وغيره من الواحات الواقعة بعيدا إلى الغرب قد أخذوا من الشرق، أي عن الواحات المصرية، الدروس التي مكنتهم من تعاطي هذه الزراعة الصعبة. ولعلها أن تكون انتشرت بالجنوب الشرقي لأرض المغارب منذ عهد بعيد، إذ سبق أن أوضحنا شدة القرابة بين حضارة الحجري الجديد الصحراوية وحضارة مصر في فجر التاريخ. وعلى كل حال فليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن الفينيقيين قد ساهموا في انتشار غراسة النخيل بالصحراء.

إن الفينيقيين بالتأكيد، قد كان لهم ضلع كبير في نمو الحضارة بشمال إفريقيا. ومع ذلك فيجب أن لا نبالغ في ذلك كثيرا مثلما حدث حتى الآن. فأهالي هذه المنطقة لم ينتظروا قدوم البحارة السوريين ليتعاطوا لتربية الماشية والزراعة. إذن فهل كانت بعض خطاهم في مجال التقدم بيّنت مبادرتهم الذكية ؟ نحن نجهل ذلك. ولكننا نستطيع التأكيد بأنهم تقبلوا الكثير من يد الأجنبي، ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نفرض أن قسما كبيرا من هذه المكتسبات الثمينة قد جاءهم من مصر.

الفصل الثالث

الأحوال الاجتماعية والسحر والدين والفنون والعادات الجنائزية

1

لا نكاد نعرف شيئا عن الحالة الاجتماعية للأفارقة البدائيين. ويظهر أن أقدم المحطات لم يعمرها سوى عدد قليل من الأفراد. ولكننا نجهل كذلك هل كانت كل محطة منها تستخدم مسكنا لجماعة تعيش كالمستقلة، أو أنها كانت مرتبطة بعلاقات متينة إلى حد ما مع جماعات أخرى مجاورة. ولقد سبق لنا القول إنه منذ الحجري الجديد كانت توجد قُرى حقيقية، لابد أن سكانها كانوا يكوّنون مجتمعات متميزة.

والنصوص الإغريقية واللاتانية التي تعطينا بعض المعلومات عن أهالي أرض المغارب، ترينا ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد، أن الأسرة متكونة، وأن الرجل – زوجا وأبا – هو رئيسها، وأن للمرأة فيها وضعية دنيا غالبا، كما أن تعدد الزوجات كثير بهذه الأسرة. وتذكر هذه

النصوص القبائل أو العشائر التي لها أراض واسعة، والتي تخضع حسبما يظهر لنظام ملكي. وهناك دول تضم تحت سلطة مشتركة عددا من القبائل.

ونحن نجهل كيف تكونت هذه المنظمات الاجتماعية المختلفة. ولربما كانت الدول غير بالغة في القدم. على أننا نستطيع أن نفترض أن بعض القبائل في عهد سابق كانت تأتلف أحيانا إذا حدثت حرب، وأن هذه الائتلافات المؤقتة كان يقودها قادة ينتهي سلطانهم بنهاية الحرب. ولكن الحقيقة هي أننا في تردد تام في هذا الموضوع. أما القبائل فمن المحتمل أنها تكونت منذ عهد مبكر، إذ كان ضروريا للرجال أن يكوّنوا الجماعات القوية للتوقي من الهجمات، ولضمان السيطرة على المناطق التي لا تكون بها القطعان في ضائقة إذا استنزفت مراعيها بسرعة، والتي تستطيع أراضيها المتنوعة أن تقدم المراعي في جميع فصول السنة.

2

ولا نزال إلى أيامنا هذه نرى بديار المغارب ما أشارت له بعض النصوص القديمة، من وجود عادات تسمى بالعادات السحرية التي ترمي إلى تملك الأموال، وطرد الشرور أو تلافيها، والإساءة إلى الأعداء. ومع أننا لا نستطيع الإتيان بالبرهان، فلاشك أن بعض هذه العادات يصعد إلى عهد عتيق بالغ في القدم. ونذكر على سبيل المثال طقوس جلب المطر التي تشير لها إحدى الفقرات في دِيونْ كَسْيوس Dion Cassius، وعادة الغوص في الماء لنفس الغرض أثناء الميل الصيفي. وقد ندد القديس أوغسطين بهذا العمل الذي بقي معمولا به في عدة أماكن من

أرض المغارب. وكذلك العادة التي ذكرها أرْنوب Arnobe على ما يحتمل، وهي ربط قطع من النسيج على الأشجار فتثبت فيها الشرور التي يراد التخلص منها. وعادة الصراع التي تحدث عليها كل من هيرودُت والقديس أوغسطين. وهي من الطقوس التي يظهر أن الغرض منها كان يرمي لأن تطرد بعنف الشرور الساكنة في أجسام المتصارعين.

وهنا رأي واسع الانتشار، وهو أنك تتغلب على من تملك صورته. فلعل مخططي الرسوم الصخرية قد استوحوا من هذا الرأي في عصر ما قبل التاريخ، إذ يسوغ أن نعتقد أن الكثير من هذه الرسوم قد نقشت لتجعل الحيوانات المرسومة بها رهن إشارة الناس، كما أن بعض الكلمات السحرية التي ينطق بها أمام الرسوم يمكن أن تتمم مفعولها.

إن الإحيائية Animisme هي، حسب المدلول المتداول لهذا اللفظ، الاعتقاد في أرواح لها ذكاء وقدرة، تعيش بصفة دائمة أو مؤقتة في ظروف مادية، وتحدث الظواهر التي يشاهدها الإنسان، وحيث إنها مخلوقات قد تحسن أو تسيء فيحسن بالإنسان أن يؤثر عليها بطريقة القهر أو الاستعطاف. وهناك وثائق من العهد الروماني سندرسها فيما بعد، تعرفنا بأنه قد وجدت بأمكنة مختلفة عبادات الجبال، والمياه، والأشجار، وكلها تشهد بوضوح بوجود خرافات العبادات الإحيائية. غير أن الشعوب التي دخلت في العهود التاريخية إلى أرض المغارب قد كانت لها مساهمة في نشر هذه العبادات. ونحن نعلم أهمية الأماكن العالية في الديانة الفينيقية، وكذلك فإن أرواح العيون والأنهار والجبال التي تذكرها بعض النقوش اللاتانية، هي – في الظاهر على الأقل – معبودات رومانية. ولا نستطيع كذلك أن نقول هل عبادة الأحجار، التي يقال إن أرواحا قوية تسكنها، قد كانت لها في شمال إفريقيا أصول عريقة في القدم ؟ إذ ليس

هناك ما يؤكد أنها كانت موجودة قبل قدوم الفينيقيين. وتنطبق هذه الملاحظة عموما على الفيتيشية Fétichisme القائلة بوجود قدرة حامية في قوة خفية - أي طاقة لطيفة تنبعث من الكائنات - أو توجد في أرواح كامنة في أشياء طبيعية أو مصنوعة يقتنيها الإنسان. ومن المحتمل مع ذلك أن أهل عصور ما قبل التاريخ كانوا ينظرون إلى الأشياء التي نضدوا منها قلاداتهم على أنها "فيتيش" لا مجرد حلي.

ونستطيع إلى حد ما أن نكون أكثر تأكيداً بالنسبة لعبادة الحيوانات Zoolâtrie . ففي بداية القرن الميلادي الخامس عزا القديس أوغسطين للمصريين وحدهم عبادة الحيوان، مع أن وطنه كان به من الأهالي من لم تكن هذه العبادة أجنبية عنهم. فالشاعر كورِبُوسْ Corippus كتب في القرن الميلادي السادس أبياتا من الشعر تشهد أن أهل قبيلة لگواتان (لواتة ؟)، التي هي إحدى قبائل طرابلس، كانوا يعبدون گُرزيل Gurzil المتولد من الربّ آمون وإحدى الأبقار. وكان گرزيل يتقمص ثورا يرسل على الأعداء عند بداية المعركة. وبعد ذلك بكثير، أي في القرن الحادي عشر الميلادي، ذكر البَكْري قبيلة تسكن أرضا جبلية بالجنوب المغربي كانت تعبد الكبش. ويلاحظ حتى اليوم عند البربر آثار أخلاق يمكن تأويلها بأنها علامات غامضة لعبادة بدائية للحيوانات، أو هي على الأقل علامات عن عهد قديم بين الحيوان والناس، كالمراعاة الخاصة لبعض الحيوانات، وصيانة حياتها والامتناع عن أكل لحومها.

وتوجد، فيما عدا أبيات كوربوس الآنفة الذكر، عدة وثائق قديمة تشهد بوجود الحيوانات المقدسة بإفريقيا. وسنطرح جانبا الوثائق المتعلقة - على ما يحتمل - بالعبادات الطارئة في العهد التاريخي. لكن يجب أن نذكر هنا نَصّاً قيّماً لِديودورْ الصِّقلي. فقد روى هذا المؤرخ

صة حملة أكتوكليس Agathocle التي جرت في نهاية القرن الرابع قبل ميلاد، وتحدث أثناءها عن أرض تسكنها قردة عديدة، وتوجد بها ثلاث دن تسمى، نظرا لهذه الحيوانات، باسم ترجم إلى الإغريقية فكان هو : يتيكوساي Pithékoussai (ونحن نعلم أن بيتِكوسْ Pithékos معناها القرد ي الإغريقية). وكانت القردة بها تعيش داخل بيوت الناس الذين كانوا عتبرونها آلهة، كما أنها كانت تتمتع حسب إرادتها بطعام الناس، وكان لآباء يفضلون أن يطلقوا على أبنائهم أسماء مشتقة من أسماء القرود، كان أعظم الكُفْر في هذه البلاد هو قتل القرد، ويعاقَب عليه بالموت.

أما الرسوم الصخرية التي هي من عهد ما قبل التاريخ بأرض لمغارب، فإنها تساعدنا على أن نصعد بعيدا في الماضي. فمن بين لحيوانات المنقوشة بها، توجد حيوانات لاشك أن أهل ذلك الزمان كانوا عطونها صبغة القداسة. وهذا أمر لا يمكن أن يشك فيه بالنسبة للكباش، لتي على رؤوسها أقراص، والتي سنتحدث عليها فيما بعد.

أما الطوطميّة Totémisme فهي عقيدة كتب عنها الكثير في هذه لسنين الأخيرة كتابات لا تخلو من مبالغة. وعلى العموم، "الطوطم" حيوان تدعي إحدى العشائر، أي مجموعة من الناس المرتبطين فيما ينهم برباط الدم، أنها تمّت له بالقرابة. فتتخذ العشيرة الطوطم، ويعيش فرادها بقدر ما استطاعوا في وئام مع حيوانات نوعهم المختار، يمتنعون عادة من قتلها وأكلها، ويعتبرون أن ليس هناك ما يخشونه من ذه الحيوانات. وإذا حدث أن أضرّ أحدها بأحد أفراد القبيلة فذلك لامة على أن هناك أسبابا وجيهة لإنكار قرابته منه. وقد لوحظ اليوم جود هذا الاعتقاد بالأمريكتين، والهند وفي أقيانوسية وبالقارة لإفريقية، ويستدل بحجج، تستحق الاعتبار على الأقل، لتأكيد أن هذا

الاعتقاد وجد في العهود البدائية عند شعوب مختلفة ببلدان البحر الأبيض المتوسط. وقد بقيت منه هنا وهناك آثار استمرت حتى العهد التاريخي. وربما ساغ بالنسبة لشمال إفريقيا، أن نحتج بالنص الذي أوردناه من قبل لِديودور الصِّقلي. ذلك أن عدة جزئيات به تذكر بالطوطمِية كالمدن الموصوفة بأنها مدن قرود، وحياة الناس مع القرود، واحترام حياة هذه الحيوانات. وكذلك فإننا ربما نعزى بالقول بوجود هذه الخرافة الطوطمية فيما روي عن البسيليين Psylles الذين كانوا بمنطقة السدرتين. ويذكر إيلْيان Elien أن الحيّات القرناء Cerastes، عَدُوّة بقية الليبيين، كان لها عهد مع البسيليين الذين كانوا لا يتأثرون بلذغاتها. وحسب قول بعض الليبيين، فإن البسيلي، إذا شك أن يكون الإبن الذي وضعته زوجته هو ابنه، فإنه كان يملأ صندوقا بهذه الحيات ويرمي فيه بالطفل المولود. وبعدما يلامس الطفل الحيات التي تكون مهتاجة في أول الأمر ثم تهدأ، فإن الأب يستنتج من ذلك أن هذا الطفل منه حقيقة.

وهناك نوع من عبادة الحيوان، بقيت علاقته بالطوطمية بالغة الغموض. وهو عبارة عن عبادة حيوان ينتمي لنوع محدد ومختار بناء على بعض العلامات، ويظن أحد المعبودات يحل فيه. وقد كانت مصر القديمة مليئة بهذه الآلهة الحيوانية التي وجدت أيضا بأرض المغارب. ولابد أن منها ثَوْر اللّگواتان Laguantan الذي ذكره كوربوس وكبش الجَبَليّين المغاربة الذين أشار إليهم البَكْري. ولابد أن يقال مثل هذا عن الكباش المنقوشة على صخور الجنوب الوهراني، بعلامات خاصة تشهد أنها كانت تتميز بوضوح عن بقية أبناء جنسها من الكباش. وسنرى قريبا أن هذه الحيوانات المقدسة كانت لابد تعتبر تشخيصا لإله كبير.

على أن رسوما صخرية أخرى، ترينا الشكل الإنساني وقد اختلط بالشكل الحيواني. ففي الرّيشَة بالجنوب الوهْراني نرى رجلا قاعدا، وله

أذُنا أرنب برّي، ويحمل في يده اليمنى ما يشبه أن يكون قضيبا معقوفا. وفي تَلّيس زَرْهين بالصحراء، في ناحية الغات، شاهد بارْث Barth رسوما لشخصين واقفين، متواجهين، أحدهما له رأس ثور أو ظبي، وله ذيل وبيده قوس وسهام. أما الثاني فرأسه، حسب رأي بارْث، يشبه مشابهة مبهمة رأس طائر أبو منْجل Ibis، ويحمل في يده قوسا أو ترْساً بيضوي الشكل. والمخلوقات المخيفة التي كانت الخرافة تجعل لها وجودا حقيقيا، قد عبدتها في العهود العتيقة شعوب مختلفة، وعلى الخصوص منها الشعب البابلي. كما أن اختلاط الخِلقة الإنسانية بالحيوانية قد كان بمصر نوعا من التوفيق بين عبادة الحيوان والعبادة المشبهة بالإنسان (Anthropomorphisme) لكن يظهر أنه لابد هنا من قبول تأويل آخر، وهو أن الأشخاص المرسومين يمكن أن يكونوا مجرد رجال عليهم أقنعة في الحفلات. ومثل هذا التنكر معمول به كثيرا عند الشعوب ذات الحضارات البدائية. فبمثل هذه العلامة المادية يندمج المرء في الحيوانات الإلهية أو يندمج في الحيوانات التي لها قرابة بالعشيرة إذا كان الأمر يتعلق بنوع من الطوطم.

أما الأشخاص الذين تقدمهم لنا الرسوم في تقاطيع إنسانية تامة وفي أوضاع مختلفة، فليس هناك ما يسوغ لنا اعتبارهم معبودات.

يقول هيرودُت Hérodote إن جميع الليبيين يقدمون القرابين للشمس والقمر، وأنهم للشمس والقمر وحدهما يقدمون القرابين. وعلينا أن لا ندعم هذا القول بالتقدمات اللاتانية لصُول Sol ولُونا Luna التي عثر عليها في إفريقيا، ولا برسوم النجمين اللذين يظهران على الأنصاب التي يعثر عليها عموما بالأمكنة التي توطدت فيها الحضارتان البونيقية والرومانية، لأن المحتمل أو المتأكد هو أن هذه الآثار تتعلق بعقائد ذات

أصل أجنبي. ولعل من المستحسن أن نعير الأهمية لفصل من ابن خلدون الذي يتحدث عن البربر الوثنيين عبّاد الشمس والقمر. فمن الممكن أن نفرض أن الأمر يتعلق بعبادات أهلية. ولنذكر بهذه المناسبة أيضا أحد النصوص من مَكْروبْ Macrobe الذي يقول : إن الليبيين يمثلون الإله آمون Ammon بقرون الكبش، وينظرون إليه على أنه الشمس الغاربة وصحيح أن هذا الكاتب كان يجد عبادة الشمس في كل مكان، ولذلك فإن قوله لا تكاد تكون له قيمة، لو لم تؤكده شهادات أخرى.

كان المعبودان الأكبران للقرطاجيين هما بَعْل حَمّون Baal Hammon وتانيتْ بَني بَعْل Tanit Pené Baal اللذان يظهر أن أولهما كان إله الشمس، بينما كانت الثانية إلهة قمرية. وقد اختلط لدى الأهالي بَعْل حَمّون بِآمّون الذي سنتحدث عليه، ولكن ليس هناك ما يؤكد أن بَعْل حَمّون هذا، الذي ورد من فينيقيا، لم يصبح إلها شمسيا إلا بعد طروئه على شمال إفريقيا. كما أنه يستحيل تأكيد كون تَانيتْ بني بَعْل قد تحولت في هذه المنطقة إلى إلهة قمرية بعد تقمصها هي لإحدى الربات الأهلية، بل ربما يراودنا السؤال عن عبادة الشمس والقمر المنتشرة بين الليبيين في عهد هيرودُت حوالي وسط القرن الخامس ق.م، وهل لم تأتهم من الفينيقيين ؟ أما فيما يتعلق بالقمر، فإن الوثائق تعوزنا لتبديد شكوكنا.

وليس الأمر كذلك فيما يخص الشمس، إذ هناك أسباب قوية تجعلنا نقبل أن عبادة هذا الكوكب بأرض المغارب قد سبقت توطيد الاستعمار الفينيقي.

ولقد سبقت لنا الإشارة إلى الرسوم الصخرية التي بالجنوب الوهراني، والتي تظهر بها كباش على رؤوسها أقراص تمسكها أربطة

تمر تحت الأحناك. وهي رسوم معروفة بالريشة في ملحقة أفلو، وفي بوعَالَم بناحية البْياض، حيث يوجد اثنان منها، كما أنها معروفة بفجّ زْناڭة قرب فِيڭيڭ (بالمغرب) . ويشاهد بأحد رسوم بوعالَم وبِزْناڭة أن القرص تكتنفه أو تعلوه زائدتان تمثلان حيَّتَيْن. ونجد معنى هذه الخاصية في عدد كبير من الآثار المصرية، حيث نشاهد القرص الشمسي وعلى يمينه ويساره تنتصب الحيّة الناشر (Le naja). فيظهر لنا إذن أن رسومنا تؤكد أن عبادة الشمس كانت بالجنوب الغربي الوهراني تختلط بخرافات العبادات الحيوانية، وذلك منذ عهد قديم جدا، سابق لاشك على الألف الأولى من السنين قبل الميلاد.

وليس في الأمر مجازفة كبيرة إذا أطلقنا اسم آمّون Ammon على الكبش المقدس الذي تعرفنا به هذه الرسوم، لأنها تتطابق مع نص مَكْروبْ Macrobe الذي ذكرناه آنفا، والذي يعطي للرب الليبي آمون، ذي قرون الكبش، خاصية شمسية. فالرب الليبي رسم أولاً في شكل حيواني تام، ثم رسم بعد ذلك في شكل إنسان، احتفظ له من شكله الأولي إما بالرأس وإما بالقرون فحسب. وأهم من ذلك أن رسومنا تتفق مع الكثير من الصور المصرية لآمون، الذي يطلق عليه في الغالب اسم آمّون رَعْ Ammon-Râ، أي آمون الشمس. فالكبش الطيباوي يعلو رأسه القرص الشمسي الذي تحيط به الحيتان.

إن قوة الفراعنة الذين كانت طيبة Thèbes عاصمتهم أثناء الألف الثانية ق.م، قد رفعت شأن المعبود الأكبر لهذه المدينة، ونشرت عبادته حتى خارج مصر. فآمون الطيباوي لاشك هو الذي كانت له معابد ببلاد النوبة. وبغرب وادي النيل كان يعبد في واحة سِيوَة التي دعاها الإغريق باسم أرض آمون، وعرفه المعمرون الإغريق بِسرنيكا واتخذوه معبودا

لهم باسم زِيوسْ آمونْ Zeus Ammon، ورسوم الجنوب الوهراني تشهد أن عبادة آمون توطدت في أرض المغارب من وقت مبكر. واستمرت هذه العبادة بعد قدوم الفينيقيين، وبعد الفتح الروماني، ولو أنها تحملت بهذه المنطقة تغيرات عميقة إلى حد ما. فهي إذن قد انتشرت في جميع شمال القارة الإفريقية.

ليس لدينا أي مسوغ للاعتقاد بأن الليبيين، قبل أن يتأثروا بالمصريين، كانوا قد عبدوا ربّاً كبشاً، وأنهم قد يكونون أطلقوا عليه اسم آمون، الذي ربما كان أجنبيا في طيبة التي دخلها من الغرب منذ عهد بعيد. ومن جهة أخرى فإن المتأكد هو أن امتزاج الطبيعة الحيوانية بالطبيعة الشمسية في هذا الإله قد تم بوادي النيل. والحقيقة هي أن آمون، كبش طيبة، قد استعار اسمه الثاني من "رَعْ" الإله الشمس لمدينة آنْ An، أي هيلْيوبُليس. فباتّحاده معه ذاتيا أصبح معبودا شمسيا على غرار الآلهة الأخرى التي اتحدت ذاتيا كذلك مع "رَعْ". وبعد حصول هذا الاتحاد نال القرص الذي تحيط به الحيتان.

وهكذا فإن رسوم الجنوب الوهراني تمثل آمّونْ رَعْ الطيباوي. ولابد أنه وصل إلى هذا المكان بعد أن مر من قبيلة إلى أخرى، إذ ليس هناك ما يشير إلى أن سكان أرض المغارب كانت لهم علاقات مباشرة مع مصر. وربما إن وصوله حدث بين القرن السادس عشر والقرن الثاني عشر ق.م، أي في عهد القوة الكبرى لملوك طيبة، وكذلك في العهد الذي كان فيه الليبيون الساكنون شرقي سَدْرة الكبرى La Grande Syrte، قد جذبتهم مصر فحاولوا عدة مرات أن يقتحموها غازين، وسكنها العديد منهم كمرتزقة في جيشها.

فرسومنا تؤكد أن أهالي شمال إفريقيا منذ هذه العهود البعيدة لم يكونوا يعبدون المعبودات المحلية وآلهة العشائر فحسب، بل إن عبادة إله كوني كبير هو الشمس، كانت منتشرة بالجنوب الوهراني من أَفْلو إلى فِكِيگْ، وأيضا في البلاد الواقعة بين هذه المنطقة ومصر، لاشك.

وليس مستحيلا أن يكون إله مصري آخر قد عُبد في بوعالَم. ذلك أن بهذا المكان رسما يمثل ثورا يحمل بين قرنيه شيئين مستطيلين. فطرح سؤال – هو مجرد افتراض – هل تكون هذه الصورة هي صورة ثور إرْمِنْت Erment الذي يحمل رأسه ريشتين ؟

وقد اتخذت الشعوب المجاورة لوادي النيل معبودات مصرية أخرى. فالمحاربون الليبيون كانوا في القرن الرابع عشر ق.م يحملون على أذرعتهم وسيقانهم وشوماً تمثل الآلهة نيتْ Nit ربّة سايْس. فهل دخلت هذه الربة لأرض المغارب بواسطتهم كما دخل آمون ؟ لا نستطيع أن نقول سوى أن معبودة باسم أثينا – كما سماها هيرودُت – كانت في القرن الخامس ق.م تُعبد بجنوب البلاد التونسية، وأنها بطابعها الحربي تشبه "نيْت"، التي تشخصت في أيضا في أثينا.

ويشير هيرودُت وبعض الكتاب المتأخرين بعده إلى معبودات أخرى عند الليبيين، فيصفونها بأنها ليبية ويطلقون عليها أسماء إغريقية. وسندرس فيما بعد هذه النصوص التي ترجع إلى العهد التاريخي. ولكن، حيث أنه قد وجد بالجهات الشرقية ليبيون يعرفهم الإغريق معرفة جيدة، فلربما أن الآلهة التي يذكرها هؤلاء الكتاب لم تكن جميعا قد عُبدت بالمنطقة التي نطلق عليها اسم أرض المغارب. ومن ناحية أخرى، فلعل صفة "ليبية" لا تدل دائما على أصل أهلي، بل كانت تسري أحيانا على آلهة أدخلها الفينيقيون إلى ليبيا.

هذا، وإذا كانت معرفة معبودات ما قبل التاريخ تغيب عنا بصفة تكاد تكون تامة، فإننا كذلك لا ندري شيئا عن الطقوس.

إن الرسوم الصخرية التي بالهَرِيَة في شرق قُسّنطينة، وبخَنْقة الحجَر بناحية قالْمة، وفي واد يِتَل بالجنوب الغربي لبِسكْرة، وكذلك التي بالجنوب الوهراني، كلها ترينا رجالا ونساء واقفين، أو تنحني ركبهم، وأيديهم كالمرفوعة إلى أعلى، وهي أحيانا مفتوحة وفارغة، وأحيانا تمسك أشياء غالبا ما يصعب تحديدها : فلربما هي مِقدّة مركبة على نصابها، كما بالقصر الأحمر، وهي في واد يِتل أشياء بيضوية الشكل ومسطرة بخطوط. فهيئة هؤلاء الأشخاص تذكرنا بالحركة المتعارفة للصلاة، ويمكن أن نفترض أن البعض منهم يحملون الهدايا. وتوجد رسوم أخرى نراها بمُغار وبالرِّيشة بالجنوب الوهراني وكذلك بواد يتَل ترينا من أمام أناسا جالسين، وأرجلهم منفرجة، وأيديهم مرفوعة. فهل يتعلق الأمر هنا أيضا بحالة تُعبد ؟ ولقد سبق أن تحدثنا على الأفراد الذين يظهر أنهم تنقبوا بأقنعة حيوانية، وأنهم بهذا التنكر ربما يشاركون في إحدى الحفلات. ولا توجد أي صورة لتقديم القرابين. لكن بالقرب من تيارْت بولاية وهران، توجد صخرة كبيرة، لها شكل مائدة غليظة الصنع، قد انفصلت عن أحد الجبال، وبالوجه الأعلى لهذه الصخرة ثلاث أحواض متدرجة، على جوانبها ثقب صغيرة. فرأى البعض فيها مكانا مقدسا من عهد عتيق بعيد، كانت القرابين تقدم فيه. ولكن يظهر لنا أن هذا افتراض فيه كثير من المجازفة.

لعل الشعائر الدينية كانت تقام أمام هذه الرسوم التي تمثل كائنات معبودة، وربما حتى مشاهد من العبادة. فجل هذه الرسوم قد خُطّ على صخور في العراء. لكن الرسوم في واد يتَل تغطي جدران بعض

النواويس Hypogées الاصطناعية المكونة من ممر موصل ومن رواق واحد أو عدة أروقة منتظمة تقاطع الممر. وتوجد بوادي الشيل بطرابلس رسوم تغطي جدران مغارة طبيعية. فالمغارات التي استخدمت للسكنى أثناء قرون طويلة، بقيت هنا وهناك تستعمل كأماكن للعبادة. ولربما كان القصد الديني هو السبب في رسوم صورة إنسانية على مدخل مغارة بوزْباوين، قرب عين ملِيلَة بولاية قسنطينة. وفي العهد التاريخي، حتى في زمان القديس أوغسطين، كانت الكهوف المقدسة لا تزال موجودة بأرض المغارب. وإذا استطعنا أن نقبل أن البعض منها كانت تقام فيه الحفلات الدينية التي هي من أصل أجنبي، فلاشك أن بعضها الآخر كان يستعمل لحفلات ذات أصل أهلي حقيقة.

3

كثيرا ما أوردنا في الصفحات السالفة ذكر الرسوم الصخرية، ويحسن الآن أن نتحدث عنها بصفة مفصلة. على أننا لن نتحدث على جميع ما هو موجود منها بشمال إفريقيا. إذ الواقع المتأكد هو أن الكثير منها لا يرجع لعهود ما قبل التاريخ. هذه الصخور هي المعروفة على العموم باسم الصخور الليبية البربرية الموجودة بكثرة في الجنوب الوهراني وفي الصحراء كلها، كما توجد بجنوب المغرب. هذه الرسوم صغيرة الأحجام، أكثرها خُطّ بطريقة التنقيط المشوّه، القليل العمق، بحيث لا يعطي سوى محيط مبهم وغير دقيق عادة للموضوع المرسوم. لكن رسوما أخرى توجد بالصحراء، تتكون من خطوط مستمرة ودقيقة، رسومها أقل تشويها، وغالبا ما سوى بها سطح الصخرة بداخل الرسم. وكانت الأدوات التي استعملت لذلك أدوات حجرية. والموضوعات الممثلة

عبارة عن محاربين، مُشاة وفرساناً، يحملون ترْسا أو عدة نصال. وقد تكون الموضوعات كلابا وثيرانا مجللة أحيانا، وتيوس الجبل وزَرافات (بالصحراء الوسطى) وظباء ونعامات وطيور أخرى غالبا، وأوزاغا وغير ذلك. وتكون الرسوم في الغالب مصحوبة بكتابات بالحروف المعروفة باسم تيفِناغ Tifinagh التي لابد أن يكون أكثرها معاصرا للرسوم، كما يدل على ذلك المشابهة الموجودة في طريقة التنجير، والمشابهة في الألوان التي علتها مع الزمان. غير أن هذه الكتابات قد أنجزت بأبجدية متوسطة بين الكتابة المعروفة بالليبية، التي كانت مستعملة بشمال إفريقيا في العهد الروماني، والكتابة التي يستعملها اليوم طوارق الصحراء. وكثرة صور الجمال تشهد بأن هذه الحيوانات كانت واسعة الانتشار بجنوب أرض المغارب وفي الصحراء، الأمر الذي يعود بنا إلى أزمنة متأخرة عن عهد الإمبراطورية العليا الرومانية. وتوجد بشمال العَيْر Aïr كتابة عربية من نموذج قديم جدا، ظهر منه ليشِيدو Chudeau أن الكتابة ترجع لنفس عهد الرسوم الليبية البربرية التي تصحبها. أما التيفناغ، فإن الأهالي لم يعودوا اليوم يعرفونها. ويمكن مع ذلك أن نقبل كون هذه الرسوم وهذه الكتابات تتدرج على مدة طويلة جدا من الزمان، وأن أحدثها عهدا إنما يؤرخ ببضعة قرون.

لقد كان من المفيد أن نتحدث على الرسوم الليبية البربرية باختصار لنبيّن أولاً أن المعلومات التي تفيدنا بها لا تتعلق بوجه من الوجوه بالأفارقة البدائيين، ولأنها بعد ذلك تعطينا إشارة عن عهد الرسوم الصخرية الأخرى، التي يمكن أن يطلق عليها وصف ما قبل التاريخ. والرسوم الأولى تغطي، في أمكنة مختلفة، هذه الرسوم الأخيرة. كما أن هذه الأخيرة يعلوها زنجار شديد القتامة مغاير تماما لزنجار الأولى، التي لاشك أنها متأخرة بكثير عن الأخرى. فيجب إذن أن نميز

بين مجموعتين : إحداهما قديمة، وتتميز كما سنرى بتخطيط واسع عميق، وبمجموعة حيوانية اختفى بعضها من شمال إفريقيا. والثانية تتميز برسم أنجز بالتنقيط أو بخطوط رقيقة، وبمجموعة حيوانية لا تزال موجودة بالبلاد، خصوصا منها الجمل ذا السنام الواحد. وزيادة على هذا، فمن المحتمل أن عادة نقش الرسوم الصخرية لم تَضِع نهائيا بين هذين العهدين، ولا شك أن بحوثا واختبارات متأنية ستساعد على تكوين مجموعة ثالثة متوسطة بينهما.

ورسوم ما قبل التاريخ قليلة الوجود بالأراضي المجاورة للبحر الأبيض المتوسط، ونجدها بولاية قسنطينة بالمكان المعروف باسم خَنْقة الحجَر بالجنوب الغربي لقالمة، وغير بعيد من هذا المكان نجدها بالجنوب الشرقي بالكاف المسِيور، كما نجدها بناحية الهَرْيَة والكْروب بشرق قسنطينة وبجنوبها الشرقي.

وهي على النقيض من ذلك موجودة بكثرة في جبال الأطلس الصحراوي، بجنوب ولاية وهران، أي بجبل العمُور، وجبال القَصُور في نواحي أفْلُو والبياضْ والعِين الصفْراء، وبعيدا إلى الجنوب الغربي توجد قرب فـگيـگْ، كما توجد وراء هذه المدينة بالصحراء في أحواز واد زُسْفانةَ والساوْرة العليا. وقد دُرست بهذه الجهات بعناية، ووقع تمييزها من الرسوم الليبية البربرية.

ولم يقع مثل هذا بالنسبة للرسوم الصخرية التي بالجنوب المغربي، التي أشير لوجودها في سوس، والأطلس الصغير وفي جنوب نهر دَرْعَة، فالمعلومات التي أعطاها عنها بعض المسافرين لا يمكن استخدامها إذن إلا بحذَر.

وعلى الحاشية الشمالية لصحراء قسنطينة، بالجنوب الغربي لِبسْكرة، توجد في شعب مجاور لواد يِتل مجموعة قيّمة من الصور التي ترجع للمجموعة القديمة.

وتوجد أيضا بعض الرسوم الموصوفة بأنها من عهد ما قبل التاريخ في داخل الصحراء الكبرى نفسها. لكن عدد الرسوم الحديثة – التي بها صورة الجمل – يفوق جدا عدد الأخرى. وهناك أخريات ترجع على ما يحتمل لعهد وسط.

هذه الصور خُطّت على الحجر الرملي، باستثناء حالات قليلة حيث الصخر من الكلكير، وتكاد تزخرف جميع الجدران التي تنزل عموديا، وتشرف غالبا على مراكز المياه. فهي بخَنْقَة الحجَر تغطي وجهين لصخرة عريضة، وجهها الكبير يكاد يبلغ طوله 17 مترا، والصخرة بمدخل أحد المخانق تعلو عَيْناً للماء. كما انها في تِيوتْ تغطي جدارا صخريا يبلغ طوله نحوا من 75 مترا، على علو 20 مترا. وقلما تكون منقوشة على مساحات أفقية كما في المُغار وفي التحتاني، حيث انتشرت الرسوم فوق سلسلة طويلة من الصخور المنبتة على النجد المشرف على الواحة، ومثل ذلك أيضا في عِين مَمْنونَة. وقد سبق أن قلنا إنها بوادي يِتَل تغطي جدران مغارات صنعتها يد الإنسان، كما أنها بمكان آخر تغطي كهوفا طبيعية.

وقد تنبه الدارسون للطريقة التي استعملت بالجنوب الوهراني على الخصوص. وهي عبارة عن خط خفيف يبين أولاً مجموع الصورة، وعلى هذا الخط الأولي يقوم المنجز بواسطة مثقب، فيحفر خطا من النقط جليا واضحا، ثم يصقله بعد ذلك بعناية ليتولد عنه خط مستمر واضح، بحيث إنه - كما يقول بونّي Bonnet – : «واضح جداً، تتراوح سعَتُه بين

سنتمتر واحد وسنتمتر ونصف، وعمقه 10 من المليمترات، وواسع من جانبه الأعلى، ولا تكون به زوايا أبدا، كما أنه أملس وصقيل جدا». ويظهر أنه أنجز بكثرة الحك لإحدى الأدوات التي لها طرف غليظ وهذه الأداة لا يمكن أن تكون من خشب ولا من معدن، لأنها إما ألين من أنْ تؤثر في الحجر الرملي، أو هي أشد حدة. لذلك فلابد أنها كانت من حجر. وكذلك لاشك كانت القرنة والمثقب المستعملان قبلها. وقد لوحظ أحيانا أن الصخرة مصقولة بداخل الخطوط المحيطة بالرسوم.

أما أحجام الصور فمختلفة، ولكنها على العموم أصغر مما هي عليه في الطبيعة، على أن هناك بعض الاستثناء كما في الكاف المسيِور مثلا.

وحسب علمنا، فإن النباتات من أشجار وأزهار وغيرها، لا تظهر في أي مكان بهذه الصور. ونحن نعلم فوق هذا أن البدائيين قليلا ما كانوا يرسمون النباتات. وعلى النقيض من ذلك تظهر بكل مكان الحيوانات، من وحشية ومستأنسة وقد أشرنا للأنواع المرسومة منها، وكلها من ذوات الأربع. أما الطيور فهي قليلة باستثناء النعام. وكذلك الزواحف، فقليلا جدا ما تظهر. وهناك بعض الأشياء المنعزلة، إذ نتعرف في أَصْلاَ Asla على مقدة وترس، وربما على بومْران Boumerang. وفي المُغار يوجد رسمان غامضان متكونان من خطوط متقاطعة أو متشابكة.

وتظهر الحيوانات في رسوم جانبية. أما الناس فغالبا ما يُرون من أمام. والوجوه عبارة عن مجرد الخطوط المحيطة بها، أي مجرد أشباح. وأحيانا تذكّر بإجمال ببعض التفصيلات الداخلية كالأعين والشعر وخط الأوراك وغير ذلك. لكن الرسم يكاد دائما يكون كعمل الأطفال مختلا وسقيما. ولاشك أن هذه الصور تفوق بكثرة الرسوم الليبية البربرية،

ولكنها على أية صفة من الصفات، لا تستطيع تحمل المقارنة بالتحف البديعة، في الرسم والنقش والنحت، التي خلّفها لنا من سكنوا الكهوف في العصر الرابع بأروبا الغربية. وكثيرا ما يستحيل تمييز الحيوان الذي أراد "الفنان" أن يظهره، وإن كانت هناك بعض الأحوال المستثناة، فالأسود والجقال (بنات آوى Chacals) والخنزير التي في الكاف المسيوَر، والكبش المقدس في بوعالَم، والفيَلة والجواميس في العديد من محطات الجنوب الوهراني، كلها تكشف عن موهبة حسنة في الملاحظة. كما أن الرسم الجانبي الواضح المكين يعبر بتوفيق عن مظهر الحيوانات، وربما حتى عن هيأتها في حركة من الحركات.

على العموم يظهر جيدا، أن الصور المنقوشة بكل محطة قد أنجزت منفردة. وفي بعض المحلات، خصوصا في تِيوتْ وخَنْقَة الحجَر، تُظهر الوجوه – وهي عديدة جدا – في فوضى كبيرة، فتكون بأحجام مختلفة جدا، وفي اتجاهات مختلفة، بل يقاطع بعضها بعضا أحيانا وتختلط. ولكن مع ذلك، يُعثر على مشاهد بعدة أشخاص تكوّن لوحات تركيبية. فبقرب الرّيشَة في أَنفّوس مشهد لمعركة بين جاموسين كبيرين، وبعين الصفيصيفة فيلٌ يحمي صغيره من نَمِر بحضور فيل آخر، وفي الكاف المسيوَر عائلة من الأسود تفترس خنزيرا، بينما مجموعة من الجقال يظهر أنها تنتظر الوقت لتنقض على البقايا. وتضم هذه اللوحة عشرة أوجه، وفي كبّار الرّشيم وفي جبل المحيصْرات قطعان من الفيِلَة، تتقدم فيلا بعد فيل، وفي تِيوْت صيادون تصحبهم الكلاب يسددون سهامهم نحو صيد، هو نعامة أو حيوان من ذوات الأربع، وفي واد يِتَل ثلاثة أشخاص مصطفين، وأيديهم اليسرى مرفوعة، وربما يحملون عليها الهدايا، وفي تَلّيزْ زَرْهين محاربان يظهر أنهما متقنعان بأقنعة حيوانية ويتقابلان وجها لوجه في إحدى الرقصات المقدسة.

إن الرسوم التي درسناها تتوزع على سلسلة طويلة من السنين، على عدة قرون لاشك. فكثرتها في بعض الأماكن، والتحقيقات التي سبق لنا ذكرها تشهد أن عدة أجيال من الناس قد مروا بالمكان. ولكن يصعب الإتيان بتاريخ مرتب لهذا الفن البدائي. وحين نلاحظ باختبار الزنجار أن الصور القديمة بالجنوب الوهراني هي متقدمة حقيقة على الرسوم الليبية البربرية، فذلك إنما يساعدنا على القول بأنها يجب أن تصعد على الأقل إلى الألف الأولى قبل الميلاد. والمجموعة الحيوانية المرسومة في هذه الجهة وكذلك في جنوب المغرب، تضم أنواعا اختفت اليوم، وكانت على ما يحتمل بحاجة إلى مناخ أكثر نداوة من المناخ الحالي، غير أن هذا ليس برهانا على أقدمية بعيدة جدا، إذ نعلم أن الفيل كان لايزال موجودا بشمال إفريقيا في بداية العهد الميلادي. وقد سبق لنا القول بأن الرجال الذين خطّوا هذه الصور كانت لهم حيوانات مستأنسة كالكلاب والكباش والماعز والثيران والخيول، وأنهم على ما يظهر كانوا يستخدمون المقدات ذات المقابض، الشبيهة بالمقدات التي يعثر عليها بمحطات الحجري الجديد المتأخرة، وأنهم لابد قد سكنوا البعض من هذه المحطات. وربما أمكن التدقيق أكثر إذا قُبِل رأينا بأن الفرس قد أدخل من مصر إلى أرض المغارب، وبأن الكباش التي على رؤوسها الأقراص هي صور للإله المصري آمون. وهكذا فقد يصير قريبا من الصواب أن الرسوم الممثلة للخيول وللكباش المقدسة ليست سابقة في الزمان على الدولة الفرعونية الجديدة، وأن هذه الصور لا يؤرخ لها إلا بالنصف الثاني من الألف الثانية. على أن رسوما أخرى من مجموعة ما قبل التاريخ قد تكون أكثر قدما أو أكثر حداثة.

وهناك رسوم خُطّت على الصخور في عصور وجهات مختلفة جدا. وهي على العموم تغاير كثيرا صخورنا، حتى التي في السُّويد وفي جبال

الألبْ البحرية، والتي هي أيضا يمكن التاريخ لقسم منها بالألف الثانية ونحن نجهل كثيرا الصور الصخرية التي توجد على طول النيل بمصر العليا وبلاد النوبة. ومع ذلك فلابد من ذكرها هنا، لأن التي تظهر أنه هي الأقدم، والتي بها فيلة وزرافات من جملة الحيوانات، يذكّرنا أسلوبه وطريقتها بالرسوم الوهرانية. ولكن، حتى إذا كانت هذه المشابهات لايجب أن تعزى للمصادفة، فإننا لا نستطيع أن نستنتج من ذلك أن الرجال الذين خطوا هذه الصور قد كانوا ذوي قرابة. أما دوڤيري Duveyrier وآخرون من بعده، فقد أرادوا عزو رسوم شمال إفريقيا إلى بعض الأهالي السود. وصحيح أن الأثيوبيين في العهد التاريخي كانوا مقيمين بالجهات الصالحة للسكنى من الصحراء، جنوبي أرض المغارب. ولاشك أن الأمر كان كذلك في أزمنة أبعد. ورغما عن انعدام البراهين، فبإمكاننا أن نقبل كون رسوم الصحراء وجنوب المغرب، ربما حتى رسوم الجنوب الوهراني قد أنجزها رجال من السود ولكن ليس لدينا نفس الأسباب لنعتقد أن الأثيوبيين قد خَطّوا رسوم جهتي قسنطينة وقالمة. ولا داعي لإدخال الانتربولوجيا في هذه المسألة ولا في مسألة الدُّلْمينات وغيرها مما أدخلت فيه دون تبصر.

ولقد كان إنجاز هذه الرسوم يتطلب عملا طويلا وشاقا. ولاشك أن اللذين خَطّوها كانوا يستجيبون لدواعي أخرى غير الميل الطبيعي البسيط للتقليد. فالطابع الديني للكثير من الرسوم أمر لاشك فيه. وقد سبق أن بينّاه في الكباش التي على رؤوسها الأقراص. وذكرنا كذلك أن بعض الأشخاص في أوضاع يظهر أنها أوضاع تعبدية، كما أن بعض المشاهد يظهر أنها مشاهد تنكّر مقدّس. وقلنا أيضا إن قسما كبيرا من هذه الرسوم يمكن تفسيره بمعتقدات السحر الجلاّب، إذ كان الناس يظنون أنهم بتملّكهم لصور الحيوانات يستطيعون التغلب على الحيوانات

نفسها، إما لأكلها وإما للحصول على عونها، أو لنيل الخصائص التي يزعمونها لها. فاللوحات الصغيرة التي بتِيوتْ، والتي تمثل الصيادين، لابد أنها ضمنت نجاح صيد حقيقي، كما أن صورة الكبش آمّون كانت تجعل الإله حاضرا وسط عباده. وحين أثبت العباد على الصخرة بعض الطقوس التي كانوا يرونها كفيلة بتحقيق أمنياتهم، فإنهم – على ما يحتمل – كانوا يعطونها النجاعة الدائمة. ولاشك أن أكثر الصور يستحيل تفسير معناها بكيفية مدققة، غير أن الافتراضات يجب أن تتجه إلى ناحية الدين والسحر.

4

سننهي هذا الفصل بذكر بعض المعلومات، التي نأسف على أنها مختصرة جدا. وتتعلق بالعادات الجنائزية التي، إن لم تشْهَد بوجود عبادة الأموات – استخداماً منّا للفظ كثر استعماله – فإنها تشهد على الأقل ببعض الاهتمام بالموتى.

لقد جُمعت عظام بشرية تقريبا من جميع المحطات التي كانت مسكونة في العهود الأخيرة لحضارة الحجري القديم وحضارة الحجري الجديد. كما عثر عليها بمحطات العراء. وكثيرا ما تكون هذه العظام مكسورة وفي فوضى كبيرة. ولقد سبق أن قلنا إن هذا ليس حجة على أكل الإنسان للإنسان. فلربما إن الهياكل العظمية تناثرت أجزاؤها عندما كان سكان الكهوف ينظفون كهوفهم المكتضة. وزيادة على ذلك، فإن هذه الفوضى لا توجد بكل مكان. وبمشاهدة بعض الأوضاع هنا وهناك يمكن التأكيد بأننا أمام مدافن حقيقية.

ففي بعض المآوي القريبة من لالّة مَغْنِية بولاية وهران عثر على بعض الهياكل العظيمة راقدة وسط الرماد، وكانت رؤوسها متجهة نحو الغرب، والأبدان مائلة على الجانب الأيمن، وأرجل الكثير منها كانت مثنية، كما أن حجرة عريضة كانت تصون صدر كل واحد من الأموات، وأحيانا كانت توضع حجرة أخرى تحت الظهر أو تحت الكلى. وكل هذه الأحجار التي يظهر عليها أثر النار، كانت قبل ذلك من أحجار المواقد. أما التراب الذي يغطي الأبدان، فمخلوط بالرماد وبقايا الفحم وبعدد كبير من الحلزون. ويظهر أنه قد ضغط بشدة. وتؤرخ هذه المدافن بنهاية العهد الحجري القديم، كما تدل على ذلك الأشياء التي عثر عليها داخل المغارات وأمامها.

ويوجد مأوى بالرديف، بالجنوب الغربي للبلاد التونسية، يضم عظاما بشرية، من بينها ثمانية هياكل للأطفال، جمعت في أوضاع مختلفة، ومن هذه الثمانية هيكلان أخفيا تحت أحجار عريضة. وترجع الأشياء التي كانت تحيط بهذه الهياكل إلى إحدى الصناعات الجيتولية الحديثة نسبيا.

وفي مغارتين بأثاث من الحجري الجديد، في كوارْتيل Cuartel قرب وهران، ووادي الملاح بالجنوب الغربي لهذه المدينة عثِر بعد التنقيب على بقايا من هياكل عظيمة بين جدران حجرية خشنة.

وعثر بمغارة علي باشا في بجَايَة على جمجمة موضوعة بما يشبه أن يكون كوة طبيعية، ومغطاة بحجرة عريضة، وبالقرب منها عظام بشرية مبعثرة، ولعلها لنفس الشخص، وأزيحت عن مكانها أثناء تفريغ جزئي للمأوى، أو بسبب حيوان مفترس.

إذن فيتأكد أن الموتى بأرض المغارب كانوا يدفنون في مغارات طبيعية، وحسب عادة نلاحظ وجودها في كثير من الجهات الأخرى في العهود الحجرية القديمة والجديدة. وقد استمرت هذه العادة محتفظا بها قرب القارة الإفريقية عند شعب الگوانِش Guanches بجُزر كَنارْيا حتى القرن الميلادي الخامس عشر.

ويجب أن لا نشمئز عند التفكير في أن سكان الكهوف قد سكنوا المآوي التي ربما استعملت في نفس الحين أماكن للدفن. ومن الممكن مع ذلك، أن تكون بعض الكهوف قد استعملت بالتعاقب لإقامة الأحياء والموتى. ففي لالّة مَغْنِية كان المأوى الذي تحدثنا عليه من قبل قد فصل منه قسم بأحجار ضخمة تحول دون المرور.

ونجهل هل كان سكان المغارات وأهل محطات العراء قد دفنوا موتاهم أيضا خارج مساكنهم، في حفر حفروها بالأرض.

لقد كانت العظام البشرية في كل مكان مختلطة مع الرماد. ولكن، لا يمكن أن نستنتج من ذلك أن الأجسام قد وضعت عن قصد في المواقد، ذلك أن هذا الرماد كان مع البقايا المتنوعة، يكوّن في المغارات والربوع طبقة سميكة إلى حد ما، وبها كان الموتى مدفونين. ولا نستطيع كذلك أن نقول إن الأشياء التي عثر عليها بمحاذاة العظام، كالأدوات التي هي من حجر أو عظم، والقواقع التي استعملت حلياً، وبقايا الطعام، كل هذا لا نستطيع أن نقول إنه قد وضع قرب الجثث عن قصد. ومع ذلك فإن هذا الافتراض ممكن قبوله جدا، لأن وضع الحلى المتكونة من القواقع غالبا، وأحيانا أيضا وضع الأدوات أو الأسلحة من عظم وحجر، قد لوحظ وجوده بتأكيد في المدافن الأوروبية التي ترجع لعهد بعيد من عهود حضارة الحجري القديم، الأمر الذي يدل على الاعتقاد بحياة أخرى مادية.

وفي مغارتين سكِنتا في العهد الحجري الجديد، إحداهما تجاور وهران والأخرى بقرب تبِسّة، عثر على جمجمتين عليهما أثر التلوين بالأحمر، وفي أروبا عثر على مثل ذلك في مدافن العهد الحجري، وكذلك في أرض المغارب في مدافن تؤرخ بالعهود التاريخية، وسندرسها فيما بعد. فصبغ الأبدان، الذي أشرنا لوجوده عند الأحياء، لا بد أيضا أنه استعمل للأموات. ولا لزوم لأن نعتقد أن الصبغة وضعت على العظام نفسها، بعد ما انفصل عنها اللحم بترك الجثة معرضة للهواء الطلق أو بعد دفن مؤقت. فقد كان بالإمكان وضع المادة الملونة على الجثة، وبعد ذهاب اللحم تصبغ المادة العظام التي تمسها. وبالنسبة لعهد ما قبل التاريخ، ليس لدينا ما يؤكد وجود طقوس فصل العظام عن لحومها بشمال إفريقيا. ويظهر أن إحراق الموتى قد لوحظ وجوده في تيفْريتْ بالقرب من سعِيدَة بولاية وَهْران في مغارة أثاثُها من العهد الحجري الجديد. ولكن هذا الاكتشاف لم يصدر في شأنه تقرير مفصل. ولربما كان الأمر يتعلق بعظام احترقت عن غير قصد، بسبب بعض المواقد التي ربما أقيمت على المدافن.

لقد رأينا من قبل في لالّة مَغْنِية وجود عدة جثث لها أرجل مثنية. وتوجد هذه الوضعية، خارج أرض المغارب، في عدد كبير من المدافن البدائية. وحتى في أرض المغارب فإنها توجد بكثرة، ومن عهد أكثر حداثة. وسنذكر مختلف الافتراضات التي عرضت لتفسيرها، وذلك حين نتناول بالوصف المدافن الأهلية أثناء العهد التاريخي.

وسنرجئ لما بعد دراسة المدافن التي من حجر بدون طين، المعروفة بأسماء التلاّت (الرجام) (Tumulus) والبازينات Bazinas والدّلمينات Dolmens والشوشات Chouchets، التي تنتشر الآلاف منها

بشمال إفريقيا، والتي تتميز بوضوح عن المدافن الفينيقية والرومانية.
ونحن نصدق بسهولة أن أمثلة هذه المدافن ترجع لعهد عتيق بعيد، مثلما نصعد أيضا الطقوس الجنازية التي نلقاها بها، وذلك أن البعض من هذه المدافن تلوح عليه مشابهات، لايمكن أن تكون من قبيل المصادفة، مع الآثار التي بنيت في الألف الثالثة والألف الثانية قبل الميلاد في غرب أوروبا والبلدان التي على ساحل البحرالأبيض المتوسط الغربي. لكن، حسب معلوماتنا الحالية، فإن المدافن الإفريقية التي من حجر دون طين، والتي يمكن التأريخ لها، ترجع جميعا إلى القرون التي سبقت العهد المسيحي مباشرة أو التي تلته مباشرة كذلك.

الأزمنـة البدائية

الفصل الرابع

سكان أرض المغارب

1

كيف كانت خِلْقة هؤلاء السكان البدائيين بشمال إفريقيا، الذين درسنا عاداتهم في الفصول المتقدمة ؟ إننا عند محاولتنا الجواب على هذا السؤال، وخلافا لما فعله غيرنا كثيرا، سنتفادى تعقيده بتأملات في اللغة والحضارة، ذلك أن الأنتربولوجيا، واللسانيات والأنتوغرافيا علوم مستقلة. فهناك أمثلة كثيرة تعلمنا أن عدة مجموعات بشرية يمكنها أن تتكلم لهجة واحدة بعينها، وأن تعيش عيشة من نوع واحد وتعتقد نفس الاعتقادات، ولكنها مع ذلك تختلف كثيرا فيما بينها في تكوينها الطبيعي.

ونعلم أن النصوص الكلاسيكية المتعلقة بالليبيين ليست متقدمة على القرن الخامس قبل الميلاد، وأنها ترجع لعهد تاريخي كان للأهالي فيه اتصال مع غيرهم من شعوب البحر الأبيض المتوسط، وأن قسما من هذه الشعوب كان يخضع لسادة من الأجانب. غير أن المهاجرين والفاتحين - كما سنرى قريبا - لا يظهر أنهم أحدثوا تغييرا في جوهر

الأهالي، بحيث إننا إذا وجدنا عند الكتاب الإغريق واللاتانيين أوصافا مدققة عن الأفارقة الذين كانوا يعيشون في زمنهم، فإننا نستطيع الاستشهاد بها على عهد ما قبل التاريخ، ولن نكون في ذلك مجازفين كثيرا. غير أن الأنتربولوجيا علم حديث، والقدماء لم يعنوا نفوسهم بالملاحظة الدقيقة لهيأة الرجال، ولا بتصنيفهم تبعا لهذه الهيأة. وإذا كانوا بصفة عامة قد ميزوا بإفريقيا وجود الأثيوبيين أي الناس الذين لهم بشرة دكناء عن بقية الأهالي، فإنهم لا يذكرون - لا بالنسبة لهؤلاء ولا بالنسبة للآخرين - مختلف المجموعات المطابقة لعدة من الخصائص الطبيعية. وهم باستعمالهم لكلمات "نوميديون وجيتوليون، وموريون، ومسيسوليون، ومسوليون، وغير ذلك" إنما يميزون سكان هذه المقاطعة أو تلك، ورعايا هذه المملكة أو تلك، لا ما يحلو لنا اليوم أن نسميه أجناسا.

والصور المرسومة لا تعوّض لنا النقص الحاصل في النصوص، ثم إن الرسوم الصخرية التي ترجع للعهد الذي ندرسه تقدم لنا بعض الصور الإنسانية، غير أن هذه الصور أنجزت بصفة بدائية إلى حد أنها لا يمكن أن تستعمل كوثائق أنتربولوجية كما استعملت في ذلك بعض الرسوم والمنحوتات المصرية. ومثل ذلك يقال عن الأنصاب التي هي أكثر حداثة، وعليها رسوم بعض الأهالي.

على أن دراسة العظام التي تضمها المغارات المسكونة أثناء العهد الحجري، وكذلك دراسة المدافن التي بناها الأهالي فيما بعد، كل ذلك سيعرّفنا بالبنية التشريحية لليبيين البدائيين ودريتهم، لكن هذه البحوث لا تزال في بدايتها، ولن تعلمنا شيئا عن بعض الخاصيات المهمة الأخرى كلون البشرة والعيون، ولون الشعر وشكله.

وإلى أن يتيسر أحسن من ذلك، فإن دراسة الأهالي الحاليين ستمكننا من ذكر ما كان عليه أجدادهم القدماء، إذ يمكننا أن نقبل حقيقة أن سكان أرض المغارب لم يحدث فيهم منذ العهود التاريخية تغيير عميق بعناصر أجنبية.

فلقد أسس الفينيقيون على السواحل مستعمرات كان أكثرها منغلقا على نفسه بشدة داخل الأسوار، أو لم تكن له سوى أحواز ضيقة. وقرطاجة لم تعزم إلا بعد أكثر من ثلاثة قرون على احتلال منطقة يظهر أنها لم تمتد لما وراء البلاد التونسية الشمالية. وزيادة على هذا، ليس هناك ما يؤكد أن الفاتحين استعمروا هذه المنطقة استعمارا واسعا.

والرومانيون إلى عهد يوليوس قَيْصر، لم يستولوا إلا على الشمال الشرقي للبلاد التونسية. وباستثناء إحدى المحاولات الفاشلة لإعادة الحياة إلى قرطاجة، فإنهم لم ينشئوا أية مستعمرة. وصحيح مع ذلك، أن نصف القرن السابق للميلاد والقرن الذي تلاه قد شاهدا إنشاء اثنتي عشرة مستعمرة بإفريقيا، استوطنها عدد من الأجانب، الإيطاليين على الخصوص. ونحن لا نعلم سوى القليل عن الهجرة الرسمية، ولكن يجب أن لا نغالي في أهميتها. ولدينا مثلا ما يدعو للاعتقاد بأن خمسمائة أسرة على الأكثر قد وقع إسكانها في ثَمُگادي Thamugadi التي لاشك أنها لم تكن أصغر هذه المراكز الجديدة. ويجب أن ندخل في اعتبارنا الذين حصلوا على قطع أرضية في غير مناطق الاستعمار، والذين قدموا من تلقاء أنفسهم ليسكنوا بالولايات الإفريقية. ففيما يخص هؤلاء يكون كل إحصاء غير ممكن. ومع ذلك، فلا مبرر لأن نقبل أن عددهم كان كثيرا جدا. وقد كان قدماء الجنود بالجيوش الإفريقية هم الذين حصلوا على قطع من الأراضي غير الاستعمارية، لكن لم يكن عدد الجنود بهذه

الجيوش يتعدى خمسة وعشرين ألف رجل في عهد الإمبراطورية العليا. ونظرا لأن الخدمة العسكرية كانت تدوم طويلا، أي خمسا وعشرين سنة، فإن عدد المسرّحين سنويا لم يكن مرتفعا. ومنذ القرن الميلادي الثاني، فإن قسما كبيرا من الجيوش كان يتكون من أبناء البلاد، بينما الفيالق كانت كلها تتكون من المواطنين الرومانيين. وذلك لأن إيطاليا، التي كانت نسبة المواليد فيها ضعيفة، لم تكن قادرة على إعطاء جيوش عديدة لمناطق كانت - على النقيض منها - كثيرة السكان. وإن دراسة الأخلاق والمعتقدات والأسماء تكشف لنا عن سير قسم من الأفارقة نحو الحضارة اللاتانية، أكثر من كشفها عن ورود المهاجرين. أما القبائل التي بقيت على جفوتها، والتي تحدّث عليها كلٌّ من أميان مرسولان Amien Marcolin وبروكوب Procope وكوربوس Corippus، وأعطونا عنها، في القرنين الميلاديين الرابع والسادس، بعض المعلومات، فالواضح أنها حافظت على دم أجدادها سالما في عروقها.

وعند دخول الونداليين إلى شمال إفريقا، لابد أنهم على أكثر تقدير كانوا مائتي ألف. ولكنهم لم يمتزجوا بالأفارقة. وبعد ذلك بقرن من الزمان، أي عندما تحطمت المملكة التي أسسها جَنْسِريك Genséric، فإن الذين لم يقع القضاء عليهم أثناء الفتنة نفاهم جميعا على وجه التقريب الإغريق المنتصرون. كما أن هؤلاء الأخيرين لم يخلفوا أثرا أبقى من السابقين. وذلك لأنهم حموا وحكموا واستغلوا بقدر ما استطاعوا أجزاء الولايات الرومانية القديمة التي استطاعوا التغلب عليها، ولكنهم لم يشحنوها بالمعمرين.

ومثل ذلك حدث مع المحاربين العرب الذين حطموا السيادة البيزنطية وأخضعوا الأهالي وحولوهم إلى الإسلام. فهم قد تجمعوا في

المدن، وزيادة على ذلك لم يكن عددهم كثيرا. فلم يتغلغلوا في الكتل البربرية الداخلية التي لم تلبث أن استعادت أرضها. وفي القرن الميلادي الحادي عشر فحسب، كان على الشمال الإفريقي أن يتحمل هجوما عربيا كبيرا، هو هجوم بني هلال وسليم. فهل كان عددهم حين قدموا 150.000، أو 200.000، أو 500.000، أو كان عددهم مليونا او مليونين ؟ كل هذه الأعداد قد ذكرت، وكلها فيه مجازفة. لكن الأكيد هو أن الواردين الجدد أصبحوا يكونون أحد العناصر المهمة للسكان. وحيث أنهم رعاة رحّل، فقد انتشروا بسهول التلّ وفي سهوب النجود وعلى الحاشية الشمالية للصحراء. وكثيرة هي القبائل التي ترتبط بهؤلاء الفاتحين. ومع ذلك، فكلها تختلط دماؤها إلى حد ما بالدم البربري. والشخص الطرازي العربي الخالص فيها قليل جدا، فهو ذو جمجمة كثيرة الانتفاخ فوق القفا، ووجه مستطيل وبيضوي تام، وأنفه طويل دقيق وأقنى، كما أن شفاهه دقيقة وأسنانه جميلة، وله ذقن مستدير وعيون سوداء ذات بريق، كما أن له حواجب رقيقة تستدير في انتظام، وهي سوداء لامعة مثل اللحية التي ليست كثة، أما اللون فيميل إلى الكمدة. وهي أهم خصائص هذا الشخص الذي يتميز بوضوح عن النماذج الأهلية، أما البربر فقد مكثوا سالمين في معظم جهات شمال إفريقيا خصوصا في سلسلات الجبال التي لم يفتحها العرب.

أما الجنود والقراصنة المغامرون الذين قدموا من مختلف أصقاع البحر الأبيض المتوسط أثناء العهد التركي، فإنهم تقريبا لم يخلفوا من ورائهم شيئا، إذ لم ينتشروا خلف بعض المدن الساحلية وبعض مراكز الحاميات بالداخل. وسرعان ما كانت تَجْرفهم حياة المخاطر والملذات، وقلما كانوا يؤسسون أُسَرا دائمة. وتِلمْسان هي وحدها التي بقي فيها بعض الكرغليين Kouloughis المولدين من جنود أتراك ونساء أهليات.

ولابد أن نذكر أيضا الأجانب الذين لم يكن استيطانهم بأرض المغارب ناتجا عن أحد الفتوح.

يوجد نحو من 300.000 يهودي بطرابلس وتونس والجزائر والمغرب. وقد كان عددهم كثيرا حتى في العهد الروماني. والمظنون أن أكثرهم كانوا حقيقة عبرانيين يتصل نسبهم باليهود الذين نزحوا إلى سرنيكا في عهد البَطالمة. وبعد ذلك بكثير قدم العديد منهم في عدة مناسبات من جنوب أروبا، وعلى الخصوص من الهضبة الإيبيرية التي طردهم الملوك المسيحيون عنها جماعات جماعات. وقد كان هؤلاء اليهود يكوّنون جاليات متميزة عن باقي السكان. ومع ذلك، فهناك من الأسباب ما يجعلنا نفترض أن الديانة الإسرائيلية انتشرت عند نهاية العهود العتيقة في بعض القبائل الأهلية. وربما أن درية هؤلاء المتهودين هي اليوم مختلطة مع درية اليهود الذين هم من أصل أجنبي. والكثير من يهود أرض المغارب تلوح عليهم السمات التي هي بفعل الوراثة أو بفعل التكيف مع البيئة تذكر بالوجوه البربرية وليس فيها أثر للسامية.

وهناك الْمور أو الأندلسيون الذين طردهم من إسبانيا المسيحيون المنتصرون، فكونوا جاليات في بعض المدن المغربية والجزائرية والتونسية، حيث يتعاطون على الخصوص للتجارة والبستنة، ويتميزون عن البربر بلطف هيأتهم، ولونهم المشرق، وكذلك بضخامة أبدانهم غالبا، وكلها اختلافات تفسر باختلاف ظروف المعاش.

وأخيرا السود، وأصلهم من موسطة إفريقيا. وعددهم كثير بالمغرب، وهم موجودون كذلك بالجزائر وتونس، وإن كان عددهم أخذ يقل منذ الفتح الفرنسي وإلغاء الاسترقاق. وربما كان جلب السود عبر الصحراء يرجع لتاريخ بعيد. وعلى كل حال، فعملية الجلب هذه لا يظهر

أنها كانت نشيطة في العهود العتيقة. لكن منذ أن تغلغل الإسلام في قلب القارة، لم تنقطع النخاسة عن جلب مجموعات من السودانيين إلى أرض المغارب، فكان الكثير منهم يصيرون عبيدا في البيوت، ويكوّن الآخرون وحدات من الجنود في خدمة ملوك المغارب. أما في واحات الجنوب، فكان الآخرون يأتون ليكثروا سواد الفلاحين الذين سنتحدث عليهم فيما بعد. ولقد أحسن معاملتهم المسلمون الذين لا ينقّصون الأشخاص من أجل ألوانهم، والذين ينظرون إلى عبيدهم تقريبا وكأنهم أعضاء في عائلاتهم، فمزجوا كثيرا دمهم بدم الأهالي، خصوصا في المغرب حيث المولودون نالوا ولا يزالون ينالون مرتبة اجتماعية عالية. ويحسن أن نتنبه للتغيرات التي تحملتها النماذج البربرية البدائية بسبب هذه الامتزاجات، غير أن الخصائص المميزة للسود السودانيين، كنتوء الفكّين، والشعر الشبيه بالصوف، والأنف العريض المفلطح، والشفاه اللحيمة البارزة، كلها أوصاف يسهل التعرف عليها، ونستطيع أن نلاحظ أنها منعدمة عند الغالبية من البربر.

وختاما، فرغما عن الإسهامات التي عددناها من قبل، والتي يحتمل أن أهمها هي إسهامات العرب الهلاليين والسود، فلا مجازفة في أن نقول إن السكان الحاليين لشمال إفريقيا، لا يختلفون في شيء عن الرجال الذين كانوا يسكنون هذه البلاد منذ نحو من ثلاثة آلاف سنة. ولكي تتسنى لنا معرفة هؤلاء الأخيرين، فعلينا أن ننظر حولنا، دون أن نهمل الوثائق القليلة التي تزودنا بها الآثار والكتاب القدماء.

2

يجب أن نعترف أن الدراسة الأنتربولوجية عن بربر اليوم لم تحقق بعد تقدما كبيرا. فليس لدينا سوى عدد ضئيل من الملاحظات

المضبوطة والدقيقة. أما المحاولات التصنيفية التي قُدمت فلا يمكن أن تعتبر نهائية. وكما جرى تقريبا بكل مكان من الأرض، فإن حالات التزاوج والتوالد كانت عديدة بين أهالي المناطق المختلفة بشمال إفريقيا، لأن العلاقات الناتجة عن الجوار والتجارة، وضرورات الرحلات للانتجاع، والهجرات التي سببتها الحروب والمجاعات، وترحيل القبائل المغلوبة، كل ذلك قرب بين المجموعات البدائية وصهرها، بحيث إننا في أي مكان من الأمكنة لا نلاحظ وجود مجموعات للسكان يقدم أفرادها جميعا نموذجا متسقا. وفي مثل هذه الفوضى يصعب التنظيم.

إن التصنيفات المقترحة تنبني على الخصائص التشريحية، كأشكال وأحجام ونسب الهياكل العظمية وعلى الخصوص للجمجمة وعظام الوجه، وتنبني أيضا على الخصائص الخارجية، كلون البشرة وعين الإنسان، وشكل الشعر والزغب ولونهما. ولكن علماء الأنتربولوجيا غير متفقين على القيمة الخاصة لهذه المميزات، ولا على استمرارها الوراثي، ولا على تأثير الاختلاط بالتزاوج بين الناس، فبعضهم يعطي أهمية كبرى لدراسة الجماجم، فيقسمون الإنسانية إلى أشخاص ذوي رؤوس طويلة، أو عريضة، أو متوسطة. وبعضهم يؤكد أن الاختلاف في أشكال الجماجم موجود حتى في المجموعات التي هي أشد انعزالا عن غيرها. كما أن بعضا منهم يعترفون أن هذه الأشكال تدوم على حالها عبر الأجيال رغما عن الاختلاط بالتزاوج ورغما عن الظروف الخارجية بينما يعتقد آخرون أنها يمكن أن تتغير. هؤلاء يرون أن ألوان البشرة والشعر، هي في التصنيف، عناصر تسبق المميزات العظمية، والآخرون يتمسكون إلى حد ما بالرأي القديم الذي يربط تنوع الألوان بالتأثيرات المناخية. ولا ندري إلى أي حد تحدث وسائل المعاش التغير في القامة. ومن نافلة القول أن نضيف أن أفرادا لهم نفس الخلقة يمكن أن يختلف

مظهرهم بحسب غذائهم وحياتهم الناعمة أو الشاقة، وشدة الضوء والحرارة، وذلك بغض النظر عن الانطباعات المغلطة التي تحدثنا الملابس في أعين الملاحظين السطحيين. لهذا، فإن الصفحات الآتية تشهد بصعوبة البحوث ونقصانها، وكما تشهد بإلتباس المناهج.

للبربر على العموم وجوه مستقيمة، وأعين أفقية غير بارزة، وأنوف طويلة إلى حد ما، واسعة إلى حد ما كذلك، ولكنها غير مفلطحة كأنوف الزنوج. أبدانهم حسنة التناسب عادة، وبنيتهم قوية. يصبرون على تغيرات الطقس، وعلى الحرمان، وعلى السير الطويل، كما يصبرون إذا دعت الضرورة على الأعمال الشاقة، وغالبا ما يعمّرون حتى الشيخوخة القصوى.

وتكون بشرتهم بيضاء عند الولادة، ولكن سرعان ما تصيرها الشمس سمراء. فيجب دون شك أن لا نبحث عن سبب آخر للون الأسمر الذي أسبغته عدة من النصوص القديمة على أهالي الشمال الإفريقي. ولأكثرهم عيون سوداء، لها عند الأطفال بريق كبير، أما شعرهم فأسود أو أسمر، وغير صوفي.

والنموذج الواسع الانتشار من البربر ذو قامة عالية، من 1.70 تقريبا، وله جمجمة طويلة، وجبهة مستقيمة فيها حاجبان واضحان. أما وجهه فينزل من الصدغين لينتهي على شكل قرن، والوجنتان تكادان لا تظهران، وله أنف رقيق طويل، ومحدب غالبا، وذقن مستقيم، وله لحية غير كثة، وتظهر العضلات على بدن نحيل وصلب، كما له أكتاف عريضة تعلو صدرا يضيق من أسفل. والأشخاص الذين من هذا المثال يوجدون بكثرة في الجزائر كما يكونون حسب قول كولِنْيون Collignon نصف

سكان تونس تقريبا. ويمكن أن نرى فيهم ذرية هؤلاء الأفارقة الطوال، الصلب النحيلين الذين ذكروا في العهود العتيقة.

وهناك بربر آخرون صغار الأجسام، بمعدل 1.63، غليظ جدا. فالناظر للجمجمة من أعلى يراها ذات شكل خماسي. أما الوجه فهو على النقيض من ذلك قصير وعريض، والوجنتان ظاهرتان جدا، وزاويتا الفك جد منفرجتين والأنف واسع ومحدب عادة. أما الذقن فبارز وتحيط به لحية كثة، والفم كبير بشفاه لحيمة، والصدر عريض، والقامة نحيفة والأوراك ضخمة. ويظهر أن هذا النموذج منتشر بجميع أرض المغارب، إذ ذكر وجوده بجبال خمير، وفي شعب مجردة، وفي سلسلة جبال تونس الوسطى، وبالساحل الشرقي وخصوصا بقابس، وبناحية مدينة الجزائر، وبجنوب القطر الجزائري، وهو نظرا لشكل الرأس ذو قرابة متينة بإنسان كرومانيون الذي يتميز بطول الرأس وسعة الوجه.

إن النماذج التي وصفناها عريقة القدم في شمال إفريقيا. ذلك أن بعض الجماجم التي يمكن تصنيفها في هذه المجموعة أو تلك موجودة منذ العهد الحجري، كما توجد في المدافن الأهلية التي هي أحدث عهدا منها.

وكوّن الدارسون مجموعة ثالثة يدخل فيه الأشخاص الذين لهم رؤوس مستديرة وقامة متوسطة بمعدل 1.64، 1.65 بوجه عريض قصير، وجبهة محدبة غالبا، وحاجبين كثيفين يكادان يتصلان، وأنف قصير وواسع إلى حد ما، وفم كبير غالبا، وذقن مستدير، ولحية خفيفة، وصدر مكتل. هذه هي خصائص هذا النموذج الذي يكثر وجوده بجزيرة جَرْبَة وفي واحات مْزاب، ويوجد على حالة ما من الصفّاء على الساحل الشرقي التونسي، وفي الجبال الواقعة جنوبي قابِس، ويتميز الكثير من المزابيين

عن غيرهم من الأهالي بلونهم الكامد جدا الذي تذهبه الشمس عوض أن تحوله إلى السمرة.

وربما لنفس هذا النموذج يرجع الأشخاص الذين لهم رؤوس عريضة، والذين كانوا مدفونين تحت الدُّلمينات في الركنية وگيوتفيل Guyot-ville.

ليس هذا التصنيف نهائيا، ويجب أن ينسينا أن هناك بربراً آخرين، غير النماذج المذكورة. وهم لاشك أكثر عددا، قد اختلطت فيهم خصائص من أكثر من نموذج واحد، ولنجعلهم نحن أنغالاً Hybrides إذا قبلنا القول بأن هذه النماذج الثلاثة هي وحدها النماذج البدائية التي أعطت تنوعات لما اختلطت بالتزواج فيما بينها.

وكثيرا ما نشاهد في الجماهير الأهلية لحيً وشعورا شقراء وصهباء وكستنائية اللون، كما نشاهد عيونا زرقاء وشهباء وخضراء، وبشرات شاحبة اللون تحمّر بالشمس أو ينتشر فيها النمس عوض أن تصير سمراء. ثم إن هذه الخصائص لا تجتمع كلها، كما هو الشأن عادة في شمال أوروبا. أما العيون الساطعة، أو على الأقل العيون التي ليست قاتمة، فيظهر أنها أكثر وجودا من الشعور والبشرات الساطعة وغالبا ما وقع الاكتفاء بملاحظة لون الشعر، دون ذكر للخصائص الطبيعية الأخرى، وإن كان يظهر أن من بين هؤلاء الشقْر يوجد الكثيرون من الذين لهم قامة عالية. على أن وجودهم وسط أكثرية كبيرة من السمر، قد أثار انتباه كثير من الملاحظين إلى حد أنهم بالغوا في عددهم. فهل كانوا فيما مضى أكثر انتشارا ؟ لا نستطيع تأكيد ذلك، إذ لا يوجد برهان – خلافا لما اعتقده الغير – على أن كل مجموعة من السكان اختلط فيها الشقر بالسمر، فإن نسبة الشقر تميل لأن تصبح قليلة العدد.

ولقد ذكر وجود الشقر من مضيق جبل طارق إلى ما وراء خليج سدْرَة. ومع ذلك فإنهم ليسوا موزعين بطريقة واحدة. فهم بالمغرب يكثرون بالريف، وبغير الريف يقلّون جدا. ويكثر عددهم جدا بالجزائر في بلاد القبائل الكبرى، وجبال الأوراس، كما نلقاهم بجهات أخرى : قُرب حُنَيْن بالساحل الوهراني، وحول سَعيدة وتِيارِت، والبخاري والثِّنْية، وبأحواز القالة، وشمال الحُضْنَة وبالجنوبين الغربي والشرقي لقسنطينة، وبين سْكيكْدة وقالمة. أما في القطر التونسي، فلا تجتمع ألوان البشرة والأعين والشعر فتكون كلها ساطعة إلا في أحوال استثنائية، مع ذلك يوجد شُقرْ حقيقيون، وإن كانوا قليلي العدد، في جبال خُمير، وجبال شرق قَفْصَة، وبأقصى الجنوب وفي بعض الأمكنة بالساحل الشرقي. ونشاهد تقريبا في كل مكان بالجزائر وتونس شعرا وأعينا فيها شيء متوسط بين اللون الساطع واللون القاتم. لذلك، فيجوز الاعتقاد بأن الأشخاص الذين لهم هذه الخصائص، قد كان لهم بعض الشقر من بين أجدادهم. وقد وقعت الإشارة كذلك لوجود الشقر في سرنيكا. وحتى في الصحراء، ذكر أنهم موجودون في قبائل الرحّل، غير أنهم بالتأكيد لا يكوّنون بها سوى أقلية ضئيلة. وبالجنوب الغربي للمغرب، نذكر أخيرا أن الشعور الشقراء كانت على ما يظهر كثيرة الوجود عند الـگَوانِش الذين كانوا يسكنون جزائر كناريا قبل احتلال الإسبانيين لها.

ولا جدوى في مناقشة الرأي الذي يربط هؤلاء الشقر بالونداليين، والرأي الذي يجعلهم يتحدرون من الجنود الغاليين الذين أدخلتهم قرطاجة ورومة لشمال إفريقيا. فنحن نعلم أن الونداليين اختفوا بعد اندحارهم تقريبا من الشمال الإفريقي، ونعلم أن الغاليين الذين أتوا هذه البلاد لخدمة القرطاجيين والرومانيين كانوا قليلي العدد. فلابد أنهم لم تكن لهم بها ذرية على العموم. وزيادة على هذا، لا يوجد برهان على أنهم

كانوا شقرا على الخصوص. فسعة انتشار هذا الصنف من الناس تفرض علينا الاعتقاد بأنه قد كان موجودا بأرض المغارب، وأنه انتشر بها منذ عهد بعيد.

ولم يكن القدماء يجهلون وجوده. فبعد تحطيم مملكة الونداليين في القرن الميلادي السادس، أكد أورْطاياس Ortaias، وهو أمير من الأهالي، لِبروكوب أن أراضيه الواقعة بغرب الأوراس، توجد بعدها صحراء شاسعة، ثم يوجد بعدها ناس ليس لونهم أسود كلون الموريين، بل إن أبدانهم كثيرة البياض وشعورهم شقراء. ونحن نأسف على أن هذه الكلمة الوجيزة لا تساعدنا على أن نقول بأي جهة كانوا يقيمون. وقبل ذلك بتسعة قرون تحدثت الرحلة المعزوة لسيلَكْس Scylax عن الليبيين «الشقر... ذوي الجمال الكبير» المقيمين بين ثَبْسوس، أي رأس الديماس، ونيابليس، أي نابل، خلف خليج الحمّامات، بأرض يقل فيها اليوم الشقر كثيرا. أما بشرق أرض المغارب، فإن الشقراوات الليبيات من سرنيكا قد تغنى بهن الشاعر كليماك Callimaque المولود بقورينة Cyrène حوالي نهاية القرن الرابع قبل الميلاد. وأخيرا فإن بعض الأهالي الذين كانوا يسكنون غرب وادي النيل يظهرون في لون كميد أو أبيض غير ناصع، أو أصفر ناصع، وعيون زرقاء، ولحية كستنائية على رسوم مصرية من عهد الدولة الجديدة في النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد.

3

في الواحات الشمالية للصحراء من جنوب المغرب إلى طرابلس، يعيش أقوام بشرتهم سوداء، أو قاتمة جدا على أقل تعبير. وظروف

حياتهم فيها أكثر مناسبة من حياة البيض هناك، لأنهم قليلا ما يصابون بالحميات. وهم إما عبيد سودانيون، أو مزارعون بالمناصفة في غلات الأرض Métayers، ويدعون باسم "الحَراطين" في جنوب المغرب والجزائر. ولون بشرة الحراطين وشي متنوع من الأبنوسي، إلى الأسمر المشرب بالحمرة، وإلى النحاسي، إلى القرفي. وفيهم من تذكرك سحنته بالوجوه البربرية، ومنهم زنوج خالصون، تقابلك منهم التقاطيع الكلاسيكية لزنوج السودان.

وهناك صنف يكثر وجوده بجنوب تونس، وعلى الخصوص بأرض الجريد حيث وقعت دراسته بعناية، كما يوجد بجهات أخرى، وتلوح عليه الخصائص الآتية : قامة فوق المتوسطة، جمجمة ضيقة وكثيرة الطول ويتراجع أعلاها إلى الوراء، جبهة منحنية، حاجّادان بارزان، وجْنتان قويتان، تمتد ابتداء منها مقدمة الوجه على شكل مثلث، أنه به تجويف عميق كما أنه قصير ومتراجع ولكن غير أفطس، فم كبير بشفاه غليظة، ذقن متوار، وأكتاف عريضة ومربعة، صدر يضيق من أسفله، وخاصرتان ضيقتان جدا، أما البشرة فجد قاتمة، سمراء مشربة بحمرة. والأعين شديدة السواد، وكذلك الشعر فهو فاحم وليس جعدا.

ولاشك أن بين مزارعي الواحات يوجد الكثير من أبناء وأحفاد العبيد السودانيين، وأن كثيرا غيرهم هم نتاج التزاوج المختلط بالعرب، وبالبربر، وبالزنوج. ويمكن مع ذلك أن نتساءل : ألا ينحدر العديد منهم من السكان المقيمين بهذه الأمكنة منذ عهد بعيد ؟

كثير من الشهادات تؤكد أن أرض المغارب في العهود العتيقة كانت محاطة من جنوبها بالأثيوبيين، الذين ذكروا أحيانا بأنهم الأثيوبيون الغربيون. وقد صرح سترابون أنه لا يستطيع ذكر الحدود بين أثيوبيا

وليبيا، وذلك حتى في المناطق التي بجهة المحيط. ومع ذلك، فيمكن أن نستخرج من النصوص بعض المعلومات الدقيقية إلى حد ما.

إن الترجمة الإغريقية لرحلة حَنّون تذكر الأثيوبيين، لا بالسواحل البحرية بجهة الصحراء فحسب - حيث سيقع العثور عليهم مرة أخرى من بعد - بل وحتى في جنوب المغرب، بالمنطقة الجبلية التي يخرج منها نهر لِكْسوسْ أي وادي دَرْعَة. فلعلهم هم الأثيوبيون الدّراتيون Daratites الذين على شاطئ نهر دَرات الذي هو أيضا نهر دَرْعَة، والذين ذكر پْلين Pline أنهم على ساحل البحر، نقلا عن بوليب Polybe أو أگريپا Agrippa.

ذكر پْلين أن من بين الأثيوبيين كلا من النـگـريتايْ Nagritae، والفاروسيي Pharusii، والبرُرْسي Pérorsi وكان هؤلاء الأخيرون، أي البررسي، يسكنون ساحل المحيط، وفي مكان آخر ذكر پْلين أن الفاروسيي كانوا خلف هؤلاء، أي بداخل الأراضي. وزيادة على ذلك، فالأقرب للصواب هو أن فاروسي - من فاروسيون Pharousioi الإغريقية - وبررسي ليساسوي صيغتين لاسم إفريقي واحد. وحيث أن الترتيب عند پْلين Pline يسير من الشرق للغرب، فإن النگريتاي كانوا يسكنون بعيدا في اتجاه الشرق، وسنرى من بعد انهم كانوا - لابد - ينتشرون حتى واد جْدِي جنوب ولايتي الجزائر وقسنطينة. ولابد أن مِيلاَ Méla قد أخطأ حين أكد أنهم كانوا يصلون لساحل البحر. ثم أن سترابون الذي ينص كذلك على الفاروسيين Pharusiens والنـگـريتيين Nigritae، يقول إنهم يسكنون فوق - أي بعد - الموروسيين بجوار الأثيوبيين الغربيين الذين يميزهم عنهم. ويذكر - نقلا عن رحلة أوفلاّس Ophellas على ما يحتمل - أن أرضهم تبعد عن مدينة لِكْسوس بمسافة ثلاثين يوما من السير. فإذا اعتبرنا هذا الرقم صحيحا، كان لابد أن نبحث عن هذين الشعبين في

أقصى جنوب المغرب، في اتجاه وادي دَرْعَة، وفي أبعد منه أيضا نحو الشرق، أي في نواحي وادي زيزْ، ووادي كِير، ووادي زُسْفانة.

ولا نعلم أن شيء مدقق عن الأثيوبيين الغربيين الذين بعث عليهم بوكود Bogud ملك موريطانيا حملة عسكرية، ويعتقد أنهم لم يكونوا بعيدين جدا عن أراضي هذا الأمير. وهناك أثيوبيون آخرون مجاورون لمملكة موريطانيا التي كان على رأسها بوكوس Bocchus. وقد وقع ذكرهم أيضا في فقرة لأَبْيان Appien، وكانت مساكنهم تمتد نحو الغرب (حتى جبل موروسيا الذي يسمى باسم الأطلس، أي حتى جنوب المغرب).

ويذكر سالوسْت أن الجيتوليين Gétules فوق نوميديا، أي فوق مملكة يوغَرْطة الواقعة بين المغرب وموسطة تونس، ثم إن الأثيوبيين وراءهم، ثم يقول : وأبعد منهم توجد الأماكن التي تلهبها حرارة الشمس. ويؤكد بْلين أن الحد بين ولاية أفريكا الرومانية – وتدخل فيها أرض الجيتوليين Gaetulia – وبين أثيوبيا هي وادي نِكريس Nigris الذي يحتمل أنه هو وادي جدي، النهر الذي يجري من الغرب للشرق، من ناحية الأغواط حتى الجنوب الشرقي لبسكرة. ويقول في مقطع آخر أن النكريتاي مدينون باسمهم لهذا النهر. ولربما في هذه الجهة يجب البحث عن الأثيوبيين الذين نص عليهم أميان مرسولان، إذ اشتركوا حوالي نهاية القرن الرابع في ثورة الأمير الموري فيرْموس Firmus.

حسب قول بول أوروس Paul Orose، كانت بعض قبائل الأثيوبيين "تهيم" خلف جبال أوزراي Uzarae التي كانت تحد نوميديا وبيزاسين عند الجنوب، والأمر يتعلق بالأوراس والجبال الواقعة بعيدا عنها إلى الشرق. وكان السود – الذين وصفهم كوربوس بأن لونهم كلون الغربال – ضمن

الاتحاد الذي كونّه الأهالي بجنوب تونس وبطرابلس، والذي انتصر عليه جانْ تْروليتا Jean Troglita القائد البيزنطي في القرن الميلادي السادس. وأخيرا، لابد أن نصنف ضمن الأثيوبيين الگرمنطيين Garamantes الذين كانوا في عهد هيرودُت كما في العهد الروماني يسكنون واحات الفزّان.

لقد كان الأثيوبيون إذن يجاورون أرض المغارب مباشرة، ويسكنون جميع الأقسام الصالحة للسكنى في الصحراء الكبرى. وكانوا على وجه العموم سادة الجهات التي كانوا يقيمون بها. وبعد ذلك بكثير – ولا ندري متى وكيف حصل ذلك – استولى عليهم البربر وطردوهم جزئيا، وانتشرت قبائل من هؤلاء البربر بجميع الصحراء، وحتى خلف منعطف نهر النيجر.

من هم هؤلاء الأثيوبيون ؟ إن الكلمة الإغريقية أثيوبْيس التي أخذها عنهم اللاتانيون معناها الأشخاص ذوو الوجوه المحروقة، وكانت تطلق على السّود الحقيقيين. ولعلها أيضا أطلقت على الأشخاص الذين، إن لم تكن بشرتهم حالكة السواد، فإنها طبعا قد كانت دكناء جدا. وصحيح أن ميلاَ Méla وپْلين Pline وبطلمي Ptolémée نصوا على أثيوبيين بيض في الصحراء، ولكننا نرى أنهم لا يقصدون أثيوبيين بشرتهم بيضاء، لأن التعبير يكون إذن متناقضا، بل نعتقد أن هذه التسمية يمكن أن تفسر بالعادة التي كانت للسود، على ما يقال، وهي صبغ أبدانهم بالأبيض.

وعلى غرار الحَرَاطين الحاليين، لابد أن الأثيوبيين كانت لهم بنية تساعدهم على مقاومة الحميات وعلى تعاطي الزراعة.

ويمكن أن نقبل كون العبيد كانوا في العهد التاريخي قد جلبوا من داخل القارة إلى الواحات بالصحراء الشمالية. فحسب هيرودُت، كان الگَرَمَنْطيّون يذهبون لاقتناص الأثيوبيين سكان الكهوف، أي سكان

التّيبِسْتي على ما يظن. فإذا كانوا يحتفظون بأسراهم، فربما ليستخدموهم في الأعمال الزراعية. ولكن الواضح هو أن جميع الأثيوبيين المقيمين بجنوب أرض المغارب لم يكونوا جميعا عبيدا، لأن النصوص تقدمهم لنا عشائر تنتقل حسب إرادتها، وتخوض الحرب ضد المورّيّين والرومانيين. إذن فقد كانوا بهذه الجهات في أرضهم، ويقيمون بها لاشك منذ عهد بعيد. ونتمنى أن التنقيبات في محطات ومدافن ما قبل التاريخ تأتينا بإيضاحات في هذا الموضوع. وقد اكتشفت أخيرا بالرّدّيف في الجنوب الغربي للقطر التونسي، عدة هياكل عظْمية لأشخاص عاصروا الصناعة الجيتولية، غير أن لهم خصائص زنجية واضحة «فالفك بارز... وثقبا الأنف متباعدان جدا... والوجه قصير عريض... وبروز وسط الجمجمة يجعلها كالقبة لمن ينظرها من الأمام» (بِرْطولون Bertholon).

كانت الصحراء آنذاك أصلح للسكنى منها اليوم، كما كان عبورها أسهل. وفي داخل هذه المنطقة كما في شمالها وجنوبها عاش سكان لهم مظهر كثير المماثلة. ومن ناحية أخرى فإن نموذج الجريد واضح الخصائص، فهل هو نتاج توالد حدث بين السود والبيض ؟ لا ندري. وعلى كل حال، هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنه ترسخ منذ عهد بعيد. وربما أن الأشخاص الذين من هذا الصنف لهم قرابة ما بالشعوب ذات القامة الطويلة واللون الأسمر المشرب بالحمرة، الذين نجدهم بعيدا إلى الجنوب، منتشرين على مدى طويل من ساحل الصومال إلى السينغال، والذين يحتمل أن مَهْدهم الأصلي هو إفريقيا الشرقية. هذا - على ما يظهر - هو الأصل القديم، الذي طرأت عليه من بعد تغيرات بسبب العناصر الجديدة، كالسود الذين جلبوا من الجنوب، والبربر والعرب

الذين أتوا من الشمال. فالحراطين الحاليون يمثلون هذا الاختلاط الذي يهيمن فيه العنصر الزنجي، المتقوى دائما بالإسهامات السودانية.

منذ العهد القرطاجي، والسّود، المتأصِّلون من واحات الصحراء أو إفريقيا الوسطى، يجلبون كعبيد إلى المدن أو إلى الجهات المجاورة للساحل بشمال إفريقيا. ولابد أنهم لم يكونوا كثيري العدد. وليس لدينا ما يؤكد أن تجارة الرقيق في عهد الإمبراطورية الرومانية زودت المزارع الكبرى بالسواعد الضرورية لاستثمارها، لأن أرض المغارب كان بها من السكان ما يكفيها للاستغناء عن اليد العاملة المجلوبة من الخارج.

ولكن قبل قدوم هؤلاء الأجانب، ألم يعش بالتلّ رجال يظهر أن القدماء أطلقوا عليهم اسم الأثيوبيين ؟ ليس في هذا الافتراض ما يخالف الصواب، لأنَ تنقيبات مَنْطون Menton أكدت أن أشخاصا ذوي قرابة بالزنوج عاشوا في العصر الرابع حتى على شواطئ ليغوريا Ligurie. وفي الجزائر استخرجت جماجم من مغارتين بناحية وهران بهما أثاث من العهد الحجري الجديد. والجماجم تقدم على ما يظهر خصائص متزنّجة لم يشدد في الكلام عليها حتى الآن. وعثر كذلك تحت الدُّلْمينات بمدفن الرّكْنية، بالشمال الغربي لِقَالْمة، على عدة من الجماجم التي عزيت للسود او للخلاسيين. والحق هو أن هذه المدافن ربما ليست بعيدة جدا عن عهد الميلاد المسيحي. لأن الأحوال السياسية والاقتصادية كانت آنذاك تساعد على وجود علاقات بين أرض المغارب وأراضي الجنوب التي يسكنها الأثيوبيون. فربما أن الأمر يتعلق بمهاجرين أو أبناء لمهاجرين قدموا فرادى حتى وصلوا إلى نوميديا. غير أن هناك فقرة من دِيودور الصِّقلى تتعلق بحَمْلة أَكَطُكْل Agathocle وتذكر أن بالقرب من مدينة اسمها فِيلّيني Phellin توجد قبيلة بكاملها تُدعى

اصْفوديلود Asphodelodes، ولون جلدها يذكّر بالأثيوبيين. فلو كانوا مجرد أشخاص اسمرّت بشرتهم بفعل أشعة الشمس، لما كان هناك – بالتأكيد – داع لتمييزهم عن جيرانهم، ولما أثار لونهم انتباه الإغريق. وحيث أن كلمة فيلّيني تعني حسب ما يظهر مدينة أشجار الفرنان Chênes Lièges، فإن هؤلاء الأصْفوديلود الذين زارهم جنود أگَطُكْل لا يمكن أن تكون مساكنهم إلا بشمال القطر التونسي أو الشمال الشرقي لولاية قسنطينة. وهل كانوا قبيلة أصلية ؟ أو كانوا جالية أثيوبية قدمت من الواحات الصحراوية، أو حتى من أبعد منها ؟ لا نستطيع الجواب، ولكن يحسن ان نلاحظ أن بِرطْلُّون Bertholon لاحظ وجود عدد كبير جدا من الأفراد الذين توجد فيهم خصائص نموذج الجريد، وذلك بأرض خُمير، الأرض الحقيقية لشجر الفرنان، حيث أنهم ربما كوّنوا نحوا من ثلث السكان بهذه الناحية الجبلية.

إذن هناك بعض العلامات الدالة على وجود أثيوبيين أهليين بالتلّ في عصر ما قبل التاريخ، وفي العصور العتيقة، وربما حتى في أيامنا. فهل يجب أن نعتبرهم أقدم سكان شمال إفريقيا ؟ وهل يكون أجداد البربر طردوهم، فلم يثبتوا إلا في الجبال الممتنعة، وفي الحاشية الجنوبية للمنطقة التي ربما كانوا من قبل سادتها المنفردين بها، يمكن ان نفترض ذلك، وإن كانت الحقيقة هي أننا لا نعلم شيئا.

4

ونجهل كذلك أصول البربر السمر وإن كان يسوغ لنا أن نؤكد أنهم ذوو قرابة بقسم كبير من سكان جزر البحر الأبيض المتوسط وأوروبا الجنوبية، حتى أن كثيرا من المراقبين أثارت انتباههم مشابهة العديد منهم بالإسبانيين وفَرنسيّي وسط فرنسا وجنوبها، والإيطاليين

والصقليين، وأهالي كورسيكا وسردانيا. والكثير منهم يذكرون أيضا بالفلاحين المصريين. وهذه الانطباعات تؤكد الخصائص التشريحية. فطالما أكد الباحثون أن شمال البحر الأبيض وجنوبه توجد به، وبكثرة فائقة، نفس أشكال الرؤوس، وعلى الخصوص منها شكل النموذج المعروف باسم كْرومانْيون Cro-Magnon الذي وجد بالجهتين منذ عهد بعيد جدا. وقد لاحظنا عند الكثير من البربر سعة الأكتاف وضيق الصدر من أسفل. ونفس هذا التكوين يوجد عند المصريين الذين رسموه بأمانة منذ العهود العتيقة على بناياتهم، كما يوجد غالبا عند الإسبانيين والبَسْكيّين.

ويحسن تحديد هذه المشابهات. فهي تكشف لنا عن أصول مشتركة تضيع في ظلمات الماضي العتيق، ولا تبرر النظريات المغامرة لبعض العلماء الذين يدّعون ما سنجهله إلى الأبد. فبعضهم يؤكّد أن أجداد قسم كبير من البربر - ومن جملتهم الذين من نموذج كرومانيون - قد قدموا إلى إفريقيا من أروبا، ومن إسبانيا على الخصوص. ويعتقد غيرهم على النقيض من ذلك أن من يُدْعون بالإيبيريين والليغوريين أصلهم من الشمال الغربي الإفريقي. كما أن بعض العلماء جعلوا المهد الأصلي للبربر في الشمال الشرقي لإفريقيا، أو في آسيا، بل وحتى في الأطْلَنْتيد الأسطورية.

كما اجتهدوا كذلك في تفسير وجود الشُّقْر بأرض المغارب. وحيث أن عدد هؤلاء الشقر يقل من الغرب إلى الشرق، فقد أرجعوهم إلى أقوام قد يكونون أتوا عن طريق مضيق جبل طارق، وتضاءلت قوة انتشارهم بقدر سيرهم نحو الشرق. واعتقدوا أن جنسا أشقر لا يمكن أن يولد إلا في مناخ بارد، ولذلك بحثوا عن الأرض الأصلية للأفارقة الشقر بشمال أروبا. فوصفوهم بأنهم آريّون، بل وحتى بأنهم غاليون، وعزوا إليهم إدخال الدلْمينات إلى أرض المغارب. بينما علماء آخرون يتفقون على أن

هؤلاء الأفارقة الشقر يرجعون للشعوب البحرية التي نصت عليها الوثائق المصرية. فهم قد أتوا من الشمال الشرقي من ضفاف الأرخبيل أثناء الألف الثانية قبل الميلاد.

غير أن لفظة "آري" لا مدلول لها من الوجهة الأنتربولوجية، وإنما لها قيمة عند العالم باللسانيات. وزيادة على هذا، ليس هناك ما يبرهن على أن لغة من العائلة اللغوية الهندية الأوروبية - التي تُدْعَى آرية خطأ - قد كانت مستعملة بالشمال الغربي الإفريقي قبل الفتح الروماني. ونجهل متى وكيف، وعلى يد من انتشر بهذه المنطقة نوع المدافن المعروفة باسم الدلمينات. وكذلك فإن المحاربين ذوي البشرة الكميدة والعيون الزرقاء - المصوَّرين على الرسوم المصرية - هم أفارقة، وليسوا أشخاصا يرجعون لشعوب البحر. وليس لنا من سبب للاعتقاد بأن هؤلاء الأخيرين كانوا شُقْراً. وإذا كانوا قد سكنوا أرض المغارب - وهو أمر مشكوك فيه - فالأقرب للصواب أن عددهم لم يكن من الكثرة إلى حد أن يخلفوا ذرية توجد من خليجي سدْرَة حتى المحيط، كما توجد بالجهات البعيدة عن النواحي التي قد يظن أنهم نزلوا بها. ونحن لا نعلم شيئا عن إنتاج وتوزيع المادة الملونة في الجسم الإنساني، أي أننا نجهل أسباب الألوان المختلفة للبشرة والشعر والعيون، وعلى هذا، فهل يلزمنا القول بأن البربر الشقر ينحدرون من المهاجرين ؟ وأن أجدادهم أتوا من البلاد الباردة بالكرة الأرضية ؟ ومع ذلك فهناك حقيقة واقعة هي أن أوروبا الشمالية هي الجزء الوحيد من الأرض، حيث الرجال ذوو الشعور والعيون والبشرات الناصعة يكوّنون مجموعة للسكان منسجمة وواسعة الانتشار، بينما هم في غير هذا الجزء من الأرض متبعثرون وقليلو العدد نسبيا. وهذه حجة موهمة بصحة الافتراض الذي يجعل هذه المنطقة هي المهد الأصلي للشقر المشتتين في العالم، ولشقر الشمال الإفريقي على الخصوص. ولكن يجب أن لا ننسى أن هذا إنما هو افتراض واهن.

الكتـاب الثاني

الأزمنـة البدائية

الفصل الخامس

اللغـة الليبيـة

1

يـتحدث أهـالـي شـمال إفـريقيا إما بـالعربية الـتـي وردت مـع الفتح الإسلامي، وإما بلغة تتشعب إلى عدد كبير من اللـهجات تعرف بالبربرية – وليس لهذا اللسان إنتاجات أدبية، ولم يحافظ على أبجدية خاصة إلا عند الطوارق – وقد تحمّل ولا يزال يتحمل مزاحمة العربية التي هـي وحدهـا اللغة الدينية المقبولة عند المسلمين السُّنيين. ومع ذلك فإنه لا يزال يقاوم بشدة، حيث إن أكثر من ربع عدد الأهـالـي يتحدثون بـه حتى اليوم بالجزائر.

بين اللـهجات البربرية اختلافات واضحة تظهر على الـخصوص في النطق وفي المفردات التي تختلف ثروة وفقرا، كما تختلف في قوة اقتحام العربية لها. والمستعملون لهذا اللسان، إما أن كون تفاهمهم به ضئيلا وإما منعدما، بين مجموعة وأخرى من الناس. غير أن التشابه الموجود في الجهاز النحوي وفي العديد من الجذور، لا يساعد على

الشك في كون هذه اللهجات تنتسب للغة أم. وقد انتشرت هذه اللغة خارج أرض المغارب بالصحراء من واحة سيوة إلى المحيط، ووصلت للسينغال والنيجر.

وحتى لو لم تكن لدينا أي حجة فإننا نكون ملزمين بالتسليم بأن الحديث كان يقع بها في القرون التي سبقت الميلاد وكذلك في التي تلته. أما الأزمنة المتأخرة، فلدينا عنها من المعلومات ما يمكّننا من التأكيد بأن هذا اللسان لم يجلب حديثا، غير أننا نأسف على أن ماضي هذه اللغة البربرية – أو الليبية إذا أردنا – يكاد يعزب عنا نهائيا.

ونعرف بضع مئات من النقوش المعروفة بالليبية، التي ترجع لعهد ملوك نوميديا ولعهد السيطرة الرومانية على الخصوص، وهي مكتوبة بأبجدية تشبه كثيرا أبجدية الطوارق. أما النقوش المعروفة بالليبية البربرية التي بالجنوب الوهراني وبالصحراء فتقدم كتابة وسطا بينهما. وطبعا فإن النقوش الليبية ليست محررة بالبونيقية ولا باللاتانية، لأن الكثير منها تصاحبه ترجمته لإحدى هاتين اللغتين اللتين كان لكل منهما أبجدية خاصة. وزيادة على هذا، فإن الكثير من هذه النقوش يوجد به لفظ وقع تفسيره، وهو أن "Ou" (أوُ) ومعناه "ابن"، لا يزال مستعملا في لغة البربر. فمن المتأكد إذن أن قسما كبيرا من هذه النصوص – إن لم يكن كلها – قد حرر في لسان ينتسب للهجات الحالية. وباستثناء لفظ "أو" وعدد كبير من أسماء الأعلام التي بعضها بونيقي وبعضها له هيأة بربرية، فإن النقوش الليبية بقيت غير مقرووّة.

أما الكتّاب القدماء فيكادون لا يفيدوننا بشيء في هذا المجال، ونحن نعلم أن الإغريق واللاتانيين كانوا على وجه العموم لا يهتمون باللغات "الهمجية" وبعضهم يكتفي بالإشارة إلى اللسان الخشن

والوحشي للأهالي، وأن الأهالي وحدهم قادرون على التلفظ بأسماء أرضهم. أما أمْيان مَرْسولان Ammien Marcellin – وأهم منه الإفريقي كوربوس Corippus – فيشيران إلى تعدد اللغات المستعملة لدى القبائل، ولكن لا شيء ينفي أن تكون هذه اللغات المستعملة لدى القبائل، مجرد لهجات متعددة جدا كما هي اليوم. أما القديس أوغسْطين فيذكر، من ناحية أخرى، أن عددا كبيرا جدا من القبائل تتكلم لغة واحدة بعينها، ولكن التعابير التي يستخدمها أوغسطين لا تساعد على معرفة مراده. فهل يقصد اللغة الليبية التي قد يكون عرف وحدتها في مختلف لهجاتها ؟ أو قصد إحدى اللهجات الواسعة الانتشار ؟

وتذكر بعض النصوص مفردات يقال إنها مستعملة لدى الليبيين ولدى الأفارقة ولدى الأهالي، فيجب أن نحتاط كثيرا في تقبل هذه المعلومات، لأن الألفاظ يمكن أن تتغير عند تنقلها شفويا أو كتابيا، قبل وصولها إلى الكتاب الذين يسجلونها. ولربما أن بعض الألفاظ قد تغير فعلا في المخطوطات من بعد. وقد أثقلت هذه الألفاظ عادة بخواتم إغريقية ولاتانية. ويجب أيضا أن نذكر أن الأوصاف "ليبي وليبيكي وأفريقي" تطلق أحيانا على الناس والأشياء البونيقيين.

وهذه قائمة حررناها وتشتمل على خمسة عشر لفظا، هي : أَدَكْسْ Addax، آمّون Ammon بصّاريا Bassaria، بَطوسْ Battos، كيساي Caessai أو كيسا Caisa، زيگريس Zegeries، كوتس Cotes، لاليزيو Lalisio، ليلو Lilu، مَباليا Mapalia ، نبا Nepa، سَماثو Samatho، تيتوروس Tityros. إن لفظا واحدا من هذه الألفاظ هو الذي نجده اليوم على لسان الأهالي : ليلو Lilu أي الماء، حسب دُوتّي Doutté الذي ذكر أن أهل الجديدة، على الشاطئ المغربي، يرش بعضهم بعضا بالماء في

عيد الأضحى، ويسمّون هذا العمل هليلو Helillou. والألفاظ الأخرى التي ذكرها القدماء، ألا يوجد من بينها لفظ واحد يرجع للسان الذي تمثله اللهجات البربرية ؟ إن هذه النتيجة لا تكون معقولة، لأن الألفاظ تبلى، وسرعان ما تُعوّض بغيرها. ولكننا مرغمون على الرضا بعدم الاستفادة من مجموعةٍ من المعلومات التي قد تكون مجدية.

وقد ذكرت ألفاظ بربرية، أو يزعم أنها بربرية، وتشبه إلى حد ما ألفاظا إغريقية ولاتانية لها نفس المعنى. وأثبتوا أن هذه الألفاظ أعيرت للأفارقة، بينما الألفاظ التي صحت نسبتها للبربرية، هي على النقيض مستعارة منهم. فلا سبيل إذن لنبحث من هذا الجانب على معلومات عن اللغة الليبية.

أما دراسة أسماء الأعلام المذكورة في النقوش أو عند الكتّاب فتعطينا نتائج أحسن.

فالكثير من أسماء الأشخاص لها سمة بربرية. والقصيدة اليوحانية Johannide لِكُوربُوسْ لها قيمة خاصة في هذا الموضوع، لأن الشاعر على العموم، أورد أسماء الأعلام في صيغتها الأهلية، عوض أن يكسوها بحلة لاتانية، والعديد من هذه الأعلام ينتهي بخاتمة "آن An" مثل، ألْتيسان Altisan، Esputredan، كَنفان Guenfan، أيمْسطان Imstan، منونسان Manonasan، سيدفان Sidifan، وغير ذلك. وكلها تذكرنا بالصيغة البربرية لاسم الفاعل أو المفعول المشتق من الأفعال الواصفة، أي الصيغة التي تقوم مقام الصفة، مثل أَبَرْكان ومعناها : حالة كونه أسْود Etant noir والذي هو أسود Celui qui est noir، كما أن أعلاما أخرى تنتهي بخاتمة أين In مثل أوتفادين Autufadin، كوتين Cutin، كرافين Garafin، مَرْزين Marzin، سَنْزين Sanzin وغير ذلك، أو تنتهي

بخاتمة أسنّ Asen مثل : هيسدرياسن Hisdreasen، يليداسن Ielidassen، مكوراسِّنْ Macurasen، منزيراسِّن Manzerasen. وقد بقيت هذه الصيغ حية في أرض المغارب، ونستطيع أن نذكر منها في العهد الإسلامي بُلُقّين، وتاشْفِين ويَغْمُراسِّن.

وهناك أسماء قديمة للبقاع تفسر باللهجات البربرية. فيخبرنا سترابون أن "البربار" Barbares" يسمون الأطلس باسم دورين Durin، الأمر الذي يؤكده پْلين. ولابد أن نقارب بين هذا اللفظ وبين اللفظ الذي يعني الجبل حتى اليوم، وهو أدْرار Adrar في المفرد، وإدرران Idraren في الجمع. ولا يزال الأطلس يسمى إدرارن على لسان ساكنيه. وتهالا Thala معناها عين الماء في البربرية، وكان هذا هو الاسم القديم، على الأقل لمكانين بالقطر التونسي الحالي. وكلمة سوفْ Souf أي نهر تفسر لنا بداية أسماء مثل سوفس Sufes وسوفْتولا Sufetula أي سبيطلة وهما مدينتان بموسطة تونس، وسوفَسار Sufasar على نهر شليف. وكذلك "غِير" Ghir أو غر Gher، ومعناه مجرى الماء، تجده في گِرْ أو گير. وهي أسماء أطلقت في العهود العتيقة على أنهار صحراوية. أما لفظ تَسكورا Tasaccora وهو اسم لنهر ومدينة يقعان بولاية وهران فيذكّرنا باسم تَسِكّورْت Tasekkourth، أي طائر الحجل. ويذكُر باسّي Basset أن أگورْسال Agoursal معناه نبات الفطر بلهجة بلاد القبائل الكبرى. وهو لفظ يشبه كثيرا أگرسل Aggersel في أنفيدا وأگارسل Agarsel أو أگارسيل نبتي Aggarsel Napte بجنوب تونس. أما ثاملا- ثاملولا، ثاملوما وغير ذلك - فهو اسم لمدينتين كانت إحداهما بناحية سطيف والأخرى بجنوب تونس، ويقارن بثاملالث Thamallalth أي البيضاء.

وقد أجريت مقارنات أخرى، ولكنها ليست مقنعة كهذه. وسنسوغ لنفسنا عدم الوقوف عندها. مع التأكيد أن عالما متمرسا باللهجات

البربرية يجد كذلك إلى كثرة الأسماء التي تبتدئ بحرف "ث Th" مثل ثبراكا Thabraca وثـگـاسـت Thagaste، وثموگـادي Thamugadi وثَمسْكَلِتين Thamascalitin، وغير ذلك، وربما كانت تلك البداية في كثير من الأحوال: هي السابقة الدالة على المؤنث في البربرية.

والأمثلة التي أوردناها هي أسماء لأمكنة متناثرة في المغرب والجزائر وتونس. فيمكن إذن أن نستنتج أن مدى انتشار الليبية كان يشمل أرض المغارب. وما أعجب أمر انتشار هذه اللغة في أرض قسمتها الطبيعة تقسيما عميقا، غير أنها لم تكن سوى عامل ضعيف في تلاحمها، وذلك إذا صح أنها انقسمت منذ عهد بعيد إلى لهجات عديدة، واضحة الاختلاف.

وهل كانت فيما مضى - وكما هي الحال اليوم - منتشرة في الصحراء، وحتى في السودان ؟ ليس لدينا في هذا الموضوع معلومات أكيدة. ويحدثنا هيرودوت أن هناك لسانا بين المصرية والأثيوبية يجري به الحديث في واحة آمون (هي سيوَة التي لها لهجتها البربرية الخاصة). فهل استقى هيرودوت هذا الخبر من مصدر موثوق به ؟ وحسب نفس الكاتب فإن الأثيوبيين سكان المغارات، الذين كان الگرمنطيون يأسرونهم، في التيبستي على ما يظن، كانت لهم لغة لا تشبه في شيء لغة غيرهم من الناس، وكانت تشبه الصيحات الحادة التي تطلقها الخفافيش. أياً ما كان رأينا في هذا الخبر، فإنهم لم يكونوا يتحدثون بلغة ذات قرابة مع لغة الليبيين. وزيادة على ذلك، فإن البربرية لم تدخل منذ ذلك الحين إلى التيبْستي. ويورد هيرودوت أيضا ذكر شعب يسميه باسم الأطَرانْت Atarantes الذي يقيم بالصحراء على بعد عشرة أيام غربي الگرمنطيين. وقد أثار هذا الاسم انتباه بارْث Barth الذي قارب

بينه وبين لفظ من لغة الحوصة Haoussa هو أطارا Atara ومعناه مجموع، او مضموم، أو ملتئم، أو مرتب، أو منظم Rassemblé فإذا صح ظنه هذا، كان الأطرانتيون لم يتكلموا اللغة الليبية. وعندما غادر حَنّون الساحل المجاور لنهر دَرْعَة ليتجه بأسطوله إلى الجنوب، فإنه أخذ التراجمة من عند اللكسيين Lixites. فكيف استطاع هؤلاء التراجمة أن يتفاهموا مع القرطاجيين ؟ هل كانوا يتكلمون إحدى اللهجات الليبية التي ربما كان بعض رفاق حَنّون يفهمونها. أو كانوا قد أتيحت لهم الفرصة ليتعلموا قليلا من البونيقية ؟ نحن نجهل ذلك. ولكن المتأكد هو أنهم لم يكونوا يفهمون لغة الأثيوبيين الذين كانوا يعيشون على السواحل الصحراوية بعد رأس بوجْدور. وأخيرا يمكن أن نذكر ان النصَمونيين Nasamons، الذين أشار لهم هيرودوت بعدما عبروا الصحراء وصلوا إلى مستنقعات عريضة ونهر كبير، والتقوا بقوم سود صغار الأجسام، لهم لغة لا يعرفها هؤلاء النصَمونيون.

إن كل هذه النصوص لا تعلمنا شيئا كبيرا، ومع ذلك فيلوح منها ان اللغة الليبية، خلال القرون التي سبقت عهد الميلاد، لم تكن بعد منتشرة خارج شمال إفريقيا، بالنواحي التي كان الأثيوبيون يقيمون بها.

ولابد أن هذه اللغة قد طرأت عليها تغيرات كبيرة منذ بداية العهود التاريخية. ففي الشمال الشرقي لأرض المغارب وعلى سواحلها لابد أنها تقبلت ألفاظا بونيقية، ولا نجد لها أثرا أكيدا، ولكن نظرا للقرابة المتينة الموجودة بين العربية والفينيقية، فربما أن هذه الألفاظ تختفي تحت ألفاظ عربية. وتلقت بعد ذلك من اللاتانية ألفاظا لا تزال حتى اليوم موجودة هنا وهناك، وبعدد ضئيل على الأصح. ولكن الإسهامات التي كانت بالغة السعة، هي الإسهامات الواردة عليها من اللغة العربية، لأن

لغة الإسلام اقتحمت عميقا اللهجات البربرية في الجهات التي لم تقض فيها على هذه اللهجات. أما في جنوب الصحراء فلابد ان ندخل في اعتبارنا تغلغل الألسن التي يتحدث بها السود. وطبعا فإن التحريفات والاقتباسات قد حدثت على الخصوص في ميدان المفردات، أي الجانب الذي تقل فيه مقاومة اللغات. ومع ذلك فإن تأثير العربية وقع أيضا حتى في النحو وكيفية النطق، وليس لدينا أي وسيلة لنقول هل حدث مثل ذلك مع البونيقية واللاتانية.

2

كثيرا ما حاول الباحثون ربط الليبية بلغات أخرى كانت فيما مضى، أو لا تزال حتى اليوم، مستعملة خارج الشمال الغربي لإفريقيا. ولابد في هذه المسألة من دراسة الظواهر النحوية، أكثر مما تدرس الألفاظ التي تنتقل بسهولة من لغة إلى أخرى. فالمقارنات التي عقدها بعض العلماء بين اللهجات البربرية ولغة الباسْك، وبينها وبين الأتْرورية، والإغريقية، واللغات الطورانية، كلها قد أجريت بمناهج منقودة، ويجب التخلي عنها. وليس الأمر كذلك بالنسبة للغة المصرية القديمة، التي صارت فيما بعد اللغة القبطية، وكذلك بالنسبة للألسن المتحدث بها في بلاد النوبة أي بين النيل والبحر الأحمر، والمتحدث بها في الحبشة وفي جنوب هذه المنطقة، وألسن الگَلاص Gallas، والصوماليين، والماسّايْ، والحوصَة أي بين بحيرة تْشاد والنيجر، والفهل Peul المنتشرين في السودان الأوسط والغربي. فقرابة هذه اللغات فيما بينها هي، ومع اللهجات البربرية يمكن اليوم أن تعتبر أمراً ثابتاً. وهكذا كوّنوا عائلة لغوية يطلق عليها عادة اسم العائلة الحامية Chamitique، وهي تمتد – أو كانت تمتد – على كل شمال القارة الإفريقية، ومن رأس عسير Cap Guardafui

حتى المحيط الأطلسي، وتمتد من ناحية الجنوب الشرقي حتى ما بين بحيرة فيكتوريا – نيانْزا والمحيط الهندي، كما أنها ممثلة هنا وهناك في السودان وسط لغات مختلفة جدا.

ولكن هذه القرابة طبعات قديمة جدا. فمنذ عدة آلاف من السنين قبل الميلاد كانت اللغة المصرية قد تكوّنت وتسير إلى مصائرها، كما أن الليبية من جهتها كونت جهازها النحوي بكيفية مستقلة. ويظهر أنه من العبث أن نتساءل في أي جهة من الأرض كان الحديث يجري باللغة التي ولدتهما، كما ولدت الألسن الأخرى بالعائلة الحامية.

وقد أطلق أحيانا على هذه اللغات الحامية اسم اللغات السامية الأولى Protosémétiques. وأراد العلماء بهذه التسمية أن يدلوا على اعتقادهم في وجود قرابة – وإن كانت بعيدة جدا – بين العائلتين اللغويتين السامية والحامية. وهكذا يتم الصعود إلى لغة كان الحديث يجري بها في زمن عريق في القدم، وفي أرض يمكن أنها كانت في إفريقيا، أو في آسيا كما هو المعتقد عادة ولو بدون حجة. ويكون الفرعان المتولدان عن هذه اللغة قد تم نموهما بطريقتين مختلفتين، بحيث إن العائلة الحامية وقفت عند الأساليب النحوية البسيطة، ومن تم اقترح أن يطلق عليها اسم السامية الأولى.

3

وأياً ما كانت أصول اللغة الليبية، فإننا نجد هذه اللغة مستوطنة شمال إفريقيا في العهد الذي يبتدئ فيه التاريخ بالنسبة لهذه المنطقة. فهل يمكن أن نفرض أن لغات أخرى كان الحديث يجري بها في عهود ما قبل التاريخ، وفي حيز واسع أو ضيق إلى حد ما ؟ لغات قد تكون دخلت

قبل الليبية أو بعدها، ثم اختفت ولم تخلف سوى بعض الأثر بهذا اللسان ؟ ليس بالنصوص القديمة ما يدل على شيء في هذا المجال. إن القول بوجود ألفاظ بربرية تدل تقريباً على نفس المدلول الذي نجده في لغات أخرى كالباسكية أو إحدى الألسنة الهندية الأوروبية، لا يعني شيئاً. ولابد من التأكد بأن ذلك ليس من قبيل المشابهات المغلطة، إذ نحن نعلم أن الكثير من الناس، عند بحثهم في بعض المعاجم اللغوية، قد وجدوا فيها مادة صالحة للقول بفرضيات لم تكن مطلقا مما ينتظر. كما يجب التأكد من أن هذه الألفاظ ليست نسبيا حديثة الدخول على إحدى اللغتين او عليهما معا. وحتى إذا أمكن التدليل على أن المشابهات ترجع لعهد بعيد جدا، فلن تكون هناك أي وسيلة لنقول إن الأمر يتعلق بمقتبسات أخذها بلد عن بلد آخر، أو أن الأمر يتعلق بآثار احتفظ بها في لغة أخرى حلت محل الاولى.

وأهم من ذلك دراسة أسماء الأماكن والمواقع الجغرافية، لأنها كثيرا ما ساعدت على تحديد حوزة أحد الألسنة التي اختفت أو انحصرت مع الزمن في حيز ضيق.

فهيرودُت، ورحلة سِيلَكْس Scylax، وبطلمي Ptolémée يذكرون بحيرات وأنهارا باسم تريتونيس Tritonis، وعند بطلمي تَرِد باسم تريتونتيس Tritonitis وتريتون Triton، ويجعلونها مؤكدا في تونس الحالية. وهي أسماء موجودة بعدة جهات من أرض الإغريق، فلابد أن الإغريق هم الذين أدخلوها في قائمة الأسماء الجغرافية بشمال إفريقيا. ولكن المؤكد هو أن إدخال هذه الأسماء لم يحدث إلا في صميم العهد التاريخي، أي بعد وصول الإغريق لسرنيكا التي صارت لها، هي أيضا، بحيرة أو بحيرتان باسم تريتونيس Tritonis. وهكذا فالأسماء التي

أطلقوها في بداية الأمر على الأراضي التي احتلوها، قد نقلوها على ما يحتمل إلى الغرب، مثلما حملوا إلى الغرب أيضا حدائق هِسْبِريد ومملكة أَنْطي Antée. ولا نستطيع أن نؤكد – بناء على هذه الشهادات المزعومة – أن بعض الأجانب المتكلمين باللغة الإغريقية قد استوطنوا بالقطر التونسي في عهد بعيد جدا.

وتذكر رحلة أنْطونان، أن بالحدود العسكرية التي أنشأها الرومانيون جنوب سدْرَة الصغرى، مكاناً يحمل اسم تيلباري Tillibari، فلابد إذن من التسليم بأن هذا الاسم يذكّر جيدا باسم إيلبري Iliberri الذي نجده بين أسماء المواقع القديمة في إسبانيا وجنوب بلاد الغال وهو يعتبر اسما إيبيريا، ذلك أن اللغة الباسكية تشهد أن لفظ إيلبري Iliberri مكوّن من عنصرين يعني أولهما : مكان مسكون، والثاني يعني جديد، أما حرف "ت" في تيلباري فيمكن أن يكون هو السابقة الدالة على التأنيث في اللغة البربرية. ولكن لأي عهد يرجع تاريخ هذه التسمية ؟ لعلها ترجع للعهد الروماني فحسب. إذن هل يمكن أن نتساءل : ألا تتعلق التسمية بمعسكر إقامته وحدة من الجنود الإسبانيين الذين كانوا يعملون في جيش إفريقيا ؟ لست ألح على هذا الافتراض.

وذكرت مقاربات أخرى – واقعة أو قد تقع – بين أسماء جغرافية نلقاها في كل من شمال إفريقيا وجنوب أروبا وغربها، وبإسبانيا على الخصوص. وهي ألفاظ تنتهي بمجموعة حروف هي إيلي Ili. وجي gi، أي أنها تنتهي غالبا بالكسرة «I» وأسماء بينها مشابهة تامة او تكاد تكون تامة، نجد منها بإفريقيا : أوكوبي Ucubi، سوبور Subur، توكّا Tucca ثوكّا Thucca، ثوكّا Thugga، أوبّا Obba، وقبيلة سَلاَسِيِي Salasii، ونجد منها بإسبانيا أوكوبي Ucubi، سوبور Subur، توكي Tucci

أوبنْسيس Obensis نسبة لاشك لأوبا، وفي جبال الألب نجد قبيلة سلاسي Salassi التي كانت تقيم بشعب أَوُسْت Aoste. وأجريت مقارنات على الخصوص بين أسماء الأنهار التي غالبا ما تبقى حية جدا. وهكذا يمكن الاحتجاج باسم بـگْرادا Bagrada أي نهر مجْرَدة بتونس مع نهر مـگرادا في إسبانيا. وإيساريس Isaris بغرب القطر الجزائري مع إيسارا Isara النهر الذي يدعى اليوم باسم إيزير Isère. ونهر الواز Oise الذي هو إيسار Isar. ونهر سافوس Savus قرب مدينة الجزائر ونهر سافا Sava بناحية سطيف مع النهرين سافا وسافوس الرافدين لنهري الـگارون والدانوب. ونهر أوصير Ausere بسَدْرة الصغرى مع أوصير Auser في أثروريا. ونهر أَناتيس بموريطانية الطنجية مع نهر أناس (وادي يانة) في إسبانيا. كما أن على جانبي البحر الأبيض المتوسط توجد مجار للمياه تبتدئ أسماؤها بحرف آر Ar، وسار Sar.

هذه مجرد إشارات أوردناها. والبحث الدقيق الواسع الذي يقوم به بعض علماء اللسانيات، هو الذي يساعد – ربما – على ما قد يكون لها من قيمة، لذلك فإننا نعتقد أن هناك مجازفة في التعجيل بالاعتماد على هذه الإشارات لنؤكد أن عصور ما قبل التاريخ عرفت لغة أو عدة لغات بينها قرابة وأنها كان الحديث يجري بها في أروبا وأرض المغارب.

الكتاب الثاني

الأزمنة البدائية

الفصل السادس

علاقات سكان شمال إفريقيا بمناطق أخرى

1

بعض الكتاب من الإغريق واللاتانيين يحكون أو يشيرون إلى أن هجمات مختلفة على شمال إفريقيا وقعت - بزعمهم - في أزمنة عتيقة جدا. ويمكن، قبل القيام بأي بحث، إبعاد هذه الأخبار عن حيز التاريخ واعتبارها خرافات من صنع مؤلفي القصص، أو اعتبارها آثارا مشبوهة جدا، لأنها مرت قبل أن تكتب وطيلة عدة قرون، بأفواه لا تحصى فأصيبت لذلك بتحريف عميق.

من ذلك أن أفلاطون Platon في حواره "تيمي "Le Timée يذكر أن كريتياس Critias يكرر قصة سمعها صولون Solon من أحد الكهنة المصريين من مدينة سايس Saïs الذي عثر عليها في بعض الكتب المقدسة وهي :

أمام أعمدة هرقل في البحر المحيط الأطلسي، كانت فيما مضى توجد جزيرة اسمها أطلنتيس Atlantis وكانت أكبر من ليبيا وآسيا مجتمعتين. وكان ملوكها أقوياء جدا. ونشروا سيادتهم بشرق المضيق على ليبيا إلى ما يجاور مصر، وعلى أروبا حتى ترهينيا Tyrrhénie أي إيطاليا. وحدث أن حملة ضمت جميع قوات هذه الدولة حاولت فتح مصر وبلاد الإغريق، وبصفة عامة حاولت فتح جميع بلاد البحر الداخلي، غير أن الأثينيّين أوقفوا الغزاة وأنقذوا الشعوب المهددة، بل إنهم حرروا حتى التي كانت مستبعدة على يمين أعمدة هرقل. وبعد ذلك حدثت هزات أرضية، ووقعت فيضانات حطمت في يوم وليلة الغالبين والمغلوبين. فغرق جميع المحاربين الأثينيّين، كما غاصت أطلنتيسْ في البحر. ومن ذلك الحين صار الوصول لمكانها غير ممكن بسبب الأوحال التي خلفتها الجزيرة الغائصة. ويقال أن هذه الحادثة وقعت بتسعة آلاف سنة قبل أفلاطون.

والأطلنتيد لم يتحدث عنها أحد سوى أفلاطون والذين قرأوه. فهل هي مجرد خيال فلسفي ؟ أو يجب التصديق بأن صولون سمع حقيقة قصتها في مصر ؟ إننا نجهل ذلك. وعلى كل حال يستحيل على المؤرخين أن يعطوا أي اعتبار لهذا الذي كتبه أفلاطون، كما نرى أنه لا جدوى في الإشارة إلى العديد من الافتراضات والمناقشات التي تولدت عنها. فعلماء الجيولوجيا وعلماء الحيوان يمكنهم ان يبرهنوا على أن أمريكا والشمال الغربي الإفريقي كانا متصلين منذ عهد عريق في القدم بواسطة إحدى القارات، وأن انقلابات عظيمة ومتعاقبة قد جزأت هذا الجسر العظيم ثم دمرته، باستثناء بعض كسارته التي هي جزائر ماديرا، والآصور، وكناريا وأرخبيل الرأس الأخضر. ويمكنهم أن يبرهنوا على أن الانهيارات الأخيرة وقعت في زمن حديث نسبيا، حتى أمكن للناس أن

يشاهدوها، كما أن المضيق المائي الفاصل بين كناريا وإفريقيا هو متأخر الحدوث عن العصر الرابع. ولكن يبقى عليهم - نظرا لكونهم يعتمدون على أفلاطون - أن يقنعونا بأن المعاصرين للحضارة الحجرية القديمة، أو حتى للحضارة الحجرية الجديدة، قد تجمعوا في دولة عظيمة جدا، وأنهم كونوا جيوشا جرارة، وأنشأوا سفنا لا تحصى، وقادوا أساطيلهم عبر المحيط حتى داخل البحر الأبيض المتوسط، وأن أجداد الأثينيّين كانوا - في نفس الحين - قد أنشأوا دولة قوية جدا تصد هذا الزحف المرعب.

ونجد في "حرب يوغَرْطة" خلاصة حكاية طويلة ترجمت لسالوسْت عن بعض الكتب البونيقية، المعزوة للملك هيمبسال qui regis Hiempsalis (وسنعود لهذا الجزء من الجملة). ويضيف الكاتب اللاتاني أن ما سيذكره مخالف لما يروى ويقبل على العموم. ولكنه مع ذلك متفق مع ما يظنه الاهالي أنفسهم. وفوق ذلك، فهو لا يريد أن يتحمل مسؤولية ما يروي. يقول سالوست :

«كان سكان إفريقيا الأولون هم الجيتوليين والليبيين، وهم قوم غلاظ متوحشون، يقتاتون بلحوم الحيوانات المتوحشة او بنبات المراعي كما تفعل القطعان، ولا يقفون إلا حيث يداهمهم الليل، لكن بعد أن مات هركول Hercule في إسبانيا - وهذا على الأقل رأي الأفارقة - فإن جيشه المتكون من شعوب متعددة لم يفتأ أن تفكك، لأنه حرم من قائده. فتجاذبه عدة خصوم، كل منهم يريد القيادة لنفسه. ومن بين هؤلاء ركب السفن الميديون Médes والفُرس Perses، والأرمنيون Arméniens وذهبوا إلى إفريقيا، حيث احتلوا مناطق مجاورة لبحرنا، غير أن الفرس انحدروا إلى جوار الأفيانوس، فأحدثا أكواخا، بأن قلبوا بطون قواربهم، إذ لم

يكن بالبلاد خشب للبناء، ولم يكن باستطاعتهم أن يستجلبوه من إسبانيا، لا بالشراء ولا بالمبادلة، لأن سعة البحر والجهل باللسان يعوقان كل تجارة. وبعد ذلك اختلطوا بالزواج شيئا فشيئا مع الجيتوليين. وحيث أنهم تنقلوا كثيرا أثناء محاولاتهم المتعددة للعثور على أرض تناسبهم، فقد أطلقوا على أنفسهم اسم نوماد Nomades. وفوق هذا فإن مساكن الفلاحين النوميديين التي يسمونها ماباليا Mapalia، ذات الشكل المستطيل والجوانب المسنمة، التي يستعملونها سقوفا، لا تزال إلى اليوم تشبه بطون السفن. وانضاف إلى الميديين والأرمينيّين الليبيون، إذ كانت مساكنهم أقرب إلى بحر إفريقيا، بينما كانت مساكن الجيتوليين أكثر تعرّضاً للشمس لأنهم غير بعيدين عن المنطقة الحارة. لقد أسسوا من وقت مبكر مدنا حصينة. وحيث لا يفصلهم عن إسبانيا إلا المضيق، فقد أقاموا مع سكان هذه البلد تجارة مبادلات. وقد حرّف الليبيون اسم الميديين فجعلوه في لغتهم الباربارية على صيغة مور Maures. وعظمت قوة الفُرس بسرعة. وقامت بعد ذلك جالية من الشباب تدعى بالنوميديين، أرغمتهم كثرة السكان على مغادرة بيوت آبائهم، فاحتلوا الأراضي المعروفة باسم نوميديا. وهي القريبة من قرطاجة. ثم تعاون الشعبان القديم والجديد فأخضعا بالقوة أو بالرهب البلدان المجاورة. واكتسبا ذكرا ومجدا، ولا سيما الذين تقدموا في ناحية بحرنا، لأن الليبيين كانوا أقل حبا في الحرب من الجيتوليين. وأخيرا فإن القسم الأسفل من إفريقيا كاد يقع كله في قبضة النوميديين. فاتخذ المغلوبون اسم غالبيهم، وذابوا فيهم».

يقول سالوسْت إن هذه الرواية مستقاة من كتب باللغة البونيقية. فمن كتب هذه الكتب إذن ؟

عندما اضمحلت قرطاجة سنة 146ق.م، آلت خزائن الكتب التي غفلت عنها النار إلى أيدي بعض الملوك الأهالي. وربما أن بعضا من كتب هذه الخزائن صارت لهيمبْسال Hiempsal الذي كان ملَكا على نوميديا في بداية القرن الاول قبل الميلاد، والذي كان حفيدا للأمراء الذين عاصروا تخريب قرطاجة، وحفيدا كذلك لإخوة هؤلاء الأمراء. وصيغة المفعولين Génétif التي استعملها سالوسْت في قوله (Ex libris punicis qui regis Hiempsalis decebantur) أي من الكتب البونيقية المعزوة للملك هيمْبسال تدل غالبا على التملك. فلابد أن نستنتج بأن المؤلف كان قرطاجيا. ومع ذلك، فلا نرى لماذا سالوسْت سيذكر هيمْبسال الذي قد لا يكون الأول، ودون شك ليس الأخير من بين الملوك النوميديين الذين دخلت في حوزتهم هذه الكتب، إذ لابد أنها وصلت لابنه يوبا الأول الذي كان ملكا للبلاد قبل إنشاء الولاية الرومانية التي كان سالوسْت أول حكامها. وعلى النقيض من ذلك، فإن الألفاظ التي عبر بها المؤرخ تدل على أن مؤلفها هو هيمبسال. فبعض الأمراء النوميديين لم يكونوا يتجافون عن الأدب. ويقال لنا إن مَسْتَنَبَعْل Mastanabal جد هيمْبسال كان ذا ثقافة في الأدب الإغريقي، وأن حفيده يوبا الثاني كان كاتبا إغريقيا مشهورا. فلا موضع للعجب إذن في أن يكون هيمبسال قد استخدم اللغة البونيقية، لإن هؤلاء الملوك كانوا متشبعين جدا من الحضارة القرطاجية، وكان الكثير منهم يحملون أسماء بونيقية مثل آذَرْبَعْل Adherbal ومستنبعل، وكانت لغتهم الرسمية هي البونيقية، كما تشهد بذلك عُمْلتهم، وأخيرا، فقد رأينا أنهم تلقوا بقايا خزائن الكتب القرطاجية. ونضيف لذلك، أن هذا الافتراض الثاني يبرر على ما يظهر الشهرة التي أحرزتها لدى سكان البلاد القصة التي ترجمها سالوسْت.

وأيا ما كان الأمر فإننا نجد بالقصة عنصرا فينيقيا صميما. فَهِرْكول، هذا الذي مات بإسبانيا، هو دون شك الإله الذي كان له معبد شهير يرى به قبره بقابِسْ المستعمَرة الصورية (صُور= Tyr). إنه ملْقارْت أي الملك قرت (مَلِك القَرية)، أي رب المدينة التي هي صور، والذي انتشرت عبادته عبر البحر الأبيض المتوسط، والذي شخص فيه الإغريق معبودهم هيرَكليس.

إن الأساطير التي ترتبط بحملات هركول على الأراضي الغربية كثيرة جدا، ويمكن الافتراض بأن بعضا منها يرتبط ارتباطا متينا إلى حد ما بملْقارْت. إذ لابد أن الإغريق بخيالهم الخصب، قد ساهموا بحظ وافر مما ساهم به الفينيقيون في تكوين هذه الأساطير، ذلك إما لأنهم عزوها لإله إغريقي صميم هو هيرَكْليس، وإما لأن عبادة ملقارت – التي لاحظوا وجودها بعدة أماكن – قد أعطت لقصصهم بعض السِّمات. كما أن الكتّاب باللغة البونيقية، المتأثرين كثيرا بالثقافة الهيلينية، استطاعوا من جهتهم أن يقتبسوا بعض الشيء من الإغريق. ويصعب جدا – إذا لم يكن مستحيلا – فرز العناصر التي تتكون منها كل أسطورة.

ففي القصة التي ندرسها نجد عنصرا من أصل إغريقي، هو أصل اسم النوميديين المتمثل في كلمة نوماديس Nomades أي الرجل. فإما أن يكون الاسم اسما إفريقيا التبس نطقه على الإغريق فغيروه إلى صيغة نوماديس Nomades وإما أنه تسمية إغريقية صميمة. ولاشك أن الإغريق أيضا كانوا هم أول من أطلق اسم الليبيين على سكان أرض المغارب. فهذا الاسم في صيغته الإفريقية التي هي لوبو Lebou، كان في أول الأمر يطلق على الأهالي الذين كانوا يعيشون بالشمال الغربي لوادي النيل. ولابد أن الإغريق تلقوه من المصريين، ثم وجدوه في سرنيكا، ثم نشروه

بعد ذلك بكثير حتى بلغ القاصية الغربية لشمال إفريقيا. ولنشِر أيضا إلى أن الوصف المختصر لعادات الأهالي يمثل النظرية الكلاسيكية إلى حد ما عن الحياة البدائية الإنسانية، وهي إن كانت نظرية منقودة جدا، فإنها أيضا – وعلى ما يحتمل – ذات أصل إغريقي.

وهناك من جهة أخرى جزئية إفريقية. تلك هي هيأة الأكواخ النوميدية "مباليا Mapalia" التي أوحت بالفقرة المتعلقة بالسفن الفارسية التي قُلبت وحوّلت إلى مساكن.

فنلاحظ إذن بقصتنا وجود عناصر فينيقية وإغريقية وإفريقية. ونتساءل عن القصة، لماذا تأتي إلى إفريقيا بالفرس والأرمنيين وبالميديين الذين لا يعقل قدومهم مطلقا إلى هذه المنطقة ؟

فأما ما يتعلق بالفُرس فبالإمكان إعطاء تفسير يقرب جدا من الصواب. لقد سبق أن رأينا كتّابا مختلفين يذكرون أن بجنوب المغرب يوجد الفاروسيين Pharusii والبِرُرْسي Perorsi الذين لم يكونوا سوى شعب واحد بعينه، مقيم على ساحل المحيط، ولكن يتغلغل بعيدا في داخل الأراضي. وحبا في ربطهم بأمة شهيرة وُصفوا بأنهم فُرس. ولما ذكر بْلين Pline اروسيي أضاف : فرس أحيانا Quondam persae، أو فرس سابقا، وفي هذا تلويح إلى القصة كما يؤكده بقية الكلام. وهل أدخل الميديون في هذه الأسطورة لتبرير اسم "المور" الذي يطلق على طائفة كبيرة من الأهالي ؟ هناك فقرة قد تمكن من اعتقاد ذلك. ولابد من أن نعرف بالضبط الاسم الذي كان مستعملا في إفريقيا، وكتبه الرومانيون بصيغة موري Mauri، كما كتبه الإغريق بصيغة موروسيوى Maurousioi. فإذا كان هذا اللفظ فينيقيا يعني الغربيين، فإنه يكون ماهوريم Mahourim أو إحدى الصيغ القريبة منه، ولكن ربما كان اللفظ

الذي استعمله الأهالي كثير الشبه بالاسم الذي كان الفينيقيون يطلقونه على الميديين. أما الأرمنيون فلابد من تفسير زحفهم المزعوم بنفس الطريقة، ولاشك أن بعض العشائر التي كانت تحمل اسما مشابها له قد كانت موجودة. ومع ذلك فإن أي أحد لم يتقدم في هذا المجال إلا بافتراضات قليلا ما ترضي.

وحيث جيء من بعيد جدا بالأجداد المزعومين لطائفة من الأهالي، فقد صار لابد من إعطائهم شخصا يقودهم، وكان المهيأ لهذا العمل هو هركول، المسافر الذي لا يعرف الكلل، وسنرى أن هذه الأسطورة ليست الوحيدة التي يظهر فيها هركول على رأس حملات آتية من آسيا. وحيث أن البِرُرْسي كانوا يقيمون بساحل المحيط، فقد كان من الطبيعي أن يمر بأجدادهم على طريق إسبانيا. كما أن موت هركول بهذه المنطقة يفسر لماذا أن الأسيويين، بعد حرمانهم من قائدهم العظيم، قد اكتفوا باحتلال جهة محدودة على الساحل، قريبة من الهضبة الإيبيرية، عوضا عن التعجيل باحتلال جميع أرض المغارب.

وختاما، فكل ما بهذه القصة أسطوري، بل إني لست أدري لماذا يبحث فيها بعضهم عن ذكرى بالغة في الغموض لزحف عظيم قد يكون تغلغل في شمال إفريقيا عن طريق مضيق جبل طارق.

2

يقول البعض - حسب رواية سترابون - إن الموريين من الهنود الذين قدموا إلى ليبيا مع هيركَلْيس. وليس لدينا معلومات أخرى عن هذه الخرافة. ونحن على علم بما يجب أن يكون عليه رأينا في الدور المعزو لهركول. أما الهنود فلا شيء يسوغ لنا الاعتقاد بأنهم ساهموا في تعمير

شمال إفريقيا بالسكان. والحق أن كارل ريتر Carl Ritter قد قارن اسم البربر الذي أطلقه العرب على أهالي المغارب مع عدة أسماء أخرى نجدها إما بالهند مثل الورْوارا Warwara الذين يقال إنهم سكنوا منذ عهد بعيد في الدّكْن، وإما بخليج عَدَن، أي الجهة التي كانت في العهود العتيقة تعرف باسم باربازيا Barbaria، والتي يوجد بها المكان المعروف حتى اليوم باسم بِرْبِرة Berbera، وإما في بلاد النوبة حيث يوجد البَرْبرا Barabra الذين يعيشون بوادي النيل بين الشلالَيْن الأول والرابع، كما يوجد على النهر مكان يعرف باسم بربر Berber بأسفل ملتقاه مع رافده نهر أطْبَرَه. ونتسائل عن هذه الأسماء ألا تكون منضدة على الطريق التي قد يكون البربر ساروا عليها بين الهند وغرب شمال القارة الإفريقية ؟ لكن هذا الافتراض لا يمكن إثباته. إننا لا نريد مناقشة أصل الأسماء الأخرى التي ذكرت، ومع ذلك نكتفي بأن نلاحظ أن كلمة بيربير Berber ليست في أرض المغارب علما على سلالة يرجع إطلاقه عليها لعهد بعيد جدا، وإنما هو لفظ بارباروس Barbarus اللاتاني فحسب، أو هو لفظ باربار Barbar كما كان يقال بإفريقيا الرومانية. وكان قبل الفتح العربي يعني الأهالي الذين مكثوا متمنعين عن الحضارة اللاتانية، وهو بالنسبة للعرب أنفسهم يعارض كلمة الروم، أي الرومانيين.

أما المؤرخ اليهودي يُوسُف فقد أتى بإشارة مختصرة يمكن أن تؤدي إلى افتراض أن بعض الكتّاب يجعلون للجيتوليّين أصلا شرقيا. ذلك أن هذا المؤرخ أثناء تعليقه على الإصحاح العاشر من سفر التكوين، قال إن حويلة ابن كوش وحفيد حام، هو والد الحويليين (الذين يطلق عليهم اليوم اسم الجيتوليين). بينما أبناء كوش المذكورون في التوراة – (في فقرة يظهر أنها تؤرخ بالقرن السادس أو الخامس ق.م) – يمثلون الشعوب التي كانت تقيم بالأراضي الواقعة بجنوب مصر وكذلك ببلاد

العرب الجنوبية. ولكن نظرا لأننا لا ندري لماذا جسم يوسف الحويليين في الجيتوليين، فيحسن عدم ذكر افتراضات لا جدوى فيها.

وهناك قصة لا تقل شهرة عما أورده سالوست، ذكرها بروكوب، ترمي إلى أن تبيّن من أين أتى الموريون Maurousioi إلى ليبيا، وكيف استوطنوها.

يقول بروكوب Procope : «لما وصل العبرانيون إلى قريب من حدود فلسطين، بعد خروجهم من مصر، مات موسى... الذي سار بهم. فخلفه يسوع Jésus – يقصد الكاتب يشوعا Josué – ابن ناوي Navé الذي أدخل هذا الشعب إلى فلسطين، والذي استولى على البلاد بعدما أظهر في الحرب قدرة فائقة. فانتصر على جميع القبائل، واستولى من غير مشقة على المدن، ونال الشهرة بأنه قائد لا يقهر. وكانت آنذاك جميع الناحية البحرية الممتدة من صَيْدا إلى حدود مصر تعرف باسم فينيقيا، وكانت منذ عهد بعيد خاضعة لأحد الملوك، كما يجمع على ذلك من كتبوا عن التاريخ القديم لفينيقيا. وهناك كانت تعيش قبائل متكوّنة من عدد كبير من الناس مثل الجرجيسيين Gergeséens، والجبُوسيين Jebuséens وغيرهم ممن هم مذكورون في تاريخ العبرانيين. فلما رأى هؤلاء القوم أنهم يستحيل عليهم مقاومة القائد الأجنبي، خرجوا من وطنهم وذهبوا إلى مصر. لكن، عندما لاحظوا أن المكان قد لا يسعهم في منطقة كانت دائما آهلة بالسكان، فإنهم اتجهوا إلى ليبيا».

«فاحتلها الوافدون الجدد بكاملها حتى أعمدة هرقل، وأنشأوا فيها عددا كبيرا من المدن، واستمر بها عقبهم الذين يتكلمون حتى اليوم اللغة الفينيقية. وقد بنوا أيضا حصنا في نوميديا، في المكان الذي تقوم مدينة تيكسيس Tigisis. وهنا، بالقرب من عين مائية كبيرة، يشاهد نَصبان من

الحجر الأبيض كُتب عليهما بالحروف الفينيقية وبلغة الفينيقيين، كتابة قول معناها : نحن الذين هربنا بعيدا من وجه الناهب يسوع ابن ناوي».

«أما قبلهم، فإن ليبيا كانت تسكنها الشعوب التي أقامت بها منذ عهد عتيق جدا، واعتبرت نظرا لذلك أصيلة بها... أما بعد ذلك بكثير، فإن الذين غادروا فينيقيا مع ديدون Didon، ذهبوا للحاق بهؤلاء الأقرباء المقيمين بليبيا، فأذنوا لهم بتأسيس قرطاجة. ولما أصبحت قرطاجة بعد ذلك عظيمة وآهلة بالسكان، حاربت جيرانها الذين سبق أن قلنا إنهم قدموا من فلسطين، والذين يعرفون اليوم باسم الموريين. وقد انتصرت عليهم وطردتهم إلى أبعد ما استطاعت».

كانت تيگسيس تقع على نحو خمسين كيلومترا بالجنوب الشرقي من قسنطينة بالمكان المعروف اليوم باسم عين البرْج. وبه نجد حتى اليوم العين الثرة التي تحدث عليها بروكوب. ذلك أن بروكوب كان قد صاحب بيلزاريْوس Bélisarius إلى إفريقيا، ثم مكث بعد ذلك بها قرب القائد سليمان Solomon، فلربما أنه زار تيگسيس. وعلى كل حال، كان يسهل عليه أن يكون مطلعا. وأننا نستطيع تماما ان نقبل بهذه الحلة Bourg في القرن الميلادي السادس وجود نصبيْن عليهما كتابات باللغة والخط الفينيقيين. فقد اكتُشف بعض من ذلك بهذه الناحية، وكان يظهر عليه نوع الأبجدية المعروفة بالأبجدية البونيقية الجديدة Néopunique التي كانت مستعملة في عهد السيطرة الرومانية، وحتى من قبل. وكانت هذه الكتابات إما هدايا دينية وإما قبورية. وليس محتملا أنها كانت لاتزال تصنع في البلاد على عهد بروكوب، بل إنه ليمكن جيدا أن تيگسيس لم يكن بها آنذاك من يستطيع قراءة هذه النصوص. وقبل ذلك بنحو قرنٍ من الزمان، أي في عهد القديس أوغسطين، كانت البونيقية لا تزال

مستعملة على ألْسنة الناس بنواحي قسنطينة، أو على الأقل بجهات عنّابة وسوق أهْراس، ولكنها كانت اللسان الذي يستعمله الفلاحون ويترفع عنه العلماء، وقليلا ما كان يكتب به. وعلى كل، فالترجمة التي أعطيت لبروكوب عن محتوى هذه الكتابات القديمة إلى حد ما، لاشك أنها ترجمة وهمية. ولربما كانت الترجمة من ابتداع أحد الأكليركيين الذي كان يعلم عن طريق الثوراة أن العبرانيين كانوا قد أقاموا بغرب نهر الأردن على حساب الشعوب المختلفة كالجرجيسيّين والجبوسيّين وغيرهم من سكان أرض كنعان. ولم يكن هذا الإسم الأخير يطلق على داخل أرض فلسطين فحسب، بل كان أيضا يطلق على الساحل الذي يقيم به الفينيقيون، إذ أن الإصحاح العاشر من سفر التكوين يذكر سردا شهيرا لذرية نوح. وفي هذا السرد أن سيدون Sidon هو الابن الأول لكنعان. وقد كان الفينيقيون أنفسهم يقولون بهذا. لذلك فإن الأفارقة الذين كانوا لا يزالون يتكلمون باللغة الفينيقية في عهد القديس أوغسطين قد تلقوا وقبلوا كونهم فينيقيين. وكان من له حظ قليل من الأدب يستطيع أن يستنتج من ذلك أنهم ينحدرون من الكنعانيين الفلسطينيين. وحيث كان يشوعَا Josué يعتبر هو فاتح هذه الأرض، فقد كان من الطبيعي قبول كون المغلوبين قد فارقوه آنذاك وتوجهوا إلى إفريقيا. هذا – على ما يحتمل – هو أصل قصة بروكوب. فليس لها كما نرى أية قيمة تاريخية.

على أن بعض العلماء كان لهم رأي مخالف. من بينهم موڤَرْس Movers الذي اعتقد أن استيلاء العبرانيين على فلسطين نتج عنه حقيقة رحلة عدد كبير من الكنعانيين الفلاحين. وأن ذلك لم يكن رحيلا عنيفا. وإنما كان على شكل سلسلة من الهجرات، تعاقبت طوال عدة قرون، من وصول يشوعَا إلى داود وسليمان اللذين أكملا عملية الاستيلاء على

فلسطين. ويقال أن هؤلاء الكنعانيين الفارين قد وصلوا إلى إفريقيا على ظهر سفن الفينيقيين أهل الساحل السوري. ونظرا لكونهم مكثوا فلاحين، فقد استولوا على قسم كبير من البلاد، وامتزجوا بالأهالي وبهذا تكونت طائفة السكان الذين تسميهم النصوص القديمة باسم الليبيين الفينيقيين Libyphéniciens.

لكن يحتمل جدا - نقيضا لذلك - أن كلمة ليبيين فينيقيين كانت قبل العهد الروماني تعني الفينيقيين الذين في ليبيا، أي الذين هم من أصل فينيقي ويعيشون بالمستعمرات التي أسسها على الساحل الإفريقي إما الفينيقيون من أهل سورية وإما القرطاجيون. وبعد ذلك فحسب، أطلق على بعض سكان الأراضي الداخلية، أي على الذين اتخذوا العادات البونيقية في عهد سيطرة قرطاجة، وصار من الممكن اعتبارهم ليبيين أصبحوا فينيقيين. فانتشار لغة الفينيقيين ودياناتهم وعاداتهم في شمال إفريقيا، أمر تفسره التأثيرات التي أثرت بها الحضارة القرطاجية على الأهالي بكيفيات مختلفة وبسبل مختلفة أيضا. وكلها ظواهر حدثت في صميم العهد التاريخي. بل أن بعضا منها حدث بعد سقوط قرطاجة. فلا يوجد إذن أي برهان على هذه الهجرات الكنعانية المزعومة إلى أرض المغارب.

ومن ناحية أخرى، نحن لا نستطيع أن نميز ما هو صحيح في القصص المتعلقة باستيلاء العبرانيين على أرض كنعان. ولاشك أن الاستيلاء لم يقع دفعة واحدة. ويظهر أن الوافدين الجدد لم يستولوا إلا على أماكن اختلفت سعتها. فقد خاضوا أحيانا معارك لم تنته دائما لمصلحتهم. وعقدوا أحيانا مع الكنعانيين معاهدات قارة إلى حد ما، كما أنهم أحيانا قد داخلوهم من غير عنف. وقبل عهد داود وسليمان تأتي حقبة من التوسع والتقلص، كانت موافقة لعهد القضاة وبداية عهد

الملكية. ونحن نجهل كم دامت. فكون بعض الكنعانيين – أثناء هذه الحقبة – يطردهم العبرانيون، فيبحثون على ملجأ لهم بالساحل، حيث تقوم مدن الفينيقيين، وكونهم يشاركون بعد ذلك في عملية الاستعمار الفينيقي بالمغرب، إن كل هذا ممكن جدا، ولو لم يكن لدينا عليه أي دليل. غير أن هذا الافتراض ليس له سوى علاقة بعيدة جدا بقصة بروكوب.

ذلك أن هذا الكاتب يجعل الكنعانيين الفارين أمام يشوعا يمرون بمصر. وقد اعتقد بعض الباحثين حقيقة أن عشائر من آسيا الغربية قد أقامت بوادي النيل، ومن هناك ذهبت إلى أرض المغارب، ولكن قبل العهد الذي دخل فيه العبرانيون إلى فلسطين بزمن بعيد. ونحن نعلم أن الهكْسوس القادمين بطريق برزخ السويس قد استولوا على الدلّتا مدة ستة قرون حسب قول البعض، أو مدة لا تزيد على قرن واحد حسب البعض الآخر. فماذا كان أصل هؤلاء الغزاة ؟ لقد ذكرت عدة من الافتراضات، وكل ما نستطيع تأكيده في هذا المضمار هو أن أكثرهم – إن لم نقل جميعهم – كانوا يتكلمون لغة واحدة سامية أو عدة لغات سامية، وأن سيادتهم قد تكسرت نهائيا حول بداية القرن السادس عشر قبل الميلاد. ولكن ليس هناك مطلقا ما يسمح لنا أن نفرض أن الهكْسوس – سواء في هذا العهد أو في عهد سطوتهم – قد ساروا في طريق المغرب وذهبوا ليقيموا بين الليبيين.

3

ويوجد من بين الكتّاب الإغريق من يذكر أن هجرات قد انطلقت من البلاد التي على سواحل بحر إيجَة. فهيرودُت يقول أن المكْسِيس Maxyes

يدّعون أنهم ينحدرون من أهل طَرْوادة Troie. وهم حسب قوله، كانوا يعيشون غربي نهر تْريتون، أي الجهة التي تطابق الساحل الشرقي للبلاد التونسية. كما أن ديودور الصقلي يذكر مدينة عظيمة باسم مسْكَلَة Meschela التي يقال إن الإغريق أسسوها عند عودتهم من حرب طروادة. وأن أحد مساعدي القائد أَگَطُكْل قد استولى عليها، فمن المحتمل أنها كانت واقعة في القسم الشرقي لأرض المغارب، وربما في الشمال الغربي لتونس، أو في الشمال الشرقي للقطر الجزائري. ويذكر إِتْيان البيزنطي Etienne de Byzance أن هيكاتي Hecatée ربما ذكر مدينةً للأيونيين Ioniens اسمها كيبوس Cybos توجد في ليبيا التي للفينيقيين، وأنها – على ما يظهر – قرب إحدى المدينتين المعروفتين باسم هيبو Hippo، أي بنْزَرت وعنّابة. كما يذكر بلوتارك – ناقلا عن الملك يوبا الثاني لاشك – أن بعض الإغريق الألبيين Olbiens والمكِينيين Mycéniens قد تركهم هيرَكليس بناحية طنجة.

هذه النصوص لها قيمة ضئيلة. والأخير منها ينحي نفسه بسبب الدور الذي يعزوه لهركول. ويحسن الاعتقاد أن الألبيين والمكينيين الذين ذكرهم بولا، كانوا الجدود المزعومين لبعض شعوب إفريقيا التي لها أسماء مشابهة تقريبا، وذلك مثلما ذكرنا عن الفرس والميديين والأرمنيين الذين ذكرهم هيمبسال. وفقرة أتيان البيزنطي فيها التباس، وليس من المتأكد مطلقا أن هيكاتي تحدث على مدينة أيونية موجودة بليبيا. ولقد طوح القدماء بالإغريق، وأحلوهم تقريبا بكل مكان بعد سقوط مدينة طروادة وفي هذه الأساطير نالت ليبيا حصتها من الإغريق الذين غرقت سفنهم ومن المعمرين. وكذلك الرواية التي يرويها ديودور، فليس من الصواب أن تنال من الثقة أكثر مما نالته الأخريات. ونحن نجهل

كيف علم هيرودت أن المكسو كانوا يقولون عن أنفسهم إنهم من أهل طروادة. ذلك أن المكسو كانوا يصبغون أبدانهم باللون الأحمر ويحلقون الجانب الأيسر من رؤوسهم، ويعفون شعر الجانب الأيمن، وتلك عادة كانت مجهولة لدى رعايا بريام Priam وتذكر على النقيض من ذلك بعادات قبائل إفريقية أخرى.

ويصعب ذكر السبب الذي جعل الخرافات الإغريقية تنقل إلى الشمال الغربي الإفريقي بعض الأبطال الأسطوريين مثل بيرصي Persée وهيركليس وجماعة الأرگنوت Argonautes. ويمكن اقتراح تفسيرات مختلفة لذلك، منها أن الأعمال الجليلة التي كانت من قبل تضيع في البعيد الغامض، قد أحب الإغريق أن يربطوها بالجهات التي بدأوا يعرفونها، ومنها المطامح الاستعمارية التي كانت تعمل لإثارة الحماس الشعبي بذكر أعمال ماضية. وربما كان منها وجود عبادة هركول الفينيقي ببعض الأمكنة. ولكن يجب أن لا نرى في هذه الأساطير ذكريات - حتى ولو كانت مضطربة - لعهد قد يكون أجداد الهيلينيين زاروا فيه السواحل الإفريقية.

ويحسن كذلك تنحية النتائج المستخرجة من دراسة اللهجات البربرية ومن دراسة أسماء الاماكن بأرض المغارب. فقد اعتقد بيرْطُلُون Bertholon أنه عثر في كثير من الأسماء والألفاظ الإفريقية على أسماء وألفاظ ترجع لألسنة لها قرابة متينة باللغة الإغريقية. وكل ذلك - حسب هذا العالم - يبرهن على أن عدة هجرات قد جاءت من سواحل البحر الإيجي خلال الألف الثانية قبل الميلاد. غير أن مقارنات بيرْطُلُون لا تحرز على موافقة علماء اللسانيات إلا بصعوبة.

ومع ذلك فيجب أن لا ننكر إمكان وجود بعض العلاقات بين سكان ساحل أرض المغارب وبين الشعوب التي كانت تقيم على سواحل البحر الإيجي في عصر البرنز، أثناء الألف الثالثة والألف الثانية قبل الميلاد.

لقد حدث آنذاك تأثير من الحضارة الإيجية بكل من مالْطة، وصِقلية، وسرْدانية، والبالِيار، وإسبانيا. كما أن بعض الأشياء المصنوعة في البلاد الواقعة بالشمال الشرقي للبحر الأبيض المتوسط قد جلبت إلى صقلية وسردانية خلال القرون الأخيرة من هذا العهد المديد. وعلى هذا، فإن سفناً قادمة من السواحل التي تملكها الإغريق فيما بعد، قد كانت تمخر الحوض الغربي للبحر الداخلي.

ومن المتأكد أيضا أن الأهالي الذين كانوا يعيشون بالشمال الغربي لمصر في النصف الثاني للألف الثانية قد كانت لهم علاقات مع سكان سواحل البحر الإيجي. وحوالي 1200 ق.م، في عهد الفرعون منِفْتاح Menephtah فإن منارياي Mâraîou الذي يعرف أيضا باسم مارايابوي ملك اللوبو Lebou هاجم الدلْتا بجيش مكوّن من الأفارقة اللّبُو، والمشواشا Mashaouasha والقَحَق Kahaka ومن أقوام قدموا من "البلدان البحرية" وكان هؤلاء هم الأكايوشا Akaïousha، والتورشا Toursha واللوكو Loukou، والشردانا Shardana، والشگلاشا Shagalasha. وكان عددهم كثيرا، وإن كانوا أقل من الأفارقة. وقد انتصر المصريون في المعركة التي مات فيها 6365 من اللوبيين، و222 من الشكلاشا و746 من التورشا. ولابد أن اللوكو كانوا يسكنون لوقيا Lycie أما التورشا الذين يمكن اعتبار أنهم هم التورسيون Tyrsènes فالغالب أنهم كانوا يسكنون شمالي البحر الإيجي وبالشمال الغربي لآسيا الصغرى، وكذلك الشردانا والشكلاشا فقد كانوا أيضا - وعلى ما يظهر - من شعوب آسيا الصغرى،

حيث قامت مدينتا صرديس Sardes وصكلاصوص Sagalassos اللتان تذكر أن باسمهم. وأخيرا يمكن أن يكون اسم أكايوشا هو نفس اسم الآخيين Achéens. والحق أن نقش الكَرنَك الذي يخبرنا بهجوم مارياي لا يبرهن مطلقا على أن التورشا وغيرهم قد كانت لهم مستعمرات على ساحل ليبيا بغرب الدلتا. وعلى هذا فإن الذين حاربوا في الجيش تحت قيادة ملك اللوبو يمكن أن لا يكونوا سوى حلفاء قدموا حديثا عن طريق البحر، بل وربما كانوا جنودا مأجورين. وبعد ذلك بكثير انتقلت طائفة من التورشا ليستوطنوا بغرب البحر الأبيض المتوسط حيث كونوا شعب الأتروريين Etrusques. ويمكن أيضا أن يكون الشردانا قد ذهبوا ليستولوا على جزيرة سردانية التي أعاروها اسمهم على ما يحتمل.

إن هذه الملاحظات لا تسوغ لنا التأكد بأن بحارة من الشمال الشرقي للبحر الأبيض المتوسط قد زاروا سواحل أرض المغارب، ولا أن معمرين قدموا من هذه الجهات قد استوطنوا هذه السواحل. لكننا لن نعجب إذا حدثت اكتشافات من بعد وبددت شكوكنا. فالبراهين منعدمة اليوم. وقد كان لابد أن يحدث الإيجيون تأثيرا عميقا في حضارة الأهالي، وأن ينشروا بينهم استعمال المعادن على الخصوص. ولكن سبق ان رأينا أن الأدوات التي تميز بها عصر البرنز تكاد تكون منعدمة من قائمة آثار شمال إفريقيا.

غير أن ڤانْ جُنيبْ Van Gennep يعتقد ان الخزف البربري يقدم الدليل المطلوب. ذلك أن النساء في كثير من القبائل يصنعن أواني مزخرفة بخطوط مستقيمة، لونها أسود أو أبيض، على نقاب من المينا الناصعة. وهذه الأواني بأشكالها وبزخرفتها تشبه بوضوح الخزف الذي كان يصنع بشرق البحر الأبيض المتوسط في العهد الأول من عصر

البرنز، أي في الألف الثالثة قبل الميلاد، والذي عرف على الخصوص بالاكتشافات التي وقعت في جزيرة قُبْرص. ونفس الخزف عثر عليه بصقلية، في مساكن ومدافن تؤرخ ببداية عهد البرنز. كما عثر على بعض منه بجزيرة مالطة، ويرجع لعهد غير محدد. فهل يمكن تفسير هذه المشابهات دون أن نقبل القول بافتراض الأصل المشترك ؟ أن ديصو Dussaud يظن ذلك ممكنا. أما أنا فغير مستعد لاستصواب رأيه. ولكن يجب أن لا ننسى أن جميع المنتجات المعروفة اليوم من الخزف البربري هي منتجات عصرية. أما نظرية ڤان جُنِيبْ فهي حسب رأينا ممكنة. ومع ذلك، فلتقريرها لابد من انتظار الاكتشافات التي تبرهن على أن هذه الطبقة من الخزف عتيقة بأرض المغارب، ترجع لأكثر من أربعة آلاف سنة.

4

لقد استعرضنا النصوص المتعلقة بما قد زعم من هجرات إلى الشمال الغربي من إفريقيا. لكن حسب بعض الكتّاب، فإن الليبيين – على النقيض من ذلك – استولوا على ما يقال، على جزيرة سردانية. وكان رئيسهم ابناً لهركول اسمه سَرْدوس Sardus. ويستحيل علينا أن نقول هل يحسن طرح هذا الهجوم في ميدان الخرافات، كما نطرح فيه الشخص الوهمي دون شك الذي يقال إنه قاده. فهيرَكْليس المصريّين والليبيين الذي كان القائد ابنا له، يقول عنه بوزانياس Pausanias أنه كان يحمل لقب ماكريس Makeris فيحتمل إذن أن هذا الاسم تحريف لاسم ملقارت Malqart. وبهذا فالقصة تشتمل إذن على عنصر فينيقي، ويرجع أصلها لفتح الجزيرة على يد القرطاجيين الذين يظهر أنهم أسكنوا بها العديد من الليبيين.

ومن ناحية أخرى، كان بسردانية شعب كان الإغريق واللاتانيون يطلقون عليه اسم يولايوى Iolaeioi وإيليانْسيس Ilienses، وكان في العهد البونيقي يقيم بالجهات الجبلية ولا يوجد أي نص يذكر بأن هؤلاء القوم أتوا من إفريقيا. غير أن بوزانياس يؤكد أن هيأتهم وسلاحهم وشكل حياتهم تشبه الليبيين تماما. وقد قارب الباحثون بين اسمهم واسم يول Jol الرب الذي عبده القرطاجيون، والذي قمصه الإغريق في معبودهم يولاوس Jolaos. فهل لابد أن نقول أنهم ليبيون ؟ أعتقد أن هذا الافتراض فيه طيش، إذ لم يتأكد مطلقا ان "يول" كان ربّاً إفريقيا. لا فينيقيا. وزيادة على هذا، فإن المشابهة بين الأسماء ربما كانت من قبيل المصادفة. ثم إننا لا نستطيع أن نقول هل لهذه المقاربة بين الأسماء قيمة أكثر مما لمقاربة أخرى أجراها بعض القدماء الذين زعموا أن الأيوليين Joléens كانوا من الإغريق، قدم بهم إلى سردانية يولاوس ابن عم هيركليس.

إن الطابيات التي تُدْعى في سردانية باسم نوراغي Nuraghi وكذلك السيسي Sesi التي بجزيرة بنطلاريا، والتلايوت Talayots في الباليار، كلها تشبه المدافن العديدة ذات الشكل الأسطواني المبنية بحجر دون ملاط، والمعروفة في أرض المغارب باسم الشوشات Chouchets. والشوشات التي يمكن تحديد زمنها، هي أحدث عهدا من آثار هذه الجزر التي يحتمل أنها على العموم ترجع لعهد البرنز. ومع ذلك فأفضل الاعتقاد بأن الشوشات نوع من المدافن عتيق جدا، وأنها قد وقع الاحتفاظ بها زمنا طويلا، كما هو الشأن في أشياء أخرى كثيرة بشمال إفريقيا. ولكن، وحتى مع تسليمنا بوجود قرابة حقيقية بين هذه المباني المختلفة، فليس هناك ضرورة لأن نفترض أنها انتشرت عبر البحر الأبيض المتوسط نتيجة لهجرات كبيرة.

أما النقوش الصخرية التي تمثل أمون الشمس فهي تشهد بأن إحدى العبادات المصرية قد تغلغلت حتى الجنوب الوهراني، وذلك منذ عهد بعيد، يحتمل أنه النصف الثاني من الألف الثانية. كما أننا ذكرنا الأسباب التي دعتنا إلى الظن بأن الفَرَس قد أدخل من مصر إلى أرض المغارب حوالي نفس الزمن تقريبا. فهل كانت هناك علاقات مباشرة بين أهالي هذه المنطقة وبين سكان وادي النيل ؟

في عهد مِنِفْتاح Ménephtah أي نهاية القرن الثالث عشر، وكذلك في عهد رمسيس الثالث أي بداية القرن الثاني عشر، ذكر اسم المشواشا Mashaousha الذين حاولوا دون جدوى أن يقتحموا مصر عدة مرات. وقبلهم كان بعض المشواشا يعملون في جيش رمسيس الثاني. وابتداء من القرن الثاني عشر إلى القرن السابع نجد الأفارقة الذين كانوا يعرفون بهذا الاسم، يكوّنون بالوادي جاليات عسكرية مهمة في خدمة الملك أو السادة الإقطاعيين. وقد رأى كثير من العلماء أنهم هم المازوس Mazyes الذين ذكر هيرودُت أنهم في غرب نهر تريتون، أي في تونس. كما أثيرت أسماء المازوس Mazyes، والمازيس Mazice، والمكسيطاني Maxitani، والمازاس Mazaces الذين تذكرهم نصوص مختلفة بأرض المغارب الحالية. ولكن لا يظهر لنا أن التشابه بين الأسماء كبير إلى حد يبرر هذه المقاربات وأياً ما كان الأمر، فإن المشواشا الذين تذكرهم النقوش الهيروغليفية، لابد أنهم كانوا يسكنون قريبا جدا من مصر التي كان لهم معها علاقات جمة. أما أهالي أرض المغارب فلابد أن بعض المؤثرات المصرية قد وصلتهم بواسطة الليبيين الشرقيين. على أن بعضهم الذين أغرتهم المغامرات البعيدة، استطاعوا أن يلتحقوا بالمشواشا أو باللوبو وأن يدخلوا مملكة الفراعنة، إما بصفتهم أعداء أو

كمرتزقة. ولكن ليس هناك ما يساعد على الاعتقاد بأن قبيلة واحدة من قبائل البلاد الواقعة غربي سرنيكا قد ذكرت في نقوش طيبة.

5

ولن نقف عند الأخبار المختلفة جدا التي أوردها الكتاب العرب حول الهجرات التي يقال إنها عمرت شمال إفريقيا في عهود بعيدة جدا. ولقد أخطأ موفِرْس Movers جدا حين نظر إليها بعين الجد، إذ ليس لها قيمة تاريخية. فكل هؤلاء الكتاب جعلوا البربر يأتون من آسيا الغربية التي كانت آنذاك مركز الدنيا في نظر المسلمين، الذين كانوا يعتبرونها مهد الإنسانية. كما أنهم كانوا يستقون أحيانا من روايات كان مصدرها البعيد سلسلة الأنساب المذكورة في الإصحاح العاشر من كتاب التكوين. فبعضهم يستخفون بالبربر ويربطونهم بذرية حام المغضوب عليه، ويجعلونهم قادمين من البلاد السورية. بينما الآخرون يعطون لهذا الشعب، أو لبعض القبائل القوية على الأقل، الأصل الذي يعتبره المسلمون أكثر شرفا فيجعلونهم عربا، من الجنس الذي ينتمي إليه النبي.

والعلماء المعاصرون أتوا بعدة افتراضات عن الشعوب التي قد تكون قدمت لتستوطن إفريقيا، أو التي قد تكون خرجت من هذه الأرض. ولقد ذكرنا جل هذه الافتراضات وبيّنا إلى أي حد هي واهنة. فلابد أن تنحى كما تنحى تلك الأساطير القديمة. ولابد من التسليم بجهلنا للحوادث التي نشأت عنها علاقات بين سكان الشمال الغربي لإفريقيا وسكان المناطق الأخرى. وأنه لمن الأهمية بمكان أن نستطيع ملاحظة هذه العلاقات.

فبحوث علماء الأنتربولوجيا واللسانيات والآثار قد أثبتت عدة من الظواهر المهمة.

منها القرابة في الخلقة بين أهالي أرض المغارب وبين سكان جنوب أروبا من جهة، وبينهم وبين سكان الشمال الشرقي لإفريقيا من جهة أخرى. ومنها وجود الإثيوبيين بالحاشية الصحراوية، ولربما في بعض جهات أرض المغارب. ويحتمل أنهم كانت لهم قرابة مع شعوب أخرى بالقارة الإفريقية. وذلك رغما عن كوننا لا نستطيع حتى الآن تحديد نتائج مدققة. ومنها وجود الشقر بأرض المغارب نفسها. وهم يذكروننا بشرق شمال أروبا، ودون أن نستطيع تأكيد كونهم قدموا من هذه المنطقة.

ومنها قرابة اللغة الليبية مع لغات أخرى يتكلم بها في جميع الشمال الشرقي لإفريقيا. وربما توجد في قائمة الأسماء الجغرافية علامات تدل على انتشار لغة واحدة أو لغات عديدة هي نفسها في الشمال الغربي الإفريقي وفي أروبا الجنوبية والغربية.

ومنها التشابه الموجود بين أقدم صناعات العهد الحجري القديم في الجنوب الغربي والشمال الغربي للبحر الأبيض المتوسط، والتشابه الموجود كذلك بين صناعات الحجري القديم المتأخرة وبين أقدم صناعات العهد الحجري الجديد في التل وفي جنوب الهضبة الإيبيرية، وأخيرا التشابه الموجود بين صناعات الحجري الجديد المتأخرة في كل من الصحراء ومصر.

ومنها على ما يحتمل، إدخال عدة من الحيوانات المؤنسة من الشرق إلى أرض المغارب كالعنز والكبش في أقدم عهود الحجري

الجديد، وكالفرس والكلب خلال الألف الثانية، والمؤثرات الدينية المصرية أثناء الألف الثانية كذلك.

ويمكن أن نضيف لهذه القائمة التشابه الموجود بين بعض المباني المبنية بحجارة دون ملاط، كدُلْمينات Dolmens إفريقيا والدلمينات التي أقيمت في غرب أوربا في الألف الثالثة، وكالشوشات الإفريقية وطابيات عهد البرنز الموجودة بجزر البحر الأبيض المتوسط الغربي. وقد سبق أن رأينا أننا نميل، رغما عن فقدان البراهين، إلى القول باتخاذ إفريقيا لهذا النوع من المدافن في عهود ما قبل التاريخ. ويمكن أن نضيف كذلك، ولكن مع حذر شديد، التشابه الذي يكاد يكون كليا بين الخزف البربري المعاصر ذي الزخارف الهندسية وبين الخزف الذي كان مستعملا في الألف الثالثة بالبحر الأبيض المتوسط من جزيرة صقلية إلى جزيرة قبرص.

ثم إن التشابه في الخِلقات، ووحدة أصل اللغات يفرضان حدوث هجرات مهمة، ولكن يستحيل أن نقول في أي اتجاه، وعلى أية كيفية جرت هذه التحركات للأقوام. فالصناعات، وأنواع المباني والحيوانات المؤنسة والعقائد، كلها يمكن أن تكون انتشرت من غير فتح عنيف، على يد جماعة قليلة من الأشخاص. ويحسن أن نلاحظ أن القرابات والعلاقات والتأثيرات أمور ممكنة، ولكن دون أن نجعل منها مجموعة عناصر لهندسة مذهب ما، إذ الأمر يتعلق بظواهر تدرجت على سلسلة طويلة من القرون التي يغيب عنا تاريخها كليا.

الكتـاب الثالث

الاستعمار الفينيقي وإمبراطورية قرطاجة

الفصل الأول

الفينيقيون بشمال إفريقيا

تأسيس قرطاجة

1

يمكن القول بأن الاستعمار الفينيقي يكوّن بالنسبة لشمال إفريقيا بداية العصور التاريخية. ونأسف على أن معلوماتنا عن هذا الاستعمار سيئة جدا، إذ ليس بين أيدينا سوى نصوص متأخرة العهد، يصعب، إن لم نقل يستحيل، أن نعرف مصادرها. يقول ديودور الصقلّي : «إن الفينيقيين الذين لم يتوقفوا عن ركوب البحر للتجارة منذ عهد بعيد قد أسسوا كثيراً من المستعمرات على سواحل ليبيا، كما أنهم أنشأوا بعضاً آخر منها بالأقسام الغربية من أروبا» وكانت هذه المراكز، حسب ديودور، سابقة في الزمان على تأسيس قادِس.

ويتحدث سترابون Strabon عن الرحلات البحرية للفينيقيين «الذين وصلوا لما وراء أعمدة هيرَكْليس وأسسوا بهذه النواحي بعض المدن، كما أسسوا أخرى بأواسط ساحل ليبيا بعد حرب طروادة بزمن قليل». ويقول

في مكان آخر إن الفينيقيين تملكوا أجود أقسام إيبيريا وليبيا قبل عهد هومِروس.

أما ڤيلّيوس باتْركُلوس Velleius Patrculus فإنه يذكر عودة الهيركليين إلى البِلوبُنيز، وهو حادث يجعل وقوعه بنحو ثمانين سنة بعد الاستيلاء على طروادة، أي حوالي 1110 قبل الميلاد، ثم يضيف قائلا : «في هذا العهد، فإن اسطول صُور الذي كان مسيطرا على البحرأسس قادِس... بقاصية إسبانيا وفي آخر عالمنا، كما أن أوتيكا Utique تأسست على يد الصوريين بعد ذلك ببضع سنين».

وحسب پْلين الشيخ كانت بعض الجائزات من خشب الأرز النوميدي لا تزال حتى عصره تُرى في أوتيكا بمعبد أپُلّون على الحالة التي وضعت عليها منذ تأسيس هذه المدينة قبل 1178 سنة. وكان كتاب «التاريخ الطبيعي» لِپْلين قد أهدي إلى تيتوس Titus في 77. وعلى هذا تكون أوتيكا قد تأسست سنة 1101 ق.م. وفي رسالة معزوة خطأ لأرِسْطو نقرأ أن «أوتيكا تُعتبر من تأسيس الفينيقيين». وهذا التاريخ يتفق مع ما ذكره پْلين، إذا جعلنا تأسيس قرطاجة في 814-813 حسبما يذكره عدد من النصوص.

وكثير من الكتاب مثل جُسْتان Justin، وپْلين، وإتْيان البيزنطي Etienne de Byzance يقولون – مثلما قال ڤِيلّيوس باتْركُلوس – إن أوتيكا كانت مستعمرة لصور.

أما سيلْيوس إطاليكوس Silius Italicus فيصفها بأنها سيدونية Sidonienne أي صَيْدوية، ولكن هذا "كما سنرى" إنما هو تناقض سطحي. وقد ظن بعضهم أنه عثر على أوتيكا مذكورة في فقرتين عند

المؤرخ يوسف، نقلا عن ميناندر الأفسوسي Menandre d'Ephèse : يقال إن حيرام ملك صور، المعاصر لداود وسليمان، بعث عليها حملة لأنها كانت تمتنع من أداء الجباية له. لكن الأمر في الحقيقة يتعلق بمدينة تقع إما في سورية وإما في قُبرص. ومن المحتمل جدا أن لفظ أوتيكا Utique اسم فينيقي. وقد ذكرت له عدة من الاشتقاقات، ولكن أياً منها لا يفرض نفسه.

وكان يوجد على ساحل المحيط، بالقرب من لِكْسوس Lixus معبد لهركول (هرقل)، وهو – على ما قيل – أقدم من المعبد الذي أقيم لنفس الربّ بجوار قادِس. على أن هذا الزعم، الذي لا يريد بلْين أن يجعله على عهدته، ينبئ على الأقل بأن لكسوس كانت مستعمرة فينيقية قديمة.

أما ميناندر الأفْسوسي، الذي اعتمد على وثائق صورية، فقد ذكر أن مدينة باسم أوزا Auza، أسسها في ليبيا إيتوبعل Ithobaal ملك صور، في النصف الأول من القرن التاسع. ولا شك أنها كانت مدينة بحرية. ويجهل الآن مكانها. ولا يظهر لنا أنها هي مدينة أوزيا Auzia المعروفة اليوم باسم سور الغزلان بولاية الجزائر، والواقعة بداخل البلاد في منطقة عسيرة الوصول.

هذه باستثناء قرطاجة، هي المستعمرات الفينيقية التي لنا عن تأسيسها معلومات تاريخية مضبوطة إلى حد ما.

ويذكر سالوسْت مدناً أخرى من غير إشارة لتاريخها : «وبعد ذلك جاء الفينيقيون، بعضهم ليخفف عن بلاده من كثرة سكانها، وبعضهم حباً في الفتح، بعدما استمالوا إليهم الطبقات الشعبية والمتطلعين للمغامرات. فانتقلوا ليؤسسوا على الساحل مدن هيبون Hippone، وهَدْرُميت Hadrumète ولبْتيس Leptis وغيرها. وعظمت هذه المدن فأصبحت لفينيقيا عمدتها وفخرها».

وكتب سالوست أيضا في فقرة عن لبْتيس – ويقصد لبْتيس الكبرى التي هي لَبْدة بين خليجي سدْرة – فقال : «ومدينة لبتيس كان قد أسسها الصيدَويون الذين أخرجوا على ما قيل من وطنهم بسبب الفتن الأهلية، فأتوا عن طريق البحر للإقامة بهذه الأمكنة». أما سيليوس إيطاليكوس فيعزو تأسيس لبتيس الكبرى إلى الصوريين. كما أن بْلين يذكر لبتيس، – التي هي نفس المدينة على ما يحتمل – على أنها إحدى مستعمرات صور. وكذلك هَدْرُميت، فإنها كانت أيضاً مستعمرة صورية حسب صولان Solin. وكانت هناك مدينتان تحملان اسم هيبو، عرفتا من بعد باسم هيبو رِجْيوس Hippo Regius، وهيبوديْـار هيتُوس Hippo Diarrhytus، إحداهما قرب عنّابة، والأخرى في بنْزَرت. ولاندري أيهما المقصودة عند سالوست. وتوجد نقود ترجع للقرن الثاني ق.م، عليها كتابات فينيقية، قد يلوح منها أن مدينة صَيْدا وصفت بأنها أم لعدة من المدن. ويؤكد موفَرْس Movers أن إحدى هذه المدن هي هيبون التي قيل إن اسمها متمثل في الأحرف الثلاثة الآتية : ... لكن، حتى لو جمعت هذه الأحرف – كما يريد موفرس – وأعطت اسم إحدى المدن، فإن التعرف فيها على هيبو مثلما يقترح موفرس يبقى أمرا مشكوكاً فيه جداً. ويعتقد أن اسم كل من هَدْروميت وهيبو لأصل شرقي، أما لبتيس فيعتبر اسماً ليبيا. وكلها افتراضات مشكوك فيها جداً.

والشاعر سيليوس إيطاليكوس، هل أراد أن يذكّر بحادث تاريخي حين ذكر سكان صَبْراتة، المدينة الواقعة غربي مدينة طرابلس، ووصفهم بأنهم صوريون ؟ يمكن التردد في تأكيد ذلك. ويذكر بْلين نقلا عن إراتوستْين Eratosthène أن ثلاثمائة مستعمرة صورية، قيل إنها كانت فيما مضى موجودة على طول الساحل المحيطي بالمغرب الحالي، وأنها

تهدمت بعد ذلك على يد الأهالي. لكن أرتِميدور Artémidore وسترابون أنكرا صحة هذا العدد المرتفع، الذي يبعد حقيقة عن الصحة.

وفي الموضوع الذي ندرسه، لا يساعدنا، لا علم اللسانيات، ولا علم الآثار على تكميل أو تعديل شهادات القدماء. فأسماء الأمكنة التي ترجع إلى اللغة الفينيقية كثيرة بسواحل أرض المغارب، ولكننا نجهل متى بدئ باستعمالها. ولعلها إنما ترجع لعهد سيطرة قرطاجة التي أسست عدداً كبيرا من المستعمرات البحرية. فلنفس العهد، أو لعهد أحدث منه، ترجع الآثار التي من النوع الفينيقي، والتي اكتشفت حتى اليوم بأمكنة مختلفة.

فما هي إذن قيمة النصوص التي أوردناها ؟ يظهر أن هناك ميلاً لاعتبارها تقريباً غير ذات قيمة. فليس بها – حسب رأي مِلْتزَر Meltzer – سوى أصداء لأنباء مشبوهة ولتوقيت غير مدعم، سجلت في المؤلف التاريخي الذي كتبه تيمِي Timée في القرن الثالث ق.م.

لا شك أن تيمي قد وقع الاعتماد عليه في البحث المعزو لأرسطو. وإنه لمن المحتمل جداً – لا من الثابت كما قيل – أن يكون المقطع المتعلق بتأسيس أوتيكا مأخوذاً منه. كما أن دِيودور الصقلّي استقى كثيراً من تيمي في كتابه الخامس. ونستطيع دون مغالاة في التأكيد، القول بأنه استقى منه في المقطع المذكور سابقاً. أما اسْترابون، وڤِيلّيوس باتركُلوس، وپِلْين، فلا برهان على أنهم استقوا من المؤرخ الصقلي، وكذلك بالنسبة لسالوسْت.

لكن، وحتى إذا كانت النصوص المذكورة لابد من إرجاعها إلى شهادة تيمي وحده، فهل يستحق هذا الأخير أن يقابل بالرفض ؟ إن تيمي كانت بيده معلومات من أصل فينيقي، ولا نرى لماذا قد يكون

حرفها. والفينيقيون أنفسهم لابد أنهم احتفظوا بذكريات عن تواريخ تأسيس بعض المستعمرات. ونعلم نحن أنهم كانت لهم تواريخ للمعابد في كل من المغرب والمشرق. وإن بومْبونْيوس مِيلاَ Pomponius Mela، ليقول ذلك بوضوح عن المعبد الشهير لِهرْكول، المجاور لقادِس، والمعاصر لاشك لتأسيس المدينة. وتساعد أقوال بْلين على افتراض أن الأمر كان كذلك بالنسبة لمعبد أبلّون في أوتيكا، معبد هِركول في لِكْسوس. فهل وقع تحديد مبدإ هذه التواريخ بعد وقتها، وبصفة تحكمية ؟ إن ذلك قليل الاحتمال. فالفينيقيون لم يكونوا متوحشين في نهاية الألف الثانية ق.م. ونعتقد دون عناء أنهم كانوا قادرين على أن يبلغوا لذريتهم تاريخ بعض الأحداث المهمة من حياتهم السياسية والدينية. وفيما يتعلق بأوتيكا، نلاحظ أنها احتفظت فيما بعد بمنزلة ممتازة في إمبراطورية قرطاجة. وهي منزلة لا نجازف كثيرا إذا افترضنا أنها اكتسبتها بما يشبه أن يكون حق التقدم في السن. وأخيراً نذكر بأن التاريخ الذي أورده يوسف عن تأسيس أوزا Auza مأخوذ عن وثيقة صورية (من صُور)، لا عن تيميي.

فليس إذن هناك برهان على أن هذه النصوص المختلفة ترجع لأصل مشترك، وأنها عديمة القيمة. وليس هناك برهان كذلك على أن معلوماتها مناقضة لما هو محتمل. ومن الجلي أنها شهادات لا يُطمأن إليها كثيراً، لأن مصادرها تغيب عنا، ولكن يظهر لنا أن الشك لا يوجب أن نحكم عليها حكماً سطحياً.

وإذا كنا على استعداد لقبول كونها لا تستحق أن ترفض، فلابد من قبول كون الفينيقيين بدأوا يعرفون السواحل الإفريقية قبل نهاية القرن الثاني عشر ببعض الزمان، وأن المعمرين ما كانوا ليغامروا بالذهاب

إلى جهات غير معروفة من قبل. ويحتمل أن الأمكنة التي وصلوا إليها، كانت منذ البداية كثيرة العدد، لأن رحلاتهم البحرية، التي لابد أنها كانت تسير بمحاذاة الساحل، كانت في حاجة إلى سلسلة من المآوي والمحطات حيث يلتجئون إذا اضطرب البحر، وينتظرون الرياح الموافقة، ويتزودون بالماء، وحيث يستريحون من العناء، ويصلحون عطب سفنهم.

وسنعود للحديث على تجارتهم التي كانت نشيطة جداً ورابحة جداً مع جنوب الهضبة الإيبيرية. وكان لابد عند العودة إلى بلادهم من أن يسيروا مع الساحل الإفريقي، إذ يوجد تيار قوي يساير هذا الساحل من مضيق جبل طارق، ويساعد الملاحة من الغرب للشرق. وقد ظن البعض أن مراكزهم الأولى كانت محطات في الطريق المؤدية بهم إلى إسبانيا. وديودور الصقلي بعدما تحدث على الفوائد العظيمة التي جنوها من الفضة المستخرجة من مناجم إسبانيا، والتي نقلوها إلى المشرق على سفنهم، أضاف أنهم بهذا قد ضاعفوا قوتهم إلى حد أنهم استطاعوا أن يبعثوا بجاليات المعمرين إلى مناطق مختلفة، من بينها ليبيا. فإذا صح هذا القول، لزم أن نستنتج منه أن المستعمرات التي سبق ذكرها كانت متأخرة في الزمان عن الازدهار الذي نالته بحريتهم التجارية بنقلها للفضة الإيبيرية. ولكن هذا لا يبرهن على أن الأمر قد كان كذلك بالنسبة لأقدم مراكزهم على ساحل شمال إفريقيا. وكما ذكر ديودور بمكان آخر، إنهم استطاعوا الوصول لهذه السواحل ليتاجروا فيها مع الأهالي، مكتفين أول الأمر بزيارات طويلة إلى حد ما، ثم أسسوا متاجر دائمة. وبعد ذلك بزمان فحسب، قد تكون هذه المحطات التجارية استعملت مرافئ للسفن العائدة من إسبانيا، ولعل عددها تضاعف لتسهيل عودة السفن المحملة بالمعدن الثمين.

نحن نجهل من أين قدم الفينيقيون إلى إفريقيا. لكن يحتمل جيدا أنهم مروا عن طريق صقلية، لاعن طريق الساحل الواقع بين مصر وسدْرَة الكبرى، لأننا لا نعثر بهذه الجهات على أي أثر للمراكز التي قد يكونون أسسوها بها، ذلك أن الملاحة بخليج السدْرَتَيْن كانت خطيرة، بينما كان الوصول أسهل من ناحية الشمال الشرقي.

وفيما كانت تقع مبادلاتهم التجارية ؟ إننا نجهل ذلك أيضاً. ويمكن الاعتقاد بأنهم كانوا ينقلون المواشي والجلود والصوف والعاج وريش النعام، ويسوقون العبيد. وختاماً، يجب الاعتراف بأن أصول تاريخ الفينيقيين بإفريقيا مغشاة بظلام كثيف.

وبعدما تعرفوا على خيرات البلاد، أنشأوا مستعمرات حقيقية، لا مجرد محطات. ويحتمل أن هذه المستعمرات لم تكن كثيرة العدد، لأن المهاجرين لم يكن عددهم كثيرا كذلك. وقد سبق أن رأينا أن النصوص تذكر خمساً أو ستاً من هذه المدن فحسب. ونلاحظ، إذا قبلنا ما ترويه هذه النصوص، أن مواقع المدن اختيرت على العموم اختيارا حسنا. فَأوتيكا أقيمت قرب الذراع البحرية التي تربط بين حوضَيِ البحر الأبيض المتوسط، وحيث مجرى مجردة النهر الكبير، يفتح طريقا نحو الداخل. ولم ينقل هذا النهر مجراه إلا بعد ذلك بكثير، حيث طمّ برسوباته المكان الذي كانت تقوم به المدينة العتيقة، التي لابد أنها أقيمت في أول الأمر على جزيرة صغيرة محاذية جدا للساحل. فلم يكن إذن على المعمرين أن يخافوا هجوما من جهة الأهالي، كما كان باستطاعتهم أن يستعملوا كميناء الممر المائي الضيق الذي كانت هذه الجزيرة تحتضنه من رياح البحر. وكذلك هيبو Hippo التي خلفتها بِنْزَرت، فإنها مثل أوتيكا كان لها ميناء جيد على البحيرة العريضة التي تمتد خلفها، وتصلها

إحدى القنوات بالبحر، وكانت منفذا لناحية صالحة جدا لتربية الماشية. وكذلك هيبو الأخرى (عنّابة)، فإن جبل إيدوغْ ورأس العسّة جعلاها في مأمن من الرياح البحرية الشديدة الخطر. أما هَدْروميت فإنها لم تكن في ملجأ طبيعي حسن، ولكنها كانت تستطيع تصريف منتجات المنطقة التي أصبحت ثروتها الزراعية من بعد مضرب الامثال. ولتعذر وجود مكان أفضل، فإن لبْتيس قد أسست في قحولة نواحي السدْرَتَيْن، على مصب نهر كان يستعمل كميناء لها. وبجوارها كانت الأراضي العالية تكاد تطل على أمواج البحر، وتتلقى أمطارا كافية تنشأ عنها مساحات خصبة تتعارض مع القحولة التي تكاد تعمّ ساحل طرابلس. أما على ساحل المحيط فإن الموانئ الطبيعية قليلة. وقد قامت لِكْسوس أيضاً على أحد الأنهار هو وادي لكّوس بناحية صالحة للماشيَة. وهذه المستعمرات، باستثناء هذه الأخيرة، قد أسست على البحر، لا على مسافة من الساحل كافية لجعلها في منجاة من هجمات قد تأتي من عرض البحر كما هي الحال بالنسبة لأثينا، وأركوسْ، وروما، ومدن الأتروريين. فالفينيقيون - وهم بحارة قبل كل شيء - كانوا يهتمون بأخطار مثل هذه المواقع أقل مما يقدرون منافعها.

فتكاثر السكان بالوطن الفينيقي، والانشقاق الداخلي، ودسائس ذوي الأطماع الذين يجرّون معهم من هم أَدْوَن منهم، كما يجتذبون المغامرين، تلك كانت على ما يقال هي الأسباب التي دعت لهذا الاستعمار. وهناك أمر ممكن - لا يجب تأكيده - هو أن هجرة الكنعانيين الذين طردهم العبرانيون قد ساعدت على مباغتة الساحل الذي كان الفينيقيون يقيمون به. ويظهر أن المدن الجديدة، أو البعض منها على الأقل، قد كانت مؤسسات رسمية، وأن المدينة الأم كانت ثرية بحيث تستطيع القيام بالمصاريف الضرورية.

ومدة الاستعمار التي قد تكون بدأت - حسب النصوص المذكورة - حول نهاية القرن الثاني عشر، لابد أنها دامت عهدا طويلا. وهناك رواية مأثورة - نعتقد بإمكان قبولها - تجعل من نهاية القرن التاسع تاريخا لتأسيس مدينة قرطاجة، وليس من المتأكد أنها كانت أحدث المدن الفينيقية بإفريقيا.

وقد تساءل بعض العلماء : ألم يكن التوسع الفينيقي في غرب البحر الأبيض المتوسط نوعا من التعويض عن خراب مراكزهم بالبحر الإيجي ؟ أي يكونون قد بحثوا ونجحوا في التعويض لأنفسهم بأمكنة أخرى، بعد ما طردوا من الأمكنة التي كانوا يحتلونها، وبعدما ضايق تجّارهم مزاحمون أشداء. غير أن الإلياذة والأوديسة تبينان لنا أن التجارة الفينيقية لم تصب مطلقا بالتدهور في البحر الأبيض المتوسط الشرقي أثناء الثلث الأول من الألف الأولى قبل الميلاد. فهل كانت لهم قبل هذا العهد على سواحل البحر الإيجي ممتلكات ترابية قد يكونون أرغموا على إخلائها، ولا نجد لها أي أثر في ملحمتي هوميروس؟ هذا أمر لم يقم عليه برهان، ويظهر لنا أنه لافائدة في أن نعلق على الموضوع الصعب الذي نتناوله موضوعا آخر ربما يكون أكثر صعوبة.

ويذكر الكتّاب أن هذه المستعمرات قد أسسها الصوريون، كما أن الصيْدَويّين قد ذكروا مرتين، وذلك عند ذكر بعض المدن التي وصفت بمكان آخر بأنها مستعمرات لِصُور. فلفظ "صيْدَويّين" لا يدل هنا بكيفية خاصة على سكان مدينة صيدا، وإنما هو كما في بعض النصوص الأخرى مرادف لكلمة فينيقيين، إذ كان هو الاسم الذي كان الفينيقيون يطلقونه على أنفسهم. فكان إذن يقع حتى على الصوريين. وعلى هذا فلا

موجب للقول مع موفرْس Movers بحقبة من الاستعمار الصيدوي، التي كانت مغايرة للاستعمار الصوري، ومتقدمة عليه زمنا.

وفي نهاية الألف الثانية وبداية الاولى كانت الإمبراطوريتان، المصرية والآشورية قد ضعفتا، واستفاد ملوك صور من ضعفهما، فنشروا على ما يظهر سيادتهم على المدن الأخرى التي على الساحل من نهر الكلْب إلى جبل الكَرْمل، وأصبحت مدينة صور عاصمة حقيقية. وفي عهد هذه السيادة تم تأسيس المستعمرات الغربية. لكن لا يجب أن نستنتج من هذا أن جميع سكانها الأولين كانوا من أصل صوري، إذ لا شك أن هذه المدينة لم يكن باستطاعتها أن تزود المستعمرات بالعدد الضروري من الرجال. ومن المحتمل أن هناك مهاجرين قدموا من المدن الفينيقية الأخرى، وربما حتى من بعض الجهات التي كانت لها علاقات مع صور، مثلا من أرض الكنعانيين، كما قد ظن البعض.

ومن المحتمل أن بعضا من المستعمرات الغربية كانت بدورها منطلقا لهجرات جديدة. فإتيان البيزنطي Etienne de Byzance يذكر أن أَشولا Acholla – اليوم هي العَالِيَة بجنوب المهْدِية، على الساحل الشرقي للقطر التونسي – قد أسسها رجال من ميليتي أي مالْطة، ولا شك أنهم من الفينيقيين المقيمين بهذه الجزيرة. وحسب سيليوس إيطالكوس في أويا Oea أي طرابلس سكّان مختلطون، يتكونون من معمّرين قدموا من صقلية ومن إفريقيا. ويكمن الاعتقاد أن هذه المراكز كانت سابقة في الزمن على ازدهار قوة قرطاجة التي عندما سيطرت على البحر الأبيض المتوسط الغربي، لابد أنها احتفظت لنفسها بمزية تأسيس مستعمرات جديدة به، خصوصا بسواحله الإفريقية. وفيما يخص المحيط، فإن

القادسيين Gaditains كانوا بحارة نشيطين، ولعلهم أنشأوا بعض المحطَات بالساحل المغربي منه، وليس بساحله الأروبي فحسب.

كان لابد للفينيقيين من أن تكون لهم علاقات طيبة مع الأهالي الذين كانوا ينمون تجارتهم، ويستطيعون تزويدهم باليد العاملة القوية والرخيصة الثمن. فتقبلوا بعضا منهم ليعيشوا معهم داخل أسوارهم، ولم يتخلوا – هم أنفسهم – عن التغلغل إلى داخلية البلاد. ولكن ليس هناك ما يشير لقيام مستعمرات بغير الساحل. وقد ذكرنا من قبل مدينة أُوزا Auza التي أسسها الملك إيتوبَعْل، ونفينا افتراض أن تكون هي أوزيا Auzia المعروفة اليوم باسم سُور الغزلان.

2

من بين جميع المدن الفينيقية بإفريقيا، هناك واحدة لعبت دورا تاريخيا عظيما. هي قرطاجة التي قامت مثل أوتيكا وبنزرت على عتبة حوضي البحر الأبيض المتوسط. ففي نهاية خليج عريض تصله مياه مجَرْدة ووادي ملْيان توجد ذراع أرضية كأنها قرنة ناتئة، تفصلها عن القارة تلال عسيرة العبور، وتخرقها في قاصيتها الشرقية سلسلة من المرتفعات التي يمكن الاستناد إليها في الدفاع، ويمتد منها النظر إلى الأراضي المحيطة بها وإلى البحر. وكذلك الكْرَم Kram، فهو جون صغير ينخر في الجنوب الشرقي، ويكوّن ملجأ وإن كان قليل القيمة، كما كانت هناك ثغرة أخرى فامتلأت فيما بعد، وكانت موجودة بالشمال عند سفح جبل البُرج الجديد. فلاشك إذن أن المعمرين الأولين قد أنشأوا ميناءهم في واحد من هذين التجويفين. على أن هذا الموقع الذي كانت له مزايا كبيرة، قد كان في الحقيقة محروما من الماء.

وهناك نصوص مختلفة تذكر أن قرطاجة تأسست في 813–814 قبل الميلاد، وتعطي تفصيلات عن الأحوال التي تم فيها هذا التأسيس. وقبل دراسة هذه النصوص، لابد أن نبحث هل وجدت في عهد سابق مستعمرة فينيقية بنفس المكان.

في النصف الأول من القرن الرابع أكد فيليسْتوس Philistos وهو إغريقي من سرِقوسة Syracuse أن قرطاجة تم تأسيسها على يد رجلين من صور، هما أزوروس Azoros او زوروس Zoros وكَرْخِدون Karchédon، وذلك في تاريخ قيل أنه حسب "أخبار أوصيب Chronoque d'Eusebe"، يتوافق مع السنة الإبراهيمية 803 أي سنة 1213 ق.م. ولقد لقي هذا القول بعض الاعتبار، إذ ردده أدوكس الكنيدي Eudoxe de cnide أحد معاصري فيلستوس، قال : «أسس الفينيقيون قرطاجة تحت قيادة أزاروس – كذا – وكَرخِدون ببعض الزمان قبل حرب طروادة»، ونجده عند أپْيان Appien الذي وصله بوسائط نجهلها، وربما مع تحريف فيما يخص التاريخ، قال : «الفينيقيون أسسوا قرطاجة في ليبيا بخمسين سنة قبل الاستيلاء على طروادة، وكان المؤسسان هما زوروس وكرخدون».

غير أن هذين الإسمين كافيان للدلالة على أن الأمر هنا يتعلق بخرافة ابتدعها إغريقي لم يكن مطلقا أجنبيا عن الشؤون الفينيقية. إذ لم يوجد شخص يدعى كرخدون، وكما سنرى فإن هذا الاسم الإغريقي ليس إلا صيغة محرفة من اللفظ الفينيقي الذي يعني المدينة الحديثة. أما زوروس فمتكوّن من اسم صور المدينة الفينيقية. وكيف حدث لفيلستوس حتى أورد هذا التأسيس المزعوم في عهد سابق على الاستيلاء على طروادة ؟ إننا نجهل ذلك. وكل الافتراضات التي قدمت في هذا الموضوع لاتبعث على الاقتناع.

إن كرْثاكو Carthago هي الصيغة اللاتانية للاسم الذي حرفه الإغريق إلى كرخدون، أي الاسم الذي صيغتُه الفينيقية الصحيحة قَرَتْ حَدَشْت Qart Hadasht ومعناه المدينة الحديثة. وقد كان يعرف هذا كل من كاثون الشيخ وتيت ليف Tite-Live. لكن، هل الذين اتخذوا هذا الاسم أرادوا إطلاقه على مدينة جديدة بالنسبة لمؤسسة أخرى أقدم منها، بنيت بنفس الموقع، لا بالنسبة لواحدة أو أكثر من المدن الأخرى بفينيقيا أو بشمال إفريقيا ؟ لا نستطيع إعطاء جواب أكيد لهذا السؤال.

ويقال إن البرهان على وجود مدينة سابقة في الزمان على قرطاجة هو أننا نعرف اسمها، او أسماءها على الأصح. فسِرْڤيوسْ Servius يؤكد أن «قرطاجة كانت من قبل تدعى بِرْسا Byrsa». وحسب إتيان البيزنطي «إن كرخدون كانت تدعى المدينة الحديثة، وكدميا Kadmeia وأنوسا Oinoussa، وكذلك باسم كاكابي Kakkabé، الاسم الذي في لغة البلاد يعني رأس الفرس». أما أوصيب الذي قال بتأسيسَيْن اثنين، فقد كان يطلق اسم أوريكو Origo على المدينة الأقدم تأسيسا.

غير أن هذا القول يظهر أنه ناتج عن خطأ شنيع، فلربما أن الاسم العلم المزعوم ليس سوى الكلمة اللاتانية Origo التي لم تفهم جيدا. وفي أواخر عهد قرطاجة البونيقية، كان الاسم الذي كتبه الإغريق على صور Byrsa والذي ربما كان معناه في الفينيقية يعني الموقع الحصين، هذا الاسم كان يطلق على تلّ سانلْوي Saint-Louis حيث كان المعقل. ومن المحتمل أن هذا الاسم كان في عهد سابق يطلق على مجموع المدينة التي كانت لاتزال قليلة الاتساع، وكانت تقوم إما بالتل وإما بمكان آخر. ولسنا ندري هل كانت تسمية قَرَتْ حَدَشْت مستعملة آنذاك مع اسم بيرْسا في نفس الحين، أو إن التسمية اتخذت من بعد، كما يظن ذلك

سرفيوس، نتيجة ظروف نجهلها، ربما هي ظروف توسيع المدينة. وهذا الاسم هو وحده الذي استعمل بصيغة كرخدون في النصوص الإغريقية الأكثر قدما، وإن كانت هذه النصوص في الحقيقة لا تصعد مطلقا لما قبل القرن الخامس. وأيا ما كان الامر، فإن سيرفيوس لا يذكر وجود مدينة سابقة في الزمان على التي تعتبر من تأسيس ديدون. وكذلك، فإن إتيان البيزنطي يعطي أسماء كدميا، وأنوسا، وكاكابي لكرخدون لا لمدينة أكثر قدما. والإسمان الأولان لاشك أنهما وصفان أطلقهما على قرطاجة بعض الشعراء الإغريق. أما كاكابي فهو اسم غامض، ولعله كان يطلق على أحد أحياء المدينة.

على أن موقَرْس وآخرين من بعده أرادوا أن يجدوا هذا الاسم في كتابات بعض النقود الفينيقية المضروبة في القرن الثاني ق.م. هذه الكتابات تبتدئ بذكر الصيْدَويين، ويتلوها حرفان يكونان لفظا معناه الأم، ثم تتلوهما عدة أحرف تمثل، حسب موقَرْس، أسماء كمبي Kambé، وهيبون، وكيتيوم Citium، وصور. فكَمْبي تدل عليها الأحرف الثلاثة التي ترد قبل حرفي الأم. ويقول بابلون Babelon : «نلاحظ أحيانا تغيرا في الأحرف الثلاثة»، أي الأحرف التي حسب موفرس تدل على كاكابي. وهكذا يصير كَمْبي أو كاكابي اسما للمدينة التي كانت مستعمرة لصيدا، والتي قد تكون قرطاجة مستعمرة صور، حلت محلها. لكن ليس لدينا أي إشارة جادة بوجود مستعمرة أسستها مدينة صيدا بهذا المكان. أما التغير في الأحرف الثلاثة فلا يوجد حسب علمي إلا بمضرب نقدي واحد، والمحتمل أنه من أغلاط سك النقود. وعلى النقيض من ذلك نقرأ كلمة كاكابي عند إتيان البيزنطي. وإذا كنا نجد صيغة كَمْبي في العديد من مخطوطات أوستاث Eustathe الذي اكتفى بمجرد النقل عن إتيان، فلا شك أن هذه الصيغة مغلوطة. فمعادلة كاكابي لكمبي لم يقم عليها برهان.

وزيادة على هذا، ليس هناك ما يؤكد أن موقرْس - في تفسيره للنقود الصيْدوية - قد رتب الحروف كما كان يجب أن ترتب، وأعطى للألفاظ بعد هذا الترتيب الشرح المصيب.

فنحن نرى إلى أي حد يبلغ ضعف جميع هذه الحجج. وبالتأكيد فإن قرطاجة لم يقع تأسيسها في مكان كان الفينيقيون يجهلونه، ولكن يستحيل تأكيد كونها حلت محل مستعمرة أخرى.

3

وماذا نستطيع ان نعرف عن أصول قرطاجة ؟ لقد تحدث عليها تيمي في تاريخه، وبقي مما حكاه تلخيص كتبه شخص مجهول جمّاعة للأخبار. «يقول تيمي : ثيوسو Theiosso في لغة الفينيقيين كانت تدعى إليسا Elissa وكانت أخت بِگماليون Pygmalion ملك الصوريين. وقد أسست قرطاجة في ليبيا. ذلك أن زوجها كان قد قتله بگْماليون، فجعلت ما تملكه في سفينة وفرت مع بعض مواطنيها. وبعد كثير من المشاق نزلت بساحل ليبيا، حيث أطلق عليها الأهالي اسم ديدو Dido بسبب رحلاتها العديدة. ولما أسست المدينة أراد ملك الليبيين أن يتزوجها فامتنعت عليه. ولكن حيث أن مواطنيها أرادوا إرغامها على ذلك، فإنها أظهرت القيام بحفلة يقصد منها التحلل من أيمانها، وكومت حطبا كثيرا وأشعلت النار بقرب منزلها، ثم ارتمت من دارها في النار».

وفي جُسْتان Justin الذي اختصر المؤرخ الروماني طروگ پومْپي Trogue-Pompée نجد قصة أكثر تفصيلا، نوردها نحن مع اختصار قليل.

كان مُتّو Mutto ملك صور قد عين ولِيين للعهد هما ابنه بِگْماليون وكان لا يزال طفلا، وبنتَه أليسّا، وكانت عذراء ذات جمال كبير. ولكن الشعب مكّن بگماليون من الملك. فتزوجت أليسا من عمها أشرْباص Acherbas كاهن هِركول. وكان عمها نظرا لمنزلته الشخص الأول بعد الملك. وكان أشرباص هذا يملك ثروات كبيرة أخفاها في الأرض خوفا من الملك. وحبا في الاستيلاء على الثروات فإن بگْماليون قتل الشخص الذي كان في آن واحد عمه وصهره. فأضمرت أليسا لبِگماليون حقدا لم يمحه الزمان، ولكنها عرفت كيف تخفيه. فتجهزت سرا للفرار، بعد أن أشركت في مشروعها أفرادا من كبراء مواطنيها الذين كانوا يكرهون الملك كما تكرهه هي. ثم احتالت وعبرت لأخيها عن إرادتها في المجيء لتسكن بالقرب منه. وقالت إنها لاتريد أكثر مما مضى أن ترى بدار زوجها صورة حدادها المحزن. فأسرع بگماليون بالقبول، لأنه كان يظن أن ذَهَب أشرباص سيدخل إلى قصره مع أليسا. غير أن أليسا حملت في المساء على السفن جميع ثرواتها مع الخدم الذين كان الملك قد كلفهم بنقل ما تملكه. وأسرعت إلى عرض البحر، وألزمت هؤلاء الناس أن يرموا في مائه الاكياس المليئة بالرمل، المسدودة بعناية كما لو كانت مشتملة على الفضة. ونادت أشرباص بصوت يائس ورجته أن يتقبل، كهدايا جنائزية، الثروات التي سببت موته، ثم التفتت بعد ذلك إلى الخدم، وقالت لهم إنهم الآن مهددون بأشنع العذاب، لأنهم أسلموا للفرار الثروات التي كان أحد الطغاة يطمع فيها إلى حد أنه قتل أحد أقربائه. فارتعشوا لهذا الإنذار، وقبلوا مصاحبتها في فرارها. وقد لحق بها بعض شيوخ المملكة الذين تجهزوا للذهاب منذ الليلة نفسها. وبعد تقديم قربان إلى هركول الذي كان أشرباص كاهنه، ذهبوا جميعا يبحثون في المنفى عن مساكن جديدة.

فأرسوا أولاً بجزيرة قُبرص. وهناك جاء كاهن يونون Junon مع زوجته وأبنائه ليشارك أليسا في مقدورها، بعد ما نص على أن المنزلة الدينية تبقى إلى الأبد محتفظا بها لذريته. وكانت العادة في قبرص أن يبعث في أوقات معينة إلى ساحل البحر بالبنات الشابات ليجمعن به مهرا بتقديم عفافهن إلى ڤينوسْ. فأمرت أليسا أن يُحمل منهن إلى سفنها ثمانون بنتا ممن لا يزلن طاهرات. وهكذا مكنت الشباب من القرينات، وضمنت النسل للمدينة التي ستؤسس في المستقبل. ومع ذلك فإن بگماليون كان يتجهز لملاحقة أخته، غير أن تضرعات أمه وإنذارات العرافين جعلته يتخلى عن ذلك.

وحين وصلت أليسا إلى أحد خلجان إفريقيا، سعت لتنال مودة السكان الذين أحسوا بالسعادة لوصول هؤلاء الأجانب الذين سيمكنهم الاتجار معهم بالمبادلات. ثم إنها اشترت من الأرض قدر ما يمكن أن يغطيه جلد ثور، وذلك حسبما قالت ليستطيع رفاقها الذين تعبوا في رحلتهم البحرية الطويلة أن يستريحوا قبل ذهابهم. غير أنها أمرت بتقطيع الجلد قطعا ضيقة جدا، فاستطاعت بهذا أن تحتل مساحة أكبر بكثير من المساحة التي كان يبدو أنها تطلبها، ومن هنا كان اسم بِرْسا Byrsa الذي أطلق من بعد على هذا المحل. أما الأهالي المجاورون، فإن الأمل في الربح اجتذبهم فجاءوا بكثرة يحملون للقادمين الجدد كثيرا من البضائع ليشتروها، بل إنهم - أنفسهم - أقاموا بهذا المكان. وجاء من أوتيكا مبعوثون يحملون الهدايا إلى هؤلاء الذين كانوا يعتبرونهم إخوانا لهم، وحثوهم على أن يؤسسوا مدينة بالمحل الذي قادهم الحظ إليه. وكذلك الأفارقة فإنهم من جهتهم كانوا يودون أن يبقى الأجانب. وهكذا تأسست قرطاجة بموافقة الجميع. وحددت إتاوَة سنوية

عن كراء الأرض. وأثناء القيام بالأعمال الأولى استخرج رأس ثور من التراب. وهو نذير بمدينة لابد أن يؤدى عن الربح فيها كثير من التعب، ومقدور عليها أن تبقى دائما خاضعة. لذلك انتقلوا إلى مكان آخر، فاستخرجوا رأس فرس. وهو رمز لشعب يكون محاربا وقويا. فكان هذا هو المكان المناسب للمدينة الجديدة. وقد اجتذبت الشهرة كثيرا من الناس. وفي زمن قليل كان هناك شعب كبير ومدينة عظيمة.

كانت قرطاجة مزدهرة حينما دعا هِيَرْباس Hiarbas ملك المكْسِطانيين Maxitani عشرة من أكابر المواطنين، وصارحهم بأنه يريد التزوج من أليسا، وأن رفضها يجر للحرب. فلم يجرؤ الرسُل على تبليغ ذلك للملكة، ولكنهم استعملوا حيلة من حيل البونيقيين، وذلك أنهم أخبروها بأن الملك يطلب شخصا يريد عن طواعية تعليم أخلاق المتحضرين للأفارقة وله نفسه. وأضافوا قائلين : كيف يمكن العثور على من يرضى بترك قومه، ويذهب عند الهمجيين الذين يعيشون كما تعيش الوحوش ؟ فلامتهم أليسا على الإحجام عن التضحية التي تفرضها مصلحة الوطن. وإذ ذاك أبلغوها الرسالة التي كلفوا بها، وطلبوا منها أن تفعل هي ما تشير به على الغير. ولما فاجأتها الحيلة، ذكرت كثيرا اسم زوجها أشرِباص بدموع غزيرة وتحسر، وأخيرا أجابت بأنها ستذهب إلى حيث يناديها حظها وحظ المدينة. وبعدما أخذت مهلة ثلاثة أشهر، كومت الحطب في قاصية المدينة كأنها ستقدم ضحية وفاء لروح زوجها قبل زواجها الجديد. ونحرت العديد من الضحايا، ثم أخذت سيفا وصعدت على كومة الحطب، والتفتت إلى الشعب وقالت : «إني ذاهبة قرب الزوج، كما أردتم ذلك»، ثم قضت على حياتها. فظلت ممجدة كأنها إحدى الربات، طالما بقيت قرطاجة غير مغلوبة.

إن عدة جزئيات من هذه القصة تشهد ببعض المعرفة عن الفينيقيين وعن قرطاجة، مثل أهمية عبادة هِرْكول، أي مِلْقارْت في صُور، ووجود أرستقراطية في قرطاجة تحتفظ بذكرى أصولها الصورية، والبَغاء المقدس في جزيرة قبرص، والاعتقاد بشدة قدم أوتيكا، وذكر المكان المسمّى ببورسا، وذكر الأتاوة التي أدتها قرطاجة للأهالي زمنا طويلا، وتوارث منصب كهانة يونون، أي أسْتَرْتي Astarté، والأسماء الفينيقية للأشخاص المذكورين في القصة. وقد اكتشفت نقود بونيقية عليها رأس فرس، فلعلها هي التي أوحت بحادثة الاكتشاف الذي وقع أثناء أعمال الحفر.

ومن المتأكد أن خرافة جلد الثور هي من أصل إغريقي، إذ لا تفسير لها إلا بالالتباس بين الكلمة الإغريقية بِرْسا Byrsa التي معناها جلد وإهاب، واسم فينيقي ذي معنى مختلف تماما، وينطق به تقريبا كما ينطق بالآخر.

إذن، فهذه القصة التي ربما أن عدة أجيال شاركت في حبكها، لابد أنها تكونت إما في بيئة قرطاجية متأثرة بالإغريق، وإما عند بعض الإغريق ممن هم على غرار إغريق صقلية، ولم يكونوا يجهلون قرطاجة. فلا سبيل إذن إلى التحقق من ذلك. فإذا حكمنا بالاعتماد على تلخيص "تيمي" Timée المذكور أعلاه، فالقصة لابد أن تكون قد ذكرت في كتاب المؤرخ الصقلي في صيغة لا تختلف حتما عن السياق المفصل الذي نقرأه عند جُسْتان. ولهذا فقد نغرى بالاعتقاد بأن طْروكْ بومْبي Trogue-Pompée قد كرر ما أورده "تيمي". غير أننا إذا وقفنا عند هذا الافتراض، فلابد لنا من التسليم بأن النص اللاتاني الذي وصلنا لم يكن ترجمة أمينة ولا كاملة للأصل الإغريقي. وعليه، فمن المحتمل أن جُسْتان غفل في اختصاره عن

بعض التفاصيل. ومن المحتمل أن بين "تيمي" Timée وبين "طروك بومْبي" Trogue- Pompée وسيطاً أو عدة وسطاء لم يكونوا مجرد نقلة فحسب. ونحن لا نعثر في جُسْتان على الاسم "ديدون" الذي ذكره "تيمي" مصحوبا بذكر اشتقاقه، كما أن انتحار الملكة لم تذكر حكايته بكيفية واحدة عند الكاتبين معا.

ونجد بجهات أخرى أصداء لمرويات شبيهة جدا بما ذكره جُسْتان، مثلما عند فِرْجيل Virgile الذي كان بدوره مصدرا استقى منه عدد من الكتّاب، ومثلما عند أپْيان Appien، وسرفيوس Servius، وأوستاث Eustathe. ولا أعرض هنا لذكر مجيء "إيني" Enée إلى قرطاجة، ولا لعلاقته الغرامية مع ديدون، ولا للدور المعزو إلى "آنا" Anna أخت ديدون. فكل ذلك خيالات شعرية ترجع إلى نايْفيوس Naevius، وفِرْجيل، وأوڤيد Ovide، خيالات علقت بقصة تريد أن تكون تاريخية.

حقيقة أن مختلف الكتاب الذين يعرفوننا بهذه القصة، يقدمونها لنا مع بعض الاختلاف. فسرْفيوس يسمي والد ديدون باسم مطسْ Mettes، ويسمى زوجها سيكارْباص Sicarbas، وهو الاسم الذي عرفه فرجيل وحوّله إلى سوكايوس Sychaeus، وظروف الاغتيال حكيت بكيفيات مختلفة. فحسب فرجيل تراءى سوشي Sychée لديدون وأنبأها بالجريمة التي مات من جرائها، وبالمكان الذي أخفيت فيه ثرواته. وديدون – حسب سرفيوس – استولت، لكي تفر، على السفن التي كانت معدة لجلب القمح من الخارج، والتي كان الملك قد حمل عليها الأموال الضرورية لشرائه. فلما رأت نفسها مضايقة من قبل الرجال الذين بعثهم أخوها لمطاردتها، رمت بهذه الأموال إلى البحر. وذلك ما جعل رجال بِگمالْيون يتراجعون إلى الوراء. ويذكر فِرْجيل من بين رفقاء ديدون شخصا

يسميه بِيتْياس Bitias. والشاعر لم يبتدع هذا الشخص من خياله، لأن سرفيوس الذي ينقل عن تيتْ ليف Tite-Live قال - على ما يظهر - إنه كان يقود سفن المهاجرين. ويضيف سِرْفيوس أيضا أن يَرْباس Jarbas قد صد ديدون في أول الأمر عند وصولها لساحل إفريقيا. وحسب أوستاث فإن رأس الفرس قد استخرج من التراب عند قدم نخلة. ونفس الكاتب يطلق مازيكس Mazikes على الأهالي الذين أطلق عليهم جُسْتان مكسطاني. وسرفيوس الذي يستشهد "بتاريخ بونيقي" كان يعرف شخصا اسمه «يوباص Jopas ملك الأفارقة، وأحد طالبي الزواج من ديدون»، إذ يقال إن عددا من الأمراء الأهالي طلبوها للزواج، كما يذكر ذلك فرجيل أيضا، كما يضيف سيرفيوس أن هذا الأخير أعلن الحرب على القرطاجيين.

ومع ذلك تكاد هذه الاختلافات جميعها أن يكون تفسيرها ممكنا، دون ضرورة للتسليم باقتباسات من قصص مستقلة عن القصة التي أوردها جُسْتان. فمِطِسْ ومُتُّو - ونجد حتى صيغة ميطون - كلها تمثل نفس الاسم الفينيقي الذي معناه "عطية بَعْل" وقد أورده كتاب آخرون بصيَغ مختلفة. وأشِرْباص عند جُسْتان، يظهر أنه تحريف لاسم سيشَرباص، الصيغة القريبة جدا لاسم فينيقي حقيقة. وهي الصيغة التي لابد أن تكون قد ذكرت في الرواية الأصلية. ومن الممكن أن تكون هذه الرواية ذكرت اسم بيتياس، وتحدثت على النخلة، وكلها جزئيات قد أغفلت في قصة أحدث عهدا. أما الاسم السلالي مازيكْس - مازيسس - الذي يُستعمل بكثرة، فربما يكون أُدخل في عهد متأخر، وحل محل صيغة لا نجدها في مكان آخر. والغالب على الظن أن ظهور سيشي Sychée هو من اختراع فرجيل. وكذلك التفصيلات التي ذكرت عن اغتيال زوج

ديدون، وعن الكيفية التي حصل بها الفارون على السفن، فإنها ربما أضيفت للحاجة إلى التدقيق، كما أن تفاصيل أخرى لا تتساوق مع رواية جُسْتان، قد اخترعت من غير أن يبذل فيها مجهود ذهبي.

ويبقى الملك الأهلي يوباس Jopas. ونحن نجهل كيف كان "تيمي" يسمي ملك الليبيين الذي أورد اسمه. فإذا سلمنا أن قصته موجودة عند جُسْتان، لزم أن يطلق عليه اسم هِيَرْباس Hiarbas وأن لا يذكر طالبين آخرين للزواج. ومع ذلك فمنذ النصف الأول للقرن الثاني ق.م، كانت إحدى الروايات المتعلقة بتأسيس قرطاجة تعرف أميرا إفريقيا ليس اسمه هِيَرْباس. وصولان Solin يعرفنا بذلك قائلا : «قال كاتون Caton في إحدى خطبه بمجلس الشيوخ : «في العهد الذي كان فيه يابون Japon ملكا على ليبيا، أسست الفينيقية "أليسا" قرطاجة ودعتها باسم كرثادا Carthada، وهو لفظ في لغة الفينيقيين يعني المدينة الجديدة. وبعد قليل أخذ هذان الاسمان صيغة بونيقية فتحولا إلى إليسّا وكرثاكو». ومن المحتمل جدا أن يابون Iapon هذا ليس إلا يوباسْ المذكور عند سِرْفيوس. ولربما وجب إصلاح يابون باسم يوبان Jopan، الأمر الذي يؤدي بنا إلى اسم يمثل اسم يوباس Jopas ذي النهاية الليبية. ويمكن أن نفترض أن هذه كلها صيغ للاسم الذي كتب في غير هذا المكان على صورة يوباس أي يوبا، وهو الذي سمي به ملكان إفريقيان معاصران لقيصر وأوغسطس.

ففي ذكر هذا الملك علامة قوية على وجود رواية أخرى لا تتطابق تماما مع مصدر جُسْتان. والحق أن فِرْجيل وسِرْفيوس يقولان إن ديدون كان لها عدة من الخطّاب، لكن يظهر أن هذه الجزئية هي من وضع الخيال، الذي أراد بها التوفيق بين روايات متناقضة. وما هو مصدر

كاتون ؟ إننا نجهله. وعلينا أن لا نفكر في "تيمي" إذا كنا نعتقد أن جُسْتان كان يردد صداه بأمان. أما "التاريخ البونيقي" الذي تحدث عليه سِرْفيوس عند الكلام على يوباسْ فيبقى أمره غامضا بالنسبة لنا نحن.

وهناك نص أورده المؤرخ يوسف نقلا عن ميناندْر الأفْسوسي Ménandre d'Ephèse الذي كان يستعمل، كما سبق أن قلنا، وثائق صُورية، سرد فيه أسماء ملوك صُور الذين حكموا لمدة قرن ونصف، مع ذكر معلومات مدققة عن تواريخهم، وذكر لبعض الأحداث التي جرت في عهودهم، فقال : «إن بِگْماليون عاش ستاً وخمسين سنة وتولى الملك سبعا وأربعين. وفي السنة السابعة من ملكه فرت أخته إلى ليبيا وأسست مدينة قرطاجة». فليس هناك أي سبب وجيه للتسليم بأن هذه الإشارة لتأسيس قرطاجة هي من تخريفات ميناندر، وأن هذا الأخير استقاها من "تيمي" مع التاريخ الذي يحدده لها.

ونعود إلى جُسْتان، فيظهر لنا أن لا فائدة في الإلحاح على الطابع الأسطوري لروايته. أما مغامرات أليسّا، فهي من قبيل القصص، ولربما أن بعض خطوطها استعيرت من القصص الشعبية، حيث إن أساس أحد فصولها هو التلاعب بالألفاظ، وأساس الفصل الثاني على ما يظهر، هو الصورة المنقوشة على بعض النقود.

بل لقد اعتقد البعض أن باستطاعته تأكيد كون الأشخاص الذين يظهرون في هذه الأسطورة آلهة فينيقية وليسوا من الناس. فبالنسبة لأليسا، فإن جُسْتان نفسه يقدم السند لهذا الرأي : «طالما بقيت قرطاجة غير مغلوبة، فإن أليسّا نالت التمجيد كإحدى الربّات). ولذلك أكدوا أن أليسا ليس سوى صفة لأَسْتَرْتي Astarté معناها "المِفراح". وبالنسبة لبكماليون، فإن اكتشافا وقع بقرطاجة منذ نحو من عشرين سنة، في قبر

يمكن التاريخ له بالقرن السادس، فظهر - أي الاكتشاف - وكأنه التأكيد الواضح للنظرية التي رفعت بكماليون إلى الألوهية، إذ نقرأ على مدلاة من عقد ذهبي هذا التوسل باللغة الفينيقية. ونحن نورد ترجمته نقلا عن فيليب بيرجي Philippe Berger : «إلى أَسْتَرْتي، إلى بكْماليون، ويَدَملِكْ Jadamelek ابن بَدايْ Padaï، خلّص، ليخلّص بكماليون !) وهيَرْباس وصفه فِرْجيل بأنه ابن جوبِتْرحَمّون. فتعرف عليه موقِرْس بأنه إله كان يُعبد في إفريقيا، وكان الإغريق يطلقون عليه اسم يولؤوس Jolaos، ويعتقد ملْتزر أيضا أن الأمر يتعلق بإله ليبي. كما يظهر أن أحد الشعراء الغنائيينَ الإغريق، ربما هو بِنْدار Pindare، قد تكلم عليه. قال «الليبيون يقولون أن يَرْباس، أول مولود من الرجال، لما خرج من السهول الجافة قطف بلوطة زِيوس اللذيذة».

وبالرغم من كون كتابة قرطاجة بقيت غامضة، فإننا لا نستطيع إنكار الدليل الذي تقدمه على وجود إله فينيقي باسم بكْماليون، المماثل على ما يحتمل للإله الذي - حسب وثائق أخرى - قد وقع الظن بأنه سمّي باسم بومايْ Pumai. ولكن المتأكد هو أن الإغريق قد كتبوا صيغة بكماليون اسما لرجل. فبهذا يسمي ديودور الصقلي أحد ملوك جزيرة قبرص الذي كان معاصرا للإسكندر، وهكذا سمّى ميناندر ملك صور الذي جعل في عهده تأسيس قرطاجة. وفيما يخص بكماليون القبرصي، لدينا كتابة فينيقية تذكره، وتبرهن على أن اسمه الحقيقي هو بوماي يَطون Pumaïjaton. فلعل الظاهر كان كذلك بالنسبة لملك صور.

وفي أحد النذور الفينيقية ذكر اسم صاحبة النذر وهو إليشات Elishat، وفيه نعرف الاسم الذي كتبه الإغريق بصيغة إليسا Elissa، والذي كان يحمله مجرد الناس. والحق أن القرطاجيين، رغما عن بعض

الشهادات المشكوك فيها، لم يؤلهوا الناس على ما يظهر. ولكن، ألا يمكن أن نفترض أن الإغريق خلطوا بين المرأة التي اعتبرت مؤسسة قرطاجة، وبين إلهة كانت تعتبر الحامية الخاصة لهذه المدينة، وتعتبر مدبرة مولدها ومقاديرها، أي إلهة تحمل وصفا ربما يشير إليها كمؤسسة للمدينة ؟ فلعل الإغريق الذين اعتادوا عبادة الأبطال، عثروا دون مشقة في هذه المعبودة على أليسا التاريخية أو التي يظن أنها تاريخية.

أما الاسم "ديدو" الوارد عند "تيمي" ونايفيوس Naevius وأنيوس Ennius، فقد غلب استعماله على الاسم "أليسا" بسبب استعمال فرجيل له على ما يظن، وإن كان لم يسبب نسيانه. وهناك نص من فلِّيوس باطِرْكلوس Velleius Paterculus يغري بالاعتقاد بأنه لم يكن مقبولا لدى الجميع، وربما أن ذلك هو السبب في عدم ذكره في الرواية التي أوردها جُسْتان. فأليسا حسب تيمي لم تنل هذا الاسم إلا في إفريقيا، بل إن سرِفْيوس يقول إنه لم يطلق عليها إلا بعد موتها. وقد سبق أن رأينا ان تيمي يدّعي بأن الليبيين سموا أليسا به بسبب رحلاتها المتعددة. ويؤكد آخرون أن ديدو معناها في اللغة البونيقية "امرأة رَجُلة"، أو كانوا يعطونه معنى "قاتلة زوجها". ولكنها تأويلات يحتمل أنها عارية عن كل قيمة. وكذلك المحدثون، فإنهم اقترحوا اشتقاقات مختلفة من اللغة الفينيقية، وحتى من الإغريقية. وهكذا يكون معنى ديدو "التائهة" (وهذا المعنى ذكره تيمي) أو "المحبوبة" (لِبَعْل) أو يكون معناه "الملاك حارس المكان"، أو "التي تهب". وربما أن هذه التسمية أطلقت على إلهة قد تكون هي أسْترْتي، أو هي التي اعتاد الناس أن يسموها تانيت Tanit، ولكنها تخمينات واهية. وعلاوة على هذا، فلو كان لها أساس من الصحة، لما ساعدت على أي استنتاج ينكر وجود امرأة تدعى باسم أليسا، إذ لا

يستحيل قبول كون المرأة والإلهة متميزتين إحداهما عن الأخرى. والحقيقة هي أننا نجهل أصل هذا الاسم والأسباب التي جعلته يلتصق باسم أليسا.

أما عن هِيرْباس أو يَرباس، فإن البراهين التي أدلى بها موڤَرْس لتمثيله في شخص الإله الفينيقي يولَؤُوس Jolaos واهنة جدا. ولا يحسن الوقوف عند أبيات فِرْجيل الشعرية التي تقدمه لنا ابناً لحَمّون وللحورية گرَمانتيس Garamantis. فلا شك أن هذه إنما هي طريقة شعرية لتعريفنا بأنه من الأهالي. فيرْباس الذي ذكره الشاعر الغنائي الإغريقي لم يكن إلها، وإنما كان أول مولود من الجنس الإنساني. ونفس الاسم - هيرباس - حمله شخص عُرف في التاريخ حقيقة، وهو ملك نوميدي من أهل القرن الأول ق.م.

وكذلك سيكارْبَعْل Sikarbal اسم زوج أليسا، فإنه اسم حمله العديد من القرطاجيين. ولا نعرف أي معبود فينيقي سُمّي بهذا الاسم.

إذن فلم يقم برهان على أن الأشخاص الذين لهم دور في رواية جُسْتان هم من الآلهة، والمؤكد هو أن أسماءهم حملها أشخاص.

وهل كانوا موجودين ؟ إن هذا لا أهمية له بالنسبة للشخصين الثانويين سيشَرْباص وهِيَرْباس الأمير الأهلي المزعوم الذي يحتمل أن اسمه فينيقي. أما بِگماليون فليس شخصا وهميا. وقد كان مذكورا في الوثيقة الصورية التي نقلها ميناندْر، وهي وثيقة لابد أنها حررت بالاعتماد على وثائق رسمية. ونظرا لمحتواها فإنها تبعث على الاطمئنان. فالمعلومات التاريخية الواردة بهذا النص، إذا ضمت لما يمكن أن نعرفه عن تاريخ سورية، فإنها تساعدنا على التأريخ لعهد

بكماليون بأخر القرن التاسع، أي بعهد لا يتنافى مع الصواب أن نجعل قرطاجة تتأسس فيه.

أما وجود أختُ لبِگماليون، تكون قد سمّيت باسم أليسّا، وهاجرت إلى إفريقيا فقد أنكر بشدة، والواقع أنه قابل جدا للإنكار. لكن – ومع العلم بأننا قد نتهم بانعدام النقد عندنا – فإننا نعترف أن وجود أليسّا لا يبدو لنا غير مقبول تماما. فميناندْر الأفْسوسي وكاتونْ تحدثا على أليسّا، وإن كان أولهما لم يذكر اسمها، ولا يظهر أنهما اعتمدا على الرواية التي وصلتنا عن طريق جُسْتان.

4

وعلى كل حال، فيجب قبول شهادات النصوص العديدة التي تؤكد أن قرطاجة قد كانت مستعمرة لصور. فهل تأسست على يد الفارّين ؟ ورغما عن إرادة حكومة صور؟ يمكن الشك في هذا لأن قرطاجة بقيت من بعد متحدة اتحادا متينا مع أمها. فلمدة قرون وهي تعبّر لها عن تعلقها بها، بل وعن خضوعها بإجراء مظاهر التكريم الرسمية. وفي كل سنة كان الرسل يذهبون للاحتفال بتقديم قربان في معبد هرْكول (أي ملْقارْت) بصور. وتحمل السفارة هدية كانت في الأول تمثل عُشُر جميع مداخيل الجمهورية، حسبما ذكره ديودور الصقلي الذي أضاف قوله : «وبعد ذلك تضاعفت كثيرا ثروات القرطاجيين ومداخيلهم، فاكتفوا بعطاءات أقل. لكن الأخطار التي هددتهم بها حملة أگاطُكل Agathocle جعلتهم يندمون، فبعثوا إلى هركول الصوري مقادير طائلة من الأموال وهدايا ثمينة. أما السفن التي كانت تحمل إلى صور الهدايا الموجهة للآلهة، فإنها كانت لا تزال تُذْكر ببعض سنين قبل تدمير قرطاجة. كما

ذكرت هبات فائقة قدمت بعد الانتصارات في الحروب. من ذلك عشر الغنائم التي غنمها ملْكوس Malchus في صقلية في القرن السادس، وحمله ابن هذا القائد تنفيذا لأمر القرطاجيين إلى هركول الصوري، وفي أواخر القرن الخامس بعث إلى صور تمثال أبلون من البرنز، أخذ من معبد مجاور لمدينة جيلا Géla، ووضع على ما يحتمل بهيكل هركول.

في معاهدة أبرمت مع رومة في القرن الرابع، ذكر القرطاجيون بجانب اسمهم، أنهم صوريون. وقد تشجع الصوريون في مقاومتهم للأسكندر مع الأمل بأن قرطاجة ستساعدهم. وإذا كانت قرطاجة لم تتدخل في الحرب، فإنها على الأقل تقبلت عددا كبيرا من النساء والأطفال والشيوخ الذين غادروا مدينة صور المحاصرة. فمتى أسست صور هذه المستعمرة ؟

لقد دُمّرت قرطاجة كما نعلم سنة 146ق.م، وعاشت نحوا من ستمائة سنة على قول سِيسرُون Cicéron، أو سبعمائة على قول تيتْ ليڤْ Tite-Live وأپْيان Appien. وهذه الأرقام كلها تقريبية. وهناك نصوص اخرى أكثر دقة. فَتيمِي الصقلي، حسب رواية لِدونيس الهالكَرْناسي Denys d'Halicarnasse كان يجعل تأسيس قرطاجة بثمان وثلاثين سنة قبل الألعاب الاولمبية الأولى. وهذا التاريخ يوافق سنة 814 أو 813 إذا أدخلنا في الحساب السنة الأولى والسنة الأخيرة. لكن سيسرون في كتاب "الجمهورية" يذكر تسعاً وثلاثين سنة، كما يذكر أيضا بكم سنة تقدم تأسيس قرطاجة على تأسيس رومة. غير أن لفظ ستين Sexaginta، الذي نقرأه في المخطوط المبتور، كان لابد أن يتمم برقم آخر. ويذكر فيلْيوس باطِرْكُلوس فارقا من خمس وستين سنة، ويجعل لقرطاجة مدة ستمائة وسبع وسبعين سنة، وهذا الرقم يؤدي بنا إلى سنة 813.

ونجد 814 إذا أضفنا خمسا وستين سنة لسنة 750 751 الموافقة لتاريخ روما الذي يقول به بوليب وغيره مع عد السنتين الأولى والأخيرة. وكذلك، فإن رقم ستمائة وثمان وستين سنة الذي يؤدي بنا إلى 813 و 814 إذا عددنا السنتين الاولى والأخيرة، موجودة "في الأخبار" للقديس جيروم، مصحوبا في الحقيقة بتاريخ آخر، يقول : «قرطاجة سقطت في يد الرومانيين بستمائة وثمان وستين، أو كما يؤكد آخرون بسبعمائة وثمان وأربعين سنة بعد تأسيسها» والفارق الذي يذكره سيرْفيوس بين تأسيس قرطاجة وروما هو ستون أو سبعون سنة، فإذا اتخذنا الرقم الأول وقبلنا العمل بالتاريخ الذي يقول به ڤارون Varron لتأسيس روما وقعنا على سنة 813. وهناك فقرة لجُسْتان تذكر، كما وصلت إلينا فارقا من اثنتين وسبعين سنة. واقترح بعضهم إصلاح هذا الرقم باثنتين وستين، فإذا عددنا السنَتَيْن الأولى والأخيرة، وانطلقنا من تاريخ ڤارون وصلنا إلى 814. وحسب صُولاَن وقع تدمير قرطاجة بعد أن دامت ستمائة وسبعا وسبعين سنة، فإذا أصلحنا بتحويل الرقم 667 عُدنا إلى الرقم الذي ذكره فيليوس وإلى تاريخ 813.

فلدينا إذن مجموعة من النصوص تُثبت تأسيس قرطاجة في نهاية القرن التاسع. فالبعض منها يذكر تاريخا موافقا بالتأكيد لسنة 814 - 813 قبل الميلاد، والبعض الآخر يعطي إيضاحا مماثلا إذا أدخلنا عليه تحويلا طفيفا.

أما ميناندر الأفْسوسي الذي اعتمد وثيقة صورية، فبِدَوره كان يجعل تأسيس قرطاجة في السنة السابعة من حكم بِگماليون. وفي الحالة الراهنة لمعلوماتنا، لا نستطيع تأكيد كون هذا التاريخ يتوافق تماما مع 813-814. ولكن لا مانع من قبول هذه الموافقة، إذ يحتمل جدا أن بگماليون كان ملكا على صُور في هذا التاريخ.

وتاريخ 813 -814 كان هو التاريخ الذي سجله "تيمي" في مؤلفه. ولم يقم برهان على أنه اختلقه. ولقد كان بمستطاعه، لأنه إغريقي من صقلية، أن يكون له اطلاع على ما يعرفه القرطاجيون عن ماضيهم. غير أننا لا نرى لماذا قد يكون هؤلاء القرطاجيون نسوا تاريخ تأسيس مدينتهم. بل يمكن أن نفترض أن قرطاجة – على غرار الكثير من المدن الفينيقية – كان لها تاريخ رسمي يصعد إلى أولياتها. وليس من المتأكد – كما يثبت ذلك مِلْتزِر – إن نصوص الكتاب الآخرين مأخوذة من تيمي. والحقيقة هي أننَا نجهل المصادر التي ربما هي متنوعة والتي استقوا منها.

إن تاريخ 813 -814 ليس بعيدا عن الصواب فقرطاجة كانت موجودة في القرن السابع، أي في العهد الذي حفرت فيه أقدم المقابر التي اكتشفت حتى يومنا هذا في جبانات المدينة البونيقية. ويقال إن المدينة، حوالي منتصف نفس القرن، أنشَأت مستعمرة في جزيرة يابسة Ibiça، الأمر الذي يبرهن على أنها كانت آنذاك تحتل بالبحر الأبيض المتوسط مكانة مهمة، والمعتقد أنها لم تحتل هذه المكانة في بضع سنوات. ومن جهة أخرى فمعلوماتنا فقيرة جدا فيما يتعلق بتاريخ الغرب قبل هذا الوقت، إلى حد أن عدم وجود أي ذكر لقرطاجة في القرن الثامن والنصف الأول من القرن السابع لا يسوغ لنا الشك في وجودها.

ونقول إذن، في ختام هذا الفصل، إن قرطاجة أسسها الصوريون بالتأكيد، وأن التأسيس كان على أرجح الظن في سنة 813-814 في عهد الملك بِگماليون، (أو ربما پوماي يَطُون).

وإذا كنا نعتبر قبلَ الأساطيرِ تلك التفاصيلَ التي ترويها النصوص القديمة عن هذه الحادثة، فإننا لا نمتنع كثيرا عن الاعتقاد بأن أُختاً لبگماليون، هي أليسّا، كان لها ضلع في هذا التأسيس.

الاستعمار الفينيقي وإمبراطورية قرطاجة

الفصل الثاني

تكوين إمبراطورية قرطاجة

1

في الغرب، لم يستوطن الفينيقيون بالساحل الإفريقي فحسب، بل استوطنوا بسواحل أخرى من البحر الأبيض المتوسط، وحتى على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق.

وليس هناك في الحقيقة ما يؤكد أنهم أنشأوا مستعمرات بسواحل إيطاليا وغاليا La Gaule، فعلى أكثر تقدير، يمكن التسليم بأن بعض تجّارهم زاروا هذه الجهات وأنشأوا بها بعض المتاجر، ولربما يكونون حملوا إلى إتْروريا Etrurie وإلى اللاتْيوم Latium وكمْبانيا Campanie بعض الحاجيات الصغيرة التي هي من صنع مصري وفينيقي، والتي وضعت في مدافن نهاية القرن التاسع، والقرن الموالي له، والنصف الأول من القرن السابع، وكذلك بعض الأكواب الفضية الفينيقية التي ربما وصلت في نهاية هذه الحقبة إلى كرْفيتري Cerveteri وإلى مدينة بْرِنيسْت Preneste. أما أسماء الأماكن التي عدّها فينيقيةً عددٌ من

العلماء، فليس من بينها سوى اسمين أو ثلاثة يمكن أن نعترف لها بهذا الأصل من غير أن نجانب الصواب كثيرا.

ومن المؤكد أن هناك خطأ في جعل الفينيقيين أصحاب الحضارة المزدهرة التي كانت مهيمنة على جنوب إسبانيا في أواخر عهد الحجري الجديد. بل يجب الاعتراف بأنه لا يوجد إلى اليوم وثيقة أثرية تشهد بوصولهم لهذه المنطقة قبل نهاية القرن السابع، بينما شهادات الكتّاب القدماء لا تعوزونا. وإذا لم يكن من المستحسن قبول هذه الشهادات بثقة عمياء، فلربما أنها لا تستحق كذلك ما يقابلها به بعض العلماء من رفض وزراية. يقول ديودور : «إن أرض الإيبيريين تحتوي على أكثر وأحسن مناجم الفضة المعروفة... وكان الأهالي يجهلون استعمالها. لكن الفينيقيين لما أتوا للتجارة... اشتروا هذه الفضة مقابل كمية ضئيلة من البضائع. ولما حملوها إلى إفريقيا وآسيا وإلى الشعوب الأخرى كسبوا بذلك ثروات عظيمة... وهذه التجارة التي زاولوها مدة طويلة ضاعفت قوتهم وساعدتهم على أن يبعثوا بعدد من الجاليات إلى صقلية والجزر المجاورة، أو إلى ليبيا وسردانية وإيبيريا». ولقد ذكرنا في بداية الفصل السابق فقرتين لِسْترابون، تقول إحداهما إن البحارة الفينيقيين ذهبوا إلى ما وراء أعمدة هرقل، وأسسوا مدناً بهذه الجهة بعد حرب طروادة بقليل، والفقرة الثانية منها تؤكد أن الفينيقيين كانوا يملكون أحسن قسم في أرض إيبيريا، وذلك قبل عهد هومِروس. كما أن أَبْيان يقول : «إن الفينيقيين بقيامهم منذ عهد بعيد جدا بعدة رحلات إلى إيبيريا ليزاولوا التجارة بها، يظهر لي أنهم احتلوا قسما من هذه المنطقة».

إن أشهر المراكز الفينيقية بإسبانيا كان هو گَدير Gadir المعروف باسم كادس Gades الرومانية (Cadix الآن). وقد أقيم فوق جزيرة

مجاورة لمصب "الوادي الكبير" Guadalquivir . ولا شك أن اسم هذا المركز فينيقي، كما يذكر ذلك پْلين، وفِسْتوس أَفينوس Festus Avienus، ومعناه، "المكان المحوط". وهناك نصوص عديدة تؤكد أن گدير كان مستعمرة لصُور. ولكن ظروف تأسيس هذه المستعمرة تبقى غامضة جدا. ويجعَله ڤِلْيوس باطِرْكُلوس حدث عند رجوع الهيركليين إلى اليِلوبُنيز، ببضعَ سنين قبل تَأسيس أوتيكا، وذلك يتوافق مع نهاية القرن الثاني عشر ق.م. ولم يذكر ديودور تاريخا مضبوطا لهذا التأسيس، ولكنه يسجل أن هذه الحادثة كانت مسبوقة بعهد من التجارة والاستعمار في البحر الأبيض المتوسط الغربي. يقول : «لما نجح الفينيقيون في مشاريعهم، جمعوا ثروات عظيمة وعزموا على الملاحة في البحر الذي يمتد خارج أعمدة هرقل والذي يعرف باسم الأقْيانوس. فأسسوا أولاً في أروبا قرب ممر الأعمدة مدينة أطلقوا عليها اسم گديرا Gaderra».

هذه النصوص لا تعرّفنا متى ولا كيف عرف الفينيقيون جنوب إسبانيا. لكن معاملاتهم بها أصبحت رابحة جدا بحمل الفضة التي كانت كثيرة بالبلاد، والتي كان الأهالي يجمعونها ليبيعوها لهم. وبعد المتاجر التي كان المعدن الثمين فيها يبدل بأشياء قليلة القيمة، تأسست مستعمرة حقيقية. فقادِس التي كانت تتحكم في جهة غنية وآهلة بالسكان، ويسقيها "الوادي الكبير" Guadalquivir، وتكاد تكون واقعة على باب البحر المحيط، كانت مهيأة لتصبح المخزن الكبير للتجارة البحرية فيما وراء المضيق. ولا يظهر لنا أن واحدا من العلماء قد أوضح عدم صحة التاريخ الذي ذكره ڤِيلْيوس باطِرْكُلوس، وما ذكره بكيفية أكثر إبهاما كل من سْترابون وپُمْبونْيوس ميلاَ. وهل أنشأ الفينيقيون مستعمرات أخرى بجنوب إسبانيا وجنوبها الشرقي ؟ ذلك ما لا نستطيع

الإجابة عليه. وعلى كل حال، ليس هناك ما يسوغ الاعتقاد بأنهم احتلوا أراضي شاسعة من وراء الساحل.

وقد استغلوا عدة قرون هذه المنطقة التي كانت التوراة، نقلا عنهم دون شك، تسميها أرض طَرْشيش Tarshish، ودعاها الإغريق أرض طَرْطِسّوس Tartessos. وكان تعبير "سفن طرشيش" يعني السفن التي، بالنظر لشكلها وأحجامها، كانت لا شك صالحة للقيام برحلات بحرية طويلة وبحمولات ثقيلة. ويخبرنا كل من أرمِيا وحزْقِيال أن السفن كانت تنقل المعادن، وتؤكد شهادتهما التي تؤرخ بأوائل القرن السادس ما أورده ديودور. فلا شك أن الفضة كانت تستخرج من طَرْطِسّوس نفسها. ومن بين المعادن الأخرى القصْدير الذي كان يستخدم مع النحاس في صنع البرُنْز، كان يأتي على ما يحتمل من جهة أبعد. وربما أن سفنا ببحارة إسبانيين، أو حتى فينيقيين، كانت آنذاك تذهب إلى مدخل بحر المانْش لحمله إلى مخازن قادِس.

ويعترف تُوسيِديد Thucydide بوجود مراكز فينيقية قديمة بصقلية، فيقول : «إن الفينيقيين احتلوا، حول صقلية، جميع الرؤوس التي تتقدم في البحر وجميع الجزر الصغيرة الواقعة بجوار الساحل، وذلك لمزاولة التجارة مع السيكوليين. لكن عندما قدم الإغريق عن طريق البحر وفي عدد ضخم، فإن الفينيقيين تخلوا عن أكثر هذه الأمكنة وتجمعوا في موتْيه Motyé وسولويْس Soloeis وفي بانُرْموس Panormos قرب الإيليميين Les Elymes، لأنهم كانوا يطمئنون لتحالفهم مع الإيليميين، ولأن البعد من هنا بين صقلية وقرطاجة هو أقصر مسافة». ويذكر ديودور – كما أوردنا ذلك في فقرة سابقة – المستعمرات التي أنشأها في صقلية الفينيقيون الذين أثْروا بتجارة الفضة الإسبانية.

وزيادة على هذين النصين المتعلقين بالجزيرة الكبيرة، أضيفت الأسماء الجغرافية التي ظهر أنها من اللغة الفينيقية. لكن يستحسن أن نختصر كثيرا القوائم التي حررها موفَرْس وعلماء آخرون، بحيث لا يحتفظ على الأكثر إلا بأربعة أو بخمسة من الأسماء على ما يظهر. فصقلية التي أجريت فيها تنقيبات واسعة لم تعط وثائق أثرية - شأنها في هذا شأن إسبانيا - تشهد بوجود استعمار وتجارة للفينيقيين على نطاق واسع في نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى.

ويجب أن لا تدفعنا هذه الملاحظة إلى المغالاة في تقدير دورهم في تاريخ الجزيرة. وربما يجب أن لا تدفعنا لرفض ما يورده توسيديد Thucidide. وزيادة على هذا، فإن جنوب صقلية وجنوبها الغربي كانا معا على الطريق البحرية الرابطة بين موانئ سورية ومناجم الفضة بإسبانيا. أياً ما كانت الأسباب التي أوصلت الفينيقيين لهذه الجزيرة، فلا يمكننا الشك في أنهم احتلوا بهذه الجهات مراكز لِرسْو السفن، على غرار تلك التي كانت تتجه أيضا نحو سواحل أرض المغارب. وهذا لا يبرهن على أنهم أنشأوا بصقلية مستعمرات زيادة على المرافئ والوكالات التجارية التي ليس سكانها قارين، والتي هي معرضة للزوال، قبل أن يتجمعوا في موتْيِيه وبانُرْموس وسولويْس. إذ لربما في هذا الوقت قامت المدن الحقيقية بهذه الأماكن الثلاثة. فمُوتيه بُنيت في جون أمين يمتد شمال رأس ليليبي Lilybée الذي هو أقرب مكان في صقلية إلى إفريقيا. وبنيت بانُرموس - هي اليوم بالِرْم - بداخل خليج جميل وفي طرف أرض خصبة، كما أقيمت سولويس - هي اليوم صولونْت Solonte وهي أقل أهمية - فوق الرأس الذي يتقدم بين خليج بالِرْم والخليج الذي يرتمي فيه نهر هيمير Himère.

ولا شك أن الفينيقيين استقروا في مالْطة وكوزو Gozzo وبنْتلاَرِية Pantelleria. وكلها جزر منتشرة بين صقلية وإفريقيا. وكانت تضمنَ لهم المرور بين حوضي عباب البحر. ولابد أنهم احتلوا بعض الأماكن بجنوب سرْدانية وجنوبها الغربي، ولربما في الباليار وجزيرة يابسة Ibiça. وكلها محطات في رحلاتهم البحرية خلال حوض البحر الأبيض المتوسط.

وقد كتب ديودور قائلا : «إن جزيرة ميليتي – مالْطة – قد استعمرها الفينيقيون الذين استولوا على هذا الملجأ الواقع في وسط البحر، والذي به موانئ حسنة، وذلك لما نشروا تجارتهم حتى البحر المحيط الغربي». ويضيف أن گاولْوس – أي گوزو – التي لها نفس الموقع، بها كذلك موانئ حسنة، قد استعمرها الفينيقيون أيضا. ويتحدث في مكان آخر على مستعمرات مختلفة أنشأها الفينيقيون في الجزر المجاورة لصقلية وفي سردانية، تبعاً لازدهار تجارتهم مع إسبانيا.

فمن بين هذه المراكز في سردانية، ربما وجب أن نعدّ كَرَلِيسْ – التي هي اليوم كاگْلياري Cagliari – الميناء البديع، المتجه في آن معا نحو صقلية وإفريقيا، وكذلك نورا Nora على شبه جزيرة صخرية بالجنوب الغربي لخليج كاگْلياري، وسُلْسي Sulci في جزيرة بالجنوب الغربي لسردانية، وثاروس Tharros على الساحل الغربي، بمواجهة الباليار بشبه جزيرة تغلق جوناً عريضاً من ناحية الشمال الغربي.

أما مالطة، فلربما أن الاستعمار الفينيقي ازدهر بها إلى حد أن انتشر وبلغ إفريقيا. وقد رأينا من قبل أن أشولا Acholla، على الساحل التونسي الشرقي، كانت تعتبر من إنشاء المالطيين.

وكذلك جزيرة بَنْتلاَّرِية التي ينتهي ساحلها بأجراف وعرة، وبها مع ذلك ميناء صغير بناحية الشمال الغربي، فيظهر أنها بقيت رسميا

مستقلة عن قرطاجة إلى القرن الثالث ق.م. ولربما أنها كانت تتمتع بهذا الوضع الممتاز نظرا لأنها كانت مستعمرة فينيقية قديمة. واسم إيرانيم Iranim الذي أطلق عليها هو اسم فينيقي، وعلى ما يحتمل، كذلك اسمها الآخر الذي هو كوسّورا Cossura.

2

عند بداية القرن الخامس، كانت قرطاجة أول قوة بحرية وتجارية في الأبيض المتوسط الغربي، وكانت تتزعم قانونيا أو فعليا المدن الفينيقية الأخرى المنضودة على سواحل هذا البحر. فكيف تكونت لها هذه العظمة ؟ نكاد نجهل ذلك جهلا تاما، ولكننا نستطيع أن نستشف الأسباب. وأهمها كان، بالنسبة للفينيقيين الغربيين، هو الوقوف في وجه الزحف الهيلّيني.

إن الأوديسة تُرينا مَلِكَ إيتاكا تائهاً في مختلف نواحي الغرب. وكما يظن سْترابون فمن المحتمل أن معلومات جغرافية من أصل فينيقي قد استخدمت في الملحمة الهوميرية. والحق أن فضول الإغريق كان آنذاك يتجه نحو هذه الجهات البعيدة ويثير أطماعهم.

فمنذ النصف الثاني من القرن الثامن أنشأ الخَلْقيديون والكورَنْثيون والميگارِيّون على الساحل الشرقي لصقلية وبمضيق مسّينَة مُدن نَكْسوس وسِرَقوسَة، وكاتان، وليونْتِنُوي، وميگارا هِبْليا، وزَنْكَلْ Zancle، ورَهِجْيون. وفي القرن الموالي قامت على الساحلين الشمالي والجنوبي مُدن هيميرا، وجيلا، وسلينونت ثم تأسست أگْريجَنْت، وبعد ذلك بقليل، أي حول 580 قدم بِنْتاثْلوس الكنيدي Pantathlos de Cnide ونزل برأس لِيليبي، غربي الجزيرة، ومعه الكنديون والرودوسيون وأنشأ هناك مدينة.

وغطت المستعمرات أيضا جنوب إيطاليا الذي صار يعرف باسم إغْريقْيا الكبرى، كما أن إيطاليا الوسطى أغرقت بالمنتجات الإغريقية.

وقدم معمّرون من ثيرا Théra، فاستقروا حول 640 بساحل الجهة التي ستعرف من بعد باسم سِرِنيكا Cyrénaïque، بالشمال الشرقي لخليج السدْرتَيْن، الذي كانت سواحله الغربية والجنوبية خاضعة للفينيقيين. وبعد سنين قليلة أسسوا مدينة قورينة Cyrène.

وأنشأ الفوصيّون حول 600 بالقرب من قاصية الطريق التجارية الكبرى لنهر الرّون مدينة مَصّاليا Massalia، أي مَرْسيلية، التي لابد أنها كانت – ولمدة قرون – المزاحمة الدائمة لقرطاجة. وفي نفس الحين، أو بعده بقليل، أنشئت عدة من المستعمرات الأخرى بين نهر الرّون وجنوب الهضبة الإيبيرية، ومن بينها واحدة هي ميناصي Maenacé قامت بالقرب من مالَقة، بجوار الجبال التي كانت الفضة تستخرج منها.

وحوالي 640 كان كوليوس الساموسي Colaeos متجها إلى مصر، ولكن الاضطراب البحري دفع به إلى ما وراء أعمدة هرقل، فباع سلَعه لأهل طَرْطِسوس، ونال من ذلك أرباحا طائلة. وتبعه بعض الفوصيين، في نهاية القرن السابع وبداية السادس، فاقتبلهم أرْكَنْطونْيوس Arganthonios ملك البلاد أحسن اقتبال، بل إنه حسب هيرودُت اقترح عليهم مغادرة إيونْيا Ionie والمجيء للاستيطان بأراضيه.

وكان الفوصيون أيضا هم الذين أنشأوا حول سنة 560 مدينة ألالْيا – هي اليوم أليرْيا Aleria – على الساحل الشرقي لجزيرة كُرْسيكا في مواجهة إتْروريا Etrurie. وقد فكر الإغريق عدة مرات في النزول بجزيرة سردانية المجاورة لها. وفي القرن السابع حاول

المسينيّون، بعد حرب مسينة الثانية، أن يلتجئوا إليها. وحول سنة 545 نصح بِياس البرْياني Bias de Priène الأيونيين بالتوجه إليها محتشدين، ليفلتوا من سيطرة الفُرس.

فمن جميع الجهات كان العالم الهيليني يزحف على الغرب. كما أن عَرّافة دلْفَة، ذات النفوذ السياسي والديني، والتي تهيمن على مجموعة المدن المستقلة والمتعادية غالبا، كانت تعرف المهاجرين بالهدف المنشود وتجعل منهم منفذين لإرادة الآلهة.

لقد سبق لنا القول إنه لا يوجد برهان على ان سرِنيكا وغالْيا وكُرْسيكا وإيطاليا الجنوبية قد اصطدم فيها القادمون الجدد بالفينيقيين. فعدم وجود المزاحمين بهذه الجهات، سهل عليهم العمليات لاشك. ومن ناحية أخرى، لم يتجه الإغريق نحو السواحل الإفريقية الواقعة بين السدْرَتَيْن ومضيق جبل طارق، التي كان للفينيقيين الغربيين على طولها مراكز مهمة. ومع ذلك يستحيل التسليم بأن الشعبين كان بينهما اتفاق على تقسيم الغرب. فحيثما كانت الظروف المواتية تلوح للإغريق بالنجاح، فإنهم كانوا يتسارعون من غير اعتبار لمن سبقهم. وإذا صح ما أكده توسيديد Thucidide ، فإنهم كانوا يرغمونهم على التخلي عن متاجرهم التي هي على الساحل المحيطي بصقلية، مع إجبارهم على تملك ثلاث مدن بالشمال الغربي للجزيرة وبغربها. وطمعوا في سردانية التي يحتمل أن الفينيقيين كانت لهم بها مستعمرات منذ عهد بعيد، كما قدموا لمزاحمتهم في تجارتهم بجنوب إسبانيا.

لم يكن للفينيقيين الغربيين من هم أشد عداوة من الإغريق، ومع ذلك، لابد أنهم كانوا يخشون مطامع الأهالي الذين استقروا – هم – في أرضهم. ويقال إن بعض المراكز الفينيقية التي على الساحل

الإفريقي من جهة المحيط قد وقع تدميرها. ولا نعلم متى حدث ذلك، ولكنه - حسبما يلوح - حدث قبل رحلة حنّون، على يد الفاروسيين والنگريتيين، الشعبين اللذين كانا يعيشان بجنوب المغرب الحالي. وربما أن الدفاع عن بعض المستعمرات القديمة ضد "الباربار"، هو الذي دفع بقرطاجة للتدخل في سرْدانية وفي سواحل شمال إفريقيا التي على البحر الأبيض المتوسط.

وفي إسبانيا، كان على الفينيقيين أن يحسبوا الحساب لمملكة طَرْطِسوس القوية، التي كانوا قد أسسوا على حدودها بعض المتاجر ومستعمرة قادس. ويظهر أن هذه المملكة امتدت من ناحية إلْش Elche على البحر الأَبيض المتوسط إلى مصب وادي يانَة على المحيط الأطلسي. ولم يكن الطرْطيسيّون يكتفون باحتلال المنطقة الكثيرة الخصوبة، التي يرويها الوادي الكبير Guadalquivir، وكذلك الجبال التي تكثر فيها الفضة، بل كانوا يغامرون بخوض المحيط ربما حتى مدخل بحر المانْش، ومن المحتمل أيضا أنهم كانوا يخوضون البحر الداخلي. وقد رأينا من قبل أن ملَكِهم أحسن استقبال الإغريقيين الذين عبروا المضيق، وأنه - لاشك - أذن للفوصيين بإنشاء ميناصِي بأرضه. وإن كانت الحقيقة هي أننا نجهل هل أظهر للإغريق مودته إلى الحد الذي يمكّن مزاحمي الفينيقيين بأن يحلوا محلهم تماما.

على أن قادس كانت مع ذلك مهددة من جانب الطرْطيسيّين، أو من جانب غيرهم من الإسبانيين على الأقل. فماكْروب Macrobe يحكي، دون أن يحيل على مصدره، أن طِيرون ملك إسبانيا القريبة L'Espagne citérieure قدم ومعه أسطول بنيّة الاستيلاء على معبد هركول. فتقدمت لملاقاته سفن القادِسيين الحربية، وجرت المعركة. وربما أن ملك إسبانيا القريبة

الذي يتحدث عليه ماكْروب كان ملكاً للإيبيريين. ونأسف لكوننا لا نعرف تاريخ هذه الحملة. كما أن جُسْتان يشير في اختصار كبير إلى الهجمات التي كانت توجه ضد قادِس، وتقوم بها الشعوب المجاورة التي تحسد المدينة الصورية على ازدهارها.

أمام هذه الأخطار الكثيرة، لم يعد باستطاعة الفينيقيين أن يعتمدوا على مساعدة صور، التي كانت قوية جدا في نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى، وأنشأت آنذاك أهم مستعمرات الغرب. لكن صُور أثناء القرن التاسع والذي يليه، كانت تخضع للآشوريين بصفة كادت تكون مستعمرة، رغم أنها حاولت في نهاية القرن الثامن أن تتحرر من هذه التبعية، فحوصرت من ناحية البر وفر ملَكها إلى جزيرة قبرص حيث مات. في ذلك الحين بدأ التدهور يصيبها، وفقدت مكانتها كعاصمة لفينيقيا. وبعد ذلك بنحو ثلاثين سنة، حاولت النهوض بالتحالف مع الفرعون طَهارْقة، ولكن الآشوريين استولوا على مصر، فعادت صور إلى الطاعة، وسارت في طريق الانحطاط أكثر فأكثر. وقد ظلت تتأرجح بين مصر ودولة الكلْدانيين في نهاية القرن السابع وبداية السادس، كما حاصرتها جيوش نبوخذْنَصر مدة ثلاث عشرة سنة، أي من 587 إلى 573، وانتهى الأمر بالخضوع إلى ملك بابل. ولم تلبث بعد ذلك أن زاد ضعفها بسبب الفتن الداخلية، ثم سقطت على غرار المدن الأخرى التي بالساحل السوري في قبضة الفُرس الذين استخدموا السفن الحربية الفينيقية ضد الإغريق على الخصوص. فكانت صور آنذاك في غاية الانحطاط، وأصبحت أهم مدينة في فينيقيا هي صَيْدا.

ولم تكن هذه الأحداث قد قطعت تماما علاقات الفينيقيين الأسيويين مع الغرب، لأننا نعلم عن طريق كتب أنبياء إسرائيل أن تجارة

أهل صور مع جنوب إسبانيا كانت نشيطة جدا حتى عهد نبوخذنصر، وأن مستعمرات صور بقيت مرتبطة بأمّها بروابط الدين، واستمرت تبعث لها باحتراماتها وهباتها. ونحن نعرف ذلك على الأقل بالنسبة لقرطاجة في القرن السادس.

وقد كان الملوك الكلدانيون والفرس الذين أخضعوا الفينيقيين الشرقيين يعتبرون أنفسهم السادة الشرعيين للمدن التي كان هؤلاء قد أسسوها في أراضي الغرب البعيدة. ولربما هذا هو السبب الذي جعل ميگَسْطين Megasthène يعزو إلى نبوخذنصر الاستيلاء على أكبر قسم من ليبيا وإسبانيا. وكذلك قمبيز Cambyse، فإنه بعد ما استولى على مصر، فكر في الاستيلاء على قرطاجة التي كان يراها تابعة لصور لاشك، غير أن الفينيقيين رفضوا أن يجعلوا أسطولهم رهن إشارته لمحاربة من كانوا يسمونهم أبناءهم. وفي بداية القرن الخامس، يظهر أن داريْوس - حسب ما يرويه طْروگْ پومْپي Trogue-Pompée - بعث بالسفراء إلى أهل قرطاجة يأمرهم بالمشاركة في الحرب التي كان يهيئها ضد الإغريق، وليمنعهم كذلك من تعاطي بعض الأعمال كذبح الضحايا الإنسانية، وأكل لحوم الكلاب وإحراق الموتى.

فالوحدة المعنوية للعالم الفينيقي كانت لا تزال حية، غير أن مستعمرات الغرب أصبحت الآن موكولة إلى نفسها أمام الإغريق والباربار. ومن المحتمل أن هذه المدن كانت ستسقط، واحدة بعد الأخرى، لولا أن دافعت عنها قرطاجة التي حلت محل صور.

إن الموقع الجغرافي للمدينة، هو الذي يفسر إلى حد كبير، الدور الذي لعبته آنذاك، بحيث إنها قامت في مدخل البحر الأبيض المتوسط

الغربي، الذي كان الإغريق يعملون للاستيلاء عليه، وكان قيامها في مواجهة سِرِنيكا وصقلية التي سبق نزول الإغريق بها. لكن قيامها كان في منطقة لم يتغلغل بها هؤلاء. فكانت قرطاجة تحتفظ فيها بحريتها في العمل. وكان هناك تيار بحري يساعد سفنها على الوصول إلى داخل خليجَيْ سدْرة، حيث سيهددها الإغريق بعدما يحلون ببسيط قورينة Cyréne. كما أن تياراً آخر كان يساعد الملاحة في اتجاه صقلية، عبر المضيق الذي يربط بين حوضَيِ البحر الأبيض المتوسط.

على أن مدنا أخرى بقيت في المرتبة الثانية، مثل بِنْزَرت، وعلى الخصوص أوتيكا، التي هي أقدم من قرطاجة. وكانت أيضا ذات موقع حسن لتصير غنية وقوية بنموها التجاري، ولتقود المعركة ضد الإغريق. ويمكن الفرض أن قرطاجة اتخذت من أصولها - نفسها - الحق والقوة لتقوم بالعمل العظيم الذي أدخل شمال إفريقيا لأول مرة في نور التاريخ. فإذا كان إنتشاؤها قد تم على يد إحدى أميرات البيت الملكي - كما نميل نحن لقبول ذلك - التي كان يصحبها بعض الأشخاص من الأرستقراطية الصورية، وإذا كانت قد سميت باسم المدينة الجديدة لأن مؤسسيها أرادوا أن يجعلوا منها صُورا جديدة، فمن الطبيعي ومن الصواب أن تصبح ذات يوم حامية للفينيقيين وزعيمتهم بالغرب، في محل صُور الشيخة التي تبعد جدا، والتي تردت في التدهور. لذلك فإن هذه الأرستقراطية التي كانت في آن معا متعودة على التجارة والسياسة، والتي صنعت عظمة صور، كان لابد أيضا أن تصنع عظمة المدينة الإفريقية.

ومن المتأكد أن قرطاجة أسعدها الحظ بأن حكمها رجال فهموا ضرورات الحاضر، وعرفوا كيف يحتاطون للمستقبل، ورأوا أن

الإمبراطورية البحرية والتجارية بالغرب سيملكها الذين يمنعون الخراب أن يصيب المستعمرات الفينيقية، ويقفون في وجه التوسع الإغريقي. لذلك كونوا الأساطيل والجيوش التي تفرضها هذه المهمة. ولاشك أن الكثير من بينهم قد انصاعوا لأفكار أوحت بها المطامع الشخصية، لأن الحرب كانت تجعل رهن إشارتهم قوات الجمهورية ومقدراتها، كما أن الانتصار يجعلهم ذوي شهرة شعبية.

ومن بين بناة العظمة البونيقية نعرف مِلْكوس Malchus الذي حارب سنين طويلة في إفريقيا وصقلية وسردانية، وانتهى باستخدام جيوشه، حول منتصف القرن السادس، للقيام بانقلاب جريء. ومن بعده آلت السلطة ليد أُسْرة ماگون Magon لمدة ثلاثة أجيال دفعت خلالها بقرطاجة في سلسلة طويلة من الحملات الحربية ومن الفتوحات التي مكن استعمال الجيوش المرتزقة من القيام بها. ومع أننا لا نعرف هذه الأسرة إلا بالإشارات المختصرة الواردة عنها في جُسْتان، فإنها لعبت دورا مهما جدا في التاريخ القرطاجي، دورا شبيها بالذي لعبه البَرْكيون Barcides في القرن الثالث. وإذا كانت مستعمرة صور قد صارت عاصمة لإمبراطورية عظيمة، فلربما أنها كانت مدينة بذلك – وعلى الخصوص – للسياسة الحصيفة وللمقدرة العسكرية التي كانت لماگون Magon وأبنائه ولحفدته.

لقد قلنا من قبل ان قرطاجة لم تفصم علاقات البنوة التي كانت تربطها بصور. ولكنها تحررت تماما من وصايتها السياسية. ولربما أنها خفضت منذ عهد مبكر من مقادير الهدايا التي كانت تبعث بها كل سنة إلى معبد مِلْقارت، والتي كانت في أول الأمر تبلغ عُشُر مداخيل الجمهورية، وكانت بذلك أتاوة فادحة. أما الفينيقيون الغربيون، فقد

جمعتهم تحت سيطرتها، وبهذا خاضت المعركة بأكبر حظ من النجاح ضد الإغريق الذين لم يعرفوا كيف يتحدون، أو لم يستطيعوا الاتحاد.

ولاشك أن هذه السيطرة التي مارستها قرطاجة بشدة لم تقبل عن طواعية بكل مكان. ولم تكن جميع المدن الفينيقية تعتبر نفسها مهددة بالإغريق والباربار، إلى حد أن تقبل شاكرة الحماية التي تدفع حريتها ثمنا لها. فلابد أن أكثر من واحدة من هذه المدن كانت تنظر بعين الحسد لازدهار هذه المدينة الفتية التي ربما تأسست بعد المستعمرات الأولى لصور بنحو ثلاثمائة سنة. ومن المحتمل أن الأمر تطلب زمنا طويلا، تطلب عدة قرون لتصبح السيادة القرطاجية معترفا بها لذى جميع الفينيقيين الغربيين. ويظهر أن بعضا من هؤلاء حافظوا من حيث القانون على استقلالهم. فكانوا حلفاء لقرطاجة، لا أتباعا لها. ولكن حظهم كان مرتبطا بحظها، وكانت هي المسيرة عمليا. وقد مدت إمبراطوريتها وقوتها، بأن أنشأت – هي نفسها – عدة مستعمرات أبقتها في تبعية ضيقة جدا.

3

لم يعطنا الكتّاب القدماء سوى معلومات متناثرة ومختصرة جدا عن مراحل سيطرة قرطاجة وأطوار صراعها ضد الإغريق.

ونعلم بواسطة ديودور الصقلي أن القرطاجيين أنشأوا مستعمرة في إبْصوص Ebsos بجزيرة يابِسة، وذلك بمائة وستين سنة بعد تأسيس مدينتهم، أي سنة 654-653 ق.م. ولقد كانت جزيرة يابسة Ibiça تقدم للسفن القادمة ميناء حسنا على الطريق المؤدية من سرْدانية، فالباليار، إلى جنوب إسبانيا. لذلك كان لابد من منع الخصوم من الحلول بها.

فهل كان ذلك هو الوقت الذي حلت فيه قرطاجة بالباليار؟ إننا نجهل ذلك لكن، في جزيرة مينورقة حافظ ميناء ماهون Mahon (ماگون) إلى أيامنا على الاسم الذي حملته عدة من الشخصيات الشهيرة، ومن بينها رئيس أسرة الماگونيين Magonides العظيمة. غير أنه حتى إذا كان المقصود هو ماگون Magon هذا، وهو مالم يقم عليه دليل، فإن ذلك لن يساعد على التأكيد بأن القرطاجيين لم يحتلوا مينورقة إلا بعد منتصف القرن السادس. ولابد أن يكون مااستولوا عليه محدودا في بعض المراكز على الساحل. أما بداخل الجزر، فيظهر أن الأهالي احتفظوا بشبه استقلال.

ويذكر توسيديد Thucidide أن الفوصيين في وقت تأسيسهم لمدينة مرسيليا قد دحروا القرطاجيين في البحر. ورغما عن كون هذا النص قد أثار عدة مناقشات، فمن المحتمل أن يتعلق الأمر بحرب قد تكون حدثت حول بداية القرن السادس. ونحن لا نعرف أسباب هذه الحرب ولا ميدانها، ولكن لعلها تكون قد جرت بجوار سواحل إسبانيا.

وبعد نحو من ستين سنة تلاقت من جديد أساطيل متعادية بالبحر الأبيض المتوسط الغربي. لقد سبق أن رأينا أن الفوصيين أنشأوا حوالي سنة 560 مستعمرة ألاليا Alalia في كرسيكا. وحول 540 كان سكان مدينة فوصيا Focée يحاصرهم الفرس، وأنهم أحسوا بيأس موقفهم فقرروا الفرار، وذهبوا إلى ألاليا حيث عاشوا على القرصنة بعض السنين، إذ كانوا يهاجمون على الخصوص سفن الأتروريين المقيمين على الساحل الإيطالي المقابل لهم. وأحس القرطاجيون أنهم أيضا مهددون، إذ كانوا قد استوطنوا بسردانية، وكانت لهم مع الأترووريين لاشك علاقات تجارية تفرض سلامة البحر الترهيني Mer Tyrrhénienne.

لذلك اتفق كل من الأتروريين والقرطاجيين. وحوالي سنة 530 خاض أسطولهم المكون من مائة وعشرين سفينة، ضد ستين سفينة فوصية، معركة ادعى الإغريق الفوز فيها لأنفسهم. ومع ذلك فإن أربعين من سفنهم قد أغرقت، وتعطب الباقي إلى حد أنه لم يعد صالحا للاستعمال. وقاد الأتروريون أسراهم إلى كايِري Caere – هي اليوم كيرْفِتْري Cerveteri – ورجموهم. أما الفوصيون الذين بقوا على قيد الحياة بعد هذا النصر المزعوم، فإنهم تركوا ألاليا وذهبوا إلى الجنوب الشرقي لخليج سالِرْن Salerne حيث أنشأوا هيالة Hyélé، بينما آخرون منهم ذهبوا ربما إلى مرسيليا. وضاعت كرسيكا من الإغريق. أما القرطاجيون، فمع سرورهم بطردهم عنها، فإنهم لم يحلوا بالجزيرة، بل تركوها رهن إشارة حلفائهم. أما الأتروريون فقد استمروا، إلى الوقت الذي دحرتهم فيه رومة، يبعدون عنها الرومانيين الذين حاولوا النزول بها.

أما عن سردانية، فإن مقابر جبانات كَرَليس Caralis ونُورا Nora وسُلْسِي Sulci وعلى الخصوص مقابر ثارّوس Tharros كانت تضم تقريبا نفس الأثاث الجنائزي الذي تشتمل عليه مقابر قرطاجة، والذي يرجع لنهاية القرن السابع والقرن الموالي له. ولربما أن هذا الأثاث كان من أصل بونيقي. والحق أنه يمكن أن نتساءل عن هذا الأثاث : ألم يكن قد استجلب إلى مدن كانت لاتزال مستقلة عن المدينة الإفريقية العظيمة ؟ ولكن هناك قولاً لجُسْتان يخبرنا أن القرطاجيين كانوا مستوطنين بالجزيرة في أواسط القرن السادس، إذ في هذا العهد كان أحد الجيوش يحارب فيها بقيادة ملْكوس. ولاشك أن هذا الجيش كان يخوض المعركة ضد الأهالي، إما لإبعادهم عن مستعمرات الساحل، وإما لإنتزاع بعض الأراضي الخصبة. وقد اندحر ملْكوس في إحدى المعارك العظيمة التي

فقد فيها القسم الأكبر من جيشه. وجرت حملات أخرى لإصلاح الكارثة ولتركيز السيطرة البونيقية. ونعلم بواسطة جُسْتان أن حسدْرُبْعَل وعَمِلْكار ابنَيْ ماكون Magon حاربا في سردانية عند نهاية القرن السادس، وأن حسدربَعْل مات بالجزيرة من جرح أصابه، وأنه ترك القيادة لأخيه. ونجد في أول معاهدة أبرمت بين قرطاجة وروما مادة تتعلق بسردانية، حيث يتعهد القرطاجيون بالضمانات الرسمية لتجارة الرومانيين وحلفائهم. وحسب إعتقادنا، فإن هذه المعاهدة تؤرخ بنهاية القرن السادس، كما يذكر ذلك پوليب Polybe، الذي احتفظ لنا بها.

لقد كان يهم قرطاجة أن تبقى لها السيادة على هذه الجزيرة التي لم يكن اهتمام الإغريق قد تحول عنها بعد. ففي القرن الخامس، اقترح هِسْتِيي الميليتي Histiée de Milet الذي حبسه دارْيوس Darius في سوسْيانة Suse على الملك أن يستولي بإسمه على سردانية، وبعد ذلك بقليل، أدرك أرِسْطاكُراس Aristagoras أن ثورة الأيونيين ضد الملك العظيم ستؤول إلى الفشل. فاقترح عليهم أن يذهبوا إلى سردانية للاستيطان بها.

إذن فالقرطاجيون أسسوا بالأماكن التي سبق للفينيقيين أن حلوا بها، أو بغيرها، مستعمرات كان لبعضها ازدهار كبير. ويظهر أنهم نقلوا إلى سردانية كثيرا من الأفارقة الذين كانوا يعملون في الزراعة. وقد نشروا سلطتهم، بجنوب الجزيرة وغيرها، على أراضي غنية زودتهم بالحبوب، ولربما استغلوا المعادن.

ومع ذلك فإنهم لم يخضعوا جميع الأهالي. ويحتمل أنهم لم يتعبوا أنفسهم بذلك، وأنهم اكتفوا بمنع أو بعقاب المغيرين على الأراضي الخاضعة. يقول ديودور : «إن القرطاجيين الذين كانوا إبان قوتهم

الكبرى قد استولوا على الجزيرة، لم يستطيعوا إخضاع الذين كانوا يقيمون بها قبلهم. فالْيوليون Ioléens التجأوا إلى الجهة الجبلية، وحفروا فيها مساكن تحت الأرض، وتعاطوا لتربية الماشية الكثيرة... ومع أن القرطاجيين كثيرا ما هاجموهم بجيوش عديدة. فإنهم نجوا من الاستعباد، إذ حمتهم وعورة المرور بأرضهم ومساكنهم التي هي تحت الأرض».

وحتى السرْدانيون الذين خضعوا لقرطاجة، فإنهم لم يكونوا لها دائما من الأوفياء. فقد ذُكرت ثورة اندلعت بعد سنة 379 بقليل. ومن ناحية أخرى، يحكي بوزانياَس Pausanias من غير أن يذكر تاريخا، أن بعضا من المرتزقة الأفارقة والإسبانيين، الذين بعثهم القرطاجيون إلى سردانية، قد تركوا الجيش عقب خلاف على اقتسام الغنائم وانسحبوا إلى الجبال، فأطلق عليهم الأهالي اسم بَلاريس Balares وهو لفظ معناه الفارّون على ما يظهر.

لكن هذا لم يمنع سردانية من أن تبقى جزيرة بونيقية، أبعد القرطاجيون في القرن الرابع عنها التجار الإيطاليين، وربما حتى الإغريق قبلهم، وتركزت فيها حضارتهم بصفة دائمة، خصوصا بالنواحي الساحلية.

4

في مقطع أوردناه من قبل، ذكر توسيديد Thucidide أن الفينيقيين في صقلية، بعدما نحاهم الإغريق، تجمعوا في موتْيه Motyé وسولويْس Soloeis وبانُرموس Panormos بجوار الإيليميين حلفائهم (لأن المسافة

من هنا بين صقلية وقرطاجة هي أقصر المسافات). إذن، فالذين تجمعوا في هذه المدن، ربما منذ نهاية القرن الثامن، كانت لهم علاقات مع قرطاجة، وكانوا يعتمدون على عونها. والمستعمرة التي أسسها بانْثاتلوس Panthatlos برأس ليليبي حول سنة 580 كانت ذات خطر عليهم، وخصوصا على موتْييه Motyé المجاورة للرأس المذكور. كما أن القرطاجيين انزعجوا دون شك من رؤية الإغريق يحلون بقسم الجزيرة القريب جدا من إفريقيا، والذي يتحكم بسبب ذلك في المضيق، ويواجه جنوب سردانية. فيمكن إذن الافتراض بأنهم تدخلوا، ولو أنهم لم يذكروا بإسمهم في الأحداث التي تلت. والإيليميون الذين ذكرهم توسيديد Thucidide كانوا شعبا ربما قدم من المشرق. وكانوا في الشمال الغربي من صقلية يقيمون بناحية جبل إيرِكْس Eryx، وببعض المدن التي كانت إيجسْت Egeste هي أهمها. وكان لأهل هذه المدينة خلاف مع إغريق سيلِنُونت Sélinonte الذين مال إليهم بانْثاتْلوس Pantathlos، وحارب في آن واحد الإيليميين والفينيقين، ثم قُتل في إحدى المعارك، هو وكثير معه. وفر من بقوا على قيد الحياة إلى جزر ليباري Lipari.

كان القائد القرطاجي مَلْكوس، قبل حربه في سردانية، قد قاد الجيوش لأمد طويل، وبتوفيق في صقلية. فهل شارك في الحرب ضد بانثاتلوس ؟ إن معاركه تقع حسبما يظهر في عهد أحدث، أي حوالي 550 - 560. ويقول جُسْتان إنه أخضع قسما من الجزيرة.

ونحن نجهل ما جرى بصقلية في عهد ماگون Magon وفي حياة ابنه حسدْربَعْل. فالكاتب الذي ذكرناه ادعى أن شعوب صقلية تشجعت بموت هذا الأخير، وغضبت من استمرار التحرشات القرطاجية، فاستنجدت بأخ لملك إسْبَرْطة. ولا شك أن المقصود هو دوريِوس Dorieus

الذي ترك لنا هيرودُت عنه بعض المعلومات. ذلك أن دوريوس بعدما أخفق في محاولته للاستيطان بساحل السدْرَتيْن ورجوعه إلى البِلُوبُنيز، عاد إلى الغرب حول نهاية القرن السادس، وأنشأ بجوار جبل إيركس مدينة أطلق عليها اسم هيرَكْليا Heraclea. لكنه لم يكن أسعد حظا من بانْثاتْلوس. فقد هاجمه بعد زمن قليل الفينيقيون والإيليميون أهل إيجِسْت. ومات دوريوس وأكثر رفقائه، كما استولى القرطاجيون على هيركَليا ودمروها. وكان على رأس من نجوا من الكارثة أوريليون Euryléon الإسْبَرْطي الذي استولى على مينُوا Minoa، مستعمرة أهل سيلنونت، وأطاح ببطاكوراس Pithagoras المتأمر على سيلنونت، وحل محله في الحكم. لكنه سرعان ما لقي حتفه في إحدى الفتن. وهكذا انتهت في التعاسة تلك المغامرة التي قام بها دوريوس.

على ان جيلون Gelon المتأمر على جيلا منذ 491 - 490، قد حارب بنجاح أهل إيجِسْت والقرطاجيين، ليثأر لموت دوريوس وليحرر الأسواق التي كان الإغريق يستفيدون منها فوائد كبيرة، والتي كان القرطاجيون لاشك يختصون أنفسهم بها. ونحن نجهل تفاصيل هذه الحرب التي ربما لم تكن الوحيدة مما خاضه القرطاجيون بالجزيرة في بداية القرن الخامس، وقبل حملتهم الكبرى في سنة 480.

وفي نهاية القرن السابق، نجد المعاهدة الأولى التي عقدت بين قرطاجة وروما تنص على القسم من صقلية الذي كان خاضعا للقرطاجيين.

إذن ففي القرن السادس فرض هؤلاء سيادتهم على جزء من صقلية الغربية، خارج المنطقة التي يقطنها حلفاؤهم الإيليميون الذين بقوا على استقلالهم. وامتد هذا الجزء القرطاجي حسبما يظهر إلى حدود هيمير

Himère على الساحل الشمالي، وإلى سيلنونت على الساحل المقابل له. ولابد أن المدن الثلاث : موتْييه Motyé، بالِـرْم وسولونْت قد بقيت حرة من حيث القانون، غير أن تحالفها مع قرطاجة كان غير متعادل. وليس هناك ما يبرهن على أن القرطاجيين أسسوا بالجزيرة مستعمرات منذ هذا العهد.

في بداية القرن الخامس قامت بين إغريق صقلية إمارات قوية. فجيِلُون Gelon الذي سبق له أن أعلن نفسه متأمرا على جيلا التي كانت مسيطرة على عدة مدن أخرى، استولى على الحكم في سِرَقوسة وسكن بها منذ 485. وكادت سيادته تعم صقلية الشرقية. وكان بين يديه جيش قوي، وعلى الخصوص خيالة جيدة وأسطول كثير. كما كان يحكم مناطق شاسعة تغل تربتها بمحاصيل وافرة. وكان حليفا لثيرون Théron المتأمر على أكْرِجَنْت Agrigente التي كانت مدينة بالغة الازدهار، وتسيطر هي أيضا على منطقة شاسعة تمتد من الساحل الجنوبي إلى قلب صقلية. وقد تقدم ثيرون إلى أبعد من ذلك، فوصل للساحل الشمالي حيث استولى على هيمير، وطرد منها المتأمر طيريوس Terillos. وهكذا فإن دولتين حقيقيتين، بعاصمتين هما سِرَقوسة وأكْرِجَنْت، حلتا محل المدن المنعزلة، وهددتا بالاستيلاء على الجزيرة كلها. وكان في هذا خطر كبير على القرطاجيين الذين سبقت لهم منازعات مع جيلون، وربما مع ثيرون أيضا. لذلك جعلوا ذريعتهم طرد طيريوس الذي كان حليفهم، وقرروا أن يخوضوا حربا حاسمة سنة 480.

كانت الظروف تبدو مواتية جدا. فقد كانوا يعلمون أن جميع الإغريق بالجزيرة لن يأتلفوا ضدهم، إذ كانت سيلِنونْت بالجنوب حليفة لهم. كما أن أناكْسيلاس Anaxilas، كان بالشمال متأمرا على رَهِجْيون Rhégion، وكان قد إستولى على زَنْكلة Zancle – هي مِسِّينة – ويلح عليهم

في التدخل لفائدة صهره طيريوس. وكانوا يعلمون على الخصوص أن إغريق الشرق لن يستطيعوا مساعدة إخوانهم في صقلية. وذلك لأن خرْشيش Xerxès ملك الفرس كان في هذه الآونة يقوم باستعدادات عظيمة لسحق المنتصرين في معركة المارَثون. فالإغريق الشرقيون كانوا يطالبون جيلون أن يهبّ لنجدتهم، عوض التفكير في إمداده بالمساعدة التي يقول هيرودُت إنهم رفضوا تقديمها له قبل ذلك ببضع سنين.

لقد رأينا من قبل أن ملوك الفرس، لما سيطروا على فينيقيا، أصبحوا يدّعون لأنفسهم حقوقا على الفينيقيين الغربيين. ولربما يكون داريوس أصدر أوامره للقرطاجيين بالمساهمة في الهجوم على إغريقيا. ولربما أنهم اعتذروا عن هذه المشاركة متذرعين بحجة الحروب المتتابعة التي يخوضونها ضد جيرانهم. ويحكي المؤرخ إيفور Ephore : إن مبعوثين من الفرس والفينيقيين قدموا بعد ذلك، حين كان خرْشيش يهيئ حملته، وأمروهم بتجهيز أكبر أسطول يستطيعونه، وأن يعبروا إلى صقلية لمحاربة الإغريق، وأن يتجهوا بعد ذلك إلى البلوبُنيز. ويقال إن القرطاجيين استجابوا للأمر. ونحن لا نعلم هل أصدرت إليهم هذه الأوامر حقيقة، ولكن يمكننا التسليم بأن اتفاقا على الأقل قد حصل بين الملك العظيم وقرطاجة التي كانت مصلحتها الواضحة في توحيد هجماتها مع هجمات الفرس.

وبالنسبة لقرطاجة، فإن ثمن النصر لم يكن فحسب هو صقلية الكثيرة الخصب، ذات الموقع الحسن بين حوضي البحر الداخلي، بين إفريقيا وأروبا، وإنما الثمن هو البحر الأبيض المتوسط الغربي بكامله. أما الفوصيون المعزولون على شواطئ غاليا وإسبانيا، فلن يلبثوا أن ينهاروا.

ولدينا عن هذه الحرب التي جرت في صقلية معلومات مختصرة أوردها هيرودُت، ورواية أكثر تفصيلا ذكرها ديودور الصقلي الذي استقاها على ما يحتمل من تيمي.

أسندت رئاسة الحملة إلى الملك عَملْكار الذي كان ابنا وأخا لقائدين لامعين، هما ماگون وحسدْربَعْل. وكان هو نفسه - وعلى ما يظن - قد سبق له أن كان قائدا بالجزيرة. ومن المحتمل أنه عمل بوحي من السياسة الإمبريالية التي درجت عليها عائلته، فدفع بمواطنيه للمبادأة بالهجوم.

فجعلت قرطاجة تحت إمرته قوات مهمة جدا، تتكون حسبما قيل من أسطول قوامه مائتا سفينة حربية، وثلاثة آلاف سفينة للنقل، وجيش من ثلاثمائة ألف رجل، حشدوا من ليبيا وإيبيريا وسردانية وكرسيكا وليغوريا ومن ساحل غاليا بين نهر الرّون وجبال البيريني. فقد تكون هذه الأرقام مبالغا فيها، ومع ذلك فالمعتقد هو أن القرطاجيين لم يسبق لهم مطلقا أن بذلوا مجهودا كهذا. ويقال إن التجهز للحرب دام ثلاث سنين.

وأثناء عبور الجيش، اهتاج البحر وحطم السفن التي كانت تحمل الخيول والعربات. أما بقية الأسطول فقد وصلت إلى بالـرْم، ومنها اتجه عَملْكار إلى هيمير التي كان استيلاء ثيرون صاحب أگْريجَنت عليها، سببا أو على الأصح، ذريعة لنشوب الحرب. ولما وصل عَملْكار أمام المدينة، بعث بنفسه إلى إفريقيا وسردانية لتنقل إليه المؤن، وأخرج سفنه الحربية إلى الشاطئ حيث أحاطها بالمتاريس، وذهبت الجيوش البرية لتعسكر فوق التلال بالجنوب الغربي لهيمير. أما ثيرون فقد اندحر في معركة جرت تحت أسوار المدينة وحوصر، فاستنجد بحليفه جيلون، فقدم هذا الأخير ومعه خمسون ألفا من المشاة وخمسة آلاف

فارس، ونزل خارج المدينة، واكتفى ببعث خيالته على الأعداء الذين كانوا متفرقين في الأرياف.

وأخيرا جرت معركة كبيرة، قال عنها هيرودُت : إنها دامت يوما كاملا، وانتهت بانتصار جيلون وثيرون. وفُقد عَمِلْكار الذي لم يعثر عليه حياً أو ميتاً رغماً عن شدة البحث عليه. ويضيف المؤرخ فيقول : إن القرطاجيين حكوا أنه مكث بالمعسكر يقدم القرابين ويحرق الضحايا، لكنه رمى بنفسه في النار لما رأى بالمساء اندحار جيوشه. وحسب ما يرويه ديودور فإن فرسانا بعث بهم الداهية جيلون، فوصلوا إلى حيث جمعت السفن القرطاجية، وادّعوا أنهم مساعدون قدموا من سيلنونت، وأنهم قتلوا عَمِلْكار الذي كان يقدم قربانا لبوسيِدون Poseidon وأشعلوا النار في الأسطول. وفي نفس الحين هاجم جيلون الجيوش البرية التي أبدت مقاومة شديدة، ثم تفككت لما رأت السفن تحترق، وعلمت بموت قائدها. وقد قيل إن مائة وخمسين ألفا من الأعداء قتلوا، أما الآخرون فإنهم انسحبوا إلى موقع حصين، ثم استسلموا لعدم وجود الماء عندهم. فتقاسم الحلفاء الأسرى. وزيادة على هذا فإن أهل أكْريجنت أسروا بأرضهم عددا كبيرا من الفارين. ودخل هؤلاء العبيد في حوزة مدينة أكريجنت التي استعملتهم في الخدمات العامة، أو في حوزة الخواص الذين استعملوهم في زراعة حقولهم، حتى إن بعض المواطنين ملكوا نحوا من خمسمائة عبد منهم. وقد استطاع بعض الفارين الوصول إلى عشرين سفينة كانت لاتزال بالميناء. ولكن البحر المضطرب أغرقها، ولم يصل لقرطاجة سوى قارب يحمل بعض الرجال. هذه هي الرواية التي خلفها لنا ديودور عن معركة هيمير الشهيرة. ولكن يسوغ لنا أن نشك في دقته في جميع تفصيلاته.

ويزعم البعض أن هذا الانتصار حصل في نفس اليوم الذي جرت فيه معركة سالَمين Salamine. وبعده ببضع سنين، أي في 474، أكمل أهل سِرَقوسة هذا الانتصار بتدميرهم للأسطول الإتروري في مياه كومس Cumes، وبذلك أنقذوا إغريق كمبانيا. وهكذا، ففي كل من الشرق والغرب، انتصرت الهيلينية في أشد الهجمات التي لقيتها. وقدم جيلون من الغنائم التي استولى عليها من القرطاجيين هدايا إلى دِلْفَة وأولمبيا، كما تغنى سيمونيد Simonide، وآشيل Eschyle، وبندار Pindare بمجد إخوانهم إغريق صقلية.

فترت حمية قرطاجة بهذه الكارثة، وخشيت من إحتمال حملة ليجيون Gélon على إفريقيا، فلم تحاول القيام من جديد بالعملية التي كلفتها ثمنا غاليا جدا. فتسارعت إلى إبرام الصلح الذي كانت شروطه خفيفة جدا عليها، كما أن الإغريق لابد كانوا يشعرون بالسعادة لنجاتهم من كارثة عظيمة. ومن المحتمل أنهم كانوا يريدون التخلص من القرطاجيين ليكونوا أحرارا في التدخل بالشرق، حيث إن انتصار سالَمين Salamine لم يضع حدا للحرب، وكانوا يعلمون أن اللوم يقع عليهم لعدم مشاركتهم في حرب خرْشيش. ويمكن كذلك أن نفرض أن جيلون لم يكن يريد طرد القرطاجيين نهائيا عن صقلية، لأن الفائدة قد ترجع بالخصوص إلى أكْريجَنت منافسة سِرَقوسة، والمهيمنة على غرب الجزيرة. وقد فرض على قرطاجة أداء تعويض عن الخسارات الحربية من ألفي طالان Talents من الفضة، وأن تقيم معبدين يعرض فيهما نص المعاهدتين، وأن تتعهد بالامتناع عن تقديم القرابين البشرية. وتفاوض حلفاؤها كذلك مع جيلون الذي عفا عنهم، سياسة منه، لا لشعوره الإنساني دون شك.

لقد احتفظت قرطاجة بممتلكاتها في صقلية. وبعد معركة هيمير بسنين قليلة ساورت المخاوف الإغريق من عودتها إلى الهجوم، غير أنها لم تعاود إلا في نهاية القرن الخامس.

كان من الضروري للقرطاجيين أن يهيمنوا على بَنْتِلارية، بين صقلية وإفريقيا. ومع أن القرطاجيين تركوا للفينيقيين بهذه الجزيرة حريتهم الاسمية، فلابد أنهم ربطوهم بهم بمعاهدة حرجة، وذلك في القرن السادس على أقل تقدير.

وفي أواسط القرن الرابع نجد الرحلة الإغريقية، التي تحمل خطأ اسم سيلَكْس Scylax، تذكر الإحتلال القرطاجي لجزر مالطة، وگوزو، ولَمباس أي لمبِدوس التي بغرب الجنوب الغربي لمالطة. ويصف إتْيان البيزنطي مالطة بكونها مستعمرة للقرطاجيين. فيحتمل أن يكون هؤلاء بعثوا إليها بمعمرين جدد بعدما استولوا عليها في وقت لا ندريه، هو القرن السابع ربما أو هو القرن السادس.

5

إن تاريخ القرطاجيين بإسبانيا غامض جدا فيما يخص العهد المتقدم على فتوح البرْكيّين في القرن الثالث.

والمتأكد هو أنهم في 348 كانت لهم مصالح يدافعون عنها بجنوب الهضبة. وذلك أن المعاهدة التي عقدوها في هذا التاريخ مع الرومانيين منعت على هؤلاء أن ينالوا غنائم، وأن يقوموا بالتجارة، وأن يؤسسوا مُدناً وراء مَسْتيا التي بأرض طرْسيون. فيحتمل أن المقصود هو المكان الذي تأسست فيه مدينة قَرْطَجَنَّة Carthagène بعد ذلك بقرب رأس بالوس Palos.

وفي نفس العهد تذكر رحلة سيلكْس Scylax أن على الساحل الأوروبي، وراء أعمدة هرقل، عددا كبيرا من المراكز التجارية التي يقيم بها القرطاجيون. كما أن إيفور Ephore الذي كتب في نفس العهد، ذكر أن قبل المضيق، على الساحل الجنوبي لإسبانيا، يوجد الليبيون الفينيقيون Libyphéniciens، وهم معمرون أسكنتهم قرطاجة هناك. وقد ذكر هؤلاء الليبيين الفينيقيين أيضا فسْتوس أفْنيوس Festus Avienus الذي نقل في قصيدته وصف ساحلِ البحر الأبيض المتوسط الإسباني عن رحلة إغريقية، كتبت على أكثر تقدير في بداية القرن الرابع. فهل نستطيع الرجوع إلى أبعد من ذلك ؟

توجد عدة مقابر ترجع للقرن السابع والقرن الموالي له، عثر عليها في الأندلس، بجهة قرمونة شرقي إشبيلية، كما عثر عليها بساحل الجنوب الشرقي بين قرطَجَنّة والمرِية. وأوضاع هذه القبور وعاداتها الجنازية وقسم مما بها من أثاث، كل ذلك يبرهن على أن المدفونين بها كانوا من الأهالي. لكنها تضم كذلك عدة من الأشياء الأخرى كالخزف، والزجاج، وكلها من صنع فينيقي. فهل تكون صنعت في قرطاجة ؟ الأمر ممكن، ولكن لا يستطاع تأكيده. وحتى إذا توفرت لدينا الحجة على ذلك، فلا يلزم منه أن القرطاجيين كانت لهم آنذاك مستعمرات بجنوب الهضبة. فلربما أنهم كانوا يكتفون بجلب السلع إلى بعض المراكز على الساحل. وابتداء من 480 ذكر وجود الإيبيريين في الجيوش البونيقية بصقلية. ولكن هؤلاء كانوا من الأجراء الذين يحشدون من الجهات التي لابد أنها لم تكن خاضعة لقرطاجة. ومن ناحية أخرى، فإن عدم ذكر أي شيء يتعلق بإسبانيا في المعاهدة المعقودة مع رومة في نهاية القرن السادس، لا يبرهن بصفة قطعية على أن قرطاجة لم تكن في ذلك العهد قد وصلت لهذه المنطقة. فيمكن أن نفرض أن البحارة الرومانيين لم يكونوا

يتقدمون بعيدا نحو الغرب، وأنه لا جدوى في تحرير مواد تبقى بدون مفعول. وليس من قبيل الاحتياط في شيء، أن نؤكد بأن القرطاجيين لم تكن لهم ممتلكات مطلقا حوالي سنة 500 ق.م في إسبانيا، لأنهم لم يذكروا في الفقرات القليلة المتعلقة بالهضبة، والتي بقيت لنا من المؤلف الجغرافي الذي كتبه هيكاتي Hécatée.

وهكذا فليس لدينا برهان قاطع لتاكيد أو إنكار وجود الاستعمار البونيقي قبل القرن الرابع. ومع ذلك فيحتمل أن يكون القرطاجيون توطنوا بإسبانيا منذ عهد أبعد بكثير. ونحن نعلم أنهم احتلوا منذ أواسط القرن السابع جزيرة يابسة، التي تبعد قليلا عن الساحل الإيبيري، بينما نجدهم في القرن الموالي يعطون البرهان على نشاطهم وقوتهم في صقلية وسردانية. فلم يكن إذن باستطاعتهم عدم المبالاة بمنطقة أغنت الفينيقيين أمدا طويلا، أكثر مما أغنتهم هاتان الجزيرتان. ولم يكن بمستطاعهم أن يتركوها للعمليات الجريئة التي يقوم بها هؤلاء الفوصيون، الذين لابد أنهم حاربوهم عدة مرات في القرن السادس، الذي نميل نحن لنجعلهم فيه يتدخلون في إسبانيا.

وحسب جُسْتان، كان سبب تدخلهم هجوما للأهالي على قادِس. فبعث القرطاجيون بالنجدات إلى إخوانهم، فواتاهم الحظ في حملتهم، وأنقذوهم من الخطر الذي كان يهددهم.

ولربما أن القادِسيين ندموا، بعدما تخلصوا من أعدائهم، على قبولهم مساعدة حماتهم ذوي القوة الشديدة، فحاولوا استعادة استقلالهم الكامل. ولدينا خبر – نأسف لكونه مختصرا جدا – ينبئنا بوقوع حصار قادِس على يد القرطاجيين، حصار يظهر أنه انتهى بالاستيلاء على الموقع. وقد تركت قرطاجة على ما يحتمل للمدينة العتيقة

صفة المدينة الحليفة، ولكنها تصرفت منذ ذلك الحين في السوق الواسعة التي هي جنوب الهضبة، كما تصرفت في أكبر ميناء بقاصية الغرب.

ولابد أن القرطاجيين، لما تدخلوا في إسبانيا، قد اصطدموا بالفوصيين. فجُسْتان يذكر خبر حرب اندلعت بينهم وبين أهل مرسيليا بعد الاستيلاء على قوارب للصيد. ونحن نجهل أين وقع ذلك، ولربما أنه حدث على الساحل الشرقي للهضبة. ويضيف هذا الكاتب قوله : «المرسيليون، كثيرا ما طردوا القوات القرطاجية، ووهبوا السلام للمغلوبين، وربطوا الصداقة مع الإسبانيين». فمتى حدث هذا الصراع الذي بقيت لنا عنه ذكرى غامضة ؟ هل حدث بعد تأسيس مرسيلية بقليل؟ في العهد الذي كان فيه الفوصيين يمارسون العلاقات الودية مع أهل طرْطِسوس، ويذهبون للمتاجرة عندهم، أي حين حلولهم بالساحل الشرقي لإسبانيا ؟ أو يجب إرجاع هذه الحرب لتاريخ أحدث عهدا هو القرن الخامس ؟ لا يمكن القول. ولكن، أياً ما كانت تقلبات المزاحمة بين مرسيليا وقرطاجة بإسبانيا، فلابد أن نقبل أن قرطاجة كانت في أواسط القرن الرابع سيدة الساحل إلى مستيا، الحد الذي فرضته هي على الرومانيين، وفرضته دون شك على الإغريق أيضا. وبعيدا إلى الجنوب، كان الفوصيون قد أنشأوا ميناصي. وقد تهدمت، ولا ندري متى، ولربما ان تهديمها كان على يد القرطاجيين.

وبين مضيق جبل طارق ومستيا Mastia، حل القرطاجيون بأمكنة مختلفة، وذلك بكونهم استولوا على مدن فينيقية قديمة، أو بكونهم أسسوا مستعمرات جديدة، أو بكونهم أنشأوا متاجر في مدن أهلية.

لقد قلنا إن الرحلة الإغريقية القديمة التي استقى منها أفِنْيوس Avénius وإيفور Ephore تذكر وجود الليبيين الفينيقيين قبل المضيق.

ونعلم أيضا بواسطة أفنيوس أن الفينيقيين – وقد يعني ذلك القرطاجيين – أسسوا عدة مدن على الساحل الممتد غرب رأس گاطا Gata. وتعرفنا نصوص من العهد الروماني بأهمية العناصر البونيقية في سكان الساحل الجنوبي الإسباني. وصحيح أن عائلة البركيين قوت هذه العناصر في القرن الثالث. وبعد القضاء على السيطرة القرطاجية، فإن كلا من مالَقة وسيكسي Sexi وأبديرا Abdéra – وهي مدينة بين مالَقة وألمرِية – قد سكّت نقودا عليها كتابات بونيقية، الأمر الذي يساعد على الظن بأن الحضارة الفينيقية التي استمرت في هذه المدن، كانت قد رسخت فيها منذ عهد بعيد، أي من قبل قدوم القرطاجيين إلى إسبانيا، أو بعد قدومهم إليها. ويقول سترابون إن مالقة كانت ذات مظهر فينيقي، وأن الفينيقيين أنشأوا أبْديرا. ومن المحتمل أيضا أن تكون كَرْطيا Cartéia التي في جون الجزيرة، مدينة فينيقية قديمة أو بونيقية. وقد حل بعض القرطاجيين ألمرية وقرطجَنّة، بالمكان المعروف اليوم باسم بياريكوس Villaricos، بمصب نهر المنصورة Rio Almanzora، قرب مناجم الفضة بجبال ألمگْريرا Almagrera. وفي بياريكوس عثر على شاهد قبر مكتوب بالبونيقية في جبانة من القرن الرابع، تكثر بها الأدوات البونيقية. ومع هذا، فيظهر أن غالبية السكان كانت من الأهالي.

ولا يظهر ان مستعمرات قرطاجية كانت موجودة أبعد من مَسْتِيا، حول أواسط القرن الرابع على الأقل. فنحن نعلم أن المعاهدة المبرمة سنة 348 جعلت من هذا الميناء حدا للبحارة الرومانيين. وعلى هذا، فلم يكن للقرطاجيين ما يحمونه على الساحل الممتد إلى الشمال.

وخارج المضيق، فإن الفقرة التي سبق أن أوردناها من سيلَكْس Scylax تذكر عدة متاجر قرطاجية على الساحل الإسباني، ويؤكد ذلك

أفينوس الذي يتكلم على الحلل Bourgs والمدن. غير أن أسماء هذه المراكز - باستثناء قادِس - مجهولة لدينا.

وهل تغلغلت السيطرة البونيقية إلى داخلية البلاد ؟ إن بعض الإشارات الواردة عند جُسْتان وپوليب يمكن أن تدفع بنا إلى تصديق ذلك. فجُسْتان يقول في اختصاره لِطْروكْ پومْپي Trogue-Pompée إن القرطاجيين، بعد أن أنجدوا قادِس التي كانت تهددها بعض الشعوب المجاورة، ضموا إلى دولتهم قسما من الولاية، أي أنهم ضموا، حسبما يظهر، قسما من الأرض التي كان المهاجمون يقيمون بها. كما يؤكد بوليب أنهم قبل بداية الحرب الأولى ضد رومة، كانوا مسيطرين على عدة أجزاء من إيبيريا. لكن، فيما عدا هذين النصين الغامضين كما نرى، ليس لدينا أي برهان على وجود منطقة بونيقية في إسبانيا قبل منتصف القرن الثالث. فعَملْكار بَرْكا Amilcar Barca، كان هو الذي شرع بعزم في احتلال ما وراء السواحل بالهضبة الإسبانية.

6

ولا نعلم شيئا عن العلاقات التي ربما كانت للقرطاجيين، عند نهاية القرن السابع، وأثناء قسم كبير من السادس، مع الإغريق الذين حلوا بسِرنيكا. ولا يظهر أن هؤلاء الإغريق حلوا محل الفينيقيين بهذه المنطقة. لذلك لم تكن هناك أسباب تلح على قرطاجة لتحاربهم.

غير أن مطامعهم انتقلت بعيدا نحو الغرب. فهيرودُت يتحدث على نُبوءة قيلَتْ لياسُون Jason ورفاقه. وهي أن مائة مدينة إغريقية لابد أن تقام حول بحيرة تريتونيس Tritonis، حين يستولي واحد من ذرية البحارة الذين ركبوا السفينة أرگو Argo على المحمل البرنزي ذي

الأرجل الثلاث Trépied الذي تركه ياسون بتلك الجهة. ويضيف المؤرخ قوله إن نبوؤةً أعلنت أن جزيرة فْلاَ Phla، الواقعة بوسط البحيرة، سيستعمرها اللسديمونيون. فأما تريتونيس، فربما كان هو سدرة الصغرى، أما جزيرة فلا فقد تكون هي جربة. وعلى كل حال فإن البحيرة كانت في هذه الجهة، في رأي هيرودُت الذي لم تكن له سوى معلومات غير دقيقة حول هذا الموضوع.

ولا شك أن علاقة ما، قد كانت موجودة بين هذه المطامع اللَّسديمونية في جهة السدرتين، وبين العملية التي قام بها دوريوس ابن أناكْسَنْدريداس Anaxandridas ملك إسْبَرْطة. ذلك أن دورْيوس لم يرد العيش بجانب أخيه كِليومين Cléomène الذي ورث الملك، فذهب قبل نهاية القرن السادس بسنين قليلة ليؤسس مستعمرة بليبيا، يصحبه بعض المهاجرين الذين كان من بينهم بعض الإسْبَرْطيين. واتخذ المرشدين من أهل طيرا Théra، أي من الذين تجمعهم نفس الأصول مع جل المعمرين الذين بقُورِينة Cyrène. ولابد أن هؤلاء كانوا يستحسنون المشروع. وقد حل دوريوس في مكان ما بين السدْرتين، عند مصبّ نهر كينيبْس Cinyps الذي هو اليوم نهر أوكيرّي Oukirré، على بعد ثمانية عشر كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من المكان الذي أسس فيه الفينيقيون من قبل مدينة لبتيس Leptis. وكان الموقع صالحا، في أرض ذات تربة جيدة، وإن كان هيرودُت قد بالغ في وصف خصبها. ولعل مستعمرة لبْتيس كانت متدهورة في هذه الآونة، بل ربما تكون قد اندثرت، لأن المدينة البونيقية التي ذكرتها الوثائق المتأخرة، كان الإغريق يدعونها باسم نِيابُليس Néapolis، وهو إسم قد يفهم منه إنشاء جديد بموقع سبق أن كان معمورا، ويمكن أيضا أن نفهم منه أن قرطاجة لم تكن بعد قد مدت

سيطرتها في هذه الجهة، وإلا فإن عمل الأمير اللسْديموني يكون مخاطرة كبيرة تثير الحرب في نفس الحين.

وبعد ثلاث سنين فحسب، استطاع القرطاجيون الذين اتفقوا مع الماكاي Makaï – من أهالي الساحل – أن يطردوا دوريوس الذي عاد إلى البِلوبُنيز. وكانت خرائب مستعمرته لا تزال ترى في أواسط القرن الرابع.

وهكذا أكدت قرطاجة عزمها على الاحتفاظ لنفسها بالسواحل الجنوبية لخليج سدْرَة. وقد منعت الإغريق من تجديد محاولة دوريوس، إذ وضعت في داخل سدرة الكبرى حدا يجب عليهم أن لا يتعدوه أبدا. وحسب هذا الذي قلناه، فإن هذا الحد لم يكن موجودا في نهاية القرن السادس. ويظهر أن هيرودُت الذي كان لا يزال حيا في 430 كان يجهل هذا الحد، ولم يتحدث على القرطاجيين، كما لم يتحدث على الفينيقيين في الصفحات القليلة التي خصصها لسكان السواحل الإفريقية بغرب سرنيكا. وصحيح أنه كان ينوي التعريف بأخلاق الأهالي، ولكنه سكت عمدا – لاشك – عن المعمرين الذين من أصل أجنبي. غير أن الحد كان بلا شك موجودا في الوقت الذي حررت فيه رحلة سيلَكْس في أواسط القرن الرابع. فالكاتب أورد ذكر عدد من المدن، مثل نيابليس Néapolis، وگرفارا Graphara، وأبْروطونون Abrotonon. وكلها كانت تقع على ساحل سِرنيكا (طرابلس الحالية)، ثم أضاف قائلا : «كل هذه المتاجر او المدن الليبية، منذ سدرة المجاورة لهِسبِْريد – أي من سدْرة الكبرى– حتى أعمدة هرقل، هي ملك للقرطاجيين». وتشير الرحلة كذلك لأضرحة فيلين Philène التي توضح الحدود، كما تؤكد ذلك نصوص أخرى، بين إغريق سرنيكا والممتلكات البونيقية، والتي بنيت بالتأكيد لتوضيح تلك الحدود.

يحكي سالوسْت أن إقامة هذه الأضرحة سبقتها حرب دامت عدة سنين بين القرطاجيين والقورينيين. وأن جيوش وأساطيل كل من الشعبين عرفت بدورها الاندحار والهزيمة، وأخيرا قرر الشعبان عقد الصلح، وكان ذلك خوفا من أن ينتهز الغير ضعفهما ليهاجمهما. غير أن رواية المؤرخ الروماني يلوح عليها المظهر الأسطوري إلى حد أن ما بها من بعض الخطوط التي يحتمل قبولها، لايمكن تلقيها من غير تشكك. وكذلك سرفيوس فإنه يشير لحرب بين القرطاجيين والبرقاويين Barcéens، الذين هم سكان مستعمرة إغريقية أخرى بسرنيكا، ولكننا نجهل تماما متى حدثت هذه الحرب.

وماذا كانت هذه البنايات التي ذكرت عند الإغريق باسم : Boumoi وعند اللاتانيين بإسم Arae، والتي يدعي سترابون أنها لم تعد موجودة في عهده، أيام حكم أوغسطس ؟ فمن الممكن أنها كانت مجرد تلات جنائزية Tumulus على شكل المخروط أو ساق المخروط. ويذكر پْلين أنها كانت من رمل. ويحتمل جدا أنها كانت ركاما من الأحجار. وبالطبع كان هناك اثنتان، وإلا فلن تفهم الأسطورة التي سنتحدث عليها. ومن الممكن أن إحداهما أقيمت على التراب القرطاجي، والثانية على التراب الإغريقي. وتذكرهما رحلة سيلَكْس بصيغة Philaïnou Boumoi أي أضرحة فيلّين بالمضاف إليه المفرد، وهي الصيغة الصحيحة التي نجدها أيضا عند بوليب. ولاشك ان المراد اسم لأحد الأمكنة. وتوجد نصوص أخرى تستعمل الجمع Philaïnon في الإغريقية وPhilaenorum في اللاتانية. وهذه الصيغة تجد ما يفسرها في الأسطورة الواردة عند سالوست.

يقول : إن القرطاجيين والقورينيين سئموا الحرب، فحددوا يوما يخرج فيه أشخاص في نفس الوقت من المدينتين، ويعتبر المكان الذي

سيلتقون فيه حدا مشتركا بين الشعبين. فخرج من قرطاجة أخوان يحملان اسم فيلين، وسارا بسرعة كبيرة، بينما سار القورينيون بتمهل، إما لكسل فيهم، وإما لطروء بعض الحوادث. فلما رأوا أنهم مسبوقون، وخافوا العقاب عند عودتهم لمدينتهم، اتهموا الفيلينيّيْن بكونهما انطلقا في السير قبل الوقت المحدد، وأحدثوا التعرضات، وكانوا مستعدين لكل شيء سوى أن يذهبوا مغلوبين. فوافق القرطاجيان على شروط أخرى بقيد أن تكون سواء للجانبين. فخيّرهما الإغريق بين أن يدفنا حيين في المكان الذي يريدان أن يجعلا فيه الحد، وبين أن يفسحا لهم ليتقدموا بنفس الشرط إلى حيث يريدون الذهاب. فقبل الفيلينيان هذا العرض، وضحّيا بالنفس في سبيل الوطن، ودفنا حيين. في هذا المكان أقامت قرطاجة أضرحة (مذابح) للأخوين، كما أقيمت لهما في قرطاجة مراسم أخرى للتمجيد.

لم يذكر سالوسْت المصدر الذي استقى منه هذه الخرافة التي يظهر أنه يصدقها. إن أصلها إغريقي كما يبرهن على ذلك الاسم الذي أطلق على البطلين القرطاجيين، فهناك تلاعب باللفظ حوّل اسماً لأحد الأمكنة إلى اسم للأشخاص، معناه "أصدقاء المديح". ولربما يكون الذي أوحى بها هو عدد هذه الأضرحة وشكلها الذي يذكر بالتلاّت الجنائزية. وزيادة على هذا، فليس من المستحيل أن تكون هذه "المذابح" قد جعلت في حماية بعض المعبودات البونيقية، وربما حتى الإغريقية. ولكننا لن نستطيع التسليم بأن القرطاجيين كرسوها لرجال مؤلهين، إذ لا يوجد برهان على أنهم مارسوا عبادة الأبطال. فالحكاية البعيدة عن الصواب، التي حكاها سالوست، يجب أن لا تدفعنا لتصديق ذلك.

ونستطيع، بالاعتماد على النصوص القديمة، أن نوضح بكيفية تقريبية موقع أضرحة فيلين Philène. فقد أقيمت بقرب المكان الذي يعرف اليوم باسم مُكْثار في اتجاه داخل سدْرة الكبرى. واستمر العمل أمدا طويلا بهذا الحد، بحيث إنه في العهد الروماني كان يفصل بين ولايتي سرنيكا وإفريقية. ومع ذلك يخبرنا سترابون : في عهد ملك يُدعى بطُلمي، كان يحكم سرنيكا، فإن الحد بين هذه المنطقة والمقاطعة القرطاجية كان يوجد بعيدا إلى الغرب، ببرج أوفْرنْطاس Euphrantas ولا شك أن المعني هنا هو بطلمي الأول الذي استولى على قورينة سنة 322. ونحن نجهل لماذا أحدث هذا التغيير، لكن الحدّ أعيد إلى أضرحة فيلين حيث ذكره بوليب.

ولسنا ندري كيف يحاول الإغريق بعد إخفاق دوريوس أن يؤسسوا المستعمرات بجنوب السدْرتَيْن وبغربهما. ويعطي هيرودُت عن أهالي هذه الجهات معلومات هزيلة وواهية. ولعله حصل عليها بنفسه بقورينة، في الثلث الثاني من القرن الخامس. الأمر الذي يساعدنا على الافتراض بأن التجار الإغريق كانوا لا يزالون يزورون هذه الجهات. ومع ذلك، فربما أن هيرودُت نقل عن مؤرخين سابقين مثل هيكاتي Hécatée، أو أنه كرر بعض المرويات الشفوية التي ترجع للقرن السابق. وفي رحلة سيلَكْس أخبار فيها بعض التفصيل. وأياً ما كان مصدرها، فهي تشهد بأن الإغريق كانت لهم أنظار لهذا الساحل في أواسط القرن الرابع. لكن، إذا كانوا استطاعوا الوصول لهذا الساحل في العهود التي سبقت تحرير الرحلة المذكورة، فلابد أن القرطاجيين قد أذِنوا لهم بذلك.

وفي المعاهدة الأولى المبرمة بين رومة وقرطاجة في نهاية القرن السادس، أذنت قرطاجة للرومانيين وحلفائهم بالمتاجرة في ليبيا، ولكن

مع بعض الشروط. وهذه المادة – كما يدل على ذلك شرط آخر بنفس المعاهدة – لم تكن تتعلق إلا بالسواحل الواقعة قبل المرتفع الجميل، أي الواقعة – ربما – بشرق هذا الرأس المعروف اليوم باسم رأس سيدي علَي المكّي قُرب غار الملْح. فكانت تفتح للرومانيين السبيل إلى موانئ تونس الشرقية والبلاد االطرابلسية. وعلى النقيض من ذلك فإن المعاهدة الثانية المبرمة سنة 348 لم تكن تمنع عليهم إنشاء المدن في ليبيا فحسب، بل منعتهم حتى من المتاجرة فيها.

لاشك أن قرطاجة أنهضت لِبْتيس، أو نِيابُليس كما كان يسميها الإغريق. كما ارتبطت بها على الساحل الجنوبي للسدرتين موانئ أخرى، كانت إما مستعمرات فينيقية قديمة أصبحت تابعة لها، أو هي مستعمرات جديدة. ومن بين تلك القديمة مدن كانت مزدهرة. ويظهر أنها منذ القرن الخامس كانت لها علاقات مع جهات بعيدة جدا داخل إفريقيا. أما الأهالي فيظهر أن قرطاجة فرضت عليهم حلفا لمصلحتها، لأننا نعلم عن طريق ديودور أنها كانت تطالبهم بالجيوش المساعدة.

والمدن التي تذكر وجودها رحلة سيلَكْس بالساحل التونسي الشرقي، كانت ملكا لقرطاجة. والمعتقد أنها لم تنتظر القرن الرابع لتستولي على هذا الساحل، إما بفرض تبعيتها كرها أو طوعا على المدن الفينيقية القديمة، وإما بإنشاء مستعمرات جديدة لنفسها. وكلها كانت محطات تساعدها على الوصول إلى داخل السدرَتَيْن، كما أنها كانت أسواقا لناحية خصبة. وفي القرن الخامس أنشأت لنفسها منطقة حكم مباشر امتدت على قسم من البلاد التونسية. ومع فرضنا أنها لم تكن آنذاك مستولية على جميع الموانئ التي كانت تستخدم كمنافذ للأراضي

المحتلة، والتي تقع على السواحل الشرقية والشمالية، فلابد أنها لم تبطئ كثيرا في الاستيلاء على هذه الموانئ.

وكذلك كان القرطاجيون يملكون جميع المراكز التي تذكرها الرحلة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين قرطاجة وأعمدة هرقل. فقد ركزوا هيمنتهم بهذه الجهات أيضا منذ أواسط القرن الرابع. وإذا كانت المستعمرات الفينيقية بهذه الجهات غير مهددة بالإغريق، فإنها كانت بحاجة للحماية من تهديد الأهالي. وعلى هذا، فلربما لم يكن هناك من أسباب غير هذه للمعارك التي خاضها القرطاجيون ضد النوميديين والمورين حول 475-450 ق.م. وكان لابد لقرطاجة أن تكون يدها مطلقة في المحطات البحرية الواقعة في طريق إسبانيا الجنوبية والمؤدية إلى المحيط. والمتأكد أنها نالت ذلك، حينما كلف حنّون بتأسيس المدن على ساحل المحيط، فذهب بأسطول عظيم في النصف الأول للقرن الرابع على أقل تقدير. وزيادة على هذا، فإن حنّون لم يكن ليذهب بعيدا لتوطين المعمرين لو لم يسبق للقرطاجيين أن احتلوا المواطن الصالحة قبل المضيق. ومنذ نهاية القرن السادس، كانت لهم مصالح يحمونها على الساحل الإفريقي، غربي خليج تونس. والمعاهدة التي أبرمت في هذا العهد منعت على الرومانيين وحلفائهم الملاحة فيما وراء المرتفع الجميل الذي سبق لنا القول بأنه يقع برأس سيدي علي المكّي بشمال قرطاجة. ورغما عن الإبهام، فيمكن الفرض بأن تعبير "فيما وراء" لا يعني الاتجاه نحو الغرب. وفي معاهدة 348، توجد مادة منعت على الرومانيين أن يجمعوا الأسلاب، وأن يتعاطوا للتجارة، وأن يؤسسوا مدنا فيما وراء نفس هذا المرتفع.

ويحتمل أن قرطاجة طبقت نفس المنع على الإغريق الذين كانوا لا يعرفون جيدا شمال إفريقيا إبان سيطرتها عليه. فهيرودُت لايعرف شيئا

عن البلاد التي خلف السواحل الشرقية للقطر التونسي. وإذا كان سيلَكْس المشبوه Pseudo-Scylax يعطينا لائحة مختصرة للموانئ والجزر الموجودة بين قرطاجة والمضيق، فلا يوجد برهان على أن هذه اللائحة قد حررها بحارة من الإغريق.

فمن قبل أن يقوم حنّون برحلته، كانت قرطاجة لاشك قد مدت نفوذها على مدينة لِكْسوس القديمة وعلى غيرها من الموانئ التي ربما كانت موجودة بين المضيق وبين المكان الذي أسس فيه أولى مستعمراته التي هي ثِمْياطيرْيون Thymiatérion أي المهدية اليوم.

فمن المدن التي نعلم أنها كانت خاضعة للقرطاجيين بسواحل الشمال الإفريقي، يستحيل علينا أن نقول - على العموم - أيها كان من تأسيسهم، وأيها يرجع لعهد أقدم. كما نجهل كيف أخضعوا هذه الأخيرة لسيطرتهم. وربما أن معاملتها لهذه المدن لم تكن على حد سواء. وهناك أسباب تدعونا للاعتقاد بأن أوتيكا كانت حول نهاية القرن السادس لاتزال تحتفظ بكامل حريتها. وبعد ذلك، فإن أوتيكا، مع ارتباطها فعليا بقرطاجة، عقدت معها حلفا جعلها رسميا على قدم المساواة معها. وشعب أوتيكا كان الوحيد من بين الفينيقيين الغربيين الذي ورد اسمه مع القرطاجيين في المعاهدات التي أبرمها هؤلاء في أواسط القرن الرابع ونهاية الثالث.

7

هذه هي الأعمال العظيمة في الدفاع وفي السيطرة التي أنجزتها قرطاجة في البحر الأبيض المتوسط الغربي وفي المحيط، ابتداء من القرن السابع على ما يحتمل، وعلى الخصوص أثناء السادس وفي بداية

الخامس، أي في هذه الحقبة من الحملات والفتوحات التي يظهر أنها كانت أمجد حقبة في تاريخها.

كانت قد وضعت حدا لمطامع الإغريق، ونحّتهم عن سرْدانية وكُرسيكا وجنوب إسبانيا وعن السواحل الإفريقية التي بغرب سرِنيكا. وقد سدت في وجههم طريق البحر الخارجي. وهو نجاح يسوغ التأسف عليه ! وإذا كان الفينيقيون بما جلبوه وبالمثل الذي ضربوه يعتبرون المربين لبعض شعوب الغرب، فإن قوة انتشار الهيلينية Hellénisme قد ظهرت بكثير من الحماس والبهاء في الأراضي التي تركزت فيها بصفة دائمة. فالمستعمرات الفينيقية لم تكن سوى مستودعات بضائع لصور أولاً، ثم لقرطاجة من بعد. بينما المدن الإغريقية العظيمة بجنوب إيطاليا، وبصقلية وسرنيكا، وغالْيا كانت لها الكلمة العليا في أمر نموها. فحققت الغنى بالتجارة الحرة أو بالزراعة في مناطق شاسعة، وأصبحت مراكز للفن والفكر والعلم، وأشاعت من حولها هذه الحضارة الهيلينية التي ساهمت - هي نفسها - في ازدهارها، وفي رفعها عاليا فوق الحضارة الفينيقية المادية المحض. لهذا، يجب أن نعجب بالقدرة التي قاومت بها قرطاجة الإغريق أكثر مما نعجب لنتائج تدخلها.

لقد حمت الفينيقيين الغربيين المهددين، ونصبت نفسها على رأسهم، لا كرئيسة لاتحاد المدن، بل كأميرة على دولة ذات نظام مركزي وثيق، تدبر وحدها شؤونها. فبهذا كونت إمبراطورية بحرية عريضة.

لكنها لم تستطع - بالرغم من مجهودها العظيم - أن تدمر إغريق صقلية، بمدخل البحر الذي ادعت لنفسها الهيمنة عليه. أما مرسيليا التي هي «واحد من الرؤوس الثلاثة للمثلث المكوّن في البحر الأبيض المتوسط الغربي» فقد حاربت قرطاجة بتوفيق. وبقيت قوية ومزدهرة.

وحافظت على قسم من المراكز الفوصية بالساحل الشرقي لإسبانيا. ولم تتخل عن أي مطمح لنشر تجارتها فيما وراء مضيق جبل طارق. وقد رضخت قرطاجة، بسبب عدم نجاحها في تحطيم أعدائها، إلى المهادنات الطويلة الأمد، وإلى تنازلات تفيد تجارتها كما تفيد تجارة الإغريق.

وأخيرا، فإنها اضطرت لتتحامى النزول بإيطاليا. إذ كان عليها أن تراعي حلفاءها الذين حاربوا معها الهيلينيين، مثلما حاربتهم هي. وهؤلاء الحلفاء هم الأتروريون، سادة الساحل من جبال الأبّنين Appenins الليگورية إلى كَمْبانيا. فقد أبرمت معهم معاهدات كانت، كما يقول أرسطو، أوفاقا تجارية، واتفاقيات لمنع القرصنة، ومحالفات حربية. ولابد أن هذه المعاهدات كانت تشتمل على شروط مماثلة لتلك التي نقرأها في المعاهدتين اللتين ربطتا قرطاجة برومة، في نهاية القرن السادس وأواسط القرن الرابع.

ففي المعاهدة الأولى منع القرطاجيون أو قننوا تجارة الرومانيين في الجهات التي كانت لهم بها السيادة. ومقابل ذلك تعهدوا : «أن لا يحدثوا أي إتلاف لسكان أرْدي Ardée، وأنْتيوم Antium، ولورَنت Laurente، وسِرْصيي Circéi، وطيراسين Terracine، أو لغيرهم من اللاتانيين الآخرين المرتبطين بالرومانيين. وإذا كان هناك آخرون لا يخضعون لهم، فإن القرطاجيين يمتنعون عن أي عمل ضد مدنهم. لكنهم إذا استولوا على واحدة منها، فإنهم يسلمونها للرومانيين سالمة. ولا يبنون أي حصن في أرض اللاتانيين. وإذا دخلوها بقوة السلاح فإنهم لا يقضون الليل بها». ونقرأ في المعاهدة الثانية مايلي : «إذا استولى القرطاجيون في اللّتّيوم Latium على مدينة ليست خاضعة للرومانيين، فخيرات المدينة وسكانها ملك لهم، ولكنهم يعيدون المدينة». تخلت إذن قرطاجة، مراعاة

منها لرومة، عن كل محاولة للاحتلال في اللتيوم. ويحتمل أنها قطعت على نفسها تعهدات مماثلة تجاه الأتروريين. بل يسوغ أن نتساءل عن تجارها هل كانوا يزورون سواحل إيطاليا الوسطى زيارات كثيرة. وعلى كل حال فإن الكشوف الأثرية لم تنبئنا بشيء عن تجارتهم، بينما هي تشهد بنشاط كبير في جلب المنتجات الإغريقية منذ القرن السابع.

فنحن نرى أن قرطاجة – رغما عن اتساع إمبراطوريتها في القرن الخامس– كان عليها أن تحسب الحساب لمزاحمين لم تستطع تنحيتهم، وكذلك لحلفاء من الممكن أن يصبحوا ذات يوم خصوما ألداء، خصوصا وأن قضية صقلية بقيت دون تسوية نهائية. ولقد بذل القرطاجيون بعد ذلك جهودا جيدة – غير مجدية – لطرد الإغريق عن الجزيرة الكبيرة. ولكنهم لم يصلوا إلى أن يضمنوا لأنفسهم التخصص بملكية هذه الجزيرة التي هي مفتاح البحر الأبيض المتوسط الغربي.

8

لم تكن قرطاجة – حتى القرن الخامس – سوى قوة بحرية مهيمنة على قسم كبير من سواحل الغرب، وليس لها مع ذلك منطقة حكم مباشر في إفريقيا. بحيث أن البلاد خارج أسوار قرطاجة كانت ملكا للأهالي، بل كانت هي تؤدي منذ تأسيسها أتاوة سنوية عن كراء التربة التي قامت هي عليها.

وصحيح أنها استطاعت أن تتحرر من هذا الأداء أثناء قسم من القرن السادس. فجُسْتان يخبرنا – ولكن من غير تدقيق – أن القرطاجيين بقيادة مَلْكوس «قاموا بأعمال عظيمة ضد الأفارقة». فهل يقصد أنهم صدوا أو هاجموا جيرانا يهددون ؟ نجهل ذلك. والمتأكد هو أن قرطاجة توقفت عن أداء الأتاوة سنين طويلة. ولكن في أواخر القرن

السادس، وبعد حرب خاسرة وقعت في العهد الذي كان فيه أبناء ماكون مسيطرين على الدولة، خضعت قرطاجة من جديد لأداء ما التزمت به من قبل.

وقد أُرغِم الأفارقة بعد ذلك على التخلي عن هذا القدر من المال. ويقع هذا النجاح الذي نالته قرطاجة بين 475 -450، أي بعد الحملة الكبرى على صقلية بزمن قليل، حيث كانت أسرة الماگونيين لاتزال تسيّر الجمهورية، وتفرض سياستها الحربية، وذلك رغما عن الاندحار في حملة صقلّية وموت عَمِلْكار.

إن إلغاء الأتاوة صاحبه – أو تلاه – تكوين منطقة للحكم المباشر القرطاجي في شمال إفريقيا. وبعد مرور نحو من نصف قرن على هذا التحرير من الأتاوة، أي في 409 و406، أصبحنا نرى بالجيوش البونيقية وجود الليبيين المنخرطين بالتجنيد، لا بصفتهم من المرتزقة. فلقد كانوا إذن من الرعايا. وفي بداية القرن الرابع، ذكرت أخبار عن ثورات الليبيين، الذين كانوا يعيشون دون شك في المنطقة البونيقية. والمعتقد هو أن هذه المنطقة تكونت أثناء القرن السابق.

ولا يوجد نص يشير للأسباب التي دعت قرطاجة إلى مد سيطرتها إلى داخل إفريقيا. ولكن يسهل علينا حزرها. وأن هذه المدينة التي كان عدد سكانها كبيرا من وقت مبكر، كان لابد لها من بوادي عريضة تزودها، ولو بقسم من الأقوات الضرورية لها. كما أن الأرستقراطية التي تحكم المدينة كانت لاشك تودّ، بتملكها لضيعات مهمة، أن تضمن لنفسها مصدرا للثروة يكون أقل ريبا من التجارة البحرية. ومن ناحية أخرى، لم يكن من الحيطة في شيء أن يترك على باب مدينة عظيمة قوم "باربار" بسلاحهم، يطمعون في ثرواتها، ويترصدون الفرصة للاستيلاء عليها،

ويرون في أداء الأتاوة إحدى علامات الضعف. وذلك حتى لو كانت المدينة محمية بأسوار متينة البناء. وبعد إخضاع هؤلاء الرجال الأقوياء الشجعان يمكن أن يصبحوا من أحسن الجنود الصالحين للحملات البعيدة، الضرورية للحفاظ على القوة البونيقية ولنشرها على شواطئ البحر الأبيض المتوسط. ولابد أن قرطاجة اهتمت بعد كارثة هيمير Himère بالزيادة في قوة جيوشها.

إننا نجهل سعة المنطقة التي استولت عليها، غير أن الخندق الذي كان في نهاية القرن الثالث يحد المنطقة الخاضعة لسلطتها المباشرة، كان يمر على ما يحتمل بغرب السهول الكبرى، بناحية سوق الأربعاء وبشرق مَدورُش، وبجنوب سوق أهْراس. ولابد أنه لم يكن يبعد عن الحدود الحالية بين تونس والجزائر. ولكن ليس لدينا أي إشارة مؤكدة عن وجود هذا الخندق قبل حرب حنّيبَعْل. ويحتمل أنه ليس أقدم من العهد بكثير. كما أنه ليس هناك ما يبرهن على أن الحدود البونيقية سبق لها أن تقدمت حتى هذا المكان منذ القرن الخامس. لكن، وحتى إذا كانت قرطاجة قد انزوت آنذاك داخل حدود أضيق، فإنها – وهي ميناء كبير على البحر الأبيض المتوسط، وعاصمة إمبراطورية بحرية شاسعة – قد أصبحت الآن زيادة على ذلك عاصمة إفريقية، نشرت حضارتها في المنطقة التي أدخلتها في تبعيتها، ثم خارج منطقتها هذه عند أتباعها وحلفائها.

ولا نعلم تقريبا أي شيء عن سيطرتها في شمال إفريقيا حتى نهاية القرن الرابع، الذي جرت فيه حملة أگاطُكل Agathocle.

ففي بداية هذا القرن حدثت ثورة كبيرة، عقب الكارثة التي أصابت حملْكون Himilcon أمام سرِقوسَة سنة 396. إذ ترك هذا القائد الأفارقة الذين كانوا يعملون بجيشه وفر مع مواطنيه. فكان عمله خيانة أغضبت

رعايا قرطاجة الذين كانوا قد سئموا من الإدارة الاستبدادية. وانضم العبيد إلى الثوار، وزحف على المدينة مائتا ألف ثائر، وحاصروها حصارا شديدا، بعدما استولوا على مدينة تونس وأحرزوا على الانتصار في عدة معارك. لكن قرطاجة كانت تستطيع الحصول على الأقوات من سردانية، بينما كانت هذه الأقوات منعدمة لدى المهاجمين.

وقد كان الثوار حشدا بدون قادة ولا نظام، فقسمتهم دسائس المتواطئين الذين استمالهم القرطاجيون بالأموال. ولم تلبث الجموع أن تفرقت.

ويذكر دِيودور خبرَ ثورة أخرى حدثت بعد سنة 379 بقليل. وكان الوباء آنذاك يحدث أضرارا جسيمة بالمدينة. ويظهر أن الثوار تقدموا هذه المرة أيضا حتى أسوار قرطاجة. وحدث من الهول ما جعل بعض الناس الذين طاش صوابهم يظنون أن الثوار تخطوا الأسوار، فخرجوا مذعورين إلى الطريق. وحارب بعضهم بعضا، وهم يظنون أنهم يواجهون العدو. وقُدمت القرابين إلى الآلهة لتهدئة غضبها، ثم وقع القضاء بسرعة على الثورة.

وبعد بضع سنين، جرت على ما يحتمل معارك جديدة في إفريقيا. وليس لدينا عن هذا الموضوع سوى خبر من مختصَر لطْروگْ پومْپي Trogue-Pompée، يقول : «بعد عرض أعمال دونيس (القديم) إلى أن مات في 367، قصة الأعمال التي قام بها حنّون الكبير في إفريقيا). وحنّون هذا كان أراد، حول أواسط القرن الرابع، أن يستولي على السلطة المطلقة في قرطاجة بمؤامرتين في أول الأمر. وقد أصيبتا بالإخفاق، ثم بثورة أخرى. ويقول جُسْتان إنه دعا آنذاك الأفارقة

لمناصرته (أي دعا رعايا الجمهورية) وملك الموريين. فأسر وعذب. أما الأفارقة فلا شك أنهم عادوا إلى الطاعة.

إن هذه المعلومات الهزيلة التي كاد وصولها إلينا يكون بطريق الصدفة، تبرهن على أن السلام تعكر صفوه أكثر من مرة بإفريقيا في القرن الرابع. ولا نستطيع أن نقول هل كانت قرطاجة تكتفي بصد الهجمات وبردع الفتن، أو أنها وسّعت منطقتها بعد حروب موفقة.

الاستعمار الفينيقي وإمبراطورية قرطاجة

الفصل الثالث

الحملات على سواحل المحيط

1

نالت قرطاجة السيادة على قسم كبير من سواحل البحر الأبيض المتوسط الغربي، فأرادت أن تستكشف سواحل المحيط، وأن تفتحها لنشاط تجارها، بل وأن تنشئ بها المستعمرات. ولم تكن في هذه الجهات تخشى كثيرا مزاحميها بالبحر الداخلي لأنها، خارج مضيق جبل طارق الذي لم تكن مراقبته صعبة، كانت تملك قادِس وربما حتى لِكْسوس، المدينتَيْن الفينيقيتين الجاثمتين على مدخل المحيط.

يقول پْلين Pline : «في الوقت الذي كانت فيه قوة قرطاجة مزدهرة، ذهب حنّون Hannon من قادِس، ودار مع إفريقيا حتى قاصية البلاد الغربية، وعرف هذه الرحلة البَحرية بمكتوب، وكذلك حمِلْكون Himilcon أيضا الذي بعث في نفس العهد لاستكشاف الأقسام الخارجية من أروبا».

يظهر إذن أن الرحلتين معا كانتا متعاصرتين، وسنبحث من بعد عن التاريخ الذي يمكن ان نحدده لهما. وقد وقعتا بناء على أمر صادر

من الدولة، ويبرهن على ذلك الألفاظ التي استعملها پْلين فيما يخص رحلة حِمِلْكون. أما حَنّون فقد كان "ملِكا" أي صاحب السلطة العليا في قرطاجة، ورحلته تذكر بجلاء أنه ذهب بناء على قرار للقرطاجيين.

ولم يصلنا مكتوب حِمِلْكون الذي أشار له پْلين، لكن لابد أن يتعين هذا المكتوب في رواية حِمِلْكون القرطاجي المذكورْ في الرحلة التي نظمها فيسْتوس أڤينوس Festus Aviénus شعراً في القرن الرابع للميلاد. وحملْكون هذا كان قد خاض المحيط، وبعد أربعة أشهر وصل لجهات الأَسَتْرِمْنيد Oestrymnides. وكان قد تكلّم في رحلته على سكون البحر الذي يوقف السفن، وعلى المساحات المائية التي تكثر بها الأشنة وتعرقل سيرهم، وعلى المسافات الواسعة التي لها قيعان رملية لا يغطيها إلا القليل من الماء، وعلى الضباب الكثيف الذي يحجب السماء والبحر، وعلى الوحوش الضخمة المخفية التي تسرح هنا وهناك.

أما فيسْتوس أڤينوس الذي حلا له أن ينقل هذه التفاصيل دون أن يخشى التكرار، فقد ادعى أنه أخذها من بعض كتب الحوليات البونيقية القديمة، أي أخذها لاشك عن ترجمة لرواية البحار القرطاجي نفسها. فهل كان يتباهى ؟ أيكون لم يعرف سوى تلخيص لحِمِلْكون، أورده بعض الكتّاب، وضمّ لديوان حوى غرائب الأشياء والوقائع ؟ والقسم المتعلق في قصيدته بسواحل المحيط وراء قادِس، أو ربما من مصب وادي يانَة Guadiana، هل يجب التسليم بأن مصدره كان هو رواية حِمِلْكون ؟ الرواية التي قد يكون أحد الكتاب قبْلَه عدلها، أي عكسها على كل حال. فوصف أفينوس يسير على العموم من الشمال إلى الجنوب، بينما حملْكون كان طبعا يتبع طريق الجنوب إلى الشمال، فشوهت وصارت

في الغالب لا تفهم. إن الموضوع غامض جدا، ولا يستحسن تحليله في كتاب عن تاريخ شمال إفريقيا.

وعلى الأقل، يتاكد أن حِمِلْكون وصل للأسترْمنيد. وحسبما ذكره أفينوس، فإن أسترِمْنيس هوَ الإسم القديم لمرتفع من الأرض يمتد تحته قسم من المحيط يعرف باسم الجون الأسترمِني الذي توجد به جزر الأسترمنيد الغنية بالقصدير والرصاص. وكانَ لابد من الملاحة بالبحر يومين للذهاب منها إلى الجزر المقدسة التي يسكنها الهِرْنِيون Herni أي إلى جزيرة إيرْلندة. فالمرتفع كان على ما يحتمل بالقاصية الغربية لبروطونيا الفرنسية La Bretagne. أما الجزر فالقول فيها متردد بَيْنَ ويصّان Ouessant والجزر الصغيرة معها، وبين الصُّرْلَنْگ Sorlingues، (أو السيلي Scilly). ولكن يظهر لنا أن التعيين الأول أقرب للصواب. أما القصدير الذي ذكره أفينوس فكان يأتي في الحقيقة من رأس الكُرْنْوَاي Cornouaille، حيث كان الأهالي يجعلونه سبائك، ويحملونه على قوارب من الخيزران والجلد إلى الجزر. وهناك كان التجار الأجانب يأتون لأخذه. ولربما أن هذه التجارة ترجع إلى عهد قديم جدا، كما سبق أن قلنا.

قضى حِمِلْكون – كما قيل – أربعة أشهر في الذهاب من قادِس (?) إلى الأسترِمنيد. وإذا كان الرقم صحيحا، فإن رحلته قد أبطأت جدا، إما لكونه أقام بعدّة نقط على الساحل المحيطي، وإما بسبب أحوال غير مناسبة، مثل السكون الطويل للهواء، وملاقاة الأشنة، وربما حتى الرياح المعاكسة. ولم يتأكد أنه ذهب إلى أبعد من جزائر الأسترمنيد.

ونجهل هل كان مكلفا – على غرار حَنّون – بتأسيس المستعمرات خارج المضيق. لكن يظهر أن مأموريته كانت على الخصوص هي أن

يضمن للقرطاجيين ولحلفائهم القادسيّين احتكار السوق المعدنية الكبرى التي بالشمال الغربي لأروبا، وأن يسهل سفرهم بتكوين المحطات، بربط العلاقات مع أهالي السواحل الإسبانية والغالية. ولا ندري هل وصل لهدفه.

2

أما حملة حَنّون فمعروفة لدينا أكثر من الأولى، لأننا نحتفظ بترجمة إغريقية من تقريره. وهي وثيقة قصيرة جدا. ويخبرنا العنوان أن الأصل كان كتابة وضعها حَنّون بنفسه في معبد كْرونوس Cronos بقرطاجة. وهذا الخبر مهم لأنه يؤكد صدق الكاتب، إذ أن هذا الأخير ما كان ليعرض على العموم قصة قد يصرح رفقاؤه العديدون بعدم صحتها. أما الترجمة، التي قام بها شخص لم يكن مجردا عن التحلي بالأدب، فقد كانت موجودة في بداية القرن الثالث قبل الميلاد، بل لربما حتى في أواسط القرن الرابع. ويستحسن أن نقول بدقة متى كتبت. ولكن بعضا من الكتاب الإغريق واللاثانيين عرفوها بطرق مباشرة أو غير مباشرة. وجرى تساءل عن الملك يوبا، الذي وقع في يده بالتأكيد تقرير حَنّون، هل لم يرجع إلى نسخة من الكتابة البونيقية منه ؟ غير أن هذا يبدو لنا مشكوكا. وهل كانت للإغريق عن الحملة القرطاجية معلومات آتية من بعض المصادر الأخرى ؟ هناك معلومات موثوق بها – يحتمل أن أريان Arrien استقاها من إراتُسْطين Eratosthène – لا يوجد في النص الذي بين أيدينا، غير أنها ربما كانت موجودة بنسخة أتم من نسختها.

ويظهر أن بنسختنا بعض النقص والتحريف. وفوق هذا فإن الاختصار الواقع في الرواية يجعل من الصعب تعيين الأماكن المذكورة

بها. ونضيف لهذا أن السواحل التي سار معها حنّون، لابد أصابتها تغيرات مهمة منذ هذه القرون.

لهذا فالعلماء المعاصرون أبدوا في الموضوع أكثر الافتراضات اختلافا. ولا ننسى أن الرأي الذي نأخذ به يبقى غير أكيد.

وإليك ترجمة لهذه الرحلة، مصحوبة بالشروح التي نراها مفيدة.

رواية حَنّون، ملك القرطاجيين، عن المناطق الليبية فيما وراء أعمدة هيركْليس، التي قدمها في معبد كْرونوس، والتي هذا نصها، «أولاً : استحسن القرطاجيون أن حَنّون يبحر خارج أعمدة هيركليس، وينشئ مدنا لليبيين الفينيقيين. فأبحر إذن، وصحب معه ستين سفينة بخمسين مجدافا، وعددا كبيرا من الرجال والنساء، عددهم تقريبا ثلاثون ألفا، وأطعمة وأشياء أخرى ضرورية».

كُلف حَنّون إذن بإنشاء المستعمرات في إفريقيا، فيما وراء مضيق جبل طارق. فما هي أسباب هذا القرار ؟ هل يعني ذلك التخفيف على قرطاجة من تزايد السكان، من عناصر مشوشة ؟ هل يعني إنعاش أو تعويض مراكز فينيقية قديمة كانت على الساحل المغربي، فتدهورت وربما تدمرت ؟ لن نستطيع الجواب.

إن لفظ ليبيين فينيقيين الذي استعمله المترجم يعني بالضبط فينيقيي ليبيا. ولكن يظهر أنه أخذ معنى إداريا وقانونيا، ليدل على مواطني المدن الفينيقية أو البونيقية المرتبطين بقرطاجة، والمتمتعين بنفس الحقوق المدنية التي لمواطني العاصمة، والذين كانت لهم أنظمة بلدية مماثلة. فلا شك أن هذا هو المعنى الذي يجب أن يفهم به هنا.

إن المأمورية التي أُسنِدت إلى الملك حنّون، كانت بالتأكيد بالغة الأهمية، ومع ذلك يصعب علينا أن نصدق أن 30000 شخص، بالإضافة إلى البحارة، وجد كل منهم مكانه في 60 سفينة. فلابد من التسليم بأن أحد العددين محرف. والغالب أن عدد المهاجرين هو المحرف، لا عدد السفن. وسنرى من بعد أن سبع مستعمرات فحسب هي التي أنشئت، وأن معدل 4300 معمر لتعمير كل مدينة عدد تظهر فيه المبالغة.

يقول پْلين إن حَنّون ذهب من قادِس، ومعنى ذلك طبعا أنه بعد مجيئه من قرطاجة، ذهب من قادِس بعدما أتم استعداداته بها. ونظرا لكون سْترابون أخبرنا بأن أعمدة هرقل - حسب قول الإسبانيين والأفارقة - كانت في هذا المكان وليس بالمضيق، فقد ظن البعض أن النص البونيقي للرواية جعل بقادِس مكان الأعمدة الهرقلية، هذه الأعمدة التي سار الأسطول بمحاذاتها قبل وصوله لمكان المستعمرة الأولى. ولكن هذا الرأي لا يظهر أنه مقبول. ونقرأ في بداية الرحلة أن حَنّون أمر بالإبحار خارج أعمدة هرقل، وبإنشاء مدن الليبيين الفينيقيين. لهذا، فأياً ما كانت الألفاظ الفينيقية المترجمة إلى الإغريقية، فإنها كانت تعني "خارج المضيق" لأن المستعمرات كانت ستؤسس على الساحل الإفريقي، وهو لم يكن "خارج" قادِس. أما قول پْلين، فلابد أنه خطأ، وليس من قبيل الصواب. وليس معقولا أن تكون الحملة قد دارت لتقف في الميناء الإسباني.

طبعا لم يذهب حَنّون للمغامرة، فمواقع المدن المنوي إنشاؤها، لابد أنها اختيرت من قبل. ولم يبق عليه إلا إنزال المعمرين. ونتابع ترجمة الرواية :

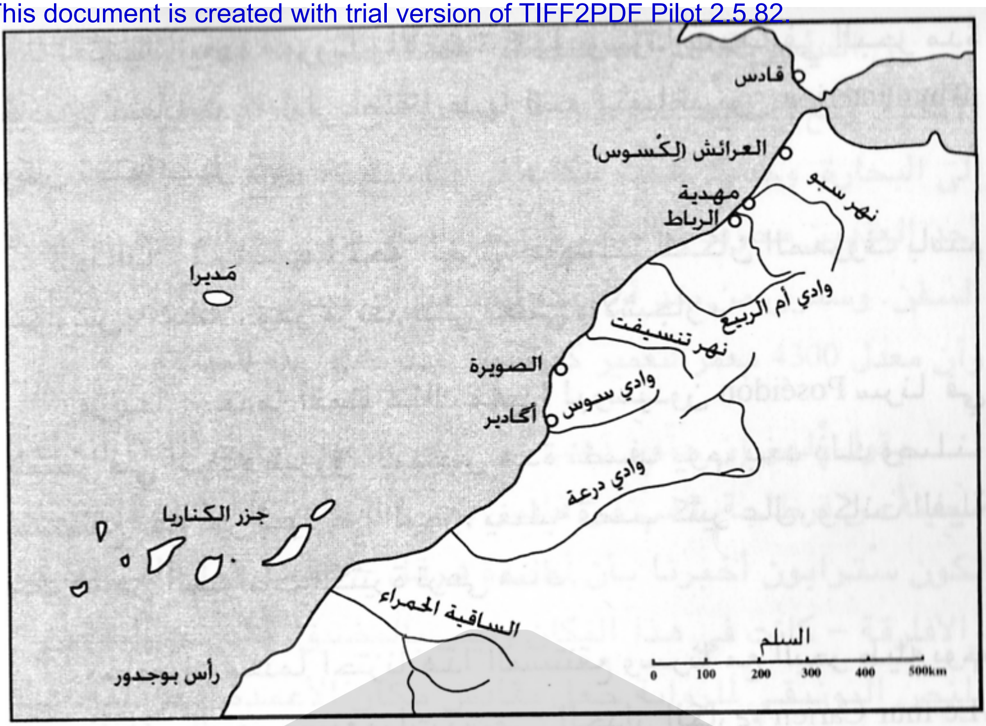
«ثانيا : بعدما مررنا بالأعمدة كلها، وسرنا بعدها في البحر مدة يومين، أنشأنا مدينة أولى أطلقنا عليها اسم : ثِمْياطيريْون Thymiaterion، وكان تحتها سهل كبير».

«ثالثاً : ثم اتجهنا نحو الغرب، فوصلنا للمكان المعروف باسم سولُوِيسْ Soloeis، وهو مرتفع ليبي مغطى بالأشجار».

«رابعاً : بعدما أقمنا هناك معبدا لبوسِيدون Poséidon سرنا في البحر في اتجاه شروق الشمس مدة نصف يوم، بعد ذلك وصلنا لمستنقع يقع غير بعيد عن البحر. يغطيه قصب كثير عال، وكانت الفِيلَة وغيرها من الحيوانات الكثيرة ترعى هناك.

«خامساً : بعدما اجتزنا هذا المستنقع وسرنا مع البحر طيلة يوم، أسسنا على البحر مستعمرات تسمى: الجدار الكاري Le mur Carien، جيتي Gytté، أكْرا Acra، مليتا Melitta، وأرَمْبِيس Arambys».

فأما المستعمرة التي دعاها المترجم اليوناني باسم ثِمْياطيريْون، والتي نجد اسمها أيضا عند سيلَكس المشبوه Pseudo-Scylax، فيظهر جيدا أنها تطابق المهدية، المكان الواقع على يسار مصب وادي سبُو، على نجد وعر مشرف على سهل عريض. ويبعد هذا المكان عن المضيق بنحو 250 كيلومترا، الأمر الذي يتناسب مع يومين من السير في البحر. وفيما يخص أيام السير البحري التي تذكرها الرحلة، يجب أن نضيف أن المسافات التي كان حَنّون يقطعها في اليوم الواحد، لابد أنها كانت تختلف تبعا لأحوال البحر، وللرياح، ولطبيعة السواحل التي كانت مأمونة إلى حد ما، والتي كان الأسطول سيسايرها. إذ لم يتأكد في الواقع أن كلمة يوم، يجب أن يفهم منها معدل السير اليومي.



ولم يذكر نصنا هذا المدة التي قضاها حَنّون في سيره نحو الغرب – وبالتدقيق في اتجاه الجنوب الغربي – من ثمياطريون إلى رأس سولويس حيث أقام معبداً لربّ البحر الذي رأى الإغريق أنه هو بوسيدون Poséidon.

وتذكر رحلة سيلَكْس Scylax أيضا مكانا باسم رأس سولُويْس. ويضيف : «كل هذه الجهة هي أشهر وأقدس جهات ليبيا. وفي أعلى المرتفع يوجد مذبح كبير لبوسيدون إلخ...». فهذه الجزئية التي تذكّرنا بالمعبد الذي كرسه حَنّون لنفس المعبود، تكاد لا تساعد على الشك بأن نفس الرأس هو المقصود. وذلك رغما عن كون اسم سولويس – وهو لفظ فينيقي معناه الصخرة – ربما كان يطلق على عدة من نتوؤات

بالساحل. غير أن سيلكْس يقول لابد من خمسة أيام بالبحر للذهاب من الأعمدة إلى سولويس. ويتناسب مع هذا النبأ رأس كَنْتان Cap Cantin الواقع على نحو 570 كيلومترا من مدخل المضيق. كما يتناسب مع هيْليوأوروس الذي جعله بطُلِمِي بين مصب نهر أسانا ومصب نهر فوث Phouth، أي بين وادي أم الرَبيع ووادي تَنْسيفت، ثم إن هيلْيوأروس ليس في الحقيقة سوى ترجمة للتعبير اللاتاني Promunturium Solis الذي ذكره پْلين، بينما سوليس Solis هو تحريف لسولويس.

إذن فسولويس الذي ذكره حَنّون، يجب جعله في رأس كَنْتان. والواقع أن هذا المرتفع عار اليوم من الأشجار، غير أن هناك أمكنة أخرى عديدة بشمال إفريقيا، فقدت نباتاتها منذ العهود العتيقة. والواقع أيضا أننا لا نجد بعد الرأس المستنقَع الذي ذكره حَنّون، ولكن يمكن أن نفرض أنه جف. وهناك ما هو أخطر من ذلك ، وهو أننا لا نفهم كيف، أن الأسطول القرطاجي بعدما مر أمام سولويس، أمكن له أن يسير نحو الشرق مدة نصف يوم. إذ الساحل بعد رأس كَنْتان ينعطف إلى الجنوب الشرقي بمسافة نحو من خمسة عشر كيلومترا على أكثر تقدير، ثم ينعطف إلى الجنوب، فالجنوب الغربي، ثم إلى الجنوب من جديد. فإذا صدقت الرحلة، فإن الساحل يكون قد تغير كثيرا وعلى حساب البحر. وبالطبع فإن هذا الافتراض مرفوض.

وهناك آخرون يجعلون سوليوس الذي ذكره حَنّون بعيدا إلى الجنوب، في رأس غِير Cap Guir، لأن هذا المرتفع يكوّن نتوءا أقوى وأعلى من رأس كنتان، كما أن الساحل من بعده ينعطف بوضوح إلى الشرق ثم إلى الجنوب الشرقي. أما المستنقع فربما كان عند مصب وادي سوس، ولكن يمكن الاعتراض على هذا بأن حَنّون يكون قد ذهب

بعيدا جدا بعد ثِمياطيرْيون ليؤسِّس مستعمرات جديدة، مع أن المواقع الصالحة لتكون منفذا لأراض خصبة غير منعدمة الوجود بين ثمياطرْيون ورأس غير. ويضاف لذلك أن هذه المستعمرات ستكون متتابعة في مسافة ضيقة، بين محل واقع على بعد يوم واحد جنوب نهر سوس ومصب نهر دَرْعَة الذي هو لِكْسوس Lixos عند حَنّون، أي على طول ساحل، تكاد تنعدم به الأمكنة الصالحة لتكون موانئ، وفي جهة قليلة القيمة.

وزيادة على هذا، يظهر لنا أن مقارنة بين قول كل من حَنّون وسيلَكْس ستفصل في القضية لصالح رأس كَنْتان.

يستحيل تحديد مواقع المستعمرات الخمس التي أسسها حَنّون، خصوصا وأن رحلته لا تذكر المدة التي قضاها للوصول إلى هذه الأمكنة المختلفة، وللذهاب من أرَمْبيس Arambys آخر المستعمرات إلى نهر لِكْسوس. ومع ذلك، فإن موقعين اثنين كانت لهما منافع ظاهرة، لابد أن القرطاجيين تنبهوا لها : ففي موگدور (الصويرة) كانوا يجدون ما يبحث عليه الفينيقيون لمراكزهم البحرية، أي رأسا بجوار جزيرة تكون مأمنا – ولو أنه قليل القيمة – ضد رياح البحر، كما يمكن استعمالها ملجأ في حالة هجوم للأهالي. فلربما أن هذا المكان هو الذي أقيمت به – وعلى بعد يوم ونصف من رأس سولويْس – المدينة التي سميت في النص الإغريقي باسم كاريكون طيكوس Caricon Teicos أي الجدار الكاري، أما أگدِير فميناء لابأس به، في مأمن من رياح الشمال والشرق، وفي أرض زراعية وذات مناجم. وهذا الإسم من أصل فينيقي، معناه المكان المحوط، ولربما أنه كان مستعملا منذ العهد البونيقي مع اسم آخر في نفس الحين.

ويرى بعض العلماء أن عمل حنّون لم يزد على أنه أنهض في هذه الجهات مستعمرات فينيقية عتيقة. هذا الرأي لا يرفض، ولكن ليس لدينا ما يبرهن عليه. على أنهم يستشهدون بقول الرحلة «فتركنا معمرين جددا» وبأن المترجم يستعمل بالنسبة لثمياطيريْون تعبير «فأسسنا». فيظهر جيدا أن التمييز دقيق، مع أن الرحلة حين تحدثت على صيرْني Cerné استعملت تعبير «فتركنا معمرين جددا» وصيرْني أسست بعيدا جدا إلى الجنوب، بناحية لاشك أنها لم يصل إليها قبل رفقاء حَنّون سابق. لهذا، يظهر أن التعبيرين كان لهما معنى مماثل.

ونتابع ترجمة الرواية :

«سادساً : وبعد ذهابنا من هنا، وصلنا للنهر الكبير لِكْسوس Lixos الذي يأتي من ليبيا. وعلى ضفافه كان الرحّل اللكسيون يرعون قطعانهم. فبقينا بعض الوقت عند هؤلاء الناس الذين صرنا أصدقاء لهم».

«سابعاً : وفوقهم، كان يعيش الأثيوبيون الذين لا يكرمون الضيف، ويعيشون بأرض مليئة بالوحوش الضارية، وتخترقها جبال عظيمة، يخرج منها - على ما يقال - اللِكْسوس. ويقال أيضا : حول هذه الجبال يعيش رجال لهم مظهر خاص، هم سكان الكهوف Troglodytes، ويدّعي اللكسيون أنهم في العدو أسرع من الخيول».

«ثامناً : بعدما أخذنا المترجمين من عند اللكسيين ...»

فيتحقق عموما أن لِكْسوس، النهر الكبير الذي يأتي من جبال عالية، والذي سار من بعده حَنّون بمحاذاة الصحراء، هو نهر دَرْعة الذي سماه كتاب آخرون من القدماء باسم دَرات Darat ولربما كان التراجمة

الذين أخذهم القرطاجيون معهم، يتكلمون إحدى اللهجات الليبية. وسنرى أنهم لم يؤدوا ما كان ينتظر منهم. ونتابع ترجمة الرواية :

«ثامناً : (تابع)... سرنا بمحاذاة الصحراء في اتجاه الجنوب مدة يومين، ثم في اتجاه شرق الشمس مدة يوم واحد. إذ ذاك وجدنا في جوف خليج جزيرة صغيرة لها محيط من خمسة اسطادات Stades، فسميناها صيرْني Cerné وتركنا بها المعمرين. وحسب رحلتنا، قدرنا أنها تقع قبالة قرطاجة، إذ كان لابد من السير بالبحر من قرطاجة إلى الأعمدة بمقدار السير من الأعمدة إلى صيرني».

وصل حَنّون إلى صيرْني بعدما سار على طول الصحراء. فيمكن إذن أن نبحث على هذه الجزيرة بسواحل المغرب، في مواجهة الأطلس الصغير أو الأطلس الكبير، مثلما يدعونا لذلك پوليبْ وبطُلِمي على ما يظهر. فبعدما ذهب حَنّون من مصب لِكْسوس أو نهر دَرْعة، وصل لهذه الجزيرة بعد مسيرة ثلاثة أيام فحسب بالبحر. فهي إذن كانت تقع في اتجاه شمال الساحل الصحراوي، وليست – كما أكدوا – في وادي الذهب Rio de Oro أو فيما وراء الرأس الأبيض بجون أرْكين. والواقع أن الشك قد حام حول رقم اليومين الذي تذكره الرحلة للقسم الأول من المسافة، واقترح تغييره برقم اثني عشر يوما. غير أن هذا التصويب غير مقبول، لأن سيلَكْس يعد للجميع اثني عشر يوما من السير البحري منذ الأعمدة إلى صيرْني. ثم إن النص الذي بين أيدينا عن رحلة حَنّون قاطع، لأنه ينبئنا أنه يجب السير من قرطاجة إلى الأعمدة بمقدار ما يجب أن نسير من الأعمدة إلى صيرني. ونحن لا ندري كم يعدّ حَنّون من الأيام لقطع المسافة بين قرطاجة والمضيق. وهما مكانان يبعد أحدهما عن الآخر بنحو 1500 كيلومتر، غير أن مدة هذا العبور كانت – لابد –

أقل من التي يجب أن نسلّم بها إذا قبلنا التصويب باثني عشر. فحنون، لما قضى المدة بعينها في كلتا المسيرتين - من قرطاجة للمضيق، ومنه لصيرْني - قدّر أن صيرْني كانت قبالة قرطاجة، أي كانت تبعد عن المضيق بنفس المسافة. وكما يفهم من كلام حَنّون، فليس بالمستطاع أن تكون هذه النتيجة مدققة، لأنه حسبما يظهر لم يكن يدخل في حسابه تغيرات السرعة، التي يقع التعويض عنها تقريبا، نظرا لطول المسافة.

فالمعطيات الثلاثة للمشكلة، أي ثلاثة أيام من السير البحري منذ نهر دَرْعَة، إثنا عشر يوما منذ المضيق، 1500 كيلومتر تقريبا من نفس المحل، كلها يمكن التوفيق بينها طبعا. ذلك فإن حَنّون لما ذهب من نهر دَرْعَة واتجه نحو الجنوب الغربي، ثم نحو غرب الجنوب الغربي - والرحلة تقول «نحو الجنوب» - فإنه استطاع الوصول في مدة يومين إلى رأس جوبي Cap Juby، الذي ينعطف الساحل من بعده. فبين هذا الرأس ورأس بوجَدور Cap Bojador يجب البحث عن صيرْني، ولكن في مكان أقرب إلى الرأس الأول، غير بعيد من دلتا الساقية الحمراء. فمن هنا نعد تقريبا 1500 كيلومتر إلى مضيق جبل طارق، وهي المسافة التي يمكن قطعها في اثني عشر يوما، بسرعة معدلها 125 كيلومترا. ولسوء الحظ لا توجد بهذه الجهات جزيرة تتناسب مع الوصف الوارد في الرحلة. وعلاوة على هذا، يذكر نص الرحلة أن الأسطول بعد اليومين الأولين أخذ اتجاه شروق الشمس، بينما الساحل بعد رأس جوبي يسير في اتجاه الجنوب، ثم في اتجاه جنوب الجنوب الغربي. إذن، فإذا كنا لا نريد التخلي عن استخدام رواية حَنّون، لزم هنا أيضا أن نستنجد بالافتراض المريح لحدوث تغيرات عميقة بالساحل. وهكذا تكون الأرض استفادت من البحر. أما صيرْني - التي كانت لا تكاد تبعد بأكثر من 1500 متر عن الساحل - فتكون قد اتصلت بالقارة.

وكان من شأن موقع هذه الجزيرة أن يجذب إليها الفينيقيين والقرطاجيين. لكن يحتمل جدا أنهم لم يحتلوها قبل حَنّون، لأن هذا الأخير اضطر لإعطائها اسما، وفيها أنشأ آخر مستعمراته.

3

ونتابع ترجمتنا لرواية حنّون :

«تاسعاً : من هنا مررنا في نهر كبير، هو كريتيس Chrétès، فوصلنا إلى بحيرة تضم ثلاث جزر أكبر من صيرْني. ولما ذهبنا من هذه الجزر، قضينا يوما واحدا في السير على الماء ووصلنا لنهاية البحيرة، التي كان يشرف عليها جبال عظيمة جدا، مليئة بأقوام متوحشين، تكسوهم جلود الحيوانات، وقد رمونا بالحجارة، فمنعونا من النزول للأرض».

«عاشراً : من هنا دخلنا في نهر آخر، كبير وعريض، مليء بالتماسيح وأفراس النهر. ثم رجعنا مع طريقنا، وعدنا إلى صيرْني».

«أحد عشر : وسرنا على الماء من هناك في اتجاه الجنوب...»

لاشك أن الرحلة هنا تتحدث عن جولة استطلاعية قام بها حَنّون مع عدد قليل من السفن، بعد ما ترك أسطوله في صيرْني.

إن هذه المياه الجمة التي سار فوقها القرطاجيون مدة تجاوزت اليوم، وهذا النهر المليء بالتماسيح وأفراس النهر، إن كل ذلك نميل طبعا للبحث عنه وراء الصحراء الجافة. والعديد من بين العلماء الذين درسوا الرحلة يعتقدون أن حنّون خاض نهر السينغال. ويظهر أن من الصعب التخلي عن هذا الرأي، ومع ذلك فإنه يصطدم بثلاثة من التعرضات القوية جدا.

لابد قبل كل شيء من التحلي بكثير من الصبر الحسن، كي نعثر في هذه الجهة على النهرين المرتبطين بينهما بالبحيرة، ولكي نعثر أيضا على الجبال البالغة في العلو والموصوفة في الرحلة. وفوق هذا، تنبئنا الرواية أن حَنّون ذهب من صيرْني وخاض نهر كريتيس، وأنه عاد إليها من بعد، ثم اتجه منها إلى الجنوب. ونظرا لكون موقع صيرْني يتحدد على ما يظهر بين رأسَيْ جوبي وبوجدور، فذلك يدعو للتسليم بأن حَنّون سار أولاً مع الساحل مسافة نحو من 1500 كيلومتر حتى وصل لمصب السِّنغال. وبعد ما خاض هذا النهر مكتشفا، فإنه عاد من نفس الطريق وفي الاتجاه المعاكس، ثم أعاد الكرة مرة ثالثة من بعد. على أن هذه الرحلات، جيئة وذهاباً، التي ربما أخذت من وقته شهرا على الأقل، هي بعيدة عن التصديق. وعلاوة على هذا، فإنه بعد مغادرته صيرْني للمرة الثانية، قد كان يسير مع ساحل لم يعرفه بعد. ويتضح ذلك من التفاصيل الواردة في الفقرة رقم 11 من الرواية عن موقف الأهالي. فهناك ما يدعو للاعتقاد إذن بأن حَنّون قد يكون دخل نهر كريتيس من صيرْني مباشرة.

إذن نهر كبير يرتمي في البحر، ويخرج من بحيرة عريضة قطعها القرطاجيون في يوم واحد، وبُحيرة تشتمل على ثلاث جزر تشرف عليها جبال عالية جدا، ثم نهر آخر مهم يتصل بهذه البحيرة. ذلك كل ما تذكره الرحلة عن جهة، لنا أسباب قوية لجعلها في صميم الصحراء، بين رأس جوبي ورأس بوجدور.

فعلى بُعد 45 كيلومترا من رأس جوبي، ينصب في البحر النهر المعروف باسم الساقية الحمراء. وهو يكوّن دلتا واسعة بنحو 12 كيلومترا، ومتوغلة في البر بنحو العشرة، ويغطيها الماء في الشتاء الذي هو فصل الأمطار. أما في بقية السنة فالدلتا تكون مفصولة عن البحر

بحاجز رملي قوي. وليس في الداخل سوى منعطفات، بها المياه الراكدة. وبهذه الأراضي التي لاتزال معرفتنا بها ناقصة، تقوم على الأقل تلال لها بعض العلو، لا «جبال عالية جدا». وهذه الناحية ليست صحراء، لأن وجود هذه المرتفعات بجانب المحيط، يحدث التكاثفات التي تهيء للناحية مناخا أقل جفافا من بقية الصحراء الغربية. كما أن النهر في إبان الأمطار يكون لنفسه مهادا واسعا ويتخذ مظهر النهر الكبير.

ولكننا نلقي سؤالا : هل يمكن مقارنة نهر الساقية الحمراء بالنهرين الكبيرين وبالبحيرة التي خاضتها سفن حَنّون ؟ فحتى إذا فرضنا أن الصدفة دفعت بالقرطاجيين لهذه الجهات إبان أحد الفيضانات الكبيرة، فإن وجود التماسيح وأفراس النهر يبرهن على أن الماء كان هناك في جميع فصول السنة. وقد ذكر سيلَكْس المشبوه Pseudo-Scylax حول أواسط القرن الرابع وبعد حَنّون، أن الأثيوبيين المجاورين لصيرْني كانوا يسكنون مدينة كبيرة، ويربون الخيول، وكانت لهم مغارس الكروم التي تعطي كثيرا من الخمر التي كانوا يبيعونها للتجار الفينيقيين. وربما في هذه الناحية أيضا يجب أن نجعل الجهة التي كان الأثيوبيون يعمرونها، وكانت في آن واحد تقع في الصحراء وعلى الساحل الغربي لإفريقيا، والتي ذكر سترابون بها الأسُود والزرافات والفيَلة، والجواميس على ما يظهر.

ومع ذلك سبق أن ذكرنا أن الصحراء منذ العهود العتيقة كانت "الصحراء". وأن هذه الصحراء كانت تمتد إلى المحيط بجنوب المغرب، وأن حَنّون سار معها بحرا منذ مصب نهر دَرْعة. وهكذا، ففي منطقة لم تكن فيما مضى تختلف عما هي عليه اليوم، كانت الأراضي المجاورة لصيرني تحظى بكثرة استثنائية من الماء. ويصعب علينا أن نفسر كيف

أن الأحوال المحلية هناك تكون قد سببت تهاطلات في الأمطار كافية لتكوين وتزويد نهر يصلح للملاحة ويخترق بحيرة كبيرة. إذن أنتسائل عن نهر كريتيس، هل كان يأتي من بعيد جدا ؟ من منطقة مدارية بليلة جدا، كان يتزود فيها بما يكفي من الماء ليستطيع عبور المفازات الصحراوية الشاسعة دون أن يجف ؟ ويكون مجراه تغير بعد ذلك بكثير ؟ ويعتقد بعض العلماء أن نهر النيجر كان يتجه فيما مضى نحو الشمال. وكان يصل لمنخفض الجوف Djouf، على أكثر من 600 كيلومتر من تمبكتو. فهل كان يذهب أيضا إلى أبعد من ذلك ؟ إنه افتراض يظهر غير معقول ! ولمعرفة ما إذا كان هذا الافتراض يستحق المناقشة، لابد من دراسة ناحية الساقية الحمراء، ومحاولة العثور بها على مكان بحيرة حنّون ووجهة النهر الذي كان يملأها، والبحث فيما وراء ذلك عن المجرى الذي قد يكون النهر مر منه.

ونتابع ترجمتنا لرواية حنّون :

«أحد عشر : سرنا بحرا من هنا نحو الجنوب، مدة اثني عشر يوما، في محاذاة الساحل الذي كان كله معمورا بالأثيوبيين الذين كانوا يفرون عند اقترابنا. وكانوا يتكلمون لغة لا يفهمها حتى اللكسيون الذين كانوا معنا».

«اثنا عشر : وفي اليوم الأخير رسونا عند جبال عالية، مكسوة بأشجار خشبها طيب الرائحة، وله ألوان مختلفة».

«ثلاثة عشر : بعدما درنا حول هذه الجبال في مدة يومين، وصلنا إلى خليج مترامي الأطراف، ويوجد على جانبه الآخر سهل. هناك رأينا في الليل نيرانا تعلو من كل جهة بتواتر وبشدة متفاوتة».

لم ينشئ حنّون فيما وراء صيرْني أيّ مستعمرة، وذلك إما لأن الأحوال لم تكن مناسبة، أو على الأرجح لأنه كان قد أنجز هذا القسم من مأموريته. ولم تكن بقية الرحلة سوى للتعرف على السواحل، لاشك ببعض السفن التي لم تكن تحمل سوى بحارتها. فهل كان ينوي الطواف حول إفريقيا ؟ لم يرد في تقريره ما يساعد على تأكيد ذلك.

سار في اتجاه الجنوب - والأصح الجنوب الغربي - مدة اثني عشر يوما، فوصل لجبال شاهقة دار معها في يومين، فوصل لخليج واسع الأرجاء. إنه ليستحيل - على ما يحتمل - جعل هذه الجبال بالرأس الأبيض، كما اقترح البعض ذلك، لأن الرأس الابيض أجراف غير عالية، تتكون من طبقات الرمل، وهي عارية تماما، كما يستحيل جعلها بشبه جزيرة سيرّلِيون الذي يذكرنا مظهره أحسن ما يكون بوصف الرحلة. فالمحل الأول قريب جدا من الساقية الحمراء، والثاني أشد بعدا بالنظر لاثني عشر يوما من السير البحري. والأرجح أن الجبال المكسوة بالأشجار، التي ذكرها حنّون تتطابق مع الرأس الأخضر، الذي أطلق عليه هذا الاسم لنباتاته. إن هذا المرتفع يتطلب اجتيازه وقتا طويلا، لأنه يتقدم على شكل نتوء بارز جدا. وهو القاصية الغربية للقارة الإفريقية. ويظهر به تلان مستديران "أي الثديان" اللذان لا يبلغان في الواقع سوى علو قليل. على أن التعبير "بالجبال العالية" يمكن تبريره إلى حد ما بالتعارض الظاهر بينهما وبين السواحل الوطيئة التي تتقدمهما، لذلك تراهما العين على بعد 30 كيلومترا. أما الخليج الكبير فقد يكون المصب العريض لنهر گامبيا Gambia. وكذلك النيران التي رآها القرطاجيون تعلو بالليل، فلا شك أن الأهالي أوقدوها لإبعاد الوحوش الضارية عن مساكنهم وقطعانهم.

الكتـاب الثاني

الأزمنـة البدائية

الفصل الثاني

أصول تربية الماشية والزراعة

1

يقول سالوسْت : «كان سكان إفريقيا الأولون هم الجيتوليين والليبيين، وهم قُوم غلاظ متوحشون، يقتاتون بلحوم الحيوانات المتوحشة أو بنبات المراعي كما تفعل القطعان... يهيمون على وجوههم متشتتين ولا يقفون إلا حيث يداهمهم الليل».

ليس بهذا النص سوى مجرد افتراضات عن طريقة معاش السكان الأولين بشمال إفريقيا. ولقد سبق لنا القول إنه يجب أن نفرض أنهم جميعا عرفوا عهدا من التجوال. ومن ناحية أخرى، تدل الكشوف التي وقعت بمحطات ما قبل التاريخ على أن الصيد كان حقيقة يزودهم بقسم كبير من طعامهم. وكان هذا الصيد، خصوصا في العصر الرابع، يترصد الحيوانات القوية جدا، إذ كانت الحِيَل والفخاخ تعطي نتائج أكيدة أكثر مما يعطيه الهجوم بالمجابهة.

أصوات المزامير وضجيج الصنوج والطبول، وضجة كبيرة. فتملكنا الرعب وأمرنا الكهان بمغادرة الجزيرة».

رغما عن كون التعبير Esperou Keras قد استعمله القدماء للتعبير عن الرأس الترابي Cap، فإن الألفاظ التي يستعملها نص روايتنا تبرهن على أن كلمة كيراس Kerace أي قرن يـراد بـها الخليـج. واسم قرن الغرب يمكن أن يدل على أنه كان يواجه الغرب، لذلك وقع التفكير في المصب العريض لنهر جيبا Rio Geba. الذي تتقدمه جزائر بيساگوس Bissagos. وإحدى هذه الجزر التي تحمل اسم هارانْگ Harang، محفورة في جنوب جون. وبوسط الجون توجد جزيرة أخرى، الأمر الذي يذكر - ولو بكيفية مبهمة - بوصف حَنّون. ولابد أن نضيف أن خطا من الرصيف البحري يعوق عن الدخول في الجون، وأن التربة الرملية لجزيرة هارانگ عارية تماما عن النباتات. وأخيرا فإن الجزيرة المتحدث عليها ليست في المصب الواسع لنهر جيبا، بل إنها تبعد عنه في عرض البحر بنحو مائة كيلومتر. وفوق هذا، يظهر أن عدد سبعة أيام من السير البحري انطلاقا من نواحي الرأس الأخضر، هو رقم مرتفع جدا، إذا تعين أن قرن الغرب هو في هذا المصب يبعد بمسافة 450 كيلومترا عن الرأس. لذلك يجب البحث عن قرن الغرب في جهة الجنوب الشرقي، أمام غينيا أو على ساحل سيرلّيون، وربما بجهة جزيرة شِرْبو Sherbo. ونحن لا نجد على طول هذه السواحل أي جزيرة تتناسب تماما مع ما يصفه حَنّون. غير أن شكل الجزيرة المذكورة في الرحلة ربما حدث فيه تغيير، خصوصا إذا فرضنا أنها كانت جزيرة بركانية. إذ يجوز أن نتصورها كالحد الدائري لفوهة عريضة غمرت المياه قمعها وطفت بداخلها جزيرة صغيرة هي بقية من المخروط الأوسط. ونحن مع هذا نرى كم أن كل هذا مشكوك فيه.

أما ضجيج الموسيقى والإنارة الليلية التي خشيها القرطاجيون كثيرا، فلا شك أنها لم تكن سوى إحدى حفلات الزنوج.

ونعود لنتابع ترجمتنا لرواية حنّون :

«خمسة عشر : غادرنا إذن هذا المكان على عجل وسرنا بجانب منطقة ملتهبة، مليئة بالعطور، وتخرج منها جداول من اللهيب كانت تأتي لترتمي في البحر، ولم يكن بالمستطاع الوصول إلى الأرض بسبب الحرارة».

«ستة عشر : تملكنا الخوف، فابتعدنا مسرعين. وطيلة أربعة أيام من السير البحري، كنا بالليل نرى الأرض مغطاة باللهيب. وفي الوسط ترتفع نار أضخم من الأخريات وكأنها تلمس النجوم، لكن كنا نرى في النهار أن ذلك جبل عظيم جدا اسمه عربة الآلهة».

«سبعة عشر : ابتداء من هنا، سرنا لمدة ثلاثة أيام بجانب جداول اللهيب ووصلنا إلى الخليج المعروف باسم قرن الجنوب».

«ثمانية عشر : في الداخل كانت توجد جزيرة مماثلة للأولى، تضم بحيرة بداخلها جزيرة أخرى مليئة بأقوام متوحشين، وكان النساء هن الكثيرات جدا. كانت أجسامهن مكسوة بالشعر، وكان المترجمون يسمونهن الغوريلات. فطاردنا بعض الذكور، من غير أن نستطيع قنص أي واحد، لأنها كانت تحسن التسلق وتدافع عن نفسها... لكننا قنصنا ثلاث إناث. فعضضن وخدشن كل الذين كانوا يجرّونهن، وأبْين أن يتبعنهم. فقنصناهن وانتزعنا جلودهن التي حملناها إلى قرطاجة. لأننا لم نذهب إلى أبعد من ذلك، بسبب فقدان الزاد».

إن الرحلة – وعلى الأقل نصها الذي وصلنا – لم تعط أي إيضاح عن الاتجاه الذي وقع السير فيه لإنهاء السفر، وذلك منذ الجبال الشجراء التي قطعت في يومين. كما أنها لم تذكر المدة التي قضاها حَنّون في سيره بجانب المنطقة الملتهبة المليئة بالعطور. إذ يحتمل جدا أن الأيام الأربعة المذكورة في الفقرة رقم 16 تتعلق بمسيرة أجريت وراء هذه المنطقة. فلربما أن هناك ثغرة واقعة بين الفقرة رقم 15 والفقرة رقم 16.

أما الجبل الشاهق المسمى "عربة الآلهة" فطبعا لابد أن نرى فيه بركانا، مثلما رأى ذلك بومْبونيوس ميلاَ، وپلين. وبعد ثلاثة أيام من هذا المكان وصل حَنّون إلى الخليج المسمى قرن الجنوب، ولم يتجاوزه في سيره. ولربما أن هذا الاسم ذكره التراجمة، كما ذكروا اسم قرن الغرب. فاسم قرن الجنوب ربما يكون أطلق على الخليج لأنه كان ينفتح على الجنوب، وذلك مالم نفترض أنه سمي بهذا الاسم لكونه أقصى ما بلغه بعض البحارة المتقدمين من قبل في ناحية الجنوب.

لقد تعين أن الجبل المسمى عربة الآلهة هو الكاكوليما Kakoulima، وهو جبل مخروطي الشكل يعلو بألف متر، ويرى بوضوح من عرض البحر، وهو واقع في غينيا خلف مدينة كونَكْري. ومن المحتمل جدا أن هذا الجبل الذي يعتبره الأهالي مقدسا هو بركان. لكن إذا كان حَنّون أراد ان يقول أن القرطاجيين الذين كانوا يتابعون تقدمهم إلى الأمام قد كانوا مدة أربع ليال متتابعة يرون لهيب عربة الآلهة، فلابد من التفكير في جبل يكون أكثر ارتفاعا من الكاكوليما. ويوجد في جوف خليج غينيا على جون البيافْرا، جبل الكامرون الذي يتجاوز ارتفاعه 4000 متر. ويمكن في حالة الصحو أن يرى على مسافة تقرب من أربعين فرسخا. وهو بركان عاد إلى الثوران في أبريل سنة 1909، بعد حقبة من السكون لعلها لم

تكن طويلة. ويطلق عليه الأهالي اسم جبل الآلهة. يقول عنه رِكْلوس Reclus : «فيما مضى وقبل أن يتسلق البيض الجبل، لم يكن السود يجرؤون على الاقتراب من قممه العالية خوفا من أن تمسك بهم عفاريت السوء وتنكل بهم». لذلك افترض البعض أن بركان الكامِرون هو عربة الآلهة، وإنه كان في عهد حَنّون في قوة نشاطه.

فبناء على ذلك يكون الساحل الملتهب والعطر، الوارد ذكره باختصار كبير في الرحلة، متطابقا مع قطعة ساحلية طويلة جدا، ومنخفضة ورتيبة، بحيث لا تكاد تشتمل على ما يذكر. أما قرن الجنوب، فلا بد من البحث عنه بين داخل خليج غينيا ورأس لوبيز Cap Lopez، في جون كورِسْكو Corisco أو في مصب نهر الـگـابون. أما الاسم الذي يطلق عليه – أي قرن الجنوب – فإنه بهذا الاعتبار لا يدل على الاتجاه الجغرافي، لأن الجون والمصب – باثنيهما – ينظران إلى الغرب. لكن لا يوجد، من بين الجزر والكوم الرملية في هذه الجهات، ما يذكرنا اليوم بجزيرتَيْ حَنّون.

وإذا جعلنا عربة الآلهة في جبل كاكوليما، فلابد من تحويل قرن الغرب بعيدا إلى الغرب. والكثير من العلماء يعينونه في قناة شيرْبرو، غير أن جزيرتَيْ حَنّون لا توجدان هناك أيضا. وزيادة على ذلك، فإن المسافة التي كان القرطاجيون يقطعونها يوميا منذ الرأس الأخضر تكون قصيرة جدا، بحيث يكونون عمليا قضوا أكثر من أربعة عشر يوما لاجتياز نحو من 1050 كيلومترا.

والخلاصة هي أن الرحلة، منذ الرأس الأخضر، لا تعطي إيضاحات كافية تساعد على تعيين الأماكن التي تذكرها.

ونقرأ في أرْيان Arrien : «بعدما ذهب حَنّون الإفريقي من قرطاجة واجتاز أعمدة هرقل، فإنه سار في البحر الخارجي وعلى يساره أرض ليبيا خمسة وثلاثين يوما في الجميع، إلى الوقت الذي سار فيه في اتجاه شروق الشمس. (يمكن أن نقرأ : ما دام يسير في اتجاه شروق... عوضا عن : إلى الوقت الذي... وذلك لغموض اللفظ الإغريقي الذي يدل على المعنيين)، غير أنه لما انعطف في اتجاه الجنوب لقي العدد من العراقل، كانعدام الماء، والحرارة القاسية، وجداول اللهب المنصبة في البحر».

لقد سبق أن قلنا إن أَرْيان ينقل على ما يحتمل عن إراتُسْطين Eratosthène. فهو يعطينا ثلاثة أخبار غير موجودة في الرحلة المخطوطة، إذ يذكر عدد خمسة وثلاثين يوما الذي ربما هو حصيلة عملية لجمع أعداد قد يكون الكثير منها أهمل في النص الذي بين أيدينا من الرحلة، ويذكر أيضا اتجاهين أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الجنوب.

ولفظ Este، هل يعني مادام... ؟ إذن ففي هذه الحالة لايمكن أن نعزو إلى حَنّون الخطأ الكبير الذي قد يكون في جملة أَرْيان، إذ لم يكن بمستطاع حَنّون أن يعتقد ويكتب أنه سار من الأعمدة في اتجاه الشرق مدة خمسة وثلاثين يوما، بعدما ذكر ثلاثة اتجاهات مختلفة، أحدها نحو الغرب والاثنان الآخران نحو الجنوب. إن بعض الكتاب القدماء كانوا يعتبرون الساحل الإفريقي الغربي متجها – على العموم من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. وذلك لأنهم كانوا يتصورون القارة، إما على شكل مثلث قائم يتكون وتر زاويته من هذا الساحل. وإما على شكل شبه منحرف تتصل قاعدتاه العليا والسفلى بخط عمودي من ناحية الشرق، وبخط مائل من جهة الغرب. ولكن ليس هناك ما يوجب البحث عن صدى

هذه النظريات فيما كتبه أريان. لأن وجهة الجنوب التي ذكرها أريان لمتابعة سفر حنّون تفرض، على النقيض من ذلك، لإفريقيا شكلا مغايرا للمثلث ولشبه المنحرف اللذين تخيلهما بعض الجغرافيين، حيث إن هؤلاء الجغرافيين كانوا يجعلون الساحل يأخذ الاتجاه للشمال أو للشرق ابتداء من القاصية الجنوبية للخط المائل الذي يمثل الساحل في نظرهم.

وإذا ترجمنا لفظة Este ب : "إلى الوقت الذي..."، فإن جملة أريان، وكما أوضح ذلك إيلينْگ Illing، يمكن أن تفسر بكيفية مرضية، وتضيف معلومات ثمينة لما تزودنا به مخطوطاتنا. فقد يكون حَنّون سار في المحيط مدة خمسة وثلاثين يوما، إلى الوقت الذي أخذ فيه وجهة شروق الشمس. غير أن ساحل إفريقيا ينعطف نحو الشرق عند رأس النخيل Cap des Palmes ويحتفظ بهذا الاتجاه إلى جوف خليج غينيا، ثم يتجه نحو الجنوب. وتقدر المسافة ب : 4800 كيلومتر تقريبا من مضيق جبل طارق إلى رأس النخيل. وهي مسافة يمكن أن يقطعها حَنّون في خمسة وثلاثين يوما. ويكون سار بعدها مع ساحل غينيا، وبعدما اجتاز جبل الكامِرون، اتجه على ما يظهر نحو الجنوب، كي يعود إلى الوراء من بعد. وهكذا، فإن الافتراض الذي يجعل عربة الآلهة هو جبل الكامرون ويجعل نهاية السفر حول مصب نهر الگابون العريض يجد ما يؤكده.

وحيث يمكن تقدير المسافة التي قضاها للوصول إلى الرأس الأخضر بنحو 24 يوما، فلابد له من أحد عشر يوما ليقطع مسافة 1650 كيلومترا التي تفصل هذا المرتفع عن رأس النخيل. أما الرحلة فتذكر سبعة أيام للسفر من نواحي الرأس الأخضر حتى قرن الغرب، بينما المسافة بين هذا الخليج ورأس النخيل تكون قد قطعت في أربعة أيام

تقريبا. وعلى هذا فقرن الغرب يمكن جعله في قناة شيربّرو، الواقعة على بعد 200 كيلومتر من رأس النخيل.

أما المنطقة الملتهبة والمليئة بالعطور، التي لايمكن الوصول إليها بسبب الحرارة، والتي سار حَنّون بمحاذاتها من بعد، فلعلها امتدت حتى جوف خليج غينيا على مسافة تقرب من 2700 كيلومتر. وهي مسافة لابد أنها قطعت بسرعة كافية، لأن أحد التيارات كان يساعد على السير، بينما كانت تعرقل الاتصال بالبر الصخور التي على سطح البحر، والتي تكاد تواجه الساحل بطوله.

إن البحّارة المعاصرين يؤكدون ما ترويه الرحلة، ويذكرون أن الهواء في هذه النواحي غالبا ما يكون مضمخا بالروائح الطيبة التي تقبل من الساحل. أما اللهيب الذي كان يغطي الأرض بناحية عربة الآلهة، فلربما كان نيرانا أوقدها الأهالي بالليل، مثل تلك التي كان القرطاجيون قد رأوها بعد اجتيازهم الرأس الأخضر. ومن العسير جدا ذكر تفسير لجداول اللهب المنصبة في البحر، التي تذكر الرحلة وجودها قبل جبل عربة الآلهة وبعده. ولقد ذكرت عدة من الافتراضات في شأنها: كالسيول البركانية، أو التوهج الفسفوري للبحر قرب السواحل، أو الأنهار التي قد تكون مياهها تلونت بالأحمر الذي هو لون التربة التي تمر بها تلك الانهار، أو التي تكون مياهها عكست ضوء النيران الموقدة فوقها، أو البروق المتعددة التي ربما اندلعت من سحب منخفضة جدا، والتي تتراءى كسيول النار لمن يراها من عرض البحر، أو النيران التي ربما أوقدها أهل الأرض لإحراق الأعشاب اليابسة وتهيء الأرض للزراعة، فانتشرت بسرعة كبيرة. لكن هذه الافتراضات غيرمرضية في شيء، وآخرها أبعدها عن الصواب.

وما الغوريلات التي بجزيرة قرن الجنوب ؟ لقد تساءل البعض عن كلمة Gorillas الواردة في مخطوطة الرحلة، ألا تكون غلطة من الناسخ الذي جعلها في محل گورگاداس Gorgadas ؟ وفعلا فإن بومْبونيوس ميلاَ، وپْلِين يكتبان گورگاد. ومع ذلك فمن الممكن أن يكون المترجم الإغريقي كتب غوريلات حقيقة، مطابقة لما ورد في النص البونيقي، وإن أحد الكتاب المتأخرين عنه هو الذي غير هذه الكلمة بلفظ گورگاداس، لأنه كان يرى الگورگونات Gorgones في المخلوقات التي ذكرها حَنّون[2].

وجل العلماء المحدثين الذين تحدثوا عن الغوريلات اعتبروها قردات. وقد أطلق هذا الاسم، تبعا لرحلة حَنّون، على نوع من القردة الضخمة التي تسكن عدة جهات إفريقية من بينها الگابون. وقد ذكر وجودها به لأول مرة سنة 1847. لكن التفاصيل التي نقرأها في حَنّون لا تناسب الغوريلات مطلقا. لأن هذه الحيوانات لا تعيش في جماعات عديدة، ثم إنها قوية إلى حد أنها لا تصاد حية. ويرى الغير أن المقصود هو قِرد الشمْبَنْزي. لكن، من المشكوك فيه جدا أن يكون القرطاجيون ظنوا القردة إنسانا، لأنهم كانوا يعرفون جيدا القردة، فقد كانت كثيرة بشمال إفريقيا.

ويعتقد إيلينك Illing أن المخلوقات المتوحشة والمكسوة بالشعر، كما تصفها الرحلة، هي الأقزام أو الزنوج القصار الأبدان Négrilles. وهي لاتزال حتى اليوم موجودة خلف السواحل التي قد يكون حَنّون

2) الگورگانات Gorgones مخلوقات أسطورية إغريقية، كانت تقيم بمملكة الظلام، وكانت تلقي الرعب في النفوس بنظراتها وأنيابها، وشعورها المتدلية التي كانت كالأفاعي السامة... الخ.

زارها بالكامِرون وبالكونغو. وكذلك، فإن الأشخاص القصار القامات الذين قال هيرودُت إن سَتاسْبْيس Sataspès الفارسي رآها في ليبيا بعدما سار عدة شهور في المحيط الأطلسي، ربما كانوا أيضا من هذا الجنس. وللأقزام شعر أقوى مما للسود، كما أن للبعض منهم نوعا من الزغب يكسو كل أبدانهم، الأمر الذي لاحظه أحد معاصري الإمبراطور جُسْتِنْيان، وهو الرحّالة نونُسُوس Nonnosus الذي لاقى بعض الأقزام في إحدى الجزر المجاورة للساحل الإفريقي الشرقي. فإذا كانت بعض الزنجيات القصيرات – ممن لهن نفس الخصائص – يعشن في زمن حنّون على الساحل الغربي من القارة، فإننا نفهم كيف استطاع أن يقول عن هؤلاء النساء المتوحشات بأن الشعر كان يغطي أبدانهن. ومن بين الجلود الثلاثة التي جاء بها حنّون إلى قرطاجة وضع اثنان في معبد يونون Junon (أسْطَرْطي Astarté)، حيث مكثا إلى أن هدم الرومانيون المدينة.

لقد كانت نتائج رحلة حَنّون هي تأسيس ست مستعمرات على سواحل المغرب، وأخرى عند مصب الساقية الحمراء، تقريبا في مواجهة جزائر الكناريا، وهي أيضا التعرف السريع على الساحل، وربما يكون اندفع لما يجاور خط الاستواء. ولكنه تعرف انتهى بسبب فقدان الطعام كما تقول الرحلة.

من المحتمل أن الفينيقيين كانوا من عهد سابق طويل يعرفون السواحل المغربية عند جنوب مدينة لِكْسوس Lixus، بل ويحتمل أنهم أنشأوا هناك متاجر دائمة. وهكذا، فبسبب المستعمرات التي أنشأها حنّون، والتي بقي بعضها موجودا، فإن قرطاجة استولت رسميا على هذه النواحي، وأسست فيها أسواقا مأمونة لتجارتها وتجارة القادِسيين.

وفيما وراء المغرب، فإن السواحل التي سار حنون بمحاذاتها لا يظهر أنها كانت مجهولة تماما قبله. فقد كان من بين اللكسيين على نهر دَرْعة رجال أخذهم حَنّون معه ليقوموا بالترجمة، وكانوا بالطبع يعتبرون على علم – ولو قليل – بالأمكنة والأقوام الذين ستزورهم البعثة. وإذا كانوا لم يستطيعوا المفاهمة مع الاثيوبيين الذين على الساحل الصحراوي، فإنهم ذكروا للقرطاجيين أسماء قرن الغرب، والغوريلات، كما ذكروا لاشك اسم عربة الآلهة واسم قرن الجنوب. فإذا لم نفترض أنهم اختلقوا هذه التمسيات، فلا بد من التسليم بأنهم تعلموها من قبل، أثناء بعض الرحلات التي صاحبوا فيها بحارين آخرين. فقد يكون بعض التجار الفينيقيين تجرأوا على الذهاب بعيدا نحو الجنوب. وتوجد كوب فضية صنعت بأحد مصانع فينيقيا في أواسط القرن السابع على أكثر تقدير، ترى عليها صورة قرد كبير ليس له ذيل، أي إنه غوريلا دون شك. فهذه الصورة تساعد على الاعتقاد بأن الفينيقيين كانوا آنذاك قد وصلوا إلى سواحل إفريقيا الاستوائية، غربي القارة على ما يحتمل. وأخيرا، إذا صدقنا خبرا تلقاه هيرودُت، فإن بعضا من الفينيقيين يكونون قد ذهبوا حول سنة 600 للطواف حول إفريقيا، تنفيذا لأمر الفرعون نِخَاوْ، وأنهم قاموا بما أمروا به.

أما المركز الذي أنشأه حَنّون في الجزيرة التي أطلق عليها اسم صيرْني Cerné (أو كيرني : القرن ؟) فإنه بقي سوقا لمنطقة ممتازة في صميم الصحراء. أما بعد هذه الجزيرة، فإن استحالة الدخول في علاقات مع الأهالي والمخاوف التي اعترت القرطاجيين، كل ذلك جعل الحملة غير مجدية. على أن بعض التجار – قبل حَنّون وبعده – استطاعوا أن يغامروا إلى الجنوب من صيرْني. لكنهم بتلافيهم كل عمل

من شأنه أن يبرر عدم ثقة السود، فإنهم قد حصلوا منهم على بعض المبادلات السريعة. ولا يوجد أي برهان على أنهم أسسوا متاجر دائمة.

4

ويبقى علينا أن نحَاول تحديد تاريخ رحلَتَيْ حَنّون وحِمِلْكون. وهي مسألة اختلفت فيها الآراء كثيرا.

يؤكد پْلين Pline أن الرحلتَيْن كانتا متعاصرتين، لكن هذا لا يعني حتما أنهما وقعتا في بحر سنة واحدة، إذ يبعد عن الاحتمال أن تنجز في ان واحد معا عمليتان لهما نفس هذه الأهمية. وحسب هذا الكاتب، فإن العمليتين أنجزتا في عهد كانت فيه قرطاجة في أوج قوتها، وهو تعبير مبهم ينطبق على عهد يقرب من مائتين وخمسين سنة، أي من أواسط القرن السادس إلى ما حول نهاية القرن الرابع.

ورحلة سيلَكْس المشبوه Pseudo-Scylax ، التي حررت في أواسط القرن الرابع، تذكر اسم ثيماطيرْيا، إحدى مستعمرات حَنّون، وتعطي تفاصيل عن العمليات التجارية التي كان الفينيقيون يقومون بها مع الأثيوبيين جيران صيرْني، التي كان أولئك التجار يأتون إليها للإقامة. فالأمر إذن يتعلق بتجارة نشيطة ومنتظمة، ولم يمكن أن تتسع إلا بعد استيلاء حَنّون على الجزيرة. وفي نفس العهد تكلم إيفور Ephore في تاريخه على مستعمرة أخرى لحنّون، هي الجدار الكاري Le Mur Carien. فهل يكون هذان الكاتبان - كما ظن البعض ذلك - رجعا إلى رواية أوتمين المرْسيلي Euthymène الذي زار سواحل المحيط الإفريقي ؟ نجهل الجواب، بل لا نعلم متى كان أوتِمين حياً. أما معلومات سيلَكْس

وإيفور Ephore فإنما تدل على أن رحلة حنون ترجع على أكثر تقدير إلى النصف الأول من القرن الرابع.

ومن ناحية أخرى، فقد أراد البعض أن يجد في إحدى روايات هيرودُت دليلا على أن رحلة حنّون وقعت بعد سنة 470. ففي هذا التاريخ تقريبا أصدر خرْشيش Xerxès أمره إلى الفارسي ستاسْبيس Sataspès ليقوم بالطواف حول إفريقيا.

يقول هيرودُت : «حكم خرْشيش بمعاقبة ستاسْبيس بالخازوق، لأنه اغتصب عرض بنت زوفير Zopyre... لكن أمه وهي أخت داريوس طلبت، عوض أن يلحق به هذا العذاب، أن يحكم عليه بعقوبة قالت إنها أشد، وهي أن يركب البحر ويدور حول ليبيا، ويعود عن طريق الخليج العربي. فقبل خرشيش، وذهب ستاسْبيس إلى مصر حيث أخذ سفينة وبحارة من أهل البلاد، وسار في البحر قاصدا أعمدة هرقل، ثم إنه بعدما مر بها واجتاز كذلك مرتفع ليبيا المعروف باسم سولويْس، تقدم نحو الجنوب. وقطع في مدة أشهر كثيرة مسافة كبيرة في البحر. ولكن، حيث إن الرحلة كانت تمتد دائما، فإنه رجع طريقه وعاد إلى مصر. ومنها ذهب عند الملك خرشيش وقال له إنه في أقصى طريقه سار بمحاذاة ساحل يسكنه أقوام صغار يلبسون سعف النخيل، وأن هؤلاء الرجال فروا عند اقتراب السفينة إلى الجبال تاركين مدنهم. وأضاف أنه مع أصحابه دخلوا لهذه المدن دون أن يحدثوا بها أتلافا، مكتفين بأخذ الماشية. وإذا لم يكن قد دار حول ليبيا، فلأنه كان يستحيل عليه أن يتقدم بسفينته التي توقفت. ففكر خرشيش أنه لا يقول الحقيقة، ورأى أنه لم يؤد المهمة التي فرضت عليه، فجدد الحكم الذي أصدره في شأنه وأمر بحمله على الخازوق».

لقد قيل : إذا كان ستاسْبيس لم يذكر في تقريره المستعمرات التي أسسها حنّون، فلأنها لم توجد بعد. لكن يكفي أن نقرأ هذا الفصل من هيرودُت الذي ترجمناه لنحكم بتعسف هذا الاستنتاج. فالذي بين أيدينا هنا ليس رواية تامة عن رحلة ستاسْبيس في المحيط، وإنما هو بعض من المعلومات عما رآه في أقصى طريقه بعد عدة شهور من السير البحري. وأقصى مكان بلغه في طريقه كان لاشك يقع بكثير بعد مواقع المستعمرات التي سبق لحنّون أن أسسها - أو كان سيؤسسها فيما بعد - على ساحل المغرب وقريبا من الساقية الحمراء.

وبالتأكيد فإن هيرودُت لم يعرف رواية حنّون، بل هو لم يذكر حتى هذه الشخصية. غير أن بعض العلماء يظنون أنه تلقى أصداء مبهمة عن الرحلة القرطاجية. وهو رأي يصعب التسليم به.

ويجب أن لا نحتج بذكره لمرتَفَع سولويْس. فقبل حنّون كان بعض الفينيقيين، وربما بعض الإغريق، قد استطاعوا أن يصلوا وأن يتجاوزوا هذا المرتفع. وقد أخطأ هيرودُت بسبب ما نقله عن بعض القرطاجيين عندما وصف جزيرة كيرَوْنيس Cyraunis التي هي اليوم قَرْقَنّة بالساحل التونسي الشرقي، وقال إن الجزيرة تجمع بها شذرات الذهب. ولكن هذا القول لايدل على أنه لم يميز بين كيرونيس وبين صيرْني، التي لاشك لم يكن يجمع بها شيء من ذلك.

ويرى فيشر Fischer أن هناك تلويحا إلى رحلة حنّون في إحدى الفقرات التي، بعدما تكلم فيها هيرودُت على الرحلة التي قام بها بعض الفينيقيين في عهد الفرعون نخَاوْ، فإنه أضاف : «وهكذا عرف لأول مرة أن ليبيا يحيط بها البحر. ومنذ ذلك الحين، فإن الليبيين هم الذين يقولون هذا، لأن ستاسْبيس لم يطف حول ليبيا... ولكنه تراجع إلى الوراء».

ويقول فيشر Fischer إن القرطاجيين أمكنهم التصديق بأن حنّون بلغ من جهة الغرب إلى مكان وصله الغير من جهة الشرق، وأنه بهذا برهن على إمكان الطواف حول إفريقيا.

وصحيح أن پْلين، الذي نقل عن بعض الكتاب الآخرين، قد كتب أن حنّون تقدم حتى قاصية البلاد العربية. وهناك ظن قريب من الصواب، هو أن سبب هذا الخطأ في عدم التمييز بين الخليج الذي سماه مترجم الرحلة بإسم قرن الجنوب وهو منتهى رحلة حنّون، وبين رأس عَسِير Cap Guardafui الذي عرف بنفس الإسم. ولربما كان الملك يوبا هو الذي وقع في هذا الخطأ. ولابد، قبل أن نعزو هذا الخطأ للقرطاجيين أيضا، من البرهنة على أنهم كانوا في عهد حنّون يسمّون هذا الرأس بقرن الجنوب، ولابد أيضا من البرهنة على أن لغتهم كان فيها لفظ مثل "كيراس" Ceras، يدل في آن واحد على رأس وعلى رأس خليج. وعلى هذا، فهل كانوا – بذكرهم للحديث الذي رواه هيرودُت – يشيرون لرحلة الفينيقيين في عهد نخاوْ، تلك الرحلة التي لابد أنهم كانوا يعرفونها أكثر من غيرهم ؟ أو كانواِ يفخرون بأنهم هم الذين طافوا حول إفريقيا ؟ إننا نجهل الجواب. ولكن إذا فرضنا أن الرأي الثاني هو الصواب، فقد كان بمستطاعهم عزو هذه المأثرة لأي كان لو كانوا كاذبين، أما إذا كانوا صادقين فلا يمكنهم عزوها لحنّون الذي كان قد تراجع إلى الوراء كما تراجع ستاسْبيس.

وفي مكان آخر، يحكي هيرودُت كيف كان القرطاجيون – بشهادتهم أنفسهم – يبادلون البضائع بالذهب في أرض تقع بعد أعمدة هرقل «ينزلون هذه البضائع ويعرضونها بانتظام على جانب الساحل، ثم يرجعون لسفنهم ويطلقون الدخان ليخبروا الأهالي. فيقترب هؤلاء من

البحر، ويضعون بجانب البضائع الذهب الذي يعرضونه بديلا عنها، وينصرفون. فينزل القرطاجيون ويختبرون ما تركوه. فإذا رأوا أن كمية الذهب تعادل قيمة البضائع، أخذوه وانصرفوا، وإلا فإنهم يعودون لسفنهم وينتظرون، فيعود الأهالي ويزيدون من الذهب حتى يرضى القرطاجيون. ولا يتعدى أي من الجانبين على الآخر. فهؤلاء لا يمسّون الذهب قبل أن يظهر لهم أن كميته الموضوعة تناسب بضائعهم، والآخرون لا يمسّون البضائع قبل أن يأخذ القرطاجيون الذهب».

على أي ساحل كانت تجري المبادلة في هذا الذهب الذي لاشك أنه كان يأتي من داخل البلاد ؟ يمكن التفكير في السينغال – غامبيا، أو في جهة أخرى أبعد إلى الشمال، بل ربما حتى في جنوب المغرب. أما الطريقة المستعملة في التجارة كما وصفها هيرودُت، فإنها لا تفسر إلا بوقوعها في جهات لم يكن للقرطاجيين بها مدن ولا متاجر، وحيث كانوا يريدون كما يريد الأهالي، تلافي كل اتصال مباشر. ومن الممكن أن هذه الطريقة كانت مستعملة قبل حنّون. ومن الممكن أيضا أن يكون العمل بها استمر خارج المستعمرات التي أنشأها حنّون، وخارج الأراضي التي تقيم بها القبائل التي كانت مستعدة لتقتبل القرطاجيين اقتبالا حسنا، على غرار اللكْسيين المذكورين في الرحلة. ورغما عما قيل في هذا، فإن هذه الفقرة من هيرودُت لا تعطينا أي إيضاح عن العهد الذي وقعت فيه الرحلة.

وهكذا، فإننا لا نجد في التاريخ الإغريقي أي ذكر لحنّون، ولا أي إشارة مؤكدة عن رحلته.

وهو يجهل أيضا رحلة حمِلْكون. وصحيح أنه يذكر الجزائر القصّديرية (التي يأتينا منها القصدير)، كما يذكر نهر إريدانوس Eridanos

(الذي يرتمي على ما قيل في البحر الشمالي، والذي يأتي منه العنبر). ويضيف أنه لا يعرف شيئا عن الجزائر القصديرية، وأنه يظن أن إريدانوس اختلقه أحد شعراء الإغريق. فلا شيء يساعد على التأكيد بأن هذه الأخبار، التي تظهر له مشكوكا فيها للغاية، كانت أصداء لرحلة حملْكون. ويحتمل جدا ان هيرودُت عثر على هذه الأخبار في مؤلف لأحدٍ منَ هؤلاء الجغرافيين الأيونيين الذين كان يحلو له أن ينقدهم، وربما عثر عليها عند هيكاتي Hécatée. ذلك أن إغريق آسيا الصغرى، كانوا في نهاية القرن السابع وفي النصف الأول من السادس يزورون جنوب إسبانيا، حيث كان بمستطاع الطرطيسيّين أن يزودوهم بمعلومات عن القصدير البريطاني. أما العنبر الذي كان يجلب منذ قرون من السواحل المجاورة لنهر الإيلب Elbe والفستول Vistule، فإن الذين كانوا يحملونه عبر أوروبا، لابد أنهم كانوا يعرفون – ولو بكيفية مبهمة – من أين كان يأتي.

وعلاوة على ذلك، فإن كل هذا لا يبرهن على أن رحلتي حنّون وحملْكون وقعتا بعد العهد الذي كان فيه هيرودُت يجمع مواد مؤلفه، أي حولَ أواسط القرن الخامس. فقد كانت معلوماته سيئة فيما يتعلق بقرطاجة إلى حد أنه جهلهما.

ومع ذلك فلا يجب إرجاع الرحلتين إلى تاريخ قديم جدا، وحتى لو لم يقل پْلين ذلك، فالمتأكد هو أنهما وقعتا في عهد كانت فيه قرطاجة قد بلغت أوج قوتها، كانت تمتلك سواحل أرض المغارب التي على البحر الأبيض المتوسط، وكانت وراء المضيق تمتلك لِكْسوس وقادِس.

وقد أراد البعض أن يعين "الملك" حنّون وحملْكون في شخصيتين ذكرهما جُسْتان، أي في ابنَيْ عَملْكار الذي مات في هيمير Himère سنة 480، وهما من أسرة الماگونيين الشهيرة التي كانت لها السيادة على

الدولة القرطاجية في نهاية القرن السادس والنصف الأول من الخامس. وهو افتراض يغري، إذ يحلو لنا أن نعزو هاتين الحملتين البالغتين في الأهمية إلى الأسرة التي زادت سياستها الإمبريالية في عظمة وطنها. ولكن يجب أن لا ننسى أن اسمي حنّون وحِمِلْكون لم يكونا قليلين بين الأرستقراطية البونيقية. وقد أراد فيشَر Fischer تدعيم هذا الافتراض بالاحتجاج بفقرة واردة عند مختصر طْروكْ پومْپي Trogue-Pompée : يقول جُسْتان نظرا لكون أسرة الماكونيين كانت مهيمنة في آن واحد على الحكومة والقضاء، وكان ثقلها باهظا على الحريات العامة، فقد أحدث مجلس من مائة قاضٍ يؤخذون من بين أعضاء مجلس الشيوخ، يكوّنون محكمة يجب على القادة العسكريين أن يذكروا أمامها تفاصيل أعمالهم. إن الأمر هنا يتعلق بحادثة جرت حول سنة 450. وحسب فيشَرْ، فإن النص الذي ذكرناه يحتوي على إشارة للتقريرين اللذين وصلنا أحدهما، وهو تقرير حنّون. ولكن عرض الحساب الذي يتحدث عليه جُسْتان يتعلق بالأعمال الحربية. ولكي يستعمل هذا العرض في تبرير السلوك العسكري والتسيير المالي للقادة، كان لابد أن يتم تحريره على نحو مخالف للكتابة التذكارية التي وضعها حنّون في أحد المعابد.

أما رحلة حِمِلْكون فيظهر أنها لم تكن معروفة جيدا عند القدماء. ومن غير شك، فإن شهرة القرطاجيين كسفتها شهرة بيثْياس المرسيلي Pytheas الذي تقدم كثيرا نحو الشمال. وذلك في عهد فتوحات الإسكندر. ولكنه لم يؤخذ قدوة، كما أن صدق أقواله وقع رفضه. ونجد على النقيض من ذلك عدة خواطر من رحلة حنّون في الأدبين الإغريقي واللاتاني. ومع ذلك فإننا لا نعتقد أنه كان له تأثير كبير على الجغرافيين

المتأخرين. ولا يظهر لنا أن أحدا أقام البرهان على أن حنون كان مصدرا لبعض الآراء المخطئة فيما يتعلق بشكل إفريقيا، وبأن النيل ينبع من الغرب. لكن بعض كتّاب الأساطير استفادوا منه. من ذلك أن حنون ورفاقه سمعوا في خليج الغرب أصوات المزامير والصنوج والطبول، فكان ذلك كافيا لنقل رفاق باخوس Bacchus أي البانات Pans والستيرات Satyres إلى هذه الجهات البعيدة [3]، كما وقع التعرف على الكُركوبات في النساء المتوحشات اللواتي لقين القرطاجيين في نهاية رحلتهم.

5

من رأس جوبي Cap Juby الذي كان البحارة القرطاجيون والقادِسيون يجتازونه للذهاب إلى صيرْني، يرى الناظر على بعد نحو مائة كيلومتر في اتجاه الغرب الأراضي العالية لفرتبِنْتورا Fuerteventura. فيحتمل جدا أن يكون الفينيقيون إذن نزلوا بجزائر كناريا، أو بالعديد من هذه الجزر على الأقل، أي في التي هي أقرب لساحل القارة. ويذكر پْلين نقلا عن يوبا أن اثنتين من هذه الجزر كانتا تحملان اسم يونونْيا Junonia. فلربما أنهما كانتا مُكَرّستين ليونون الفينيقية، التي هي أسْطَرْطي. ولكن لابد أن القرطاجيين لم يؤسسوا مستعمرات في

3) Pans مخلوقات أسطورية، كان لها أقدام التيس وقرونه وشعره. وهي من رفاق باخوس – ديونيسوس... الخ.
Satyres معبودات إغريقية تملأ الغابات والجبال وتسبب الخوف والذعر للناس. وربما صاحبت هي أيضا باخوس وديونيسوس.

كناريا، إذ لم يخلفوا بها أي أثر، كما يظهر أن حضارتهم لم تحدث أي تأثير على الأهالي.

وتكلم ديودور الصقلي على جزيرة كبيرة واقعة في عرض المحيط، غربي ليبيا، وتبعد عنها بعدة أيام من السير البحري. ويقول إنها مسكن فاتن، أليق بالآلهة منه بالناس، وأن الجبال التي تغطي قسما من الجزيرة تكسوها غابات كثيفة، وأشجار الفاكهة المتنوعة جدا تنبت بها، وتنبع منها عيون ثرة ذات ماء عذب وصحي، وإن أنهارا صالحة للملاحة تخترق سهولا جميلة، حيث الأشجار من كل نوع تكون حدائق ترويها الجداول. أما الأهالي فيعيشون في رخاء، ويسكنون منازل حسنة البناء، أو يقضون الصيف في مآوي جميلة وسط البساتين. ويزودهم القنص بما يفوق حاجتهم من الصيد. وكذلك البحر فإنه يزودهم بكميات طائلة من السمك. وحيث إن الطقس معتدل دائما، فإن الأرض تنتج الفواكه أكثر السنة. وكان الفينيقيون من أهل قادس هم الذين اكتشفوا هذه الجزيرة. فقد كانوا يسيرون بمحاذاة ليبيا للتعرف على سواحلها، ولكن رياحا قوية دفعت بهم إلى الجزيرة. وقد أكثروا من الحديث عما رأوا، إلى حد أن الأثروريين الذين كانوا آنذاك أقوياء في البحر، فكروا في إرسال بعض المعمرين لهذه الأرض العجيبة. غير أن القرطاجيين لم يأذنوا لهم بذلك. ويضيف ديودور قائلا : ومع خشيتهم من أن يجتذب خصب الجزيرة كثيرا من مواطنيهم إلى مغادرة وطنهم، فإنهم كانوا يحرصون على أن يحتفظوا لأنفسهم بملجأ ممكن، في حالة ما إذا أصابتهم كارثة.

من المحتمل جدا أن هذه القصة مأخوذة من "تيمي"، مثلما أخذ عنه تقريبا جميع بداية الكتاب الخامس لديودور، الذي توجد فيه.

ولربما من تيمي أيضا صيغ فصل من مقال لأرِسْطو المزيّف، يعرف باسم De Mirabilibus auscultationibus، وإن كان لا يتطابق تماما مع ديودور : في البحر الذي يمتد خارج أعمدة هرقل، اكتشف القرطاجيون على مسافة عدة أيام جزيرة خالية مكسوة كلها بالغابات، وبها أنهار صالحة للملاحة، وأرض لها خصب عجيب. وكانوا كثيرا ما يذهبون إليها، بل إن بعضهم استوطنوها. غير أن الحكومة البونيقية منعت الناس من الذهاب لهذه الجزيرة، وهددتهم بالموت، وقتلت جميع الذين استوطنوا بها. وذلك خشية التعريف بها، وخوفا من أن يستولي عدد كبير من السكان على ثرواتها ويتلفوا ثروة قرطاجة.

رأى البعض على وجه من الاحتمال أن جزيرة "تيمي" هي ماديرا Madère. لكن يصعب جدا أن نعرف ما الصواب في التفاصيل المشكوك فيها جدا، والمذكورة في النصين اللذين أوردناهما. وربما يجب أن لا نحتفظ من هذا إلا بشيء واحد، هو أن القادِسيين ثم القرطاجيين زاروا ماديرا وزاروا حتى الجزيرة المجاورة لاشك، وهي بورْتوسانْتو Porto-Santo القريبة من مضيق جبل طارق. فمتى وصلها الفينيقيون لأول مرة ؟ لقد ألقي السؤال : هل أصداء اكتشافهم لم تصل إلى الإغريق منذ القرن الثامن أو قبله ؟ إذ لا يجب أن نعتبر من مبتدعات الخيال الجزائر المعروفة باسم جزائر السعداء Iles des bienheureux التي كانت - كما يقول هيزْيود Hesiode - تقع في أقصى الأرض على طول المحيط. أما الافتراض المتنازع فيه إلى حد كبير، فهو الاعتقاد بوجود جزر في الغرب هي مأوى

الأمواتِ السعداء. فقد انتشر هذا الاعتقاد بين شعوب مختلفة، من بينها المصريون والكِلْتيون Celtes. ولكن لا يظهر أنه اعتقاد يرجع إلى أصل من المعلومات الجغرافية.

إن قرطاجة لما أصبحت مهيمنة على مدخل المحيط، قصرت على ما يظهر همها على منع المزاحمين من الوصول لهذه الجزر. ومع ذلك، فلا يظهر أنها كانت منسية. فحول سنة 80 ق.م، كان بعض البحارة من الجنوب الإسباني، من قادِس على ما يحتمل، قد زاروها قبل ذلك بقليل، ومدحوا مناخها لسِرْطوريْوس Sertorius. وقد قيل إنه فكر في الالْتجاء إليها.

انتهى الجزء الأول

الفهرس

الجـزء الأول

مُلحق

رأيتُ أن أُطلع القارئ الكريم على المقابلات العربية للمفردات الفرنسية الواردة في هذا الجزء الأول. وقد حاولت ما أمكن أن أوفّق فيها إلى الصحيح السليم أو ما يقرب منه، علماً أن كثيراً منها لا يوجد في معاجمنا العربية. وللقارئ أن يستحسنها أو يصحّحها، والله الموفّق أولاً وأخيراً.

بقي أن أشير إلى مفردة «الباربار» التي كثيرا ما جاءت في ثنايا المجلدات الثمانية من الكتاب فأقول إن هذه المفردة استعملها اليونانيون أولاً للإشارة إلى من كان يتكلم في عهدهم لغة غير لغتهم. ثم جاء الرومانيون من بعدهم واستعملوها بنفس المعنى أولاً، ثم بمعنى يدل على التحقير والازدراء. فكل الأقوام يعدّون في نظرهم «باربارا» لأنهم لا يتميزون بصفات الانتماء إلى رومة، مع أن شعوباً كثيرة، قريبة أو بعيدة من رومة بلغت في التركيب الاجتماعي، ورغد العيش، والإبداع في الفنون وأدوات العمل ما يمكن تسميته بالحضارة.

مثال ذلك الشعب الكِلْتي Celte خصوصاً منه الكلتي الغالي أي الذي يسكن في بلاد الغال التي هي فرنسا اليوم. فقد عثر علماء الحفريات على آثار الكِلْتيين وظهرت كتابات في هذا الموضوع تبرز الكلتيين بوجه جديد غير الذي كان يراه الرومانيون.

مثال آخر هو جزيرة رودس Rhodes : لقد كانت الحضارة اليونانية مزدهرة في هذه الجزيرة التي تعدّها رومة تحديا لها في فنونها وتجارتها وعلمائها

خصوصا منهم أرخميدس Archimède. انقضت رومة على الجزيرة وخربتها وقتل أحد جنودها أرخميدس دون أن يدري من هو.

وأرادت رومة أن تخضع الفُرس أيام حكم الپارتيين Les Parthes (سنة 160 ق.م) فدفعت لذلك بجيش يقوده كراسّوس Crassus. واندحر هذا الجيش أمام الجيش الإيراني بقيادة سورينا Suréna في كارْ Carrhes (حرّان) في سنة 53 ق.م. وقتل في المعركة القائد الروماني كراسوس.

وعاودت رومة فعلها في عهد الساسانيين Sassanides الذي تلى عهد الپارتيين. وكانت الدولة الساسانية تسيطر على ما بين خراسان والرافدين في العراق. ودفعت رومة بجيشها لمحاربة الساسانيين، فنهض أقوى ملك الفرس انذاك، وهو شاهْپور (سابور) Chahpour بن أرْدَشير على رأس جيشه، وقتل بالتتابع ثلاثة قواد عسكريين رومانيين كان آخرهم الإمبراطور ڤاليرْيان الذي هُزم في معركة إديسّا Edesse، وأخذه الملك الإيراني شاهپور، وأبقاه سجيناً إلى أن توفي بعيداً عن وطنه.

هذا ونحن نعلم ما كانت عليه إيران من حضارة وتفنّن في البناء والزخرف والأكل، وإتقان لفنون الحرب لحماية حدودها وممتلكاتها.

لذلك ينبغي أن لا يزعجنا استعمال رومة والكاتبون عنها لكلمة «الباربار» التي يريدون الإشارة بها إلى شعوب شمال أفريقيا. وأضيف أني أكتب هذه المفردة محاطة بمزدوجتين «...» بمعنى : كما يقولون.

تبت بأسماء الحيوانات

Belette	ابن عرس
Bete Sauvage	وحش ضارٍ
Bos Curvidens	الثور ذو الأسنان المعقوفة
Bos Opisthonomus	الثور المتراجع أو المتقهقر
Bos Primigenius	الثور البدائي
Bubalus Antiquus	الثيتل العتيق
Buffle	الجاموس
Bovides	البقَريات
Cameleon	الحِرباء
Animal	حيوان
Animal Apprivoisé	حيوان مؤنس أو مستأنس
Animal Sauvage	حيوان متوحش
Antilopes	الظباء
Antilopes Addax	المهاة
Antilopes Bubal	الثيتل
Antilopes Mohor	غزال (المهر)
Antilopes Nanguer	غزال المغرب
Aspic	الصل (أفعى)
Basilic	الباسليق أو المكلة (أفعى)
Cheval Barbe	الحصان المغربي
Chèvre Egagre	ماعز بازن
Chevreuil	اليحمور
Daim (Cervulus)	الوعل الآدم
Dipode (Bipède)	ذات الرجلين
Dipsade	المعطشة (الأفعى)

Echinodermes	شائكات الجلد
Caracal	عناق الأرض
Céraste	الحية القرناء (الأفعى)
Cerf	الوعل
Cervidés	الوعليات
Chacal	الجقل (ابن آوى)
Chamau de Bactriane	جمل خراسان، أو جمل بسنامين
Chat ganté	السنور المرين
Chauve-Souris	الخفافيش
Chenille	اليسروع
Chenille Processionnaire	اليسروع الزاحف
Cheval Arabe	الحصان العربي
Gnou	النوة
Gorillas (Gorilles)	الغوريلات
Gorgones	الكركونات (ميثولوجيا)
Hippopotame	فرس النهر
Hyène	الضبع
Ibis	أبو منجل (طائر)
Ichneumon (Mangouste)	النمس
Lézard	الوزغة
Lynx	الوشق
Mollusques	الرخوانيات (الرخويات)
Ekhine	القنفذ
Elephant Atlanticus	الفيل الأطلنطي
Elephant Palaeindicus	الفيل الهندي العتيق
Encrines	الأنكرينات
Equidés	الفرسيات
Escargot	الحلزون
Félins	السنّوريات
Furet	ابن مقرض

Gazelle Dorcas	الغزال المعتاد
Genette	الزريقاء
Gerboise	اليربوع
Perdrix	الحجل
Phacochère	الخنزير أبو قرنين
Porc	الحلّوف (الخنزير الألوف)
Porc-Epic (Histrice)	الشيهم
Pygarg	عقاب البحر
Pythons	الثعابين
Race Arabe (mouton)	جنس الكباش العربية
Race Barbarine(mouton)	جنس الكباش البربرين
Race Berbere (mouton)	جنس الكباش البربرية
Rapaces	الكواسر، الجوارح
Renne	الأيل
Mouflon	تيس الجبل
Moule	الميدية (بلح البحر)
Mustélidés	السرعوبيات
Naja	الناشر (الشجاع) (الأفعى)
Nuée de Sauterelles	رجل الجراد
Oeufs de Sauterelles et de Poissons	السرأة (بيض الجراد والسمك)
Onagre	الأخدري (حمار)
Orix	الأرخ (ظبي)
Oryx Leucoryx	الوضيحي
Ovidés	الضائنة أو الضأنيات
Patelle	البطلينوس
Slougui	الكلب السلوقي
Suides	الخنزيريات
Tarentule	الرتيلاء
Terrier	الجحر، النافقاء
Tigre	الببر (الأسد الهندي)
Varan	الورل

Zèbre	حمار الزرد
Zébus	الجاموس ذو سنام
Zegeries	الزيجر
Reptiles	الزواحف
Sanglier	خنزير الغابة
Sauriens	العظاءات
Serval	البج (القط النمر والمتوحش)

ثبت بأسماء النباتات

Champignon	الفطر
Chêne kermes	السنديان
Chêne liège	الفرنان
Chêne vert (Yeuse)	البلوط
Chêne Zeen	الزان (من السنديانات)
Chénopodiacées	السرمقيات
Chiendent	عكرش – نجيل
Citrus	الستروس
Cultures légumières	غروس بقولية
Cyprès	السرو
Cyprès sauvage	سرو بري
Algues	الأشنة
Alfa	الحلفاء
Amandier	شجرة اللوز
Arbres fruitiers	أشجار الفاكهة
Armoise blanche	الشيح
Bois	خشب – عود
Bois	غابة – دغل
Boisé	حقل شجير
Bosquet	مشجرة
Broussaille	عكاشة
Broussailleux	عكش، متعكش
Bourgeons	البراعم
Cèdre	الأرز
Genévrier pistachier	سندور

Germes	النوابت
Graminées	النجيليات
Greffer	لقح
Herbes naturelles	كلأ طبيعي
Jujubier	السدرة، الزفزوف، عناب
Légumineuses	البقليات
Loupe	العجرة، العقدة
Massif d'arbres	الأجمة
Mauvaises herbes	نبات فضولي
Millet	البشنة
Monoculture	زراعة أحادية
Mousses	الاشنة
Olivier	شجرة الزيتون
Drinn	الدرين
Duvet d'arbres	غفار الأشجار
Ecorce	لحاف الشجرة
Feuille, Feuillage	ورق الأشجار
Figuier	شجرة التين
Folle avoine	خرطال بري
Forêt	غابة
Frêne	الدردار
Guettaf	القطف
Gelée	الصقيع
Genet	الرتيم
Genévrier	السندور
Genévrier de Phénicie (de Syrie)	سندور فينيقيا أو سندور الشام
Sorgho	الذرة البيضاء
Souche	رجل الشجرة
Sous-bois	خيس
Terreaux	الدبالات

Térébinthe	البطم
Tige	ساق النبات، ج أسوق وسيقان
Thuya	عرعر، عفصية، سندروس
Vigne	كرم
Olivier sauvage, Oléastre	زيتون بري
Osier	خيزران
Orme	المران
Palmiers	نخل
Palmiers nain (*doum*)	الدوم
Peuplier	صفصاف
Pin d'Alep	صنوبر
Pin maritime	صنوبر بحري
Pin noir	صنوبر أسود
Pistachier lentisque	الدرو
Polyculture	زراعة تعددية
Saltus	منابت
Sapin	الشوح

تبت بمصطلحات ما قبل التاريخ

Broyeur	ساحوق – سواحيق
Burin	منقش
Campement	ربع
Caverne	كهف
Chasseurs	قناصون
Chelleen	الشلي
Ciseaux	إزميل
Coins	إسفين
Concave	مقعر
Coprolithe	روث متحجر (وألة)
Coup de poing	فأس
Culture à houe	الزراعة بالمقلاب
Abris sous roches	مأوى عند الصخور
	لجأ – ج ألجاء
Acheleen	آشولي
Age du renne	عصر الأيل أو عصر الرنة
Aiguilles	إبرة
Ailerons	جنيحات
Atelier	مصنع
Armes	أسلحة
Aurignacien	الأورنياسي
Barbelures	الأواشر
Bols	زلفات (طسوس)
Forêt	مشعب – مشاعب

Forme d'amande	لوزية الشكل
Fusaiole ou peson	ثقالة المغزل
Fusiforme	مغزلي الشكل
Galet ou Rognon	الفهر
Gétulienne	جيتولية
Gourdin	هراوة
Grattoir	محكة
Gravures rupestres	نقوش أو رسوم صخرية
Grès	حجر رملي
Grottes	مغارة
Cuvette	جفنة - جفان
Disque	قرص
Eclat	شظية - شظايا
Ecuelle	قصعة - قصاع
Eminence	مرتفع
En boudin	على شكل ذراع
Encoches	حزوز - حز
Escargotières	محلزات أو رماديات
Evasé	مفلطح
Facettes	وجيهات
Faune chaude	حيوانات دفيئة
Feu libre	نار عارية
Feuille de laurier, en...	على شكل ورقة الدفلى
Mésolithique	العصر الحجري الوسيط
Molette	مدقة
Motif	وشم وشوم (وشمة-وشمات)
Moustérien	المستيري
Néolithique	العصر الحجري الجديد

Nuclei	نواة - نوى
Ophite	حجر الحية
Os Poli	عظم صقيل
Outils de pierre	أدوات حجرية
Paleolithique	العصر الحجري القديم
Paleolithique inférieur	العصر الحجري القديم الأسفل
Grossière	غليظة الصنع (خشنة)
Hache	مقدة (ساطور)
Hache polie	مقدة صقيلة
Hachures	ترقينات
Hematite	المغرة الحمراء
Industrie	صناعة
Lame	شفرة
Lissoir	مدلكة
Magdalenien	المجدلاني
Manche	نصاب
Marmites	قدور
Marteaux	مطرقات
Massue	دبوس
Pic	منكاش
Pique	حربة – حراب
Pioche	معول
Plein air	الفضاء (الهواء الطلق)
Poignard	خنجر
Poinçon	مثقب
Pointe	قرنة، رأس، حد
Pointe mousse	رأس غليظ
Poterie	خزف، فخار

Préhistoire	ما قبل التاريخ
Projectiles	مقدوفات، قذائف
Quartzite	الكرزيت
Râcloir	مكشطة
Paléolithique Moyen	العصر الحجري القديم الأوسط
Paléolithique Supérieur	العصر الحجري القديم الأعلى
Pasteurs	رعاة
Pédoncule	سيلان
Peignes	أمشاط
Perçoir	مخراق
Percuteur	صادمة، صوادم
Peson ou fusaiole	ثقالة المغزل
Pétrosilex	بتروسيلكس، أي (صخر طباشيري مشرب بالظر)
Peuplade	عشيرة
Superposition	تراكب
Tessons	شقوف
Tranchet	مقطعة (قطّاع)
Trapéziforme	شكل شبه المنحرف
Travailler	عالج (أنجز)
Troglodysme	الحياة في الكهوف
Tumulus	تلة جنائزية
Type	نموذج (طراز- نوع)
Villages lacustres	قرى مائية
Refroidissement du climat	عودة المناخ للبرودة
Retouchoir	مشذب
Rognon ou glet	فهر

Sagaie	رمح
Scorie	جفاء معدني
Sedentaires	مستقرون
Silex	ظر، صوان
Solutrien	سولتري
Sommaire	بسيط
Station	محطة
Station à ciel ouvert	محطة في العراء

انتهى